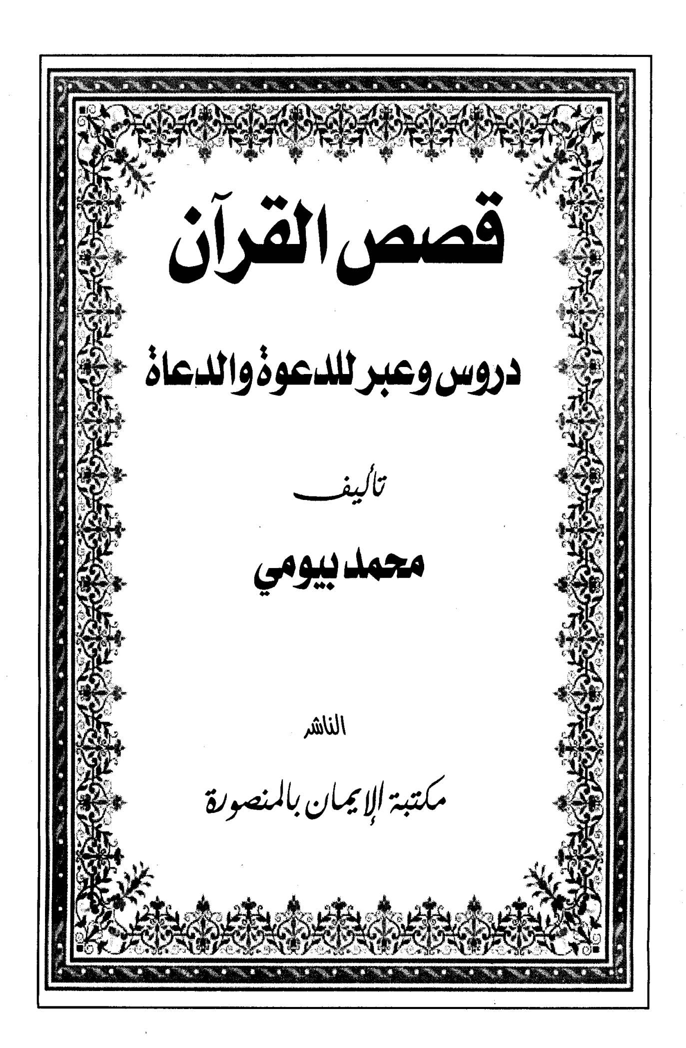


قصص القرآن

دروس وعبر للدعوة والدعاة

تأليف

محمد بيومي

الناشر

مكتبة الإيمان بالمنصورة

بطاقة الفهرسة

فهرسة الهيئة المصرية العامة للكتاب .

بيومي ، محمد .

قصص القرآن : دروس و عبر للدعوة و الدعاة / تأليف محمد بيومي . ـ ط١ . ـ المنصورة : مكتبة الإيمان ، ٢٠٠٦ .

٤٦٤ ص ، ١٧x٢٤سم

تدمك x ـ 330 ـ 290 ـ 977

١ـ قصص القرآن .

٢٢٩,٩٠١

رقم الإيداع : ٢٠٠٦/١٠١٩٩

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمـد لله، نحمده ونستـعينه ونستغـفره، ونعوذ بالله من شـرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

[آل عمران: ١٠٢]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾

[النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ⟨٧٠⟩ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١]

وبعد

فقـد ذكر الله لنا فى كـتابه الكريم بعضـاً من قصص الأمم السـابقة وذلك للعـبرة والعظة واستخـلاص الدروس المفيدة لنا ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

فليست القصـة فى القرآن الكريم مجرد تاريخ يحكى عن السـابقين، وسوف نذكر بعون الله تعالى ـ الفوائد والعبر من قصص القرآن الكريم أثناء تناولنا لهذه القصص.

وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المؤلف

الحكمة من تكرار القصص فى القرآن الكريم

قد تتكرر القصة الواحدة فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع، «وتعرض فى صور مختلفة فى التقديم والتأخير، والإيجاز والإطناب، وما شابه ذلك. ومن حكمة هذا:

١ ـ بيان بلاغة القرآن فى أعلى مراتبها، فمن خصائص البلاغة إبراز المعنى الواحد فى صور مختلفة، والقصة المتكررة ترد فى كل موضع بأسلوب يتمايز عن الآخر، وتُصاغ فى قالب غير القالب، ولا يمل الإنسان من تكرارها، بل تتجدد فى نفسه معان لا تحصل له بقراءتها فى المواضع الأخرى.

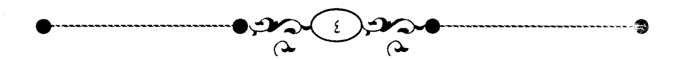
٢ ـ قوة الإعجاز ـ فإيراد المعنى الواحد فى صور متعددة مع عجز العرب عن الإتيان بصورة منها أبلغ فى التحدى.

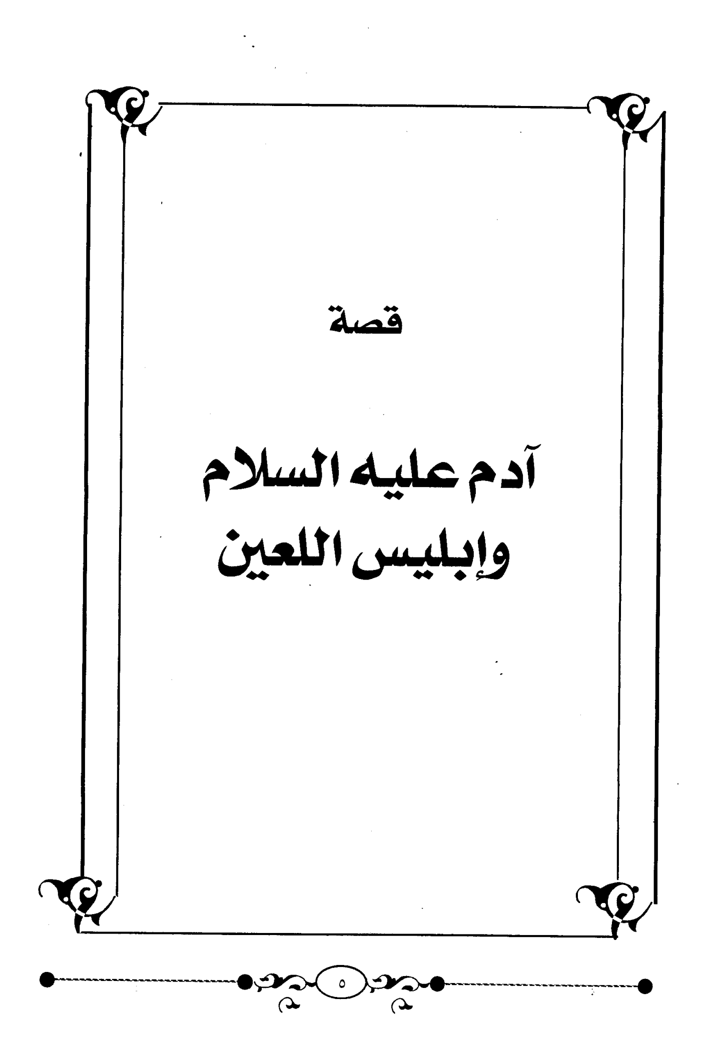
٣ ـ الاهتمام بشأن القصة لتمكين عبرها فى النفس، فإن التكرار من طرق التأكيد وأمارات الاهتمام. كما هو الحال فى قصة موسى مع فرعون؛ لأنها تمثل الصراع بين الحق والباطل أتم تمثيل. مع أن القصة لا تكرر فى السورة الواحدة مهما كثر تكرارها.

٤ ـ اختلاف الغاية التى تُساق من أجلها القصة ـ فتذكر بعض معانيها الوافية بالغرض فى مقام، وتبرز معان أخرى فى سائر المقامات حسب اختلاف مقتضيات الأحوال[1].

●●●●●

(١) «مباحث فى علوم القرآن» الشيخ مناع القطان، ص ٣٠٣، ٣٠٤.





قصة

آدم عليه السلام وإبليس اللعين

قصة خلق آدم عليه السلام[1] وذريته

لمّا أراد الله تعالى خلق آدم عليه السلام أخبر ملائكته بذلك.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ . وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ . وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾. [البقرة: ٣٠ ـ ٣٤].

إيضاحات حول الآيات:

أولاً: آدم عليه السلام ليس خليفة الله فى الأرض

بعض الناس يقولون: « إن الإنسان خليفة الله فى الأرض»، ويستدلون لقولهم هذا بقول الله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾، وهذا استدلال خاطئ بالآية الكريمة؛ وذلك أن الخليفة هو من يقوم عن المخلوف عنه فى حال غيابه أو موته، وهذا المعنى لا يتحقق فى حق الله قطعاً. بل الصواب أن الله هو الذى يخلف الإنسان إذا غاب كما كان يقول النبى ﷺ فى دعاء السفر: «اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل»[2]، ولمَّا أخبر النبى ﷺ أصحابه عن المسيح الدجال قال

---

(١) آدم اسم سريانى وهو عند أهل الكتاب آدام بإشباع فتحة الدال بوزن خانام، وامتنع صرفه للعجمية والعلمية. وقال الثعلبى: التراب بالعبرانية آدام فسمى آدم به، وحذفت الألف الثانية، وقيل: هو عربى جزم به الجوهرى ,والجواليقى, قيل:هو بوزن أفعل من الأدمة، وقيل: من الأديم لأنه خلق من أديم الأرض. وهذا عن ابن عباس، ووجهوه بأنه يكون كأعين ومنع الصرف للوزن والعلمية ، وقيل :هو من أدمت بين الشيئين إذا خلطت بينهما لأنه كان ماء وطيناً فخلطا جميعاً. « فتح البارى» (٦/ ٤١٩) قال القرطبى : الصحيح أنه مشتق من أديم الأرض. قال سعيد بن جبير: إنما سمى آدم لأنه خلق من أديم الأرض، وإنما سمى إنساناً لأنه نسى « تفسير القرطبى» (١/ ٢٣٩).

(٢) رواه مسلم (٣٢١٧) وأبو داود (٢٥٩٩) والترمذى (٣٩٤٤٧) والنسائى فى «الكبرى» كما فى «التحفة» (١٦/٦) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه.



لهم: «إن خرج وأنا فيكم فأنا حجيجه وإن يخـرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه والله خليفتي على كل مسلم »(١).

ولما ولّى أبو بكر الصديق رضى الله عنه الخـلافة قال له بعض الصحـابة: يا خليفة الله!!, فقال أبو بكر رضى الله عنه: بل يا خليفة رسول الله وحسبكم ذلك.

وأما معنى قوله تعالى: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾، فقد قال ابن كـثير رحمه الله: « أى :قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قـرن، وجيلاً بعد جيل كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ﴾ [سورة الأنعام: ١٦٥] وقال: ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾ [سورة النمل: ٦٢] وقال: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [سورة الزخـرف: ٦٠] وقال: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ [سورة الأعراف: ١٦٩]. . وليس المراد ههنا بالخليفة آدم عليه السلام فقط كما يقوله طائفة من المفسرين » (٢).

ثانياً: الملائكة لم تعترض على خلق الله تعالى لآدم وذريته.

قد يتـبادر إلى الأذهان أن الملائكة قد اعـترضت على خلق الله تعـالى لآدم وذريته وذلك في قولها: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَـدِّسُ لَكَ﴾ وليس هذا القـول من الملائـكة من باب الاعـتـراض على الله تعـالى ـ فحاشـاهم أن يفعلوا ذلك ـ وقد قال الله تعـالى فى حقهم: ﴿ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء :٢٧] قال ابن كثير: أى لا يتقدمون بين يديه بأمر ولا يخالفونه فيما أمرهم به بل يبادرون إلى فعله(٣).

وأما معنى قول الملائكة :﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ....﴾ الآية.

فقد قـال ابن كثيـر رحمه الله: « وقول الملائكة هذا ليس على وجـه الاعتراض على الله، ولا على وجه الحسد لبنى آدم كـما قد يتوهمه بعض المفسـرين، وقد وصفهم الله تعـالى: بأنهم لا يسبـقونه بالقـول، أى لا يسألونه شـيئـاً لم يأذن لهم فيـه، وههنا لما أعلمهم بأنه سيخلق فى الأرض خلقـاً قال قتادة: وقد تقدم إليهم أنهم يفـسدون فيها. فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ الآية.

---

(١) رواه مسلم (٧٢٣٠) وأحمد(٤/ ١٨١ ,١٨٢) وأبو داود(٤٣٢١) والترمذى (٢٢٤٠) والنسائى فى «فضائل القرآن » (ص٤٩) وفى «اليوم والليلة» ص ٥٢٧ وابن ماجه (٤٠٧٥).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٦٩).　　(٣) المرجع السابق (٣/ ١٨١).



وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة فى ذلك يقولون: يا ربنا ما الحكمة من خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد فى الأرض ويسفك الدماء؟، فإن كان المراد عبادتك؛ فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك، أى نصلى لك. . أى: ولا يصدر منا شيء من ذلك وهلا وقع الاقتصار علينا؟ قال الله تعالى مجيباً لهم عن هذا السؤال: ﴿ **إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾، أى أعلم من المصلحة الراجحة فى خلق هذا الصنف على المفاسد التى ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم، فإنى سأجعل فيهم الأنبياء وأرسل فيهم الرسل، ويوجد منهم الصديقون والشهداء والصالحون والعباد والزهاد والأولياء والأبرار والمقربون والعلماء العاملون والخاشعون والمحبون له تبارك وتعالى، المتبعون رسله صلوات الله وسلامه عليهم»[1].

ثالثاً: كيف عرفت الملائكة أن بنى آدم سيفسدون فى الأرض؟

قال القاسمى رحمه الله: فإن قلت: من أين عرف الملائكة ذلك حتى تعجبوا منه، وإنما هو غيب؟ أجيب: بأنهم عرفوه إما بعلم خاص[2]، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية. فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف ﴿**مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ**﴾ [الحجر: ٢٦]، أو فهموا من «الخليفة» أنه الذى يفصل بين الناس ما يقع بينهم من المظالم ويردعهم عن المحارم والمآثم.

قال العلامة ابن برهان الدين البقاعى فى تفسيره: وما يقال: من أنه كان قبل آدم عليه السلام من الأرض خلقٌ يعصون، قاس عليهم الملائكةُ حال آدم عليه السلام كلام لا أصل له. بل آدم أول ساكنيها بنفسه . انتهى[3].

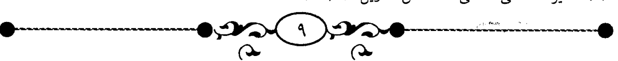
رابعاً: أيهما أفضل الملائكة، أم بنو آدم ؟!

أراد الله عزّ وجلّ إظهار شرف آدم عليه السلام لملائكته بعدما قالت: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ**﴾ فقال تعالى: ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ**﴾.

(١) المرجع السابق(١/ ٦٩)

(٢) أى أن الله قد أعلم الملائكة بما سيقع من بنى آدم من الإفساد فى الأرض وهذا قول قتادة. وغيره.

(٣) تفسير القاسمى المسمى « محاسن التأويل» (٢/ ٩٦).



قال ابن كثير رحمه الله: « هذا مقام ذَكَرَ الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة بما اختصه من علم أسماء كل شيء دونهم، وهذا كان بعد سجودهم له، وإنما قدم هذا الفضل على ذاك؛ لمناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليفة حين سألوا عن ذلك فأخبرهم تعالى بأنه يعلم ما لا يعلمون؛ ولهذا ذكر الله هذا المقام عقيب هذا ليبين لهم شرف آدم بما فُضِّل به عليهم في العلم فقال تعالى: ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا**﴾[1]

قال القرطبي: اختلف العلماء في هذا الباب أيما أفضل الملائكة أم بنو آدم؟

على قولين فذهب قوم إلى أن الرسل من البشر أفضل من الرسل من الملائكة. والأولياء من البشر أفضل من الأولياء من الملائكة. وذهب آخرون إلى أن الملأ الأعلى أفضل، واحتج من فضَّل الملائكة بأنهم: ﴿ **بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ** ﴾[سورة الأنبياء: ٢٦، ٢٧]، ﴿ **لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [سورة التحريم: ٦]، وقوله: ﴿ **لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ** ﴾ [سورة النساء: ١٧٢]، وقوله: ﴿ **قُل لا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ** ﴾[سورة الأنعام: ٥٠] وفي البخاري يقول الله عزوجل: « **من ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم**» وهذا نص واحتج من فضل بني آدم بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ**﴾ [سورة البينة: ٧] بالهمز من برأ الله الخلق، وقوله عليه السلام: «**إن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم**» الحديث أخرجه أبو داود[2]، وبما جاء في أحاديث من أن الله تعالى يباهي بأهل عرفات الملائكة، ولا يباهي إلا بالأفضل والله أعلم.

وقال بعض العلماء: « ولا طريق إلى القطع بأن الأنبياء أفضل من الملائكة، ولا القطع بأن الملائكة خير منهم؛ لأن طريق ذلك خبر الله تعالى، وخبر رسوله، أو إجماع الأمة وليس هاهنا شيء من ذلك » [3] أ.هـ

وقد ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية إلى: أن صالحي البشر أفضل من الملائكة[4].

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٧٢ - ٧٣).

(٢) حسن. رواه أبو داود (٣٦٤١) وأحمد (٥/١٩٦) والترمذي (٢٦٨٢) وابن ماجه (٢٢٣) والدارمي (١/٢٤٩) وابن حبان (٨٨ - إحسان) والبغوي (١٢٩) وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (ص٣٧، ٣٨، ٤١) والطحاوي في «مشكل الآثار»(١/٤٢٩).

(٣) « تفسير القرطبي» (١/٤٢٧) ط، الريان. (٤) انظر « مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٤/ ٣٤٣ ٣٩٢).

قلت: وبما أن هذه المسألة لم يرد فيها نص قاطع يحسم الخلاف فيها كما قال القرطبى، فإن الإمساك عنها أولى من الخوض فيها، ولا سيما أنها مسألة لا يتوقف عليها عمل بالنسبة للمسلم والله أعلم.

وهذا ما ذهب إليه شارح الطحاوية فقد قال: « وقد تكلم الناس فى المفاضلة بين الملائكة وصالحى البشر، ويُنسب إلى أهل السنة تفضيل صالحى البشر والأنبياء فقط على الملائكة، وإلى المعتزلة تفضيل الملائكة. وأتباع الأشعرى على قولين: منهم من يفضل الأنبياء والأولياء، ومنهم من يقف ولا يقطع فى ذلك قولاً.

وحكى ذلك عن غيرهم من أهل السنة وبعض الصوفية. وقالت الشيعة[1]: إن جميع الأئمة أفضل من جميع الملائكة. ومن الناس من فصلَّ تفصيلاً آخر ولم يقل أحد ممن له قول يؤثر. إن الملائكة أفضل من بعض الأنبياء دون بعض. وكنت ترددت فى الكلام على هذه المسألة لقلة ثمرتها و « **من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»[2].

والشيخ رحمه الله لم يتعرض إلى هذه المسألة بنفى ولا إثبات، ولعله يكون قد ترك الكلام فيها قصداً، فإن الإمام أبا حنيفة رضى الله عنه وقف فى الجواب عنها على ما ذكره فى «مآل الفتاوى » [3] فإنه ذكر مسائل لم يقطع أبو حنيفة فيها بجواب وعدَّ منها: التفضيل بين الملائكة والأنبياء وهذا هو الحق، فإن الواجب علينا الإيمان بالملائكة والنبيين وليس علينا أن نعتقد أى الطريقين أفضل فإن هذا لو كان من الواجب لبيّن لنا نصاً وقد قال تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾ [المائدة :٣] ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا**﴾ [مريم: ٦٤].. فالسكوت عن الكلام فى هذه المسألة نفياً وإثباتاً والحالة هذه أولى»[4].

وبعد أن ذكر شارح الطحاوية أدلة المتنازعين فى التفضيل، قال: « وحاصل الكلام: أن هذه المسألة من فضول المسائل، ولهذا لم يتعرض لها كثير من أهل الأصول، وتوقف

---

(١) هم الإمامية الاثنا عشرية، ويعرفون بالروافض وهى طائفة أخبث من اليهود والنصارى فهم يرفعون أئمتهم الاثنى عشر إلى مرتبة الألوهية، ولذا قالوا: بأفضليتهم على الملائكة.

(٢) **صحيح**. رواه أحمد وغيره.

(٣) « مآل الفتاوى» - فى كشف الظنون: أنه للإمام ناصر الدين السمرقندى الحنفى، أتمة فى شعبان سنة ٥٤٩هـ.

(٤) «شرح العقيدة الطحاوية» (ص٣٠١،٣٠٢) ط، المكتب الإسلامى.

أبو حنيفة رضى الله عنه فى الجواب عنها كما تقدم والله أعلم بالصواب»[1].

خامساً: معنى سجود الملائكة لآدم عليه السلام

سجود الملائكة لآدم عليه السلام كان بأمر الله تعالى لهم، وهذا السجود كان إكراماً من الله لآدم عليه السلام، وليس سجود عبادة. وقد ذكر بعض أهل العلم أقوالاً أخرى فى معنى سجود الملائكة لآدم عليه السلام، ولكن هذه الأقوال كلها مردودة والراجح ما ذكرنا فى معنى السجود.

قال الألوسى رحمه الله: « السجود فى الأصل تذلل مع انخفاض بانحناء وغيره، وفى الشرع: وضع الجبهة على قصد العبادة ـ وفى المعنى المأمور به هنا خلاف ـ فقيل: المعنى الشرعى، والسجود له فى الحقيقة هو الله تعالى ـ وآدم إما قِبلة أو سبب ـ واعتُرض بأنه لو كان كذلك ما امتنع إبليس، وبأنه لا يدل على تفضيله عليه السلام عليهم.

وقوله تعالى: ﴿ **أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ** ﴾ [سورة الإسراء: ٦٢] يدل عليه ـ ألا ترى أن الكعبة ليست باكرم ممن سجد إليها ، وأجيب بالتباس الأمر على إبليس، وبأن التكريم يجعله جهة لهذه العبادة دونهم ولا يخفى ما فيه من الدلالة على عظمة الشأن، كما فى جعل الكعبة قبلة من بين سائر الأماكن، ومن الناس من جوّز كون المسجود له آدم عليه السلام حقيقة مدعياً أن السجود للمخلوق إنما منع فى شرعنا ـ وفيه أن السجود الشرعى عبادة، وعبادةُ غيره سبحانه شرك محرم فى جميع الأديان والأزمان، ولا أراها حلّت فى عصر من الأعصار.

وقيل: المعنى اللغوى، ولم يكن فيه وضع الجباه، بل كان مجرد تذلل وانقياد، فاللام إما باقية على ظاهرها، وإما بمعنى إلى، مثلها فى قول حسان رضى الله عنه:

أليس أول من صلى لقبلتكم ... وأعرف الناس بالقرآن والسنن

أو للسببية مثلها فى قوله تعالى: ﴿**أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ**﴾ [سورة الإسراء: ٧٨] وحكمة الأمر بالسجود إظهار الاعتراف بفضله عليه السلام[2].

قال ابن كثير رحمه الله: « قال قتادة فى قوله تعالى: ﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا**

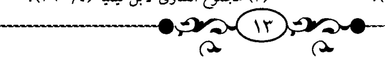
(١) « شرح العقيدة الطحاوية» (ص٣١١).
(٢) « تفسير روح المعانى» للألوسى (١/ ٢٢٨، ٢٢٩).

لآدم﴾ فكانت الطاعة لله والسجدة لآدم أكرم الله آدم أن أسجد له ملائكته.

وقال بعض الناس: كان هذا سجود تحية وسلام وإكرام كما قال تعالى: **﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾**[سورة يوسف: ١٠٠] وقد كان هذا مشروعاً فى الأمم الماضية ولكنه نسخ فى ملتنا. قال معاذ: قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لأساقفتهم وعلمائهم فأنت يا رسول الله أحق أن يُسجد لك فقال« **لا: لو كنت آمراً بشراً أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها**»(١).

ورجحه الرازى. وقال بعضهم:« بل كانت السجدة لله وآدم قبلة فيها كما قال تعالى: **﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾**[سورة الإسراء: ٧٨] وفى هذا التنظير نظر، والأظهر أن القول الأول أولى والسجدة لآدم إكراماً وإعظاماً واحتراماً وسلاماً وهى طاعة لله عزوجل؛ لأنها امتثال لأمره تعالى. وقد قواه الرازى فى تفسيره وضعف ما عداه من القولين الآخرين وهما كونه جُعل قبلة إذ لا يظهر فيه شرف، والآخر أن المراد بالسجود الخضوع لا الانحناء ووضع الجبهة على الأرض وهو ضعيف كما قال»(٢).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:« وأما السجود فشريعة من الشرائع، إذ أمرنا الله تعالى أن نسجد له ولو أمرنا أن نسجد لأحد من خلقه غيره لسجدنا لذلك الغير، طاعة لله عزوجل. إذ أحب أن نعظم من سجدنا له، ولو لم يفرض علينا السجود لم يجب البتة فعله، فسجود الملائكة لآدم عبادة لله وطاعة له، وقربة يتقربون بها إليه، وهو لآدم تشريف وتكريم وتعظيم »(٣).



سادساً: إبليس اللعين ليس من الملائكة:

ذهب البعض إلى أن إبليس كان من الملائكة، واستدلوا على ذلك: بأن الله قد استثناه من الملائكة فى قوله:﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر﴾**، وذكر بعضهم أن إبليس كان طاووس الملائكة، وأنه كان من أفضل الملائكة، ذوى الأجنحة الأربعة وكان من أشراف الملائكة، وأنه كان من أفضل صنف

---

(١) حسن. رواه أحمد (٤/ ٣٨١) وابن ماجه (١٨٥٣) وابن حبان (١٢٩٠ ـ موارد) والحاكم (٤/ ١٧٢) والبيهقى فى «السنن» (٧/ ٢٩٢).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٧٧، ٧٨).

(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٤/ ٣٦٠).

من الملائكة يقال لهم الجنة، وكان من أشد الملائكة اجتهاداً وأكثرهم علماً وكان اسمه عزازيل ثم إبلس بعد إلى آخر ما ذكروا.

والصواب: أن إبليس ـ لعنه الله ـ لم يكن من الملائكة قط، وذلك للنصوص المصرحة بأصل خلقته وأنه خلق من نار، وأن الملائكة خلقت من نور، فعن عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ قال: « **خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من نار وخلق آدم مما وصف لكم**»(1). وقال تعالى: **﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾** [الكهف: ٥٠]، ففى هذه الآية بين الله عزوجل أن إبليس من الجن وليس من الملائكة.

وقال الحسن البصرى: ما كان إبليس من الملائكة؛ طرفة عين قط وإنه لأصل الجن كما أن آدم أصل الإنس.

وقال الزهرى: إبليس من الجن وهو أبو الجن، كما أن آدم من الناس وهو أبو الناس.

وأما استثناء إبليس من عموم الملائكة؛ فذلك لأن الأمر بالسجود كان موجهاً إلى الملائكة والجن، وإنما جاء القرآن بذكر الملائكة فقط اكتفاء بذلك الأشرف وذلك كما تقول: سار خلف نعش الزعيم الوزراء والأمراء والكبراء، مع أن هذا لا ينفى أنه سار خلفه طبقات العمال والفلاحين والتلاميذ.

وذهب شيخ الإسلام ابن تيمية إلى أن إبليس كان من الملائكة باعتبار صورته وليس منهم باعتبار أصله ولا باعتبار مثاله(2).

وأما حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه والذى فيه «فنظر رسول الله ﷺ إلى جبريل وهو يبكى فقال: تبكى يا جبريل وأنت من الله بالمكان الذى أنت به، فقال: ومالى لا أبكى أنا أحق بالبكاء لعلى ابتلى بما ابتلى به إبليس فقد كان من الملائكة وما أدرى لعلى ابتلى بمثل ما ابتلى به هاروت وماروت. قال فبكى رسول الله ﷺ وبكى جبريل عليه السلام...» إلى آخر الحديث، فهذا حديث ضعيف لا تقوم به حجة، فقد قال الهيثمى فى «مجمع الزوائد» (١/٣٨٧): رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه سلام الطويل وهو مجمع على ضعفه.

---

(1) رواه مسلم

(2) انظر «مجموع الفتاوى» (٤/٣٤٦)

سبب امتناع إبليس اللعين عن السجود لآدم عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١ ـ ١٣].

اعترض إبليس اللعين على أمر الله له بالسجود لآدم عليه السلام.

وعلل عدم سجوده بأن العنصر الذى خلق منه وهو النار أشرف من العنصر الذى خلق منه آدم وهو الطين: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[سورة الأعراف: ١٢، وسورة ص: ٧٦] «فنظر اللعين إلى أصل العنصر ولم ينظر إلى التشريف العظيم وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه وقاس قياساً خاسراً فى مقابلة نص [(١)].

«ولا شك أن فى هذا ضروباً من الجهالة وأنواعاً من الفسوق والعصيان تتجلى لك فيما يلى:

(أ) اعتراضه على مولاه وخالقه بما تضمنه جوابه

(ب) احتجاجه عليه بما يؤيديه به اعتراضه، والمؤمن المذعن لأمر ربه يعلم أن لله الحجة البالغة، الكاملة، فيما يفعل ويأمر وينهى.

(جـ) إنه جعل امتثال الأمر موقوفاً على استحسانه له وموافقته لهواه، وهذا رفض لطاعة الخالق وترفع عن مرتبة العبودية والمرءوس فى الدنيا إذا لم يطع أمر الرئيس إلا فيما يوافق هواه، صار الأمر فوضى والعاقبة وخيمة، فلا يصلح عمل ولا يتم الفوز والنجاح[(٢)].

قال القرطبى: قال ابن عباس والحسن، وابن سيرين: أول من قاس إبليس فأخطأ القياس: فمن قاس الدين برأيه قرنه الله مع إبليس. قال ابن سيرين: وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس. وقالت الحكماء: أخطأ عدو الله من حيث فضَّل النار على الطين، وإن كانا فى درجة واحدة من حيث هى جماد مخلوق. فإن الطين أفضل من النار من وجوه أربعة:

أحدها ـ أن من جوهر الطين الرزانة والسكون، والوقار والأناة، والحلم، والحياء

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٤١) ط مكتبة الإيمان . المنصورة. (٢) « تفسير المراغى» (٨/ ١١١ ـ ١١٢)..

والصبر، وذلك هو الداعى لآدم عليه السلام بعد السعادة التى سبقت له إلى التوبة والتواضع والتضرع، فأورثه المغفرة والاجتباء والهداية. ومن جوهر النار الخفة، والطيش، والحدة، والارتفاع، والاضطراب. وذلك هو الداعى لإبليس بعد الشقاوة التى سبقت له إلى الاستكبار والإصرار، فأورثه الهلاك والعذاب واللعنة والشقاء، قاله القفال.

الثانى - أن الخبر ناطق بأن تراب الجنة مسك أذفر، ولم ينطق الخبر بأن فى الجنة ناراً وأن فى النار تراباً.

والثالث - أن النار سبب العذاب، وهى عذاب الله لأعدائه؛ وليس التراب سببا للعذاب.

الرابع - أن الطين مستغنٍ عن النار، والنار محتاجة إلى المكان ومكانها التراب.

قلت - ويحتمل قولاً خامساً وهو أن التراب مسجد وطهور؛ كما جاء فى صحيح الحديث. والنار تخويف وعذاب؛ كما قال تعالى ﴿ **ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ** ﴾ [سورة الزمر: ١٦] (١).

و«لو سلمنا تسليماً جدليًّا أن النار خير من الطين، فإنه لا يلزم من ذلك أن إبليس خير من آدم؛ لأن شرف الأصل لا يقتضى شرف الفرع، بل قد يكون الأصل رفيعاً والفرع وضيعاً، كما قال الشاعر:

إذا افتخرت بآباءٍ لهم شرف - قلنا صدقت ولكن بئس ما ولدوا

وقال الاخر:

وما ينفع الأصل من هاشم إذا كانت النفس من باهلة(٢).

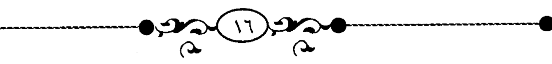
« وخيرية المواد بعضها على بعض أمور اعتبارية تختلف فيها الآراء ولا تثبت بالبرهان، إلى أن كثيراً من المواد النفيسة خسيسة الأصل، ألا ترى أن أصل المسك الدم، والماس من (الكربون) الذى هو أصل الفحم، إلى أن الملائكة خلقوا من النور، وهو قد خلق من النار، والنور خير من النار، وهم قد سجدوا امتثالاً لأمر ربهم (٣).

عواقب تمرد إبليس اللعين على أمر الله:

لمّا تمرد إبليس اللعين على أمر الله له بالسجود لآدم كان جزاؤه أنْ قال الله تعالى

(١) « تفسير القرطبى » (٧/ ١٧١).

(٢) « أضواء البيان» الشنقيطى (١/ ٣٤) ط دار الفكر (٣) « تفسير المراغى» (٨/ ١١٢)



له : ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾[سورة الأعراف: ١٣].

قال ابن كثير: وقوله تعالى لإبليس ﴿**اهبط منها**﴾ و﴿**اخرج منها**﴾ دليل على أنه كان فى السماء، فأمر بالهبوط منها، والخروج من المنزلة والمكانة التى كان قد نالها بعبادته وتشبهه بالملائكة فى الطاعة والعبادة ، ثم سلب ذلك بكبره وحسده ومخالفته لربه، فأهبط إلى الأرض مذءوماً مدحوراً[١].

قال الشوكانى: أى اهبط من السماء التى هى محل المطيعين من الملائكة الذين لا يعصون الله فيما أمرهم إلى الأرض التى هى مقر من يعصى ويطيع، فإن السماء لا تصلح لمن يتكبر ويعصى أمر ربه مثلك، ولهذا قال: ﴿**فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ**﴾. ومن التفاسير الباطلة ما قيل: إن معنى ﴿ **اهْبِطْ مِنْهَا**﴾، أى اخرج من صورتك النارية التى افتخرت بها صورة مشوهة مظلمة. وقيل المراد: هبوطه من الجنة، وقيل: من زمرة الملائكة، وجملة ﴿**فَاخْرُجْ**﴾ لتأكيد الأمر بالهبوط، وجملة ﴿**انك من الصاغرين**﴾ تعليل للأمر، أى أنك من أهل الصغار والهوان على الله، وعلى صالحى عباده، وهكذا كل من تردّى برداء الاستكبار عوقب بلبس رداء الهوان والصغار، ومن لبس رداء التواضع ألبسه الله رداء الترفع [٢].

وقال ابن عطية الأندلسى: قوله تعالى: ﴿**فَاهْبِطْ مِنْهَا**﴾ الآية، أمرٌ من الله عزوجل لإبليس بالهبوط فى وقت عصيانه فى السجود، فيظهر من هذا أنه إنما اهبط، أولا وأخرج من الجنة وصار من السماء لأن الأخبار تظاهرت أنه أغوى آدم وحواء من خارج الجنة ثم أمر آخراً بالهبوط من السماء مع آدم وحواء[٣].

قال الشنقيطى: قوله تعالى: ﴿ **قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ** ﴾. بين تعالى فى هذه الآية الكريمة: أنه عامل إبليس اللعين بنقيض قصده، حيث كان قصده التعاظم والتكبر، فأخرجه الله صاغراً حقيراً ذليلاً، متصفا بنقيض ما كان يحاوله من العلو والعظمة، وذلك فى قوله : ﴿ **إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ**﴾، والصغار: أشد الذل والهوان، وقوله : ﴿**قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا**﴾ [الأعراف:

(١) « البداية والنهاية» (١/ ٨١) ط مؤسسة التاريخ العربى. بيروت.
(٢) «فتح القدير» الشوكانى (٢/ ١٩٩) ط دار الوفاء
(٣) « المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز» ابن عطية الأندلسى (١٩/٧)



١٨] ونحـو ذلك من الآيات، ويفـهم من الآية أن المتكبـر لا ينال مـا أراد من العظمـة والرفعـة، وإنما يحصل له نقـيض ذلك؛ وصرح تعـالى بهذا المعنى فـى قوله: ﴿**إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ**﴾ [غافر: ٥٦].

وبين فى مواضع أخـر كثـيراً من العواقب السـيئـة التى تنشأ عن الكبـر أعاذنا الله والمسلمين منه ـ فمن ذلـك أنه سبب لصرف صاحـبه عن فهم آيات الله. والاهتـداء بها كمـا فى قوله تعـالى: ﴿**سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ**﴾ [الأعراف: ١٤٦]. ومن ذلك أنه من أسباب الثواء فى النار كما فى قوله تعالى: ﴿**أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ**﴾[الزمر: ٦٠] وقوله: ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ**﴾[الصافات: ٣٥] ومن ذلك أن صاحبه لا يحبه الله تعالى كما فى قوله: ﴿**لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ**﴾ [النحل: ٢٣] ومن ذلك أن موسى استعاذ من المتصف به ولا يستعاذ إلا مما هو شر. كما فى قوله: ﴿**وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ**﴾ [غافر: ٢٧] إلى غير ذلك من نتائجه السيئة، وعواقبـه الوخيمة، ويفهم من مفهوم المخالفة فى الآية: أن المتواضع لله جل وعلا يرفعه الله.

وقد أشار تعـالى إلى مكانة المتواضعين له عنده فى مواضع أخـر كقوله: ﴿ **وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا**﴾ [الفرقان: ٦٣] وقوله: ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾[سورة القصص: ٨٣] وقد صح عنه ﷺ أنه قال « **إنه أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغى أحد على أحد**» وقد قال الشاعر:

تواضع تكن كالبدر تبـصر وجهه ... على صـفحـات الماء وهو رفـيع
ولا تك كـالدخـان يعلو بنفـسـه ... إلى صفـحات الجـو وهو وضيع

وقال أبو الطيب المتنبى:

ولو لـم يعـل إلا ذو مـحـل ... تعالـى الجيش وانحط القـتام[1].

(١) « أضواء البيان» (٢/ ١٠ ـ ١١).

العنصر الذى خُلِق منه آدم عليه السلام

العنصر الذى خلق منه آدم عليه السـلام هو التراب، قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

قال ابن كـثير: يقـول جلّ وعلا: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ ﴾ فى قدرة الله حيث خلقه من غير أب ﴿كَمَثَلِ آدَمَ ﴾، حيث خلقه من غير أب ولا أم ، بل ﴿خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾، فالذى خلق آدم من غـير أب قادر على أن يخلق عـيسى بطريق الأولى والأخرى، وإن جـاز ادعاء النبوة فى عـيسى لكونه مخلوقـاً من غير أب فـجوّز ذلك فى آدم بالطريقة الأولـى ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل، فـدعواه فى عيـسى أشد بطلاناً وأظهر فساداً، ولكن الرب جلّ جلاله أراد أن يظهر قدرته لخلقه حين خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى [١].

●●●●●

(١) تفسير ابن كثير (١/٣٦٧).

مراحل خلق آدم عليه السلام

ذكر الله فى كتابه الكريم أنه خلق آدم ﴿مِن تُرَابٍ﴾ ،وفى آية ثانية أنه خلقه﴿من طين﴾ ،وفى آية ثالثة أنه خلقه ﴿من حمأ مسنون﴾ ،وفى آية رابعة أنه خلقه ﴿من صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾، وليس هناك تعارض بين هذه الآيات؛ لأنها جميعها تتحدث عن مراحل خلق آدم عليه السلام.

قال القرطبى فى تفسير قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤] قال رحمه الله: قوله تعالى﴿خَلَقَ الإِنسَانَ﴾ لما ذكر سبحانه خلق العالم الكبير من السماء والأرض وما فيهما من الدلالات على وحدانيته وقدرته، ذكر خلق العالم الصغير فقال: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ﴾ باتفاق من أهل التأويل يعنى آدم. ﴿مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ الصلصال: الطين اليابس الذى يسمع له صلصلة، وقيل: هو الطين المنتن من صلَّ اللحمُ وأصَلَّ إذا أنتن، وقد مضى فى «الحجر» (١) وقال هنا: ﴿مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ وقال هناك: ﴿ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾[سورة الحجر: ٢٦، ٢٨]. وقال: ﴿ إنا خلقناهم من طين لازب﴾ [سورة الصافات: ١١] وقال: ﴿ كمثل آدم خلقه من تراب﴾ [سورة آل عمران: ٥٩] وذلك متفق المعنى، وذلك أنه أخذ من تراب الأرض فعجنه فصار طيناً، ثم انتقل فصار كالحمإ المسنون، ثم انتقل فصار صلصالاً كالفخار (٢) فكان أوَّل تراباً، أى متفرق الأجزاء، ثم بُل فصار طيناً، ثم تُرك حتى أنتن فصار حَمَأً مسنوناً، أى متغيراً، ثم يبس فصار صلصالاً، على قول الجمهور(٣).

ومن هنا نعلم أن ما نشره الشيوعيون فى «الكراسة الرمادية» من الطعن فى القرآن بسبب اختلاف هذه الألفاظ بالذات ساقط عن درجة الاعتبار وناشئ إما عن جهل أو تجاهل ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ [سورة هود: ١] (٤).

●●●●●

(١) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر: ٢٦]
(٢) « تفسير القرطبى» (٩/ ٦٣٣١) ط الريان. (٣) « المرجع السابق» (٥/ ٣٦٣٧).
(٤) « آدم عليه السلام كما تحدث القرآن الكريم» دكتور عبد الغنى الراجحى، ص ٦٩.



الأحاديث الواردة فى خلق آدم عليه السلام

١ ـ عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال: « **إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، منهم الأحمر والأسود، الأبيض والأصفر، وبين ذلك، والسَّهْلُ والحزن، والخبيث والطيب**»(١).

٢ ـ عن أبى هُريرةَ قال قال رسولُ الله ﷺ: « **خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صورته، وطولُهُ ستُّونَ ذرَاعاً، فلمَّا خلقهُ، قَالَ: اذْهَبْ، فسلِّمْ عَلَى أُولئكَ النَّفَرِ ـ وهُمْ منَ الملائكة جلوسٌ ـ فاسْتَمعْ مَا يُحيونَكَ، فَإِنَّهَا تحيَّتكَ وتحيةُ ذُرِّيَّتكَ، قَالَ: فذهَب فَقَالَ: السَّلامُ عليكُمْ، فزادوُه، ورَحْمَةُ الله، قَالَ: فكلُّ مَنْ يَدْخُلُ الجَنة عَلَى صورة آدَمَ طُولَهُ ستون ذراعاً ، فَلَمْ يَزل الخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الآنَ**»(٢).

قال ابن حبان: هذا الخبرُ تعلَّق به مَنْ لم يُحْكِمْ صناعةَ العلْمِ، وأخذَ يُشَنِّعُ على أَهْلِ الحديث الَّذينَ ينتحلُون السُّنن ويذبون عنها ، ويقمعون منْ خالفها بأن قال: ليست تخلو هذه «الهاء» منْ أَنْ تُنْسب إلى الله، أو إلى آدم، فإنْ نُسبَت إلى الله، كان ذلك كفراً، إذ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى: ١١] ، وإن نسبتَ إلى آدم، تعرى الخبر عَنِ الفَائدة؛ لأنه لاَ شَكَّ أَنَّ كلَّ شيْءٍ خُلقَ عَلَى صُورته، لا على صورة غيره.

ولو تَمَلَّقَ قَائلُ هذا إلى بارئه فى الخَلْوَة، وسأله التَّوفيقَ لإصابة الحقِّ، والهداية للطَّريق المسْتقيم فى لُزوم سُنَن المصطفى ﷺ، لكان أولى به منَ القدح فى منتحلى السّنن بما يجهلُ مَعْنَاه، وليس جهل الإنسَان بِالشَّئِ دَالاً على نفى الحقِّ عنه لجهْله به.

(١) **صحيح** . رواه أحمد (٤/ ٤٠٠ ـ ٤٠٦) وأبو داود (٤٦٩٣) والترمذى (٢٩٥٥) والحاكم (٢/ ٢٦١ ـ ٢٦٢) والبيهقى فى «الأسماء والصفات» ص ٣٨٥، وابن حبان (٦١٦٠ ـ إحسان) وابن سعد فى «الطبقات» (١/ ٢٦) وعبد بن حميد فى «المنتخب» (٥٤٨) والطبرى فى «تفسيره» (٦٤٥) وصححه الحاكم ووافقه الذهبى، وقال الترمذى: حسن صحيح.

(٢) رواه البخارى (٣٣٢٦) كتاب الأنبياء، باب: خلق آدم وذريته ، ومسلم (٧٠٢٣) كتاب صفة الجنة، باب: يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير. وأحمد (٢/ ٣١٥).

ونحن نقول: إنَّ أخبار المصطفى ﷺ إذا صحَّت من جهة النَّقل، لا تتضادَ ولا تَتَهَاتَرُ، بل لكلَّ خبرٍ معنى معلوم يعلم، وفصل صحيح يعقَل، يعقلهُ العالِمُون.

فمعنى الخبر عندنا بقوله ﷺ: «خَلَقَ الله آدمَ عَلَى صُورَتِه»: إبانة فَضْلِ آدَمَ على سائر الخلق، «والهاءُ» راجعة إلى آدم، والفائدة مِنْ رجوع «الهاء» إلى آدم دون إضافتها إلى البارئ جل وعلا ـ جلَّ ربُّنا وتعالى عن أن يُشَبَّه بشيء مِنَ المخلوقين ـ أنه جل وعلا جعل سَبَبَ الخلقِ الذى هُو المتحرك النَّامى بذاته اجتماع الذَّكر والأُنثى، ثمَّ زوالُ الماء عَنْ قَرار الذَّكَرِ إلى رحم الأنثى، ثم تغير ذلك إلى العلقة بعد مدة، ثم إلى المُضْغة، ثُم إلى الصُّورة، ثم إلى الوقت الممدود، فيه، ثُم الخُروج مِنْ قراره، ثُم الرَّضاع، ثم الفِطام، ثمَّ المراتب الأخَر على حسب ما ذكرنا، إلى حلول المنية به. هذا وصف المتحرك النامى بذاته من خلقه، وخلق الله جل وعلا آدم على صورته التى خلقه عليها وطوله ستون ذراعا مِنْ غير أن تكون تقدمه اجتماع الذكر والأنثى، أو زوال الماء، أو قراره، أو تغيير الماء علقة أو مضغة، أو تجسيمه بعده، فأبان الله بهذا فضله على سائر مَنْ ذكرنا مِنْ خَلقه بأنه لم يكن نطفةً فعلقةً، ولا علقةً فمُضغةً، ولا مُضْغَةً فرضيعاً، ولا رضيعاً ففطيماً، ولا فطيماً فشاباً، كما كانت هذه حالةُ غيره، ضدَّ قول مَنْ زعم أنَّ أصحاب الحديث حشويةٌ يروون ما لا يعقلون، ويحتجُّون بما لا يدرون[1].

وقال النووى: هذه الرواية ظاهرة فى أن الضمير فى (صورته) عائدٌ إلى آدم، وأن المراد أنه خَلَقَ فى أول نشأته على صورته التى كان عليها فى الأرض، وتُوفى عليها، وهى طوله ستون ذراعاً. ولم ينتقل أطواراً كذريته، وكانت صورته فى الجنة هى صورته فى الأرض لم تتغير[2].

وقال الحافظ ابن حجر: المعنى أن الله تعالى أوجده على الهيئة التى خلقه عليها لم ينتقل فى النشأة أحوالاً ولا تردد فى الأرحام أطواراً كذريته بل خلقه الله رجلاً كاملاً سوياً من أول ما نفخ فيه الروح، ثم عقب ذلك بقوله: «وطوله ستون ذراعاً» فعاد الضمير أيضاً على آدم، وقيل معنى قوله «على صورته»، أى لم يشاركه فى خلقه أحد ابطالاً لقول أهل الطبائع. وخص بالذكر تنبيهاً بالأعلى على الأدنى، والله أعلم.

قوله ﷺ: «فكل من يدخل الجنة على صورة آدم» أى على صفته، وهذا يدل

---

(١) «صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان» ١٤٠/٣٣ ـ ٣٥) ط مؤسسة الرسالة.

(٢) «شرح النووى على صحيح مسلم» (٨/ ٢٤٤) ط دار الغد العربى.



على أن صفات النقص من سواد وغيره تنتفى عند دخول الجنة . . .

قوله ﷺ: «فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن»، أى أن كل قرن يكون نشأته فى الطول أقصر من القرن الذى قبله، فانتهى تناقص الطول إلى هذه الأمة واستقر الأمر على ذلك(١).

٣ ـ عن أنس رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**لَمَّا صوّر اللهُ آدم فى الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه، فجعل إبليس يُطيفُ به، ينظرُ ما هو، فلمَّا رآه أجوفَ عرف أنه خُلق خلقًا لا يتمالك**»(٢).

قوله ﷺ: «لما صور الله آدم» يعنى لَمَّا شكَّلَ الله طينته على شكلها الخاص على ما سبق فى علمه تعالى.

قوله ﷺ: «فجعل إبليس يطيف به» طاف بالشىء، أى دار حوله(٣).

قوله ﷺ: «فلما رآه أجوف علم أنه خلق خلقاً لا يتمالك».

الأجوف: صاحب الجوف، وقيل: هو الذى داخله خال، ومعنى لا يتمالك: لا يملك نفسه ويحبسها عن الشهوات، وقيل: لا يملك دفع الوسواس عنه، وقيل: لا يملك نفسه عند الغضب، والمراد :جنس بنى آدم(٤).

٤ ـ عن أنس بن مالك رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**لَمَّا نَفَخَ فى آدم فبلغ الرُّوحُ رأسَه عَطَسَ، فقال: الحمدُ لله رب العالمين، فقال له تبارك وتعالى: يرحمك الله**»(٥).

(١) «فتح البارى» (٦/ ٤٢٢ ـ ٤٢٣) ط دار الريان للتراث.
(٢) رواه مسلم (٦٥٢٦) كتاب البر والصلة، باب: خلق الإنسان خلقاً لا يتمالك.
(٣) «شرح الأبى على صحيح مسلم» (٨/ ٥٧٧) ط دار الكتب العلمية. بيروت.
(٤) «شرح النووى على صحيح مسلم» (٧/ ٧١٠).
(٥) صحيح. رواه ابن حبان (٦١٦٥ ـ إحسان).



●●●●●

خَلْقُ حواء عليها السلام

خلقت أمنا حواء عليـها السلام من أحد أضلاع أبينـا آدم عليه السلام[١]، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١].

قال ابن كثير: يقول تعـالى آمراً خلقه بتـقواه، وهى عبادته وحـده لا شريك له، ومنبهاً لهم على قدرته التى خلقهم بها من نفس واحدة، وهى آدم عليه السلام ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وهى حواء عليـها السـلام خلقت من ضلعه الأيسر من خـلفه وهو نائم فاستيقظ فرآها فأعجبته، فأنس إليها وأنست إليه[٢].

وقال الآلوسى: المراد من الزوج حواء، وهى قد خلقـت من ضلع آدم عليه السلام الأيسر، كما روى ذلك عن ابن عمـر وغيره، وروى الشيخان: «**استوصوا بالـنساء خيراً فإنهن خلقن من ضِلَـع، وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه، فإن ذهـبت تقيمه كـسرته، وإن تركته لم يزل أعوج**»[٣]، وأنكر أبو مسلم خلقها من الضلع لأنه سبحانه قادر على خلقها من التراب، فأى فائدة فى خلقها من ذلك، وزعم أن معنى ﴿مِنْهَا﴾ من جنسها، والآية على حد قوله تعالى ﴿**جعل لكم من أنفسكم أزواجاً**﴾ ووافقه على ذلك بعضهم مدعياً أن القول بما ذكر يجر إلى القـول بأن آدم عليه السلام كان ينكح بعضه بعـضاً، وفيه من الاستهجان ما لا يخفى، وزعم البعض أن حواء كانت حورية خلقت مما خلق منه الحور بعـد أن أسكن آدم الجنة. وكـلا القولين باطـل، أما الثـانى فـلأنه ليس فى الآيات ولا الأحاديث ما يتوهم منه الإشارة إليه أصلاً فضلاً عن التصريح به، ومع هذا يقال عليه: إن الحور خلقن من زعفران الجنة ـ كما ورد فـى بعض الآثار ـ فإن كانت حواء مخلوقة مما خلقن منه ـ كـما هو نص كـلام الزاعم ـ فبينـها وبين آدم عليه السـلام المخلوق من

(١) قاله ابن الجوزى فى «التبصرة» (١/ ١٥).   (٢) «تفسير القرآن العظيم» ابن كثير (١/ ٤٤٨).

(٣) رواه البخارى (٣٣٣١) كتاب الأنبيـاء، باب: خلق آدم وذريته. ومسلم (٣٥٨٣) كتاب الرضاع، باب: الوصية بالنساء. من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

تراب الدنيا بعدٌ كلى يكاد يكون افـتراقاً فى الجنسية التى ربما توهمهـا الآية، ويستدعى بُعْد وقوع التناسل بينهـما فى هذه النشأة، وإن كانت مخلوقـة مما خلق منه آدم فهو مع كونه خـلاف نص كلامه يردّ عليه إن هذا قـول بما قاله أبو مسلم وإلا يكنْه فهـو قريب منه، وأما الأول فلأنه لو كان الأمر كما ذكر فيه لكان الناس مخلوقين من نفسين لا من نفس واحدة وهو خلاف النص، وأيضًا هو خلاف ما نطقت به الأخـبار الصحيحة عن رسول الله ﷺ وهذا يردّ على الثانى أيضًا.

والقول بأنه أى فائدة فـى خلقها من ضِلَع، والله تعالى قادر علـى أن يخلقها من تراب؟ يقال عليه: فائدة ذلك سوى الحكمة التى خفيت عنا إظهار أنه سبحانه قادر على أن يخلق حياً من حى لا على سبيل التوالد ، كما أنه قادر على أن يخلق حيًا من جماد كذلك ـ ولو كانت القدرة على الخلق من التراب مـانعة عن الخلق من غيره لعدم الفائدة لخلق الجـميع من التـراب بلا واسطة لأنه سبـحانه ، كـما أنه قـادر على خلق آدم من التراب ـ هو قادر على خلق سـائر أفراد الإنسان منه أيضاً، فـما هو جوابكم عن خلق الناس بعضهم من بعض مع القدرة على خلقهم كخلق آدم عليه السلام ،فهو جوابنا عن خلق حواء من آدم مع القدرة على خلقها من تراب[1].

(تنبيه):

لم يرد اسم حـواء عليها السـلام فى القرآن الكريم، وإنما ورد فى السنـة المطهرة، ففى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «**لولا بنو إسرائيل لم يَخْنَز اللحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها**»[2].

قال الحافظ ابن حجر: قوله ﷺ: «لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم» يخنز: أى ينتن، والخنز التغير والنتن، قيل أصله أن بنى إسرائيل ادخروا لحم السلوى، وكانوا نهوا عن ذلك فعوقبوا بذلك حكاه القرطبى وذكره غيره عن قتادة. وقال بعضهم: معناه لولا أن بنى إسرائيل سنوا ادخار اللحم حتى أنتن لما ادخر فلم ينتن.

قوله: «ولولا حواء» أى امـرأة آدم، قيل سميت بذلك؛ لأنهـا أم كل حى، وقوله «لم تخن أنثى زوجـها» فـيه إشـارة إلى ما وقـع من حواء فى تزيينهـا لآدم الأكل من

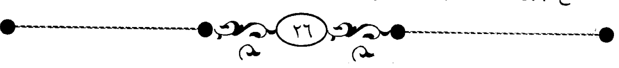
(١) «روح المعانى» الآلوسى (٢/ ١٨١ ـ ١٨٢) ط دار الفكر ـ بيروت.

(٢) رواه البخارى (٣٣٣٠) كتاب الأنبيـاء، باب: خلق آدم وذريته. ومسلم (٣٥٨٧) كتاب الرضاع، باب: لولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر.

الشجرة حتى وقع فى ذلك، فمعنى خيانتها أنها قبلت ما زين لها إبليس حتى زينته لآدم، ولما كانت هى أم بنات آدم أشبهنها بالولادة ونزع العرق فلا تكاد امرأة تسلم من خيانة زوجها بالفعل أو بالقول، وليس المراد بالخيانة هنا ارتكاب الفواحش حاش وكلا.

ولكن لما مالت إلى شهوة النفس من أكل الشجرة وحسّنت ذلك لآدم عُدَّ ذلك خيانة له، وأما من جاء بعدها من النساء فخيانة كل واحدة منهن بحسبها، وقريب من هذا حديث «**جحد آدم فجحدت ذريته**»، وفى الحديث إشارة إلى تسلية الرجال فيما يقع لهم من نسائهم بما وقع من أمهن الكبرى، وأن ذلك من طبعهن فلا يفرط فى لوم من وقع منها شىء من غير قصد إليه أو على سبيل الندور، وينبغى لهن أن لا يتمكن بهذا فى الاسترسال فى هذا النوع بل يضبطن أنفسهن ويجاهدن هواهن، والله المستعان[1].

(١) «فتح البارى» (٦/ ٤٢٤) باختصار يسير.



●●●●●

دخول آدم وحواء الجنة
وخروجهما منها

قال الله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ . فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ . فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٥، ٣٨].

لما خلق الله آدم وفضّله أتم نعمته عليه بأن خلق منه زوجه ليسكن إليها ويستأنس بها، وأمرهما بسكنى الجنة[١] والأكل منها رغداً أى واسعاً هنيئاً ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ ،أى من أصناف الثمار والفواكه، وقال الله له: ﴿إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى﴾ ﴿وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ نوع من أنواع شجر الجنة الله أعلم بها[٢].

قال ابن كثير: وأمّا قوله: ﴿وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ فهو إخبار من الله تعالى وإمتحان لآدم. وقد اختلف فى هذه الشجرة ما هى - ثم ذكر ابن كثير عن ابن عباس وسعيد بن جبير والسدى والشعبى وغيرهم أنها شجرة الكرم، وتزعم يهود أنها الحنطة، وقيل: السنبلة وقيل: البر ،وقيل: الزيتونة. وقيل: النخلة، ثم قال ابن كثير: فهذه أقوال ستة فى تفسير هذه الشجرة. قال الإمام العلامة أبو جعفر بن جرير رحمه الله: والصواب فى ذلك أن يقال: إن الله عز وجل ثناؤه نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة

(١) الجنة التى أسكنها آدم عليه السلام هى جنة الخلد، وهذا ما عليه جمهور أهل السنة والجماعة خلافاً لمن قال بغير ذلك، وقد ذكر القرطبى: أن المعتزلة والقدرية قالا: إنه لم يكن فى جنة الخلد، وإنما فى جنة بأرض عدن، ثم ردّ القرطبى على قولهم هذا، فانظر ما قاله فى «تفسيره» وانظر كتاب «حادى الأرواح» لابن قيم الجوزية.

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدى (١/ ٣٤).

بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها فأكلا منها ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين؛ لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك فى القرآن ولا من السنة الصحيحة، وقد قيل: كانت شجرة البر، وقيل: كانت شجرة العنب، وقيل: كانت شجرة التين وجائز أن يكون واحدة منها، وذلك علمٌ إذا عُلِمَ لم ينفع العالم به علمه، وإن جهله لم يضره جهله به، والله أعلم.

وكذلك رجح الإبهام الرازى فى تفسيره وغيره وهو الصواب[1].

وقال القاسمى: لم يرد فى القرآن المجيد ولا فى السنة الصحيحة تعيين هذه الشجرة، إذ لا حاجة إليه لأنه ليس المقصود تعرُّف عين تلك الشجرة، وما لا يكون مقصودا لا يجب بيانه[2].

وقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾[سورة البقرة:٣٦]، أى أوقعهما فى الزلل وهو مخالفتهما لنهى الله تعالى لهما عن الأكل من الشجرة[3] ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [سورة البقرة:٣٦]، أى «من الرغد والغيم والكرامة[4].

وقد اختُلِفَ فى الكيفية التى أغوى بها إبليس اللعين، آدم وحواء عليهما السلام، وقد ذكرت فى هذه المسألة أقول:

الأول: أنه دخل الجنة وأغواهما فيها. قال البروسوى: فإن قلت: إبليس كافر، والكافرُ لا يدخل الجنة، فكيف دخل هو؟ قلتُ: منع من الدخول على وجه التكرمة كما يدخلها الملائكة، ولم يمنع من الدخول للوسوسة ابتلاء[5].

القول الثانى: أنه دخل الجنة فى فم الحية، قال الشوكانى: أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن مسعود وناس من الصحابة، قالوا: أراد إبليس أن يدخل عليهما الجنة فمنعته الخزنة، فأتى الحية وهى دابة لهما أربع قوائم كأنها البعير، وهى كأحسن الدواب، فكلمها أن تدخله فى فمها حتى تدخل به إلى آدم، فأدخلته فى فمها، فمرت الحية على الخزنة فدخلت. ولا يعلمون لما أراد الله من الأمر. فكلمه من فمها فلم يبال

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٧٩).

(٢) «محاسن التأويل» (٢/ ١٠٨).

(٣) «أيسر التفاسير» أبو بكر الجزائرى (١/ ٤٥).

(٤) «محاسن التأويل» القاسمى (٢/ ١٠٩).

(٥) «تنوير الأذهان من تفسير روح البيان» الشيخ إسماعيل البروسوى (١/ ٥٢).

بكلامه، فخرج إليه فقال: ﴿يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠] وحلف لهما بالله ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١] فأبى آدم أن يأكل منها، فتقدمت حواء فأكلت، ثم قالت: يا آدم كل، فإنى قد أكلت فلم يضرنى، فلما أكلا ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]. وقد أخرج قصة الحية ودخول إبليس معها، عبد الرزاق وابن جرير عن ابن عباس(١).

وقد ذكر الطبرى فى تفسيره وعبد الرزاق كما فى تفسير القرطبى قصة الحية عن وهب بن منبه، وفيها: ولعنت الحية الحية وردّت قوائمها فى جوفها.

ولم يرد عن النبى ﷺ حديث صحيح فى قصة الحية، وقد أشار ابن كثير إلى أن قصة الحية من الإسرائيليات، فقال: ذكر المفسرون من السلف كالسدى بأسانيده وأبى العالية ووهب بن منبه وغيرهم، ههنا أخباراً إسرائيلية عن قصة الحية وإبليس وكيف جرى من دخول إبليس إلى الجنة ووسوسته(٢).

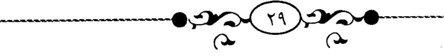
وقال الدكتور محمد أبو شهبة فى تعليقه على قصة الحية: وكل هذا من قصص بنى إسرائيل الذى تزيدوا فيه، وخلطوا حقاً بباطل، ثم حمله عنهم ابن عباس، وغيره من الصحابة والتابعين، وفسروا به القرآن الكريم، ويرحم الله ابن جرير، فقد أشار بذكره الرواية عن وهب وغيره من مسلمة أهل الكتاب، وياليته لم ينقل شيئاً من هذا، وياليت من جاء بعده من المفسرين صانوا تفاسيرهم عن مثل هذا(٣).

القول الثالث: قال فخر الدين الرازى: قال بعض أهل الأصول: إن آدم وحواء عليهما السلام لعلهما كانا يخرجان إلى باب الجنة، وإبليس كان بقرب الباب ويوسوس لهما(٤).

القول الرابع: أن إبليس وسوس لهما وهما خارج الجنة. **قال القرطبى:** قالت طائفة: إن إبليس لم يدخل الجنة إلى آدم بعدما أخرج منهما، وإنما أغوى بشيطانه وسلطانه ووسواسه التى أعطاه الله تعالى، كما قال ﷺ: **«إن الشيطان يجرى من ابن**

---

(١) «فتح القدير» الشوكانى (١/ ١٣١) ط دار الوفاء.
(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٨٠).
(٣) «الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير» ص١٧٩، ط مكتبة السنة.
(٤) «التفسير الكبير» فخر الدين الرازى (٢/ ٢٤) ط دار الغد العربى.
(٥) «تفسير القرطبى» (١/ ٢٦٧) ط الريان.



آدم مجرى الدم»[٥] ، وقد ذكر الرازى فى «تفسيره» أن هذا هو قول الحسن البصرى وهو قول ابن إسحاق كما فى تفسير «زاد المسير» لابن الجوزى، وقد ذهب إلى هذا القول جمع من أهل العلم.

قال الدكتور محمد أبو شهبة ـ أثناء تعليقه على قصة الحية ـ ووسوسة إبليس لآدم ـ عليه السلام ـ لا تتوقف على دخوله فى بطن الحية، إذ الوسوسة لا تحتاج إلى قرب ولا مشافهة، وقد يوسوس إليه وهو على بعد أميال منه، والحية خلقها الله يوم خلقها على هذا، ولم تكن لها قوائم كالبختى، ولا شىء من هذا[١] ،وممن أيّد هذا القول أيضًا الشيخ أبو بكر الجزائرى[٢].

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى عدم البحث فى كيفية إغواء إبليس اللعين لآدم وحواء ـ عليهما السلام ـ بالأكل من الشجرة، وأيّد هذا القول الآلوسى فى تفسيره.

معنى قوله تعالى: ﴿ **وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ . فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾**[سورة البقرة:٣٦ ـ ٣٨]**.

قال ابن القيم: هذا إهباط آدم وحواء وإبليس من الجنة، فلهذا أتى فيه بضمير الجمع، وقد قيل: إن الخطاب لهما وللحية وهذا ضعيف جداً، إذ لا ذكر للحية فى شىء من قصة آدم، ولا فى السياق ما يدل عليها، وقيل: الخطاب لآدم وحواء وأتى فيه بضمير الجمع كقوله؛ ﴿**وكنا لحكمهم شاهدين**﴾[سورة الأنبياء:٧٨] وهما داود وسليمان، وقيل: لآدم وحواء وذريتهما.

وهذه الأقوال ضعيفة غير الأول؛ لأنها بين قول لا دليل عليه، وبين ما يدل اللفظ على خلافه، فثبت أن إبليس داخل فى هذا الخطاب وأنه من المهبطين، فإذا تقرر هذا، فقد ذكر سبحانه الإهباط ثانياً بقوله: ﴿ **قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾[سورة البقرة:٣٨] والظاهر أن هذا الإهباط

(١) «الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير» ص١٨٠.

(٢) انظر «أيسر التفاسير» (٢/١٥٨). (٣) انظر «روح المعانى» (١/ ٢٣٥).

(٤) وقال ابن كثير فى «تفسيره» (١/ ٨٢): وذكر هذا الإهباط الثانى لما تعلق به ما بعده من المعنى المغاير للأول وزعم بعضهم أنه تأكيد وتكرير كما يقال: قم قم، وقال آخرون: بل الإهباط الأول من الجنة إلى السماء الدنيا، والثانى من سماء الدنيا إلى الأرض والصحيح الأول والله أعلم.



الثـانى غيـر الأول، وهو إهباط من السـماء إلى الأرض، والأول إهبـاط من الجنة(٤)، وحينئذ فتـكون الجنة التى أهبط منها أولاً فوق السماء جنة الخلد، وقـد ظن الزمخشرى أن قوله: اهبطوا منها جميعاً خطاب لآدم وحواء خاصة وعبَّر عنهما بالجمع لاستتباعهما ذرياتهما قال: والدليل عـليه قوله تعالى: ﴿ **قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ** ﴾ [طه: ١٢٣] قال: ويدل على ذلك قوله: ﴿**فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ [سورة البقرة: الآيتان ٣٨: ٣٩] وما هو إلا حكم يعم الناس كلهم.

ومعنى قوله: بعضكم لبعض عـدو، ما عليه الناس من التعادى والتـباعد وتضليل بعضهم بعضاً. وهذا الذى اختاره أضعف الأقوال فى الآية، فإن العداوة التى ذكرها الله تعالى إنما هى بين آدم وإبليس وذريتـهما، كمـا قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا**﴾ [فاطر: ٦]، وهو سبـحانه قد أكد أمر العـداوة بين الشيطان والإنسان، وأعاد وأبدى ذكرها فى القرآن لشدة الحاجة إلى التحرز من هذا العدو، وأما آدم وزوجه فإنه إنما أخبـر فى كتابه أنه خلقهـا ليسكن إليها، وجـعل بينهما مودة ورحـمة، فالمودة والرحمة بين الرجل وامرأته، والعداوة بين الإنسان والشيطان.

وقد تقـدم ذكر آدم وزوجـه وإبليس وهم ثلاثة، فلماذا يعـود الضميـر على بعض المذكور مع منافرته لطريق الكلام دون جميعه، مع أن اللفظ والمعنى يقتضيه، فلم يصنع الزمخشرى شيئاً؟

وأما قوله تعالى فى سورة طه: ﴿ **قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ**﴾ [طه: ١٢٣]، وهذا خطاب لآدم وحواء: وقد جعل بعضهم لبـعض عدوا، فالضمير فى قوله اهبطا منهـا، إمـا أن يرجع إلى آدم وزوجه، أو إلى آدم وإبلـيس، ولم يذكر الزوجـة؛ لأنها تبع له، وعلى هـذا، فالعداوة المذكورة لـلمخاطبين بالإهبـاط وهما آدم وإبليس، فالأمر ظاهر، وأما على الأول فتكون الآية قد اشتملت على أمرين:

أحدهما: أمره تعالى لآدم وزوجه بالهبوط.

والثانى: إخباره بالعداوة بين آدم وزوجه وبين إبليس، ولهـذا أتى بضمير الجمع فى الثانى دون الأول، ولابد أن يكون إبليس داخلا فى حكم هذه العـداوة قطعا، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ**﴾ [سورة طه: ١١٧] وقال للذرية: ﴿ **إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ**

عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [سورة فاطر: ٦].

وتأمل كيف اتفقت المواضع التى فيها ذكر العداوة على ضمير الجمع دون التثنية؟ وأما الإهباط فتارة يذكره بلفظ الجمع، وتارة بلفظ التثنية، وتارة بلفظ الإفراد، كقوله فى سورة الأعراف: ﴿قَالَ اهْبِطْ مِنْهَا﴾، وكذلك فى سورة ص وهذا لإبليس وحده، وحيث ورد بصيغة الجمع فهو لآدم وزوجه وإبليس، إذ مدار القصة عليهم، وحيث ورد بلفظ التثنية، فإما أن يكون لآدم وزوجه، إذ هما اللذان باشرا الأكل من الشجرة وأقدما على المعصية، وإما أن يكون لآدم وإبليس، إذ هما أبو الثقلين وأصلا الذرية، فذكر حالهما ومآل أمرهما ليكون عظة وعبرة لأولادهما.

والذى يوضح أن الضمير فى قوله، اهبطا منها جميعاً لآدم وإبليس، أن الله سبحانه لما ذكر المعصية أفرد بها آدم دون زوجه فقال: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ . ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ . قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [سورة طه: الآيات ١٢١، ١٢٣] وهذا يدل على أن المخاطب بالإهباط هو آدم ومن زين له المعصية ودخلت الزوجة تبعاً، فإن المقصود إخبار الله تعالى للثقلين، بما جرى على أبويهما من شؤم المعصية ومخالفة الأمر، فذكر أبويهما أبلغ فى حصول هذا المعنى، من ذكر أبو الإنس فقط.

وقد أخبر سبحانه عن الزوجة بأنها أكلت مع آدم، وأخبر أنه أهبطه وأخرجه من الجنة بتلك الأكلة، فعلم أن حكم الزوجة كذلك، وأنها صارت إلى ما صار إليه آدم، وكان تجريد العناية إلى ذكر حال أبوى الثقلين أولى من تجريده إلى ذكر أبى الإنس وأمهم، فتأمله[١].

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ مستقر «أى قرار وأرزاق وآجال[٢] ﴿وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ إنقضاء آجالكم ثم تنتقلون منها للدار التى خلقتم وخلقت لكم، ففيها أن مدة هذه الحياة مؤقته عارضة ليست مسكناً حقيقياً وإنما هى معبر يتزود منها لتلك الدار ولا تعمر للاستقرار[٣].

(١) «حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح» ص ٢٦ ـ ٢٨، ط مكتبة المدنى.
(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٨٠).
(٣) «تيسير الكريم الرحمن» عبد الرحمن بن ناصر السعدى (١/ ٣٥).



قوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾، معنى تلقى آدم للكلمات: أخْذُهُ لها وقبوله لما فيها، وعمله بها. وقيل: فهمه لها، وفطانته لما تضمنته. وأصل معنى التلقى: الاستقبال، أى استقبل الكلمات الموحاة إليه[1].

وقد اختلف السلف فى تعيين هذه الكلمات التى تلقاها آدم عليه السلام، قال الشيخ أبو شهبة: والصحيح فى الكلمات هو: ما روى من طرق عدة: أنها قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣] وقد رواه السيوطى فى الدر[2] من طرق عدة.. وقد أفاض ابن جرير فى تفسيره فى ترجيح هذا القول، وإن ذكر غيره من الأقوال التى هى بعيدة عن الحق والصواب[3].

قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾، أى إنه يتوب على من تاب إليه وأناب كقوله **﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده﴾** وقوله: **﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما﴾** وقوله **﴿ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً﴾** إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى يغفر الذنوب، ويتوب على من يتوب، وهذا من لطفه بخلقه ورحمته بعبيده، لا إله إلا هو التواب الرحيم[4].

والتوبة بمنزلة الصابوب، فكما أن الصابون يزيل الأوساخ الظاهرة، فكذا التوبة تزيل الأوساخ الباطنة، والعبد إذا رجع عن السيئة أصلح الله شأنه، وأعاد عليه نعمته الفائتة[5].

قوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾، أى أىّ وقت وزمان جاءكم منى يا معشر الثقلين هدى أى رسول وكتاب يهديكم لما يقربكم منى ويدنيكم من رضائى، فمن تبع هداى منكم بأن آمن برسلى وكتبى واهتدى بهم وذلك بتصديق جميع أخبار الرسل والكتب والامتثال للأمر والاجتناب للنهى: ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

---

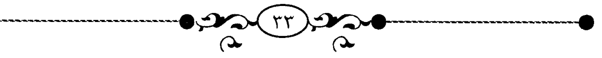
(١) «فتح القدير» الشوكانى (١/ ١٢٩).

(٢) «الدر المنثور» (١/ ٥٨، ٦/ ٦١).

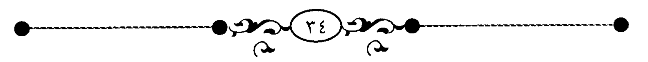
(٣) «الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير» ص ١٨١.

(٤) تفسير ابن كثير (١/ ٨١ ـ ٨٢).

(٥) «تنوير الأذهان» البر وسوى (١/ ٥٣) ط دار الصابونى.



يَحْزَنُونَ ﴾، وفى الآية الأخرى ﴿فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى﴾ فرتب على إتباع هداه أربعة أشياء: نفى الخوف والحزن، والفرق بينهما أن المكروه إن كان قد مضى أحدث الحزن وإن كان منتظرا أحدث الخوف فنفاهما عمن اتبع الهدى، وإذا انتفيا حصل ضدهما وهو الأمن التام، وكذلك نفى الضلال والشقاء عمن اتبع هداه، وإذا انتفيا ثبت ضدهما وهو الهدى والسعادة، فمن ابتع هداه حصل له الأمن والسعادة الدنيوية والأخروية والهدى وانتفى عنه كل مكروه من الخوف والحزن والضلال والشقاء فحصل له المرغوب واندفع عند المرهوب، وهذا عكس من لم يتبع هداه فكفر به وكذب بآياته، فأولئك أصحاب النار أى الملازمون لها ملازمة الصاحب لصاحبه والغريم لغريمه هم فيها خالدون لا يخرجون منها ولا يفتر عنهم العذاب ولا هم ينصرون. وفى هذه الآيات وما أشبهها انقسام الخلق من الجن والإنس إلى أهل السعادة، وأهل الشقاوة، وفيها صفات الفريقين والأعمال الموجبة لذلك، وأن الجن كالإنس فى الثواب والعقاب، كما أنهم مثلهم فى الأمر والنهى[1].



(١) «تيسير الكريم الكريم» (١/ ٣٥).

نبوة آدم عليه السلام

آدم عليه السلام كان نبياً كان من الله تعالى، فعن أبى أمامة الباهلى أن رجلاً قال: يا رسول الله، أنبىٌّ كان آدم؟ قال: **نعم مكلَّمٌ، قال: فكم كان بينه وبين نوح؟ قال: عشرة قرون**»[1].

عصمة الأنبياء

أجمع أهل السنة والجماعة على أن الأنبياء معصومون من الوقوع فى الكبائر، واختلفوا فى الصغائر، فذهب بعض أهل العلم إلى جواز وقوع الصغائر منهم والجمهور على عصمتهم منها أيضا ،وذهب بعض المرجئة وبعض الأشاعرة إلى أن الرسل صلوات الله عليهم يعصون الله تعالى وتصدر منهم الكبائر والصغائر من الذنوب!! ومما احتجوا به معصية آدم عليه السلام لربه وأكله من الشجرة التى نهاه عن الأكل، منها وقد ردّ أهل العلم عليهم وأجابوا على ما احتجوا به.

قال ابن حزم:فما احتجوا به قول الله عز وجل، ﴿**وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ**﴾[طه: ١٢١] وقوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ [البقرة: ٣٥]قالوا فقربها آدم فكان من الظالمين، وقد عصى وغوى وقال تعالى: ﴿**فَتَابَ عَلَيْهِ**﴾ [البقرة: ٣٧] والمتاب لا يكون إلا من ذنب وقال تعالى: ﴿**فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ**﴾[البقرة٣٦] وازلال الشيطان معصية وذكروا قول الله تعالى ﴿**فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا**﴾ [الأعراف: ١٩٠] هذا كل ما ذكروا فى آدم عليه السلام.

قال أبو محمد: وهذا كله بخلاف ما ظنوا ،أما قوله تعالى ﴿**وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ**﴾، فقد علمنا أن كل خلاف لأمر آمر فصورته صورة المعصية، فيسمى معصية لذلك وغواية إلا أنه منه ما يكون عن عمد وذكر، فهذه معصية على الحقيقة لأن فاعلها قاصد إلى المعصية وهو يدرى أنها معصية، وهذا هو الذى نزهنا عنه الأنبياء عليهم السلام ،ومنه ما يكون عن قصد إلى خلاف ما أمر به وهو يتأول فى ذلك الخير ولا يدرى أنه عاص بذلك بل يظن أنه مطيع لله تعالى أو أن ذلك مباح له لأنه يتأول أن

(١) صحيح. رواه الطبرانى فى «الكبير» (٨/ ١٣٩ ـ ١٤٠) رقم (٧٥٤٥) وابن حبان (٦١٩٠ ـ إحسان) وقال ابن كثير فى «البداية والنهاية» (١/ ٩٤): هذا على شرط مسلم ولم يخرجه.



الأمر الوارد عليه ليس على معنى الإيجاب ولا على التحريم لكن إما على الندب إن كان بلفظ الأمر أو الكراهية إن كان بلفظ النهى، وهذا شىء يقع فيه العلماء والفقهاء والأفاضل كثير، وهذا هو الذى يقع من الأنبياء عليهم السلام ويؤاخذون به إذا وقع منهم وعلى هذا السبيل أكل آدم من الشجرة ومعنى قوله تعالى: ﴿**فتكونا من الظالمين**﴾، أى ظالمين لانفسكما والظلم فى اللغة وضع الشىء فى غير موضعه، فمن وضع الأمر أو النهى فى موضع الندب أو الكراهة، فقد وضع الشىء فى غير موضعه، وهذا الظلم من هذا النوع من الظلم الذى يقع بغير قصد وليس معصية لا الظلم الذى هو القصد إلى المعصية وهو يدرى أنها معصية، وبرهان هذا ما قد قصه الله تعالى من أن آدم عليه السلام لم يأكل من الشجرة إلا بعد أن أقسم له إبليس أن نهى الله عز وجلّ لهما عن أكل الشجر ليس على التحريم وأنهما لا يستحقان بذلك عقوبة أصلا بل يستحقان بذلك الجزاء الحسن وفوز الأبد قال تعالى حاكيا عن إبليس أنه قال لهما: ﴿ **مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ** (٢٠) **وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ** (٢١) **فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ**﴾ [الأعراف: ٢٠ ـ ٢٢] وقد قال عزّ وجلّ: ﴿**وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا** ﴾ [طه: ١١٥].

(قال أبو محمد): فلما نسى آدم عليه السلام عهد الله إليه فى أن إبليس عدو له أحسن الظن بيمينه.

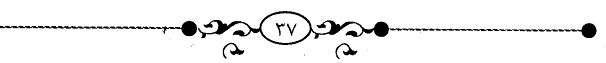
(قال أبو محمد) :ولا سلامة ولا براءة من القصد إلى المعصية ولا أبعد من الجراءة على الذنوب أعظم من حال من ظن أن أحداً لا يحلف حانثا ،وهكذا فعل آدم عليه السلام فإنه إنما أكل من الشجرة التى نهاه الله عنها ناسياً بنص القرآن ومتأولاً وقاصداً إلى الخير؛ لأنه قَدّرَ أنه يزداد حظوة عند الله تعالى فيكون ملكاً مقرباً أو خالداً فيما هو فيه أبداً فاداه ذلك إلى خلاف ما أمره الله عزّ وجلّ به، وكان الواجب أن يحمل أمر ربه عز وجل على ظاهره لكن تأول وأراد الخير فلم يُصِبْهُ ولو فعل هذا عالم من علماء المسلمين لكان بذلك ظالماً لنفسه، وقد سمى الله عزّ وجلّ قاتل الخطأ قاتلاً كما سمى العامد والمخطىء لم يتعمد معصية وجعل فى الخطأ فى ذلك كفارة عتق رقبة أو صيام شهرين متتابعين لمن عجز عن الرقبة وهو لم يتعمد ذنبا[1].

وقال شيخ الإسلام تقى الدين بن تيمية وجماعة من المتأخرين: الصواب أن آدم

(١) «الفصل فى الملل والأهواء والنحل» (٤/ ٩ ـ ١١) ط دار الجيل ـ بيروت.

عليه السلام لما قاسمه عدوّ الله أنه ناصح، وأكد كلامه بأنواع من التأكيدات: أحدها القسم. والثانى الإتيان بجملة إسمية لا فعلية. والثالث تصديرها بأداة التأكيد. والرابع الإتيان بلام التأكيد فى الخبر. الخامس الإتيان به اسم فاعل لا فعلاً دالا على الحدث. السادس تقديم المعمول على القليل فيه. ولم يظن آدم أن أحداً يحلف بالله كاذباً يمين غموس، فظن صدقه، وأنه إن أكل منها لم يخرج من الجنة، ورأى أن الأكل وإن كان فيه مفسدة، فمصلحة الخلود أرجح، ولعله يتأتى له استدراك مفسدة اليمين فى أثناء ذلك باعتذار أو توبة. كما تجد هذا التأويل فى نفس كل مؤمن أقدم على معصية .اهـ.

قال ابن مفلح: فآدم عليه السلام لم يخرج من الجنة إلا بالتأويل، فالتأويل لنص الله أخرجه، وإلا فهو لم يقصد المعصية، والمخالفة، وأن يكون ظالماً مستحقاً للشقاء. انتهى[1].



(١) نقلاً عن «محاسن التأويل» القاسمى (٢/١٠٨ ـ ١٠٩).

قصة ابنى آدم عليه السلام
قابيل وهابيل

قال الله تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ . إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ . فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧، ٣١].

هذه قصة ابنى آدم عليه السلام وهما هابيل وقابيل فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف.

قال ابن كثير: وكان من خبرهما فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف أن الله تعالى شرع لآدم عليه السلام أن يزوّج بناته من بنيه لضرورة الحال، ولكن قالوا كان يولد له فى كل بطن ذكر وأنثى فكان يزوّج أنثى هذا البطن لذكر البطن الآخر، وكانت أخت هابيل دميمة وأخت قابيل وضيئة فأراد أن يستأثر بها على أخيه فأبى آدم ذلك إلا أن يقرّبا قرباناً فمن تقبل منه فهى له فتقبل من هابيل ولم يتقبل من قابيل فكان من أمرهما ما قصه الله فى كتابه»[(١)].

قال الشوكانى: أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن عساكرعن ابن عباس قال: نهى أن تنكح المرأة أخاها توأمها، وأن ينكحها غيره من إخوتها، وكان يولد له فى كل بطن رجل وامرأة، فبينماهم كذلك ولد له امرأة وَضيئه، وولد له أخرى قبيحة دميمة، فقال أخو الدميمة: أنكحنى أختك.. وأنكحك أختى، فقال: لا، أنا أحق بأختى، فقربا قرباناً، فجاء صاحب الغنم بكبش أعينَ أقرن أبيض، وصاحب الحرث بصبرة من طعام، فتقبل من صاحب الكبش ولم يتقبل من صاحب الزرع.

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٣).

قال ابن كثير فى تفسيره: إسناده جيد، وكذا قال السيوطى فى الدر المنثور[١].

قال الرازى: قيل: كانت علامة القبول أن تأكله النار، وهو قول أكثر المفسرين. وقال مجاهد: علامة الرد أن تأكله النار، والأول أولى لاتفاق أكثر المفسرين عليه. وقيل: ما كان فى ذلك الوقت فقير يدفع إليه ما يتقرب به إلى الله تعالى، فكانت النار تنزل من السماء فتأكله[٢].

عند ذلك قال: ﴿ **قَالَ** ﴾ «قابيل لهابيل: ﴿ **لأَقْتُلَنَّكَ** ﴾ على قبول قربانك ﴿ **قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ** ﴾ [المائدة: ٢٧] أى أن الله قد تقبل قربانى لأنى اتقيته و«إنما أُتيتَ من قبل نفسك لانسلاخها من لباس التقوى، لا من قبلى، فلم تقتلنى؟ ومالك لا تعاتب نفسك ولا تحملها على تقوى الله التى هى السبب فى القبول؟ فأجابه بكلام حكيم مختصر جامع لمعان، وفيه دليل على أن الله تعالى لا يقبل طاعة إلا من مؤمن متّقٍ، فما أنعاه على أكثر العاملين أعمالهم[٣].

قال ابن عطية: المراد بالتقوى هنا اتقاء الشرك بإجماع أهل السنة، فمن اتقاه وهو موحِّد فأعماله التى تصدق فيها نيته مقبولة، وأما المتقى الشرك والمعاصى فله الدرجة العليا من القبول والختم بالرحمة، عُلِمَ ذلك بإخبار الله تعالى لا أن ذلك يجب على الله تعالى عقلاً[٤].

●●●●●

(١) «فتح القدير» (٢/ ٣٥).
(٢) «التفسير الكبير» فخر الدين الرازى (٥/ ٦٥٢ ـ ٦٥٣).
(٣) «محاسن التأويل» القاسمى (٦/ ١٩٤٣).
(٤) تفسير القرطبى (٣/ ٢١٣٢).



معنى التقوى وثمارها فى الدنيا والآخرة

قال الشيخ ابن عثيمين: معنى التقوى: أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه وقاية تقيه منه.

وتقوى العبد لربه: أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من غضبه وسخطه وقاية تقيه من ذلك بفعل طاعته واجتناب معاصيه.

وإليك أخى الكريم بعض عبارات سلفنا الصالح فى توضيح معنى التقوى. قال ابن عباس رضى الله عنهما: المتقون: الذين يحذرون من الله وعقوبته. وقال طلق بن حبيب: التقوى: (أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله ترجو ثواب الله. وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله). وقال ابن مسعود رضى الله عنه فى قوله تعالى: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾[1] قال: (أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر). فاحرص يا أخى الكريم على تقوى الله عزّ وجلّ، فهو سبحانه أهل أن يخشى ويُجل ويعظم فى صدرك.

وإليك بيان الفوائد المترتبة على التقوى:

أولا: الفوائد المترتبة على التقوى فى الدنيا:

١ ـ إن التقوى سبب لتيسير أمور الإنسان، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [3].

٢ ـ إن التقوى سبب لحماية الإنسان من ضرر الشيطان، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[4].

٣ ـ إن التقوى سبب لتفتيح البركات من السماء والأرض، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ

(١) سورة آل عمران: الآية ١٠٢.
(٢) سورة الطلاق: الآية ٤.
(٣) سورة الليل: الآيات ٥، ٧.
(٤) سورة الأعراف: الآية: ٢٠١.

أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[1].

٤ ـ إن التقوى سبب في توفيق العبد في الفصل بين الحق والباطل ومعرفة كل منهما، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا . . ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾[3].

٥ ـ إن التقوى سبب للخروج من المآزق وحصول الرزق والسعة للمتقي من حيث لا يحتسب، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾[4].

٦ ـ إن التقوى سبب لنيل الولاية ، فأولياء الله هم المتقون كما قال تعالى: ﴿ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ﴾[5] وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾[6].

٧ ـ إن التقوى سبب لعدم الخوف من ضرر وكيد الكافرين، قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾[7].

٨ ـ إنها سبب لنزول المدد من السماء عند الشدائد ولقاء الأعداء، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ . بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾[8]، وبنزول المدد تكون البشرى وتطمئن القلوب، ويحصل النصر من العزيز الحكيم قال تعالى بعد ذلك: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾[9].

٩ ـ إن التقوى سبب لعدم العدوان وإيذاء عباد الله، قال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٩٦.
(٢) سورة الأنفال: الآية ٢٩.
(٣) سورة الحديد: الآية ٢٨.
(٤) سورة الطلاق: الآيتان ٢، ٣.
(٥) سورة الأنفال: الآية ٣٤.
(٦) سورة الجاثية: الآية ١٩.
(٧) سورة آل عمران: الآية ١٢٠.
(٨) سورة آل عمران: الآيات ١٢٣، ١٢٥.
(٩) سورة آل عمران: ١٢٦.

﴿الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[1] وقال تعالى فى قصة مريم: ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا . قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾[2].

١٠ ـ إن التقوى سبب لتعظيم شعائر الله، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾[3].

١١ ـ إنها سبب لصلاح الأعمال وقبولها ومغفرة الذنوب، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾[4].

١٢ ـ إن التقوى سبب لغض الصوت عند رسول الله ﷺ وسواء كان ذلك فى حياته أو بعد وفاته فى قبره ﷺ قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾[5].

قال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ كما كان يكره فى حياته ﷺ لأنه محترم حياً وفى قبره ﷺ دائماً.

١٣ ـ إن التقوى سبب لنيل محبة الله عز وجل، وهذه المحبة تكون فى الدنيا كما تكون فى الآخرة كما قال ﷺ فى الحديث القدسى عن الله عز وجل: **«ما تقرَّب إلىَّ عبدى بشىء أفضل مما افترضته عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنتُ سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذ بى لأعيذنَّه»**[6] قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[7].

١٤ ـ إن التقوى سبب لنيل العلم وتحصيله قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾[8].

١٥ ـ إن التقوى سبب قوى تمنع صاحبها من الزيغ والضلال بعد أن منَّ اللهُ عليه بالهداية قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن

(١) سورة المائدة: ٢.
(٢) سورة مريم: الآيتان ١٧، ١٨.
(٣) سورة الحج: الآية ٣٢.
(٤) سورة الأحزاب: ٧٠، ٧١.
(٥) سورة الحجرات: الآية ٣.
(٦) رواه البخارى.
(٧) سورة آل عمران: الآية ٧٦.
(٨) سورة البقرة: الآية ٢٨٢.

سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(١).

١٦ ـ إن التقوى سبب لنيل رحمة الله، وهذه الرحمة تكون فى الدنيا كما تكون فى الآخرة، قال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾(٢).

١٧ ـ إنها سبب لنيل معية الله الخاصة، فمعية الله لعباده تنقسم إلى قسمين: معية عامة وهى شاملة لجميع العباد بسمعه وبصره وعلمه، فالله سبحانه سميع وبصير وعليم بأحوال عباده، قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾(٣) وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا . . . ﴾(٤).

وأما المعية الثانية: فهى المعية الخاصة، التى تشمل النصرة والتأييد والمعونة كما قال تعالى ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾(٥) وقال تعالى: ﴿ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾(٦) ولا شك أن معية الله الخاصة تكون للمتقين من عباده، قال تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾(٧) وقال تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾(٨).

١٨ ـ إن العاقبة تكون لهم، قال تعالى ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾(٩) وقال تعالى ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴾(١٠) وقال تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾(١١).

١٩ ـ إنها سبب لحصول البشرى فى الحياة الدنيا، سواء بالرؤيا الصالحة أو بمحبة الناس له والثناء عليه، قال تعالى ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ . لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾(١٢) ،قال الإمام أحمد عن أبى الدرداء عن النبى ﷺ فى قوله تعالى:

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٥٣.
(٢) سورة الأعراف: الآية ١٥٦.
(٣) سورة الحديد: الآية ٤.
(٤) سورة المجادلة: الآية ٧.
(٥) سورة التوبة: الآية ٤٠.
(٦) سورة طه: الآية ٤٦.
(٧) سورة النحل: الآية ١٢٨.
(٨) سورة التوبة: الآية ٣٦.
(٩) سورة طه: الآية ١٣٢.
(١٠) سورة ص: الآية ٤٩.
(١١) سورة هود: الآية: ٤٩.
(١٢) سورة يونس: الآية ٦٣.

﴿لَهُمُ الْبُشْرَى . .﴾ قال: «الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له»(١)، وعن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه أنه قال: يا رسول الله، الرجل يعمل العمل ويحمده الناس عليه ويثنون عليه به. فقال رسول الله ﷺ **تلك عاجل بشرى المؤمن**»(٢).

٢٠ ـ إن التقوى إذا أخذت النساء بأسبابها والتى من ضمنها عدم الخضوع فى القول فإنها تكون سببا فى ألا يطمع فيهن الذين فى قلوبهم مرض، قال تعالى: ﴿**يا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا**﴾(٣).

٢١ـ إن التقوى سبب لعدم الجوْر فى الوصية، قال تعالى: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ**﴾(٤).

٢٢ ـ إن التقوى سبب فى إعطاء المطلقة متعتها الواجبة لها، قال تعالى ﴿**وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ**﴾(٥).

٢٣ ـ إن التقوى سبب فى عدم ضياع الأجر فى الدنيا والآخرة، قال تعالى بعد أن مَنَّ على يوسف عليه السلام بجمع شمله مع إخوته: ﴿**إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾(٦).

٢٤ ـ إن التقوى سبب لحصول الهداية، قال تعالى: ﴿**الم . ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**﴾(٧).

ثانيا: الفوائد المترتبة على التقوى فى الآخرة:

١ ـ إن التقوى سبب للإكرام عند الله عزّ وجلّ، قال تعالى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾(٨).

٢ ـ إن التقوى سبب للفوز والفلاح، قال تعالى: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ**

(١) انظر صحيح مسلم ـ كتاب الرؤيا ـ أحاديث ٣، ٤، ٦.
(٢) مسلم: كتاب البر ـ باب إذا أثنى على الصالح. . . صحيح مسلم ٤/ ٢٠٣٤.
(٣) سورة الأحزاب: الآية ٣٢.
(٤) سورة البقرة: الآية ١٨٠.
(٥) سورة البقرة: الآية ٢٤١.
(٦) سورة يوسف: الآية ٩٠.
(٧) سورة البقرة: الآيتان ١، ٢.
(٨) سورة الحجرات: الآية ١٣.

اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾[1].

٣ ـ إنها سبب للنجاة يوم القيامة من عذاب الله، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[2].

٤ ـ إنها سبب لقبول الأعمال، قال عزّ وجلّ: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى ﴾[3].

٥ ـ إن التقوى سبب قـوى لأن يرثوا الجنة، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾[4].

٦ ـ إن المتقين لهم فى الجنة غرف مبنية من فـوقها غرف، قال تعالى: ﴿ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ [5] وفى الحديث: (**إن فى الجنة لغرفـا يرى بطونها من ظهـورها، وظهور من بطونهـا. فـقال أعـرابى: لمن هى يـا رسول الله؟ قـال ﷺ : لمن أطالب الكلام وأطعم الطعام وصلى بالليل والناس نيام**)[6].

٧ ـ إنهم بسـبب تقواهم يكونون فـوق الذين كفروا يوم الـقيامـة فى محـشرهم ومنشرهم ومـسيرهم ومأواهم فاسـتقروا فى الدرجات فى أعلى عليـين، قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [7].

٨ - إنهـا سـبب فى دخـولهم الجنة؛ وذلك لأن الجنة أعـدت لهم، قـال تعـالى ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [8] . وقال

(١) سورة النور: الآية ٥٢.
(٢) سورة مريم: الآيتان ٧١، ٧٢.
(٣) سورة الليل: الآية ١٧.
(٤) سورة مريم: الآية ٦٣.
(٥) سورة الزمر: الآية ٢٠.
(٦) حسن. رواه الترمذى (/ ٣٥٤ كتاب البر، باب ما جاء فى قول المعروف.
(٧) سورة البقرة: الآية ٢١٢.
(٨) سورة آل عمران: الآية ٦٥.



تعـالى: ﴿ ولَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَـابِ آمَنُوا وَاتَّقَـوْا لَكَفَّـرْنَا عَنْهُمْ سَـيِّـئَـاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾(١).

٩ - إن التقوى سبب للتكفير من السيئات والعفو عن الزلات، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ (٢). وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ (٣).

١٠ -إن التقوى سبب ما تشتـهيه الأنفس وتلذ الأعين، قال تعالى: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴾(٤).

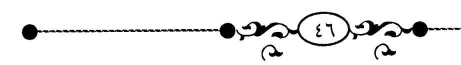
١١- إن التقوى سبب لعدم الخوف والحزن وعـدم المساس بالسوء يوم القيامة، قال تعالى : ﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٥) . وقال تعـالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَـاءَ اللَّهِ لا خَـوْفٌ عَلَيْـهِمْ وَلا هُمْ يَحْـزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَـانُوا يَتَّقُونَ﴾(٦).

١٢- إنهم يحشـرون يوم القيـامـة وفداً إليـه تعـالى - والوفـد هم القـادمـون ركباناً. .وهو خير موفود، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴾ (٧). قال ابن كثير : عن النعمان بن سعيد قال : (كنا جلوسا عند على رضى الله عنه فقرأ هذه الآية: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴾ قال : لا والله ما على أرجلهم يحشرون ولا يحشـر الوفد على أرجلهم، ولكن بنوق لم ير الخلائق مـثلها، وعليهـا رحائل من ذهب، فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنة).

١٣- إن الجنة تقـرب لهم، قـال تعـالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُـتَّـقِينَ ﴾ (٨) .وقال تعالى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾(٩)

١٤- إن تقواهم سبب فى عدم مساواتهم بالفجار والكفار، قال تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (١٠).

(١) سورة المائدة: الآية٦٥
(٢) سورة الطلاق : الآية ٥ .
(٣) سورة المائدة : الآية ٦٥
(٤) سورة النحل : الآية ٣١.
(٥) سورة الزمر : الآية ٦١
(٦) سورة يونس : الآيتان ٦٢, ٦٣
(٧) سورة مريم : الآية ٨٥.
(٨) سورة ق: الآية ٣١
(٩) سورة ق: الآية ٣١.
(١٠)سورة ص :الآية ٢٨



١٥- إن كل صحبة وصداقة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة إلى عداوة إلا صحبة المتقين، قال تعالى ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ (١).

١٦- إن لهم مقاما أمينا وجنات وعيونا . . . إلخ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ (٢).

١٧- إن لهم مقعد صدق عند مليك مقتدر، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾(٣).

١٨- إن التقوى سبب فى ورود الأنهار المختلفة: فهذا نهر من ماء غير آسن، وذلك نهر من لبن لم يتغير طعمه، وآخر من خمر لذة للشاربين، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ (٤). وفى الحديث أن النبى ﷺ قال: «**إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة وفوقه عرش الرحمن**»(٥).

١٩- إن التقوى سبب للسير تحت أشجار الجنة والتنغم بظلالها، قال تعالى ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٦). فعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن فى الجنة شجرة يسير الركب فى ظلها مائة عام لا يقطعها**» رواه البخارى (٧).

٢٠- إن لهم البشرى فى الآخرة بألا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقى الملائكة لهم، قال

---

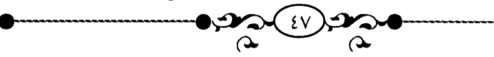
(١) سورة الزخرف: الآية ٦٧ (٢) سورة الدخان: الآية ٥١

(٣) سورة القمر: الآية ٥٤ (٤) سورة محمد: الآية ١٥.

(٥) البخارى: كتب الجهاد - باب درجات المجاهدين فى سبيل الله. فتح البارى ١١/٨

(٦) سورة المرسلات: الآيات ٤١-٤٢.

(٧) البخارى: كتاب بدء الخلق - باب ما جاء فى صفة الجنة أنها مخلوقة، وفتح البارى ٣١٧/٦.



تعالى ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾[١]. قال ابن كثير : وأما بشراهم فى الآخرة فكما قال تعالى: **﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون﴾** .

٢١- إن المتقين لهم نعم الدار، قال تعالى: ﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾[٢].

٢٢- إن المتقين تضاعف أجورهم وحسناتهم، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾ أى أجرين **﴿من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم﴾** [٣] و[٤].

قال القرطبى : قوله تعالى: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ﴾ الآية، أى لئن قصدت قتلى فأنا لا أقصد قتلك، فهذا استسلام منه... قال عبد الله بن عمرو وجمهور الناس : كان هابيل أشدُّ قوةمن قابيل ولكنه تحرج . قال ابن عطيه : هذا هو الأظهر، ومن ها هنا يقوى أن قابيل إنما هو عاص لا كافر، ولأنه لو كان كافراً لك يكن للتحرج هنا وجه، وإنما وجه التحرج فى هذا أن المتحرج يأبى أن يقاتل موحداً، ويرضى بأن يُظلم ليجازى فى الآخرة، ونحو هذا فعل عثمان رضى الله عنه[٥].

قوله تعالى ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾، أى من أن أصنع كما تريد أن تصنع بل أصبر وأحتسب[٦]. والخائف لله لا يقدم على الذنوب خصوصاً الذنوب الكبار، وفى هذا تخويف لمن يريد القتل وأنه ينبغى لك أن تتقى الله وتخافه[٧].

قوله تعالى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ **قال الشوكانى** : أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى

---

(١) سورة يونس : الآيات ٦٢-٦٤

(٢) سورة النحل : الآية ٣٠

(٣) سورة الحديد : الآية ٢٨

(٤) « دروس وفتاوى الحرم المكى » (٣/ ٣٢٤-٣٣٣)

(٥) تفسير القرطبى (٣/ ٢١٣٣)

(٦)« تفسير القرآن العظيم »ابن كثير (٢/ ٤٥)

(٧)«تيسير الكريم الرحمن» السعدى (٢/ ١٣١)

قوله: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ يقول : إنى أريد أن تكون عليك خطيئتك ودمى فتبوء بهما جميعاً . وأخرج ابن جرير عنه ﴿بِإِثْمِي﴾ قال: بقتلك إياى ﴿وَإِثْمِكَ﴾ قال: بما كان قبل ذلك [(1)].

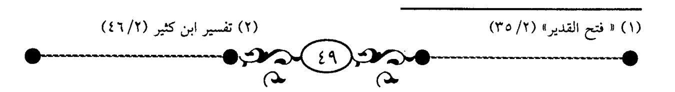
قال ابن كثير: قد يتوهم كثير من الناس هذا القول ويذكرون فى ذلك حديثاً لا أصل له « ما ترك القاتل على المقتول من ذنب»، وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثاً يشبه هذا ولكن ليس به . ثم ساق ابن كثير بإسناده -عن عائشة قالت :قال رسول الله ﷺ «**قتل الصبر لا يمر بذنب إلا محاه**» ثم قال: وهذا بهذا لا يصح ولو صح فمعناه إن الله يكفر عن المقتول بألم القتل ذنوبه، فأما أن تحمل على القاتل فلا، ولكن قد يتفق هذا فى بعض الأشخاص وهو الغالب فإن المقتول يطالب القاتل فى العرصات فيؤخذ له من حسناته بقدر مظلمته فإن نفدت ولم يستوف حقه أخذ من سيئات المقتول فطرحت على القاتل فربما لا.يبقى على المقتول خطيئة إلا وضعت على القاتل، وقد صح الحديث بذلك عن رسول الله ﷺ فى المظالم كلها والقتل من أعظمها وأشدها والله أعلم .

وأما ابن جرير فقال: والصواب من القول فى ذلك أن يقال: إن تأويله إنى أريد أن تنصرف بخطيئتك فى قتلك إياى وذلك هو معنى قوله: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ وأما معنى ﴿وَإِثْمِكَ﴾، فهو إثمه يعنى قتله وذلك معصية الله عزوجل فى أعمال سواه وإنما قلنا ذلك هو الصواب لإجماع أهل التأويل عليه، وأن الله عز وجل أخبرنا أن كل عامل فجزاء عمله له أوعليه وإذا كان هذا حكمه فى خلقه فغير جائز أن تكون آثام المقتول مأخوذاً بها القاتل، وإنما يؤخذ القاتل بإثمه بالقتل المحرّم وسائر آثام معاصيه التى ارتكبها بنفسه دون ما ركبه قتيله هذا لفظة، ثم أورد عل هذا سؤالاً حاصله كيف أراد هابيل أن يكون على أخيه قابيل إثم قتله مع أن قتله محرّم؟ وأجاب بما حاصله أن هابيل أخبر عن نفسه بأنه لا يقاتل آخاه إن قاتله بل يكف عنه يده طالباً إن وقع قتلٌ أن يكون من أخيه لا منه. قلت :وهذا كلام متضمن موعظة له لو اتعظ وزجراً لو انزجر ولهذا قال :﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾، أى تتحمل إثمى وإثمك ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ وقال ابن عباس: خوّفه بالنار فلم ينته ولم ينزجر[(2)].

---

(1) « فتح القدير» (٢/ ٣٥)

(2) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٦)



موقف المسلم من القتال فى الفتن

من أصول أهل السنة والجماعة ترك القتال فى الفتن؛ وذلك لما يترتب على القتال فى الفتنة من مفاسد عديدة وعواقب وخيمة.

وقد وردت أحاديث كثيرة يحذر فيها النبى ﷺ من القتال فى الفتن، ومن هذه الأحاديث.

١- عن بُسْر بن سعيد : أن سعد بن أبى وقاص قال عند فتنة عثمان بن عفان : أشهد أن رسول الله ﷺ قال : إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشى، والماشى خير من الساعى. قال : أفرأيت إن دخل علىّ بيتى فبسط يده إلىّ ليقتلنى؟ قال : كن كا بن آدم» [(١)].

ومعنى قول النبى ﷺ: « كن كابن آدم أى لا تقتله بل قل: لئن بسطت إلىّ يدك .... إلخ.

٢- عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن بين يدى الساعة لفتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسى كافراً، ويمسى مؤمناً ويصبح كافراً ، القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشى. والماشى خير من الساعى، كسروا قِسِيّكُم، وقطعوا أوتاركم، واضربوا بسيوفكم الحجارة، فإن دُخل على أحدٍ بيته فليكن كَخير ابْنى آدم» [(٢)].

٣- عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله ﷺ: « يا أبا ذر ، قلت لبيك يا رسول الله وسعديك، فذكر الحديث، قال فيه : كيف أنت إذا أصاب الناس موت يكون البيت فيه بالوصيف [(٣)]؟ قلت : الله ورسوله أعلم، أو قال : ما خار الله لى ورسوله، قال: عليك بالصبر، أو قال : تصبر، ثم قال لى : يا أبا ذر، قلت : لبيك وسعديك. قال : كيف أنت إذا رأيت أحجار الزيت قد غرقت بالدم [(٤)]؟ قلت: ما خار الله لى ورسوله، قال : عليك بمن أنت منه، قلت: يا رسول الله أفلا آخذ سيفى وأضعه على عاتقى؟ قال: شاركت القوم إذن، قلت: فما تأمرنى ؟. قال: تلزم بيتك، قلت:

(١) صحيح. رواه أحمد (١/ ١٨٥) وأبو داود (٤٢٥٧) والترمذى (٢١٩٤)

(٢) صحيح. رواه أحمد (٤/ ٤٠٨ و٤١٦) وأبو داود (٤٢٥٩) وابن شيبة (١٥/ ١٢) والترمذى (٢٢٠٤) وابن ماجه (٣٩٦١) وابن حبان (٥٩٦٢-احسان)

(٣) قوله : « يكون البيت فيه بالوصيف» البيت : القبر، والوصيف: الخادم والعبد، قال الخطابى فى «معالم السنن» (٤/ ٣٢٢): يريد أن الناس يشتغلون عن دفن موتاهم حتى لا يوجد فيهم من يحفر قبراً لميت ويدفنه إلا أن يعطى وصيفاً أو قيمته. وقد يكون معناه أن مواضع القبور تضيق عنهم، فيبتاعو لموتاهم القبور كل قبر بوصيف

(٤) أحجار الزيت : موضع بالمدينة، والمعنى أنه يغمر بالدماء لكثرة القتلى .



فإن دخل بيتى ؟. قال :فإن خشيت أن يبهرك شعاع السيف [١]فألق ثوبك على وجهك يبوء بإثمك وإثمه»[٢].

وقول النبى ﷺ لأبى ذر : «عليك بمن أنت منه»، أى الزم أهلك وعشيرتك الذين أنت منهم،وقيل: المراد بمن أنت منه الإمام، أى الزم إمامك ومن بايعته.قوله: «شاركت القوم» أى فى الإثم ....أى إذا أخذت السيف ووضعته على عاتقك. قال ابن الملك رحمه الله: قوله:شاركت لتأكيد الزجر عن إراقة الدماء وإلا فالدفع واجب.

قال القارىء : والصواب أن الدفع جائز إذا كان الخصم مسلماً إن لم يترتب عليه فساد بخلاف ما إذا كان العدو كافراً فإنه يجب الدفع مهما أمكن [٣].

٤- عن أبى كبشة، قال : سمعت أبا موسى يقول : قال رسول الله ﷺ : «إن بين أيديكم فتناً كقطع الليل المظلم ،يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسى كافراً، ويمسى مؤمناً ويصبح كافراً، القاعد فيها خير من القائم .والقائم فيها خير من الماشى والماشى فيها خير من الساعى ، قالوا : فما تأمرنا؟. قال : كونوا أحلاس [٤] بيوتكم» [٥].

٥- عن المقداد بن الأسود رضى الله عنه قال : أيم الله ،لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول :« إن السعيد لمن جُنِّب الفتن، إن السعيد لمن جنب الفتن، إن السعيد لمن الفتن ولمن ابْتُلى فصبر فواها [٦]»[٧].

قال النووى : هذا الحديث[٨].وما فى معناه مما يحتج به من لا يرى القتال فى الفتنة بكل حال .وقد اختلف العلماء فى قتال الفتنة، فقالت طائفة: لا يقاتل فى فتن المسلمين وإن دخلوا عليه بيته وطلبوا قتله، فلا يجوز له المدافعة عن نفسه؛ لأن الطالب متأول وهذا مذهب أبى بكرة رضى الله عنه وغيره. وقال ابن عمر وعمران بن الحصين

---

(١) قوله : « يبهرك شعاع السيف» أى يغلبك ضوؤه وبريقه وهو كناية عن إعمال السيف.

(٢)صحيح .رواه أبو داود (٤٢٦١) والطيالسى (٤٥٩) وابن ماجة (٨/ ٩٣٥) والحاكم (٤/ ٤٢٤) وابن حبان (٥٩٦٠-احسان) والبيهقى (٨/ ١٩١و٢٦٩) وانظر «الإرواء»(٨/ ١٠١)

(٣) « عون المعبود» شمس الحق العظيم آبادى (١١/ ٣٤٢-٣٤٣)

(٤) أحلاس : جمع حلس، وهو الكساء الذى يلى ظهر البعير تحت القتب،والمعنى : الزموا بيوتكم.

(٥)صحيح . رواه أبو داود (٤٢٦٢) كتاب الفتن، باب: النهى عن السعى فى الفتنة.

(٦) فواها: معناه التلهف و التحسر ،أى واها لمن باشر الفتنة وسعى فيها

(٧)صحيح . رواه أبو داود (٤٢٦٣)

(٨) أى حديث سعد بن أبى وقاص: «كن كابن آدم»

رضى الله عنهم وغيرهما: لا يدخل فيها لكن إن قصد الدفع عن نفسه فهذان المذهبان متفقان على ترك الدخول فى جميع فتن الإسلام. وقال معظم الصحابة والتابعين وعامة علماء الإسلام : يجب نصر المحق فى الفتن والقيام معه بمقاتلة الباغين كما قال تعالى: **﴿فقاتلوا التى تبغى﴾** [سورة الحجرات:٩] الآية .وهذا هو الصحيح، وتتأول الأحاديث على من لم يظهر له الحق أو على طائفتين ظالمتين لا تأويل لواحد منهما. ولو كان كما قال الأولون لظهر الفساد واستطال أهل البغى والمبطلون . إنتهى (١).

الحسدُ وعاقبته والوقاية منه

قال تعالى : **﴿فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين﴾** سولت نفس قابيل له أن يقتل أخاه هابيل، والذى حمل قابيل على قتل أقرب الناس إليه، هو الحسد والحسد داءٌ فتاك يفتك بصاحبه ويورده المهالك، وبسبب الحسد أصبح قابيل **﴿من الخاسرين﴾** فالحاسد هو الخاسر .

قال ابن القيم فى تفسيره سورة الفلق: وأصل الحسد هو بغض نعمة الله على المحسود وتمنى زوالها .

فالحاسد عدو النعم، وهذا الشر هو من نفسه وطبعها، وليس هو شيئا اكتسبه من غيرها، بل هو من خبثها وشرها . . . .

وللحسد ثلاث مراتب: أحداها هذه [أى بغض نعمة الله على المحسود وتمنى زوالها].

والثانية : تمنى استصحاب عدم النعمة. فهو يكره أن يُحدث الله لعبده نعمة ، بل يحب أن يبقى على حاله من جهله، أو فقره، أو ضعفه، أو شتات قلبه عن الله، أو قلة دينه. فهو يتمنى دوام ما هو فيه من نقص وعيب. فهذا حسد على شيء مُقَدَّرٌ والأول حسد على شيء محقق . وكلاهما حاسد، وعدو نعمة الله، وعدو عباده،و ممقوت عند الله تعالى ، وعند الناس. ولا يسود أبداً، ولايواسى فإن الناس لا يُسَوِّدون عليهم إلا من يريد الاحسان إليهم، فأما عدو نعمة الله عليهم فلا يُسَوِّدونه باختيارهم أبداً إلا قهراً يعدونه من البلاء والمصائب التى ابتلاهم الله بها ،فهم يبغضونه وهو يبغضهم.

---

(١) «تحفة الأحوذى» المباركفورى (٦/٤٣٧) ط دار الفكر -بيروت

والحسد الثالث: حسد الغبطة، وهو تمنى أن يكون له مثل حال المحسود من غير أن تزول النعمة عنه. فهذا لا بأس به، ولايعاب صاحبه، بل هذا قريب من المنافسة. وقد قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، وفى الصحيح عن النبى ﷺ: أنه قال **«لا حسد إلافى اثنتين: رجل آتاه الله مالا، وسلطه على هلكته فى الحق. ورجل آتاه الله الحكمة. فهو يقضى بها ويعلمها الناس»**[1]، فهذا حسد غبطة، الحامل لصاحبه عليه كِبرَ نفسه، وحب خصال الخير، والتشبه بأهلها، والدخول فى جملتهم، وأن يكون من سُبَّاقهم وعِلْيهم ومُصَلِّيهم لا من فساكلهم[2] فتحدث له من هذه الهمة المنافسة والمسابقة والمسارعة، مع محبته لمن يغبطه، وتمنى دوام نعمة الله عليه. فهذا لا يدخل فى الآية بوجه ما.

فهذه السورة[3] من أكبر أدوية الحسد. فإنها تتضمن التوكل على الله، والالتجاء إليه، والاستعاذة به من شر حاسد النعمة، فهو مستعيذ بولى النعم ومُوليها. كأنه يقول: يا من أولانى نعمته وأسداها إلىَّ أنا عائذ بك من شر من يريد أن يستلبها منى، ويزيلها عنى. وهو حَسْب من توكل عليه، وكافى من لجأ إليه، وهو الذى يُؤَمِّنُ خوف الخائف، ويجير المستجير. وهو نعم المولى ونعم النصير. فمن تولاه واستنصر به، وتوكل عليه وانقطع بكليته إليه، تولاه وحفظه وحرسه وصانه. ومن خافه واتقاه أمّنه مما يخاف ويحذر. وجلب إليه كل ما يحتاج إليه من المنافع ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣] فلا تستبطىء نصره ورزقه وعافيته. فإن الله بالغٌ أمره. وقد جعل الله لكل شىء قدراً. لا يتقدم عنه ولا يتأخر. ومن لم يَخَفْه أخافه من كل شىء، وما خاف أحد غير الله إلا لنقص خوفه من الله. قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٨، ١٠٠] وقال: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، أى يخوفكم بأوليائه، ويعظمهم

---

(١) رواه البخارى (٧٣) كتاب العلم، باب: الاغتباط فى العلم والحكمة. ومسلم (١٨٦٥) كتاب الصلاة باب: من يقوم بالقرآن ويعلمه. من حديث ابن مسعود رضى الله عنه.

(٢) الفسكل ـ بوزن قنفذ ـ الفرس الذى يجىء فى حلبة السباق آخر الخيل.

(٣) أى سورة الفلق.

فى صدوركم. فلا تخافوهم، وأفردونى بالمخافة أكفكم إياهم.

الأسباب التى تدفع شر الحاسد عن المحسود

ويندفع شر الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب.

أحدها: التعوذ بالله من شره، والتحصن به والالتجاء إليه. وهو المقصود بهذه السورة، والله تعالى سميع لاستعاذته، عليم بما يستعيذ منه، والسمع هنا المراد به: سمع الإجابة: لا السمع العام. فهو مثل قوله «سمع الله لمن حمده» وقول الخليل ﷺ ﴿**إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ**﴾ [إبراهيم: ٣٩] ومرة يقرنه بالعلم، ومرة بالبصر، لاقتضاء حال المستعيذ ذلك. فإنه يستعيذ به من عدو يعلم أن الله يراه، ويعلم كيده وشره. فأخبر الله تعالى هذا المستعيذ أنه سميع لاستعاذته، أى مجيب، عليم بكيد عدوه، يراه ويبصره، لينبسط أمل المستعيذ، ويقبل بقلبه على الدعاء وتأمل حكمة القرآن، كيف جاء فى الاستعاذة من الشيطان الذى نعلم وجوده ولا نراه بلفظ «السميع العليم» فى الأعراف وحم السجدة. وجاءت الاستعاذة من شر الإنس الذين يُؤنَسون ويُرون بالأبصار بلفظ «السميع البصير» فى سورة حم المؤمن. فقال: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [غافر: ٥٦] لأن أفعال هؤلاء أفعال معاينَة تُرى بالبصر، وأما نزغ الشيطان فوساوس، وخطرات يلقيها فى القلب، يتعلق بها العلم. فأمر بالاستعاذة بالسميع العليم فيها. وأمر بالاستعاذة بالسميع البصير فى باب ما يُرى بالبصر، ويدرك بالرؤية. والله أعلم.

السبب الثانى: تقوى الله، وحفظه عند أمره ونهيه. فمن اتقى الله تولَّى الله حفظه، ولم يَكِلْه إلى غيره. قال تعالى ﴿**وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا**﴾ [آل عمران: ١٢٠] وقال النبى ﷺ لعبد الله بن عباس «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك**»[١] فمن حفظ الله حفظه الله، ووجده أمامه أينما توجه. ومن كان الله حافظه وأمامه فممن يخاف؟ ومن يحذر؟

السبب الثالث: الصبر على عدوه، وأن لا يقاتله ولا يشكوه، ولا يحدث نفسه بأذاه أصلا. فما نُصر على حاسده وعدوه بمثل الصبر عليه، والتوكل على الله ولا

(١) صحيح. رواه أحمد (١/٢٩٣) والترمذى (٢٥١٦) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما. وقال الترمذى: حسن صحيح.

يستطل تأخيره وبغيه. فإنه كلما بغى عليه كان بغيه جنداً وقوة للمبغى عليه المحسود، يقاتل به الباغى نفسه. وهو لا يشعر. فبغيه سهام يرميها من نفسه إلى نفسه. ولو رأى المبغى عليه ذلك لسرَّه بغيه عليه. ولكن لضعف بصيرته لا يرى إلا صورة البغى، دون آخره ومآله. وقد قال تعالى: ﴿ **وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ** ﴾ [الحج: ٦٠] فإذا كان الله قد ضمن له النصر، مع أنه قد استوفى حقه أولا، فكيف بمن لم يستوف شيئاً من حقه، بل بُغى عليه وهو صابر؟ وما من الذنوب ذنب أسرع عقوبة من البغى وقطيعة الرحم. وقد سبقت سنة الله: أنه لو بغى جبل على جبل لجعل الباغى منهما دكاً.

السبب الرابع: التوكل على الله، فمن يتوكل على الله فهو حسبه. والتوكل من أقوى الأسباب التى يدفع بها العبد مالا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم. وهو من أقوى الأسباب فى ذلك. فإن الله حسبه، أى كافيه. ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه، ولا يضره إلا أذى لابد منه، كالحر والبرد، والجوع والعطش، وإما أن يضره بما يبلغ منه مراد فلا يكون أبداً.

وفرق بين الأذى الذى هو فى الظاهر إيذاء له، وهو فى الحقيقة إحسان إليه وإضرار بنفسه، وبين الضرر الذى يتشفى به منه. قال بعض السلف: جعل الله لكل عمل جزاء من جنسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده، فقال: ﴿ **وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** ﴾ [الطلاق: ٣] ولم يقل: نؤته كذا وكذا من الأجر كما قال فى الأعمال، بل جعل نفسه سبحانه كافى عبده المتوكل عليه وحسبه، وواقيه، فلو توكل العبد على الله حق توكله وكادته السموات والأرض ومن فيهن لجعل له ربه مخرجاً من ذلك، وكفاه ونصره...

السبب الخامس: فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه، وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له. فلا يلتفت إليه، ولا يخافه، ولا يملأ قلبه بالفكر فيه، وهذا من أنفع الأدوية، وأقوى الأسباب المعينة على اندفاع شره. فإن هذا بمنزلة من يطلبه عدوه ليمسكه ويؤذيه، فإذا لم يتعرض له ولا تماسك هو وإياه، بل انعزل عنه لم يقدر عليه. فإذا تماسكا وتعلق كل منهما بصاحبه، حصل الشر وهكذا الأرواح سواء. فإذا علق روحه وشبَّثها به، وروح الحاسد الباغى متعلقة به يقظة ومناماً، لا يفتُر عنه، وهو يتمنى أن يتماسك الروحان ويتشبثا. فإذا تعلقت كل روح منهما بالأخرى عُدِمَ القرار. ودام



الشر، حتى يهلك أحدهما. فإذا جَبذَ روحه منه، وصانها عن الفكر فيه والتعلق به، وأن لا يخطره بباله. فإذا خطر بباله بادر إلى محو ذلك الخاطر، والاشتغال بما هو أنفع له وأولى به. بقى الحاسد الباغى يأكل بعضه بعضاً. فإن الحسد كالنار، فإذا لم تجد ما تأكله أكل بعضها بعضا.

وهذا باب عظيم النفع لا يُلَقَّاه إلا أصحاب النفوس الشريفة والهمم العلية، وبين الكيس الفطن وبينه حتى يذوق حلاوته وطيبه ونعيمه كأنه يرى من أعظم عذاب القلب والروح اشتغاله بعدوه، وتعلق روحه به، ولا يرى شيئا آلم لروحه من ذلك، ولا يصدق بهذا إلا النفوس المطمئنة الوادعة اللينة، التى رضيت بوكالة الله لها، وعلمت أن نصره لها خير من انتصارها هى لنفسها. فوثقت بالله، وسكنت إليه، واطمأنت به، وعلمت أن ضمانه حق، ووعده صدق، وأنه لا أوفى بعهده من الله، ولا أصدق منه قليلا. فعلمت أن نصره لها أقوى وأثبت وأدوم، وأعظم فائدة من نصرها هى لنفسها، أو نصر مخلوق مثلها لها، ولا يقوى على هذا إلا بالسبب السادس:

وهو الإقبال على الله، والإخلاص له، وجعل محبته ورضاه والإنابة إليه فى محل خواطر نفسه، وأمانيها تدب فيها دبيب تلك الخواطر شيئاً فشيئاً، حتى يقهرها ويغمرها ويذهبها بالكلية. فتبقى خواطره وهواجسه وأمانيه كلها فى محاب الرب، والتقرب إليه وتملقه وترضيه، واستعطافه وذكره، كما يذكر المحب التام المحبة محبوبه المحسن إليه الذى قد امتلأت جوانحه من حبه. فلا يستطيع قلبه انصرافاً عن ذكره، ولا روحه انصرافاً عن محبته. فإذا صار كذلك فكيف يرضى لنفسه أن يجعل بيت أفكاره وقلبه معمورا بالفكر فى حاسده والباغى عليه، والطريق إلى الانتقام منه، والتدبير عليه؟ هذا ما لا يتسع إلا قلب خراب لم تسكن فيه محبة الله وإجلاله، وطلب مرضاته. بل إذا مَسَّه طيْف من ذلك واجتاز ببابه من خارج، ناداه حرس قلبه: إياك وحِمَى الملك. اذهب إلى بيوت الخانات التى كل من جاء حَلَّ فيها، ونزل بها. مالَكَ ولبيت السلطان الذى أقام عليه اليَزَك وأدار عليه الحرس، وأحاطه بالسور، قال تعالى حكاية عن عدوه إبليس: أنه قال: **﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾** [سورة ص: ٨٢ ـ ٨٣] فقال تعالى: **﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾** [الحجر: ٤٢] وقال: **﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾** [النحل: ٩٩ ـ ١٠٠] وقال فى حق الصديق يوسف ﷺ: **﴿كَذَٰلِكَ**

لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ [يوسف: ٢٤].

فما أعظم سعادة من دخل هذا الحصن، وصار داخل اليَزَك، لقد آوى إلى حصن لا خوف على من تحصَّن به. ولا ضيعة على من آوى إليه، ولا مطمع للعدو فى الدنو إليه منه ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾[سورة الحديد: ٢١].

السبب السابع: تجريد التوبة إلى الله من الذنوب التى سلطت عليه أعداءه، فإن الله تعالى يقول: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾ [الشورى: ٣٠] وقال لخير الخلق، وهم أصحاب نبيه دونه ﷺ ﴿ أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم﴾ [آل عمران: ١٦٥].

فما سلط على العبد من يؤذيه إلا بذنب يعلمه أو لا يعلمه، وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف ما يعلمه منها. وما ينساه مما عمله أضعاف ما يذكره.

وفى الدعاء المشهور «اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم. وأستغفرك لما لا أعلم».

فما يحتاج العبد إلى الأستغفار منه مما لا يعلمه أضعاف أضعاف ما يعلمه. فما سلط عليه مؤذ إلا بذنب.

ولقى بعض السلف رجل فأغلظ له ونال منه، فقال له: قف حتى أدخل البيت، ثم أخرج إليك. فدخل فسجد لله وتضرع إليه وتاب، وأناب إلى ربه. ثم خرج إليه فقال له: ما صنعت؟ فقال: تبت إلى الله من الذنب الذى سلطك به عليَّ.

وليس فى الوجود شر إلا الذنوب وموجباتها. فإذا عوفى العبد من الذنوب عوفى من موجباتها، فليس للعبد إذا بغى عليه وأوذى وتسلط عليه خصومه شيء أنفع له من التوبة النصوح.

وعلامة سعادته: أن يعكس فكره ونظره على نفسه وذنوبه وعيوبه، فيشتغل بها وبصلاحها وبالتوبة منها. فلا يبقى فيه فراغ لتدبر ما نزل به، بل يتولى هو التوبة وإصلاح عيوبه. والله يتولى نصرته وحفظه، والدفع عنه ولابد فما أسعده من عبد، وما أبركها من نازلة نزلت به. وما أحسن أثرها عليه، ولكن التوفيق والرشد بيد الله: لا مانع لما أعطى، ولا معطى لما منع . فما كل أحد يوفق لهذا. لا معرفة به، ولا إرادة له، ولا قدرة عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

السبب الثامن: الصدقة والإحسان ما أمكنه. فإن لذلك تأثيراً عجيباً فى دفع البلاء، ودفع العين، وشر الحاسد. ولو لم يكن فى هذا إلا بتجارب الأمم قديماً وحديثاً لكفى به. فما تكاد العين والحسد والأذى يتسلط على محسن متصدق، وإن أصابه شىء من ذلك كان معاملاً فيه باللطف والمعونة والتأييد. وكانت له فيه العاقبة الحميدة.

فالمحسن المتصدق فى خفارة إحسانه وصدقته، عليه من الله جُنَّة واقية وحصن حصين.

وبالجملة: فالشكر حارس النعمة من كل ما يكون سببا لزوالها.

ومن أقوى الأسباب: حسد الحاسد والعائن. فإنه لا يفتر ولا ينى، ولا يبرد قلبه حتى تزول النعمة عن المحسود. فحينئذ يبرد أنينه، وتنطفىء ناره، لا أطفأها الله. فما حرس العبد نعمة الله عليه بمثل شكرها، ولا عرضها للزوال بمثل العمل فيها بمعاصى الله. وهو كفران النعمة. وهو باب إلى كفران المنعم.

فالمحسن المتصدق يستخدم جنداً وعسكراً يقاتلون عنه وهو نائم على فراشه، فمن لم يكن له جند ولا عسكر، وله عدو. فإنه يوشك أن يظفر به عدوه، وإن تأخرت مدة الظفر. والله المستعان.

السبب التاسع: وهو من أصعب الأسباب على النفس، وأشقها عليها، ولا يوفق له إلا من عَظُم حظه من الله ـ وهو إطفاء نار الحاسد والباغى والمؤذى بالإحسان إليه. فكلما ازداد أذًى وشرًا وبغياً وحسدًا ازددت إليه إحساناً، وله نصيحة، وعليه شفقة. وما أظنك تُصدِّق بأن هذا يكون، فضلاً عن أن تتعاطاه.

فاسمع الآن قوله عز وجل: ﴿ **وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ .وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ .وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ [فصلت: ٣٤ ـ ٣٦] وقال: ﴿ **أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾ [القصص: ٥٤].

وتأمل حال النبى ﷺ إذ ضربه قومه حتى أدموه. فجعل يَمْسَحُ الدم عنه، ويقول: «**اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون**» كيف جمع فى هذه الكلمات أربع مقامات من الإحسان، قابل بها إساءتهم العظيمة إليه؟

أحدها: عفـوه عنهم. والثاني: استـغفاره لهم. والثالث: اعـتذاره عنهم بأنهم لا يعلمون. والرابع: استعطافه لهم بإضافتهم إليه. فقال: «اغفر لقومى» كما يقول الرجل لمن يشفع عنده فيمن يتصل به: هذا ولدى: هذا غلامى. هذا صاحبى، فَهَبْه لى.

واسمع الآن ما الذى يسهل هذا على النفس، ويَطيبه إليها ويُنْعمها به.

اعلم أن لك ذنوباً بينك وبين الله، تخاف عواقبها، وترجوه أن يعفو عنها ويغفرها لك ويهبـها لك. ومع هذا لا يقتصـر على مجرد العـفو والمسامحـة، حتى ينعم عليك ويكرمك، ويجلب إليك من المنافع والإحسان فـوق ما تؤمله. فإذا كنت ترجو هذا من ربك، وتحب أن يقابل به إسـاءتك، فما أولاك وأجدرك أن تعامل به خلـقه، وتقابل به إساءتهم؟ ليعاملك الله تلك المعاملة. فـإن الجزاء من جنس العمل فكما تعمل مع الناس فى إساءتهم فى حـقك يفعل الله معك فى ذنوبك وإساءتك، جـزاءً وفاقاً. فانتـقم بعد ذلك، أو اعف، وأحـسن أو اترك. فكمـا تَدين تدان، وكمـا تفـعل مع عـباده يفـعل معك[1].

فمن تصور هذا المعنى، وشغل به فكره. هان عليه الإحسان إلى من أساء إليه.

وهذا مع ما يحصل له بذلك من نصـر الله ومعيته الخاصة. كـما قال النبى ﷺ للذى شكى إليه قرابته، وأنه يحسن إليهم، وهم يسيؤون إليه. فقال: «**لا يزال معك من الله ظهير، ما دمت على ذلك**».

هذا مع ما يتعجله من ثناء الناس عليه، ويصيرون كلهم معه على خصمه. فإن كل من سمع أنه مـحسن إلى ذلك الغيـر، وهو مسىء إليه. وجـد قلبه ودعاءه وهمـته مع المحسن على المسىء. وذلك أمر فطرى، فطر الله عـليه عباده. فهو بهـذا الإحسان، قد استخدم عسكراً لا يعرفهم ولا يعرفونه، ولا يريدون منه إقطاعاً ولا خبزاً.

هذا مع أنه لابد له مع عدوه وحـاسده من إحدى حالتين: إما أن يملـكه بإحسانه، فيستعبده وينقاد له، ويـذل له، ويبقى الناس إليه. وإما أن يفتت كبده ويقطع دابره، إن أقام على إساءته إليه. فإنه يذيقه بإحسانـه أضعاف ما ينال منه بإنتقامه، ومن جرب هذا عرفه حق المعرفة. والله هو الموفق والمعين بيـده الخير كله، لا إله غيره، وهو المسؤل أن

(1) وفى هذا أنزل الله فى شـأن الصديق رضـى الله عنه حين أقسم أن لا ينفـق على مسطح، لما خـاض فى حديث الإفك ﴿**ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يوتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله. وليعفوا وليصفحوا. ألا تحبون أن يغفر الله لكم؟ والله غفور رحيم**﴾ [النور: ٢٢]..

يستعملنا وإخواننا فى ذلك بمنه وكرمه.

السبب العاشر: وهو الجامع لذلك كله، وعليه مدار هذه الأسباب، وهو تجريد التوحيد، والترحل بالفكر فى الأسباب إلى المسبب العزيز الحكيم، والعلم بأن هذه الآلات بمنزلة حركات الرياح، وهى بيد محركها، وفاطرها وبارئها، ولا تضر ولا تنفع إلا بإذنه. فهو الذى يحسن عبده بها. وهو الذى يصرفها عنه وحده لا أحد سواه. قال تعالى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧] ،وقال النبى ﷺ لعبد الله بن عباس رضى الله عنهما: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء كتبه الله عليك**»[1].

فإذا جرد العبد التوحيد فقد خرج من قلبه خوف ما سواه، وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع الله، بل يَفرد الله بالمخافة وقد أمنه منه. وخرج من قلبه اهتمامه به، واشتغاله به وفكره فيه، وتجرد لله محبةً وخشيةً وإنابةً وتوكلاً، واشتغالاً به عن غيره، فيرى أن إعماله فكره فى أمر عدوه وخوفه منه واشتغاله به من نقص توحيده، وإلا فلو جرد توحيده لكان له فيه شغل شاغل، والله يتولى حفظه والدفع عنه، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، فإن كان مؤمناً بالله فالله يدافع عنه ولابد. وبحسب إيمانه يكون دفاع الله عنه. فإن كمل إيمانه كان دفع الله عنه أتم دفع، وإن مزج، مزج له. وإن كان مرة ومرة فالله له مرة ومرة، كما قال بعض السلف: من أقبل على الله بكليته أقبل الله عليه جملة. ومن أعرض عن الله بكليته أعرض الله عنه جملة. ومن كان مرة ومرة فالله له مرة ومرة.

فالتوحيد حصن الله الأعظم الذى من دخله كان من الآمنين، قال بعض السلف: من خاف الله خافه كل شىء. ومن لم يخف الله أخافه من كل شىء.

هذه عشرة أسباب يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر، وليس له أنفع من التوجه إلى الله وإقباله عليه، وتوكله عليه، وثقته به، وأن لا يخاف معه غيره، بل يكون خوفه منه وحده، ولا يرجو سواه، بل يرجوه وحده، فلا يعلق قلبه بغيره، ولا يستغيث بسواه. ولا يرجو إلا إياه. ومتى علّق قلبه بغيره ورجاه وخافه: وُكل إليه وخذل من جهته. فمن خاف شيئاً غير الله سلّط عليه. ومن رجا شيئاً سوى الله خُذل

(١) سبق تخريجه، وهو بقية حديث «احفظ الله يحفظك».

من جهته وحُرِم خيره. هذه سنة الله في خلقه. ولن تجد لسنة الله تبديلا[1].

كيف يعالج الحاسد نفسه:

قال الشيخ ابن عثيمين: الحسد داء عضال يأتي من نفوس شريرة لا تريد الخير لذات الخير بل تريد الخير لها، فإذا رأته كرهته وإن لم تتمن زواله أو لم يتمن كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية.

ويعالج هذا المرض في النفس بأمور:

الأول: أن يعلم أن هذه النعمة من فضل الله، يقول سبحانه: ﴿**أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ**﴾[2]، وهي من فعل الله، والحسد يتضمن التسخط من تقدير الله، وإذا علم المؤمن ذلك فسيكف عن هذا الطبع.

الثاني: أن يعلم أنه لا يستفيد من الحسد إلا كثرة السيئات وذهاب الحسنات، ولهذا نقول: الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

الثالث: أن يعلم أن الحسد لا يزيده إلا غماً وهماً وتزيد حسرته كلما زادت نعم الله على عباده.

الرابع: أن يعلم أن الحسد لا يمنع فضل الله عن المحسود فيعلم أن حسده لا فائدة منه.

الخامس: أن يعلم أنه إذا اشتغل بالحسد فسينشغل عن مصالحه الخاصة فتجد الحاسد يتتبع أخبار المحسود وما جاءه من مال أو ولد أو علم أو خير.

وبالتأمل ستجد أشياء أخرى تعين عن التخلي عن الحسد[3].

●●●●●

(١) «التفسير القيم» ص٥٨٥ ـ ٥٩٤ باختصار يسير.

(٢) سورة النساء: آية: ٥٤.

(٣) «دروس وفتاوى الحرم المكي» (٣/ ٣٦٣ ـ ٣٦٤).

السُّنَّة السيئة

كان قابيل هو أول من سن القتل ظلماً وعدواناً، وقد عوقب على ذلك بقول النبى ﷺ: «لا تُقْتَلُ نفسٌ ظلمـاً، إلا كان على ابن آدم الأول كفلٌ[1] من دمها، لأنه أول من سن القتل»[2].

قال النووى: هذا الحديث من قواعد الإسلام، وهو أن كل من ابتدع شيئاً من الشر كان عليه مثل وزر كل مـن اقتدى به فى ذلك العمل مثل عمله إلى يوم القـيامة، ومثله من ابتدع شيئاً من الخير كان له مـثل أجر كل من يعمل به إلى يوم القيامة، وهو موافق للحديث الصحيح: «من سن سنة حسنة ومن سن سنة سيئة»، وللحديث الصحيح «من دل على خير فله مثل أجر فاعله» وللحديث الصحيح: «ما من داع يدعو إلى هدى وما من داع يدعو إلى ضلالة» والله أعلم[3].

●●●●●

(١) أى نصيب.

(٢) رواه البـخارى (٦٨٦٧) كـتـاب الديات، باب: قـول الله تعـالى: ﴿ ومن أحيـاها.. ﴾ الآية. ومـسلم (٤٣٠٠) كتاب الحدود، باب: بيان إثم من سن القـتل. والنسائى فى «تحريم الدم» (٧/ ٨١) باب: تحريم الدم. وأحمد (١/ ٤٣٣) وابن ماجه فى «الديات» (٢٦١٦) باب: التغليظ فى قتل مسلم ظلماً.

(٣) «شرح النووى على صحيح مسلم» (٥/ ٥٢٤) ط دار الغد العربى.

درسٌ من الغراب

قال تعالى: ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾.

لمّا قتل قابيل أخاه هابيل تركه فى العراء ولم يدر كيف يصنع به؛ لأنه أول ميت مات من بنى آدم، فبعث الله غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه، فحفر له ثم حثى عليه، فلما رآه قال: ﴿ يَاوَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾ فدفن أخاه.

قال القرطبى: بعث الله الغراب حكمة، ليرى ابن آدم كيفية المواراة، وهو معنى قوله تعالى: **﴿ثم أماته فأقبره﴾** فصار فعل الغراب فى المواراة سنّة باقية فى الخلق، فرضاً على جميع الناس على الكفاية، من فعله منهم سقط فرضه عن الباقين[1].

بعض الأحكام المتعلقة بدفن الميت

١ ـ يجب دفن الميت لأن فى دفنه تكريم له، وقد كرّم الله الإنسان حياً وميتاً، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠] ولو لم يدفن لتخطفته السِّباع، ونزلت عليه الطيور، وانتشرت منه الميكروبات هنا وهناك، وأصبح فى منظر مهين ونحن نتألم لمنظر المصلوب والمشنوق، فما بالنا إذا رأينا جثة آدمى تحوم حولها الحيوانات والطيور، ولتكريم الإنسان نهانا الإسلام عن العبث بجثته فلا تمزيق، ولا تمثيل[2]، وقد قال النبى ﷺ: «كسر عظم الميت ككسره حياً»[3].

٢ ـ إذا مات إنسان فى سفينة فإن كان يرجى دفنه بعد قليل بحيث لا يتغير ولا يخشى عليه الفساد ينتظر به اليوم واليومين، وإلا غسل وكفن وحنط ويصلى عليه ويثقل بشىء ويلقى فى الماء.

٣ ـ لا يجوز دفن الميت فى المسجد أو فى البيت؛ لأن النبى ﷺ كان يدفن

(١) تفسير القرطبى (٣/ ٢١٤٠).

(٢) «الحقوق المتعلقة بالميت» محمد على أبو العباس. ص ٧٥ باختصار يسير.

(٣) صحيح. رواه أحمد (٦/ ١٠٠، ١٠٥) وأبو داود (٣٢٠٧) من حديث عائشة رضى الله عنها.

الموتى فى مقبرة البقيع كما تواترت الأخبار بذلك.. ولم ينقل عن أحد من السلف أنه دفن فى غير المقبرة إلا ما ما تواتر أيضا عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم دفن فى حجرته، وذلك من خصوصياته عليه السلام، كما دل عليه حديث عائشة رضى الله عنها قالت: لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اختلفوا فى دفنه، فقال أبو بكر: سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئا ما نسيته، قال: ما قبض الله نبيا إلا فى الموضع الذى يجب أن يدفن فيه، فدفنوه فى موضع فراشه، أخرجه الترمذى وابن ماجه وغيرهما بسند صحيح.

وقد استنبط البخارى الكراهة من قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «اجعلوا فى بيوتكم من صلاتكم، ولا تتخذوها قبورا» قال الحافظ: «ولفظ حديث أبى هريرة عند مسلم أصرح من حديث الباب وهو قوله: ﴿**لا تجعلوا بيوتكم مقابر**﴾ فإن ظاهره يقتضى النهى عن الدفن فى البيوت مطلقاً، ويستثنى مما سبق الشهداء فى المعركة، فإنهم يدفنون فى مواطن استشهادهم، ولا ينقلون إلى المقابر لحديث جابر رضى الله عنه قال: «خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من المدينة إلى المشركين ليقاتلهم، وقال أبو عبد الله: يا جابر بن عبد الله لا عليك أن تكون فى نظارى أهل المدينة حتى تعلم إلى ما يصير أمرنا، فإنى والله لولا أنى أترك بنات لى بعدى لاحببت أن تقتل بين يدى، قال: فبينما أنا فى النظارين إذ جاءت عمتى بأبى وخالى عادلتهما على ناضح، فدخلت بهما المدينة لتدفنهما فى مقابرنا - إذ لحق رجل ينادى: ألا أن رسول الله صلى الله عليه وآله سلم يأمركم أن ترجعوا بالقتلى فتدفنوها فى مصارعها حيث قتلت، فرجعنا بهما فدفناهما حيث قتلا»[1].

٤ - يجوز للزوج أن يتولى بنفسه دفن زوجته، لحديث عائشة رضى الله عنها قالت: «دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى اليوم الذى برىء فيه، فقلت: وارأساه، فقال: وددت أن ذلك كان وأنا حى، فهيأتك ودفنتك، قالت: فقلت غيرى: كأنى بك فى ذلك اليوم عروساً ببعض نسائك! قال: وأنا وارأساه! ادعى لى أباك وأخاك حتى اكتب لأبى بكر كتابا فإنى أخاف أن يقول قائل ويتمنى متمن: أنا أولى! ويأبى الله عزّ وجلّ والمؤمنين إلا أبا بكر[2].

ولكن ذلك مشروط بما إذا كان لم يطأ تلك الليلة، وإلا لم يشرع له دفنها، وكان

---

(١) صحيح. رواه أحمد (٣/ ٣٩٧ - ٣٩٨).
(٢) صحيح. رواه أحمد (٦/ ٤٤).

غيره هو الأولى ولو أجنبيا بالشرط المذكور، لحديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال: «شـهدنا ابنة لرسـول الله صلى الله عليـه وآله وسلم، ورسول الله صلى الله عليـه وآله وسلم جالس على القبـر، فرأيت عينيه تدمعـان ثم قال: هل منكم من رجل لم يقارف الليلة ـ أهله ـ؟ فقـال أبو طلحة: ـ نعم ـ أنا يا رسول الله! قال فـأنزل، قال: فنزل فى قبرها ـ فقبرها ـ»[١].

ومعنى قارف، أى جـامع، قال الحافظ ابن حجر: وعلل ذلك بعضـهم بأنه حينئذ يأمن من أن يذكره الشيطان بما كان منه تلك الليلة[٢].

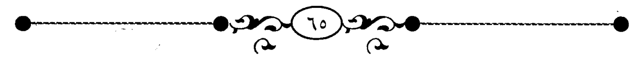
٥ ـ يجوز الـدفن بالليل، فقـد دفن رسول الله صلى الله عليـه وآله وسلم الرجل الذى كان يرفع صـوته بالذكر ليلا، ودفن على فـاطمة رضى الله عنهما ليـلا، وكذلك دفن أبو بكر وعثمان وعائشة وابن مسعود رضى الله عنهم.

وعن ابن عباس رضى الله عنه: أن النبى ﷺ دخل قبـراً ليلاً فأسرج له سراج، فأخذه من قِبَلِ القبلة وقال: يرحمك الله إن كنت لأواهاً تلاءً للقرآن» وكبر عليه أربعاً[٣] رواه الترمذى وحسنه، وقال: رخَّص أكثر أهل العلم فى الدفن بالليل. اهـ.

وقال البـخارى: باب: الدفـن بالليل، ودُفِنَ أبو بكر رضى الله عنه ليـلاً ثم ساق البخارى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهـما قال: صلى النبى ﷺ على رجل بعد ما دُفِنَ بليلة، قـام هو وأصحابـه، وكان سأل عنه فـقال: من هذا؟ فقـالوا: فلان دفن البارحة فصلوا عليه[٤].

قال الحافظ ابن حجر: قوله: (باب الدفن بالليل) أشار بهذه الترجمة إلى الرد على من منع من ذلك محتجاً بحديث جابر «أن النبى ﷺ زجر أن يقبر الرجل ليلاً إلا أن يضطر إلى ذلك» أخرجه ابن حبان[٥] لكن بيَّن مسلم فى روايته السبب فى ذلك ولفظه «أن النبى ﷺ خطب يوماً فـذكر رجلاً من أصحـابه قبض وكفن فى كفن غـير طائل وقُبِّـر ليلاً، فـزجر أن يقـبر الرجل بالليل حـتى يصلى عليه، إلا أن يضطر إنـسـان إلى

(١) رواه البخارى (١٣٤٢) كتاب الجنائز، باب: من يَدْخُلُ قبر المرأة.
(٢) «فتح البارى» (٣/ ١٨٩) ط الريان.
(٣) حسن. رواه الترمذى (١٠٥٧) كتاب الجنائز، باب: ما جاء فى الدفن بالليل.
(٤) رواه البخارى (١٣٤٠) كتاب الجنائز، باب: الدفن بالليل.
(٥) وكذا ابن ماجه (١٥٢١) وسنده صحيح.



ذلك. وقال: إذا ولى أحدكم أخاه فليحسن كفنه»[١].

فدّل على أن النهى بسبب تحسين الكفن. وقوله: «حتى يصلى عليه» مضبوط بكسر اللام؛ أى النبى ﷺ فهذا سبب آخر يقتضى أنه إن رجى بتأخير الميت إلى الصباح صلاة من ترجى بركته عليه استحب تأخيره، وإلا فلا، وبه جزم الطحاوى. واستدل المصنف [أى البخارى] للجواز بما ذكر من حديث ابن عباس «ولم ينكر النبى ﷺ دفنهم إياه بالليل، بل أنكر عليهم عدم إعلامهم بأمره» وأيّد ذلك بما صنع الصحابة بأبى بكر، وكان ذلك كالإجماع منهم على الجواز... وصح أن علياً دفن فاطمة ليلاً[٢].

وقال النووى: اختلف العلماء فى الدفن فى الليل فكرهه الحسن البصرى إلا لضرورة، وهذا الحديث[٣] مما يُستدل له به. وقال جماهير العلماء من السلف والخلف: لا يُكره، واستدلوا بأن أبا بكر الصديق رضى الله عنه وجماعة من السلف دفنوا ليلاً من غير إنكار، وبحديث المرأة السوداء والرجل الذى كان يَقُمُّ المسجد، فتوفى بالليل فدفنوه ليلاً، وسألهم النبى ﷺ عنه فقالوا: توفى ليلاً فدفناه فى الليل فقال ألا آذنتمونى؟ قالوا كانت ظلمة[٤] ولم ينكر عليهم.

وأجابوا عن هذا الحديث[٥] أن النهى كان لترك الصلاة ولم ينه عن مجرد الدفن بالليل، وإنما النهى لترك الصلاة، أو لقلة المصلين أو عن إساءة الكفن أو عن المجموع[٦].

٦ ـ الدفن جائز فى كل وقت إلا فى هذه الأوقات: وقت طلوع الشمس وحين استوائها ووقت الغروب. فعن عقبة رضى الله عنه قال: «ثلاث ساعات كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم ينهانا أن نصلى فيهن أو نقبر فيهن موتانا: حين تطلع الشمس بازغة حتى ترتفع، وحين يقوم قائم الظهيرة حتى تغيب الشمس وحين تضيف[٧] الشمس

---

(١) رواه مسلم (٢١٥٠) كتاب الجنائز، باب: فى تحسين كفن الميت. وأحمد (٣/ ٢٩٥) وأبو داود فى «الجنائز» (٣١٤٨) باب: فى الكفن. والنسائى فى «الجنائز» (٤/ ٣٣) باب: الأمر بتحسين الكفن.

(٢) «فتح البارى» (٣/ ٢٤٧).

(٣) أى حديث جابر رضى الله عنه، وقد سبق ذكره.

(٤) رواه البخارى (١٣٢١) كتاب الجنائز، باب: صفوف الصبيان مع الرجال فى الجنائز.

(٥) أى حديث جابر المتقدم.

(٦) شرح النووى على صحيح مسلم (٣/ ٥٣٥).

(٧) تميل وتجنح.

للغروب حتى تغرب»[١] فإذا خيف على الميت التغير فإنه يدفن فى هذه الأوقات بدون كراهة.

٧ ـ ويستحب أن يُدْخَلُ الميت فى القبر من جهة رأسه، فقد روى ذلك عن ابن عمر وأنس وعبد الله بن يزيد الأنصارى والنخعى والشعبى والشافعى، وروى الإمام أحمد بإسناده عن عبد الله بن يزيد الأنصارى: أن الحارث أوصى أن يليه عند موته، فصلى عليه ثم دخل القبر، فأدخله من رجلى القبر[٢] وقال: هذا السنة.

وروى ابن عمر وابن عباس «أن النبى ﷺ سُلَّ من قبل رأسه سلاً»[٣] وصح عن ابن سيرين أنه قال: كنت مع أنس فى جنازة فأمر بالميت فسل من قبل رجل القبر.

وإن لم يتيسر إدخال الميت بهذه الكيفية أُدخل كيفما أمكن.

قال ابن حزم: ويدخل الميت القبر كيف أمكن، إما من القبلة، أو من دبر القبلة، أو من قبل رأسه، أو من قبل رجليه، إذ لا نص فى شىء من ذلك[٤].

٨ ـ ويستحب توجيه الميت فى قبره إلى القبلة.

قال ابن حزم: ويجعل الميت فى قبره على جنبه اليمين، ووجهه قبالة القبلة، ورأسه ورجلاه إلى يمين القبلة ويسارها، وعلى هذا جرى عمل أهل السلام من عهد رسول الله ﷺ إلى يومنا هذا، وهكذا فى كل مقبرة على ظهر الأرض[٥].

قال: وتوجيه الميت إلى القبلة حسن، فإن لم يوّجه فلا حرج قال الله تعالى **﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾** ولم يأت نص بتوجيهه إلى القبلة[٦] ويقول الذى يضع الميت فى القبر «بسم الله وعلى سنة رسول الله ﷺ»[٧].

---

(١) رواه مسلم (١٨٩٧) كتاب الصلاة، باب: الأوقات التى نهى عن الصلاة فيها. وأحمد (٤/ ١٥٢) وأبو داود فى «الجنائز» (٣١٩٢) باب: الدفن عند طلوع الشمس وعند غروبها. والترمذى فى «الجنائز» (١٠٣٠) باب: ما جاء فى كراهية الصلاة على الجنازة عند طلوع الشمس. والنسائى فى «الجنائز» (٤/ ٨٢) باب: الساعات التى نهى عن إقبار الموتى فيهن. وابن ماجه فى «الجنائز» (١٥١٩) باب: ما جاء فى الأوقات التى لا يصلى فيها على الميت ولا يدفن.

(٢) أى كانت رأس الميت تلى رجل القبر ورجل القبر هى موضع الرجلين بالنسبة للميت.

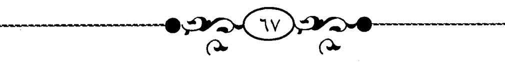
(٣) «المغنى» ابن قدامة (٢/ ٤٩٧).

(٤) «المحلى» (٥/ ١٧٧ ـ ١٧٨).

(٥) «المحلى» (٥/ ١٧٣ ـ ١٧٤).

(٦) «المحل» (٥/ ١٧٣ ـ ١٧٤).

(٧) صحيح. رواه أحمد (٢/ ٢٧، ٤٠، ٥٩، ٦٩، ١٢٧ ـ ١٢٨) وأبو داود (٣٢١٣) والحاكم (١/ ٣٦٦) والبيهقى (٤/ ٥٥) وابن حبان (٣١١٠ ـ إحسان) وصححه الحاكم ووافقه الذهبى من حديث ابن عمر رضى الله عنهما.



٩ ـ ولا بأس بأن يبسط فى القبر تحت الميت ثوبًا لما رواه مسلم عن ابن عباس رضى الله عنه قال: «بُسِطَ فى قبر رسول الله ﷺ قطيفة حمراء»(١).

قال ابن حزم: وهذا من جملة ما يكساه الميت فى كفنه، وقد ترك الله تعالى هذا العمل فى دفن رسوله المعصوم من الناس، ولم يمنع منه، وفَعَلَهُ خيرة أهل الأرض فى ذلك الوقت بإجماع منهم، لم ينكره أحدٌ منهم(٢).

١٠ ـ يستحب الاستغفار للميت عند الفراغ من دفنه وسؤال التثبيت له، فعن عثمان قال: كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: «استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت فإنه الآن يسأل»(٣).

وما يفعله بعض الناس من الدعاء الجماعى حيث يدعو أحد الحاضرين ويُؤَمِّن الباقون على دعائه، فهذا من البدع ومن محدثات الأمور، والصواب فى الدعاء أن يدعو كل إنسان بمفرده. والله أعلم.

١١ ـ لا يجوز تلقين الميت بعد دفنه؛ لأن هذا العمل لم يصح فيه حديث عن النبى ﷺ وقد يستدل البعض على جواز تلقين الميت بعد دفنه بحديث سعيد بن عبد الله الأودى قال: شهدت أبا أمامة وهو فى النزع فقال: إذا أنا مت فاصنعوا بى كما أمر رسول الله ﷺ فقال: «إذا مات أحدٌ من إخوانكم فسويتم التراب على قبره فليقم أحدكم على رأس قبره ثم ليقل يا فلان بن فلانه فإنه يسمعه ولا يجيب ثم يقول: يا فلان بن فلانة، فإنه يستوى قاعداً ثم يقول: يا فلان بن فلانة فإنه يقول: أرشدنا رحمك الله، ولكن لا تشعرون، فليقل: اذكر ما خرجت عليه من الدنيا شهادة: أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأنك رضيت بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً، وبالقرآن إماماً، فإن منكراً ونكيرًا يأخذ كل واحد منهما بيد صاحبه ويقول: انطلق بنا ما نقعد عند من لقن حجته، فيكون الله حجيجه دونهما، قال رجل: يا رسول الله فإن لم يعرف أمه؟

---

(١) رواه مسلم (٢٢٠٦) كتاب الجنائز، باب: جعل القطيفة فى القبر. والترمذى فى «الجنائز» (١٠٤٨) باب: ما جاء فى الثوب الواحد يلقى تحت الميت فى القبر. والنسائى فى «الجنائز» (٤/ ٨١) باب: وضع الثوب فى اللحد.

(٢) «المحلى» (٥/ ١٦٤).

(٣) صحيح رواه أبو داود (٣٢٢١) والحاكم (١/ ٣٧٠) والبيهقى (٤/ ٥٦) وصححه الحاكم ووافقه الذهبى.

قال: فينسبه إلى حواء: يا فلان ابن حواء» وهذا الحديث ضعيف، قال الهيثمى فى «المجمع» (٣/ ٤٥) رواه الطبرانى فى «الكبير» وفى إسناده جماعة لم أعرفهم. وانظر «الإرواء» (٣/ ٢٠٣).

١٢ ـ لا يجوز الذبح عند القبر وخروج النعش.

نهى الشارع الحكيم عن الذبح عند القبر تجنباً لما كانت تفعله الجاهلية، وبعداً عن التفاخر والمباهاة. فقد روى أحمد وأبو داود عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**لا عقر فى الإسلام**»[1].

قال الخطابى: كان أهل الجاهلية يعقرون الإبل على قبر الرجل الجواد يقولون: نجازيه على فعله لأنه كان يعقرها فى حياته فيطعمها الأضياف فنحن نعقرها عند قبره لتأكلها السباع والطير فيكون مطعماً بعد مماته كما كان مطعماً فى حياته. قال الشاعر:

عَقَرْتُ عَلَى قَبْرِ النَّجَاشِيِّ نَاقَتِى ... بِأَبْيَضَ عَضْبٍ أَخْلَصَتْهُ صَيَاقِلُهُ

عَلَى قَبْرِ مَـنْ لَوْ أَنَّنِى مِتُّ قَبْلَهُ ... لَهَانَتْ عَلَيْهِ عِنْدَ قَبْرِى رَوَاحِلُهُ

ولا يزال هذا العقر باقياً عندنا بين الطبقات الجاهلة ولكن على صورة أخرى وهى أنهم يأتون بالذبائح فيعقرونها بين يدى النعش وعند خروجه يفعلون ذلك تباهية وتفاخر ورياء ولا يخفى ما فيه من ضياع المال فيما يضر ولا ينفع.

وقال شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية فى كتابه (اقتضاء الصراط المستقيم مخافة أهل الجحيم» (ص١٨٢): «وأما الذبح هنا ـ يعنى عند القور ـ فمنهى عنه مطلقاً. ذكره أصحابنا وغيرهم لهذا الحديث قال أحمد فى رواية المروذى ـ قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: «لا عقر فى الإسلام»: كانوا إذا مات لهم الميت نحروا جزورا على قبره، فنهى النبى صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك. وكره أبو عبد الله أكل لحمه. قال أصحابنا: وفى معنى هذا ما يفعله كثير من أهل زماننا فى التصدق عند القبر بخبز أو نحوه!».

وقال النووى فى «المجموع» (٥/ ٣٢٠): «وأما الذبح والعقر عند القبر فمذموم لحديث أنس هذا.

قال الألبانى: وهذا إذا كان الذبح هناك لله تعالى، وأما إذا كان لصاحب القبر كما يفعله بعض الجهال فهو شرك صريح، وأكله حرام وفسق كما قال تعالى: ﴿**ولا تأكلوا**

(١) صحيح. رواه أحمد (٣/ ١٩٧) وأبو داود (٣٢٢٢) والبيهقى (٤/ ٥٧).

مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق﴾، أى والحال أنه كذلك بأن ذبح لغير الله، إذ هذا هو الفسق هنا كما ذكره الله تعالى بقوله: **﴿أو فسقا أهل لغير الله به﴾**، كما فى «الزواجر» (١/ ١٧١) للفقيه الهيثمى. وقال: «لعن الله (وفى رواية: ملعون) من ذبح لغير الله» أخرجه أحمد (رقم ٢٨١٧ و ٢٩١٥ و ٢٩١٧) بسند حسن عن ابن عباس، ومسلم ٦/ ٨٤) عن على نحوه[1].

١٣ - لا يجوز وضع الجريد ولا الأزهار على القبر.

لا يشرع وضع الجريد ولا الأزهار فوق القبر كما يفعله كثير من الناس الآن؛ لأن ذلك مخالف لما كان عليه السلف الصالح رضوان الله عليهم، ولأنه لا تأثير له. وإنما التأثير للعمل الصالح، وأما ما رواه البخارى وغيره عن ابن عباس من أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم مر على قبرين فقال: «**إنهما يعذبان وما يعذبان فى كبير. أما هذا فكان لا يستنزه من البول، وأما هذا فكان يمشى بالنميمة. ثم دعا بعسيب رطب فشقه اثنين ثم غرس على هذا واحدا وعلى هذا واحدا وقال: لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا**» فقد أجاب عنه الخطابى بقوله: وأما غرسه شق العسيب على القبر. وقوله: «لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا» فإنه من ناحية التبرك بأثر النبى صلى الله عليه وآله وسلم ودعائه بالتخفيف عنهما وكأنه ﷺ جعل مدة بقاء النداوة فيها حداً لما وقعت به المسألة من تخفيف العذاب عنهما، وليس ذلك من أجل أن فى الجريد الرطب معنى ليس فى اليابس. والعامة فى كثير من البلدان تفرش الخوص فى قبور موتاهم، وأراهم ذهبوا إلى هذا وليس لما تعاطوه وجه.

والذى ذهب إليه الخطابى حق. إذ لم ينقل عن أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه وضع جريداً ولا أزهاراً على قبر وهم أولى الناس باتباعه صلى الله عليه وآله وسلم وقد كانوا فى خير القرون ويبعد أن يجهلوا سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما روى عن بريدة الأسلمى من أنه أوصى أن يجعل فى قبره جريدتان فقد أجاب عنه الحافظ فى الفتح بقوله: وكأن بريدة حمل الحديث على عمومه ولم يره خاصاً بذينك الرجلين قال ابن رشد: ويظهر من تصرف البخارى أن ذلك خاص بهما. فلذلك عقبه بقول ابن عمر حين رأى فسطاطاً على قبر عبد الرحمن: «انزعه يا غلام فإنما يظله عمله». انتهى.

---

(١) «أحكام الجنائز» ص٢٠٣.

وقال الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على الترمذى (١/ ١٠٣) عقب كلام الخطابى:

«وصدق الخطابى، وقد ازداد العامة إصراراً على هذا العمل الذى لا أصل له، وغلوا فيه، خصوصا فى بلاد مصر، تقليداً للنصارى حتى صاروا يضعون الأزهار على القبور، ويتهادونها بينهم، فيضعها الناس على قبور أقاربهم ومعارفهم تحية لهم. ومجاملة للأحياء.. ولا ينكر ذلك عليهم العلماء أشباه العامة بل أراهم أنفسهم يصنعون ذلك فى قبور موتاهم. ولقد علمت أن أكثر الأوقاف التى تسمى أوقاف خيرية موقوف ريعها على الخوص والريحان الذى يوضع على القبور، وكل هذه بدع ومنكرات لا أصل لها فى الدين ولاسند لها من الكتاب والسنة. ويجب على أهل العلم أن ينكروها وأن يبطلوا هذه العادات ما استطاعوا.

قال الألبانى: ويؤيد كون وضع الجريد على القبر خاصا به صلى الله عليه وآله وسلم ـ وأن التخفيف لم يكن من أجل نداوة شقها أمور:

ا ـ حديث جابر رضى الله عنه الطويل فى «صحيح مسلم» (٨/ ٢٣١ ـ ٢٣٦) وفيه قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنى مررت بقبرين يعذبان، فأحببت بشفاعتى أن يرد عنهما ما دام الغصنان رطبين**».

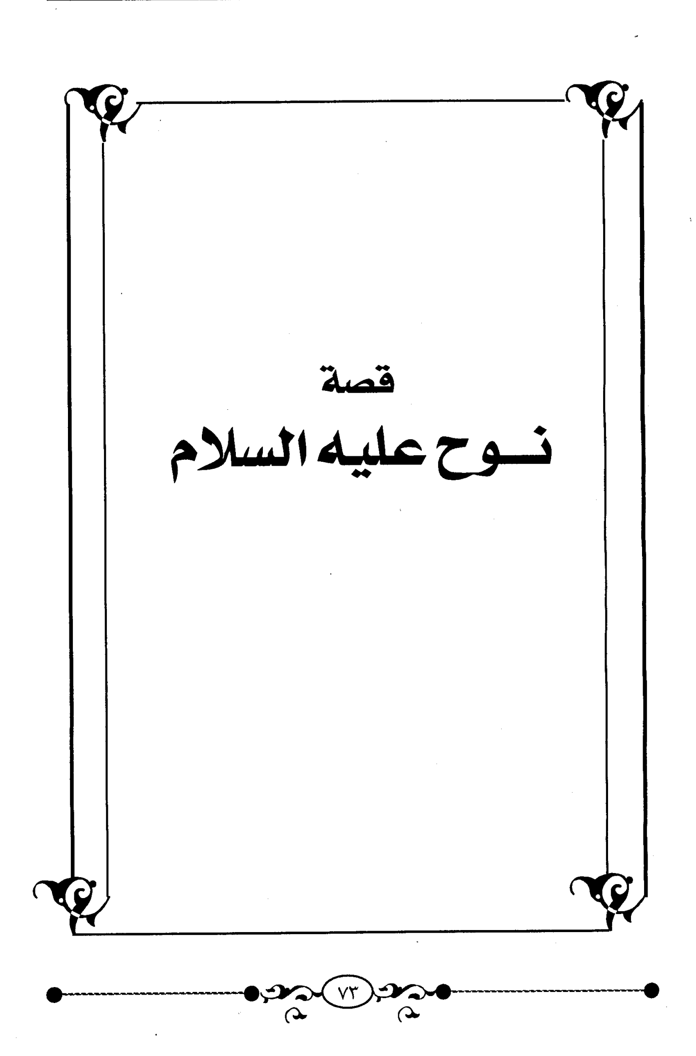
فهذا صريح فى أن رفع العذاب إنما هو بسبب شفاعته صلى الله عليه وآله وسلم ودعائه، لا بسبب النداوة..

ب ـ فى حديث ابن عباس نفسه ما يشير إلى أن السر ليس فى النداوة، أو بالأحرى ليست هى السبب فى تخفيف العذاب. وذلك قوله: «ثم دعا بعسيب فشقه اثنين» يعنى طولا. فإن من المعلوم أن شقه سبب لذهاب النداوة من الشق ويبسه بسرعة، فتكون مدة التخفيف أقل مما لو لم يشق، فلو كانت هى العلة لأبقاه صلى الله عليه وآله وسلم بدون شق.. فإذ لم يفعل دل على أن النداوة ليست هى السبب، وتعيَّن أنها علامة على مدة التخفيف الذى أذن الله به استجابة لشفاعة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم..

جـ ـ لو كانت النداوة مقصودة بالذات، لفهم ذلك السلف الصالح، ولعملوا بمقتضاه، ولوضعوا الجريد والآس ونحو ذلك على القبور عند زيارتها، فإذا لم ينقل دل على أنه لم يقع، وأن التقرب به إلى الله بدعة فثبت المراد»[1].

(١) «أحكام الجنائز» (ص١٠٢) باختصار.





قصة
نــوح عليه السلام

قصة نوح عليه السلام

نوح عليـه السلام هو أول رسـول بعثه الله تعـالى إلى أهل الأرض بعد آدم عـليه السلام. فقد أخبر النبىﷺ كما فى حديث الشفاعـة أن الناس يأتون نوحاً فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض»[١].

قال الحـافظ ابن حـجر: فأمـا كونه أول الرسـل فقد اسـتشكـل بأن آدم كان نبـياً بالضرورة تعلم أنه كان على شريعة من العبادة، وأن أولاده أخذوا ذلك عنه، فعلى هذا فهو رسول إليهم فيكون هو أول رسول، فـيحتمل أن تكون الأولية فى قول أهل الموقف لنوح مـقيـدة بقولهم إلـى أهل الأرض لأنه فى زمن آدم لم يكن للأرض أهلٌ، أو لأن رسالة آدم إلى بنيه كانت كالتربية للأولاد، ويحتمل أن يكون المراد أنه رسول أرسل إلى بنيه وغيرهم من الأمم الذين أرسل إليـهم مع تفرقهم فى عدة بلاد، وآدم إنما أرسل إلى بنيه فقط وكانوا مجتمعين فى بلدة واحدة[٢] والله أعلم.

وكانت المدة الزمنية بين نوح وآدم عليـهما السلام هى عشرة قـرون كما فى حديث أبى أمامة الـباهلى أن رجلاً قال: يا رسول الله أنـبىٌّ كان آدم؟. قال: **نعم مكلَّمٌ، قال: فكم كان بينه وبين نوح؟ قال: عشرة قرون**»[٣].

وكان الناس فى هذه القـرون العشرة على شـريعة من الحق ثم حدث الشـرك بعد ذلك فى أهل الأرض، فبعث الله إليـهم نوحاً عليه السلام يدعوهم إلى التـوحيد وترك عبادة الأصنام قال تعالى: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ**﴾ [البقرة: ٢١٣] قال ابن عباس: كان بين نوح وآدم عشـرة قرون كلهم على شريعة مـن الحق فاختلفوا فبـعث الله النبيين مبشرين ومنذرين.

وقال قتادة: كانوا على هدى جميعاً فاختلفوا[٤].

قال ابن كثير: وفى صحيح البخارى عن ابن عباس قال: «كان بين آدم ونوح عشرة

---

(١) رواه البخارى (٣٣٤٠) كتاب أحاديث الأنبياء، باب: قول الله عزّ وجلّ: ﴿**ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه**﴾ [هود: ٢٥] عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) «فتح البارى» (٦/ ٤٢٩ ـ ٤٣٠) ط الريان.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) انظر تفسير ابن كثير (١/ ٢٥٠).

قرون كلهم على الإسلام».

فإن كان المراد بالقرن مائة سنة - كما هو المتبادر عند كثير من الناس - فبينهما ألف سنة لا محالة، لكن لا ينفى أن يكون أكثر باعتبار ما قيد به ابن عباس بالإسلام، إذ قد يكون بينهما قرون أخر متأخرة لم يكونوا على الإسلام، لكن حديث أبى أمامة يدل على الحصر فى عشرة قرون، وزادنا ابن عباس: «أنهم كانوا على الإسلام».

وإن كان المراد بالقرن الجيل من الناس كما فى قوله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ [الإسراء: ١٧] وقوله: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [المؤمنون: ٣١] وقال تعالى ﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٨] وقال ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴾ [مريم: ٧٤، ٩٨] وكقوله عليه السلام: «خير القرون قرنى...» الحديث، فقد كان الجيل قبل نوح يعمرون الدهور الطويلة، فعلى هذا يكون بين آدم ونوح ألوف من السنين.. والله أعلم.

وبالجملة فنوح عليه السلام إنما بعثه الله تعالى لما عبدت الأصنام والطواغيت، وشرع الناس فى الضلالة والكفر، فبعثه الله رحمة للعباد، فكان أول رسول بعث إلى أهل الأرض، كما يقول أهل الموقف يوم القيامة.

واختلفوا فى مقدار سنه يوم بعث، فقيل: كان ابن خمسين سنة، وقيل: ابن ثلاثمائة وخمسين سنة، وقيل: ابن أربعمائة وثمانين سنة حكاها ابن جرير، وعزا الثالثة منها إلى ابن عباس.

وأما مضمون ما جرى له مع قومه مأخوذ من الكتاب والسنة والآثار، فقد قدمنا عن ابن عباس: أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، رواه البخارى وذكرنا أن المراد بالقرن الجيل أو المدة على ما سلف.

ثم بعد تلك القرون الصالحة حدثت أمور اقتضت أن آل الحال بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الأصنام.

وكان سبب ذلك ما رواه البخارى عن ابن عباس عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح: ٢٣] قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد،

حتى إذا هلك أولئك وانتسخ العلم عبدت.

قال ابن عباس: صارت هذه الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب بعد[1].

ومقتضى هذا السياق أن كل صنم من هـذه عبده طائفة من الناس، وقد ذكر أنه لما تطاولت العـهود والأزمـان، جعلوا تلك الصـور تماثيل مجـسدة ليكون أثبت لهـا، ثم عبدت بعد ذلك من دون الله عزّ وجلّ.

[الأساليب التى استخدمها نوح عليه السلام فى دعوة قومه إلى التوحيد]

لمّا بعث الله نوحاً عليـه السلام، دعاهم إلى إفـراد عبادة الله وحـده لا شريك له، وألا يعبدوا معه صنماً ولا تمثالاً ولا طاغوتاً وأن يعترفوا بوحدانيته، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، كما أمر الله تعالى من بعـده من الرسل الذين هم كلهم من ذريته، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ [الصافات: ٧٧] وقال فيه وفى إبراهيم: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦]، أى كل نبى من بعد نوح فـمن ذريته، وكذلك إبراهيم.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] وقال تعالى: ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥] وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ولهذا قال نوح لقومه: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ٥٩] وقال: ﴿أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [هود: ٢٦] وقال: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٥] وقال: ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ . أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾ [نوح: ٢ ـ ٣] إلى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ [نوح: ١٤] الآيات الكريمات.

فـذكر أَنَّهُ دعـاهم إلى الله بأنواع الدعـوة فى الليل والنهـار، والسـر والإجهـار، بالترغـيب تارة والترهيب أخرى، وكل هـذا لم ينجح فيهم، بل اسـتمر أكـثرهم على الضلالة والطغـيان وعبـادة الأصنام والأوثان، ونصبـوا له العداوة فى كل وقت وأوان، وتنقصوه وتـنقصوا من آمن به، وتوعدوهم بالرجم والإخـراج، ونالوا منهم وبالغوا فى

---

(١) رواه البخارى (٤٩٢٠) كتاب التفسير، باب ﴿وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾.



أمرهم.

﴿ قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ ﴾ [الأعراف: ٦٠]، أى السـادة الكبراء منهم: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠].

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٦١]، أى لست كما تزعمون من أنى ضال، بل على الهـدى المستقيم، رسول من رب العالمين أى الذى يقـول للشيء كن فـيكون ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢].

وهذا شأن الرسـول أن يكون بليغـاً، أى فصـيحـاً ناصحاً، أعلم الـناس بالله عز وجل.

وقالوا له فيما قالوا: ﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [هود: ٢٧].

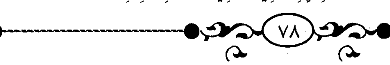
تعجبوا أن يكون بشر رسولاً، وتنقصوا من اتبعه ورأوهم أراذلهم.

وقولهم: ﴿ بَادِيَ الرَّأْيِ﴾[هود: ٢٧]، أى بمجرد ما دعوتهم اسـتجابوا لك من غير نظر ولا روية وهذا الذى رمـوهم به هو عين ما يمدحـون بسبـبه رضى الله عنهـم، فإن الحق الظاهر لا يحـتاج إلى رؤية ولا فكر ولا نظر، بل يجب اتبـاعه والانقيـاد له متى ظهر.

وقول كفـرة قوم نوح له ولمن آمن به: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ [هود: ٢٧] أى لم يظهر لكم أمرٌ بعـدَ اتصافكم بالإيمان ولا مزية علينا: ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ . قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ [هود: ٢٧ ـ ٢٨].

وهذا تلطف فى الخطاب معهم: وترفق بهم فى الدعوة إلى الحق، كما قال تعالى: ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤] وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] وهذا منه.

يقول لهم: ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ﴾ [هود: ٢٨].



أي النبوة والرسالة ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ [هود: ٢٨]، أي فلم تفهموها ولم تهتدوا إليها، ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ [هود: ٢٨]، أي أنغصبكم بها ونجبركم عليها؟ ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود: ٢٨]، أي ليس لي فيكم حيلة والحالة هذه ﴿ وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ ﴾ [هود: ٢٩]، أي لست أريد منكم أجرة على إبلاغي إياكم ما ينفعكم في دنياكم وأخراكم، إن أطلب ذلك إلا من الله الذي ثوابه خير لي، وأبقى مما تعطونني أنتم.

وقوله: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هود: ٢٩] كأنهم طلبوا منه أن يبعد هؤلاء عنه، ووعدوه أن يجتمعوا به إذا هو فعل ذلك، فأبى عليهم ذلك، وقال: ﴿إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ ﴾ ،أي فأخاف إن طردتُّهم أفلا تذكّرون.

﴿ وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [هود: ٣١] أي بل أنا عبد رسول، لا أعلم من علم الله ألا ما أعلمني به، ولا أقدر إلا على ما أقدرني عليه، ولا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ﴿وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ ﴾ [هود: ٣١] يعني من أتباعه ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٣١] أي لا أشهد عليهم بأنهم لا خير لهم عند الله يوم القيامة، الله أعلم بهم وسيجازيهم على ما في نفوسهم إنْ خيراً فخير وإن شراً فشر، كما قالوا في المواضع. الأخر: ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ . قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ . وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ . إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: ١١١ ـ ١١٥].

• • •

وقد تطاول الزمان والمجادلة بينه وبينهم كما قال تعالى: ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤] ،أي ومع هذه المدة الطويلة فما آمن به إلا القليل منهم.

وكان كلما انقرض جيل وصّوْا من بعدهم بعدم الإيمان به ومحاربته ومخالفته. وكان الوالد إذا بَلَغَ ولدُه وعقل عنه كلامه، وصّاه فيما بينه وبينه، ألا يؤمن بنوح أبداً ما عاش ودائماً ما بقى.

وكانت سجاياهم تأبى الإيمان واتباع الحق، ولهذا قال: ﴿ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧].

ولهذا: ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ [هود: ٣٢ - ٣٣]، أى إنما يقدر على ذلك الله عز وجل، فإنه الذى لا يعجزه شيء ولا يكترثه أمر، بل هو الذى يقول للشيء كن فيكون. ﴿ وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: ٣٤]، أى من يرد الله فتنته فلن يملك أحد هدايته، هو الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء، وهو الفعال لما يريد، وهو العزيز الحكيم، العليم بمن يستحق الهداية ومن يستحق الغواية، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة.

• • •

﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ ﴾ [هود: ٣٦] تسلية له عما كان منهم إليه، ﴿فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦]، وهذه تعزية لنوح عليه السلام فى قومه أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن، أى لا يسوءنك ما جرى فإن النصر قريب والنبأ عجب عجيب.

﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ [هود: ٣٧].

وذلك أن نوحاً عليه السلام لما يئس من صلاحهم وفلاحهم، ورأى أنهم لا خير فيهم، وتوصلوا إلى أذيته ومخالفته وتكذيبه بكل طريق، من فعال ومقال، دعا عليهم دعوة غضب الله عليهم فلبى الله دعوته وأجاب طلبته، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ . وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ [الصافات: ٧٥ - ٧٦] وقال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء: ٧٦] وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١١٨] وقال تعالى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾ [القمر: ١٠] وقال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٢٦، ٢٩] وقال تعالى: ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا . وَقَالَ نُوحٌ

رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا . إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٥ ـ ٢٧].

فاجتمعت عليهم خطاياهم من كفرهم وفجورهم ودعوة نبيهم عليهم.

فعند ذلك أمره الله تعالى أن يصنع الفلك، وهى السفينة العظيمة. التى لم يكن لها نظير قبلها ولا يكون بعدها مثلها.

وقدَّم الله تعالى إليه أنه إذا جاء أمره وحل بهم بأسه الذى لا يرد عن القوم المجرمين، أنه لا يعاوده فيهم ولا يراجعه، فإنه لعله قد تدركه رقة على قومه عند معاينة العذاب النازل بهم، فإنه ليس الخبر كالمعاينة. ولهذا قال: ﴿ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ [هود: ٣٧].

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ [هود: ٣٨] أى يستهزئون به استبعاداً لوقوع ما توعدهم به: ﴿ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [هود: ٣٨]، أى نحن الذين نسخر منكم ونتعجب منكم فى استمراركم على كفركم وعنادكم الذى يقتضى وقوع العذاب بكم وحلوله عليكم ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٩].

وقد كانت سجاياهم الكفر الغليظ والعناد البالغ فى الدنيا، وهكذا فى الآخرة فإنهم يجحدون أيضاً أن يكون جاءهم رسول.

عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يجيء نوح عليه السلام وأمته، فيقول الله عز وجل: هل بلغت؟ فيقول: نعم، أى رب فيقول لأمته: هل بلغكم؟. فيقولون: لا، ما جاءنا من نبى، فيقول لنوح: من يشهد لك؟. فيقول: محمد وأمته، فنشهد أنه قد بلغ» وهو قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣][1].

والوسط العدل. فهذه الأمة تشهد على شهادة نبيها الصادق والمصدوق، بأن الله قد بعث نوحاً بالحق، وأنزل عليه الحق وأمره به، وأنه بلغه إلى أمته على أكمل الوجوه وأتمها، ولم يدع شيئاً مما ينفعهم فى دينهم إلا وقد أمرهم به، ولا شيئاً مما قد يضرهم

(١) رواه البخارى (٣٣٣٩) كتاب أحاديث الأنبياء، باب: قول الله عزّ وجلّ: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾.

إلا وقد نهاهم عنه وحذرهم منه.

وهكذا شأن جميع الرسل، حتى أنه حذر قـومه المسيح الدجال، وإن كان لا يتوقع خروجه فى زمانهم، حذراً عليهم وشفقة ورحمة بهم.

قال ابن عـمر: قام رسول الله ﷺ فى الناس فأثنى علـى الله بما هو أهله، ثم ذكر الدجال فقال: «**إنى لأنذركموه، وما نبى إلا وقد أنذره قومه. لقد أنذره نوح قومه، ولكنى أقول لكم فيه قولاً لم يقله نبى لقومه: تعلمون أنه أعور، وأن الله ليس بأعور**»[1].

وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «**ألا أحدثكم عن الدجـال حديثاً مـا حدث نبى قومه؟ إنه أعور وأنه يجىء معه تمثـال الجنة والنار فالتى يقول إنها الجنة النار، وإنى أنذركم كما أنذر به نوح قومه**»[2].

وقد قال بعض علمـاء السلف: لما استجاب الله له، أمره أن يغرس شـجراً ليعمل منه السفينة، فغرسه وانتظره مائة سنة، ثم نجره فى مائة أخرى، وقيل فى أربعين سنة.. والله أعلم.

قال الله تعالى: ﴿ **قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ . فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا** ﴾ [المؤمنون: ٢٦ ـ ٢٧] ،أى بأمرنا لك. وبمـرأى منا لصنعتك لها، ومـشاهدتنا لذلك، لنرشدك إلى الصواب فى صنعتها.

﴿ **فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ** ﴾ [المؤمنون: ٢٧].

فتـقدم إليه بأمـره العظيم العالى أنه إذا جـاء أمره وحل بأسـه، أن يحمل فى هذه السفـينة من كل زوجين اثنين من الحيوانات، وسائر مـا فيه روح من المأكولات وغـيرها لبقاء نسلها، وأن يحمل معه أهله، أى أهل بيته، إلا من سبق عليه القول منهم، أى إلا من كان كافراً فإنه قد نفذت فيه الدعوة التى لا ترد، ووجب عليه حلول البأس الذى لا يرد، وأمر أنه لا يراجعه فيهم إذا حل بهم ما يعانوه من العذاب العظيم، الذى قد حتّمه

(١) رواه البخارى (٣٣٣٧) كتاب أحاديث الأنبياء، باب: قول الله عزّ وجلّ: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾.
(٢) رواه البخارى (٣٣٣٨) كتاب أحاديث الأنبياء، باب: قول الله عزّ وجلّ: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾.

عليهم الفعال لما يريد.

والمراد بالتنور عند الجمهور وجه الأرض، أى نبعث الأرض من سائر أرجائها حتى تبعث التنانير التى هى محال النار.

وقوله: ﴿ وَمَنْ آمَنَ ﴾ [هود: ٤٠]، أى واحمل فيها من آمن بك من أمتك قال الله تعالى: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ [هود: ٤٠] هذا مع طول المدة والمقام بين أظهرهم، ودعوتهم الأكيدة ليلاً ونهاراً بضروب المقال وفنون التلطفات والتهديد والوعيد تارة والترغيب والوعد أخرى.

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٢٨ ـ ٢٩].

أمره أن يحمد ربه على ما سخر له من هذه السفينة، فنجاه بها وفتح بينه وبين قومه، وأقر عينه ممن خالفه وكذبه.

وقد امتثل نوح عليه السلام هذه الوصية وقال ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [هود: ٤١] أى على اسم الله ابتداء سيرها وانتهاؤه ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [هود: ٤١]، أى وذو عقاب أليم، مع كونه غفور رحيماً، لا يرد بأسه عن القوم المجرمين، كما أحل بأهل الأرض الذين كفروا به وعبدوا غيره.

قال الله تعالى: ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود: ٤٢]؛ وذلك أن الله تعالى أرسل من السماء مطراً لم تعهده الأرض قبله ولا تمطره بعده، كان كأفواه القرب، وأمر الأرض فنبعت من جميع فجاجها وسائر أرجائها كما قال تعالى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ . فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ . وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ . وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ [القمر: ١٠ ـ ١٣].

والدسر المسامير ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]، أى بحفظنا وكلاءتنا وحراستنا ومشاهدتنا لها ﴿جزاء لمن كان كفر﴾ [الحاقة: ١١].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة: ١١] أى السفينة ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٢].

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ . قَالَ سَآوِي

إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود: ٤٢ ـ ٤٣].

وهذا الابن هو: «يام» أخو سام، وحام، ويافث، وقيل: اسمه «كنعان». وكان كافرا عمل عملاً غير صالح، فخالف أباه فى دينه، فهلك مع من هلك. هذا وقد نجا مع أبيه الأجانب فى النسب، لما كانوا موافقين فى الدين والمذهب.

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [هود: ٤٤].

أى لما فرغ من أهل الأرض، ولم يبق بها أحد ممن عبد غير الله عز وجل، أمر الله الأرض أن تبتلع ماءها، وأمر السماء أن تقلع أى تمسك عن المطر ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾، أى نقص عما كان ﴿وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾، أى وقع بهم الذى كان قد سبق فى علمه وقدره، من إحلاله بهم ما حل بهم.

﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، أى نودى عليهم بلسان القدرة: بعداً لهم من الرحمة والمغفرة.

كما قال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٦٤].

وقال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴾ [يونس: ٧٣].

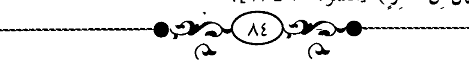
وقال تعالى: ﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٧].

وقال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ١١٩ ـ ١٢٢].

وقال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [العنكبوت: ١٥].

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ . فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٥ ـ ١٧].



وقال تعالى: ﴿ **مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا . وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا . إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا** ﴾ [نوح: ٢٥ ـ ٢٧].

وقد استجاب الله تعالى ـ وله الحمد والمنة ـ دعوته، فلم يُبق منهم عين تطرف.

ثم ذكر الله تعالى مناشدة نوح ربه فى ولده، وسؤاله له عن غرقه على وجه الاستعلام والاستكشاف.

ووجه السؤال: أنك وعدتنى بنجاة أهلى معى وهو منهم وقد غرق؟

فأجيب بأنه ليس من أهلك، أى الذين وعدت بنجاتهم، أى إنا قلنا لك: ﴿**وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ**﴾ [هود: ٤٠]، فكان هذا ممن سبق عليه القول منهم بأنه سيغرق بكفره، ولهذا ساقته الأقدار إلى أن انحاز عن حوزة أهل الإيمان فغرق مع حزبه أهل الكفر والطغيان.

ثم قال تعالى: ﴿ **قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [هود: ٤٨].

هذا أمر لنوح عليه السلام لما نضب الماء عن وجه الأرض، وأمكن السعى فيها والاستقرار عليها. أن يهبط من السفينة التى كانت قد استقرت بعد سيرها العظيم على ظهر جبل الجودى وهو جبل بأرض الجزيرة مشهور. ﴿ **بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ** ﴾ [هود: ٤٨] أى هبط سالماً مباركاً عليك. وعلى أمم ممن سيولد بعد، أى من أولادك، فإن الله لم يجعل لأحد ممن كان معه من المؤمنين نسلاً ولا عقباً سوى نوح عليه السلام. قال تعالى: ﴿ **وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ** ﴾ [الصافات: ٧٧]، فكل من على وجه الأرض اليوم من سائر أجناس بنى آدم، ينسبون إلى أولاد نوح الثلاثة وهم: سام، وحام، ويافث.

وقد أجمع أهل الأديان الناقلون عن رسل الرحمن، مع ما تواتر عند الناس فى سائر الأزمان، على وقوع الطوفان، وأنه عم جميع البلاد، ولم يبق الله أحداً من كفرة العباد، استجابة لدعوة نبيه المؤيد المعصوم، وتنفيذاً لما سبق فى القدر المحتوم[1].

●●●●●

(١) «البداية والنهاية» ابن كثير (١/ ١١٣ ـ ١٣٣) باختصار. ط موسسة التاريخ العربى.

الدروس المستفادة من قصة نوح عليه السلام للدعوة والدعاة

للدعوة أولويات، فعلى الداعية أن يبدأ بالأهم فالأهم.

يجب على الداعية أن يبدأ بالدعوة إلى توحيد الله عز وجل؛ لأن التوحيد هو الأصل الأصيل الذي بعث الله الرسل من أجله، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾ [النحل: ٣٦].

وقال: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ**﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقال ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أنْ لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا عصموا منى دمائهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله**»(١).

ولمَّا أرسل النبى ﷺ معاذ بن جبل إلى اليمن قال له: «**إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أوَّلَ ما تدعوهم إليه عبادة الله عز وجل، فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات فى يومهم وليلتهم، فإذا فعلوا فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإذا أطاعوا فخذ منهم وتَوَقَّ كرائم أموالهم**»(٢).

قال الشيخ ربيع المدخلى - وهو يتكلم عن دعوة نوح عليه السلام لقومه -: قص الله علينا خلاصة دعوته الكريمة التى استغرقت ألف سنة إلا خمسين عاماً؟!

إنَّها دعوة جادَّة إلى توحيد الله وعبادته وحده، فى جهد دائب ما ترك وسيلة تُمكنُهُ إلا استخدمها لإقناعهم بدعوته، سرّاً وجهاراً وترغيباً وترهيباً ووعداً ووعيداً، واحتجاجاً واستدلالاً بالأدلَّة العقليَّة والحسيَّة، من واقع أنفسهم وحياتهم ومما بين أيديهم من السماء والأرض، وما فيهما من آيات وعبر وكل ذلك لم يُجد فيهم نفعاً ولا دفعهم إلى

(١) رواه البخارى (٢٥) كتاب الإيمان، باب: ﴿**فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم**﴾ ومسلم (١٢٨) كتاب الإيمان، باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله.

(٢) رواه البخارى (١٣٩٥) كتاب الزكاة، باب: وجوب الزكاة. ومسلم (١٢٣) كتاب الإيمان، باب: الأمر بالإيمان بالله ورسوله وشرائع الدين والدعاء له. من حديث ابن عباس رضى الله عنهما. واللفظ لمسلم.

استجابة، بل أصرُّوا على كفرهم وضلالهم، واستكبروا استكباراً.

أصروا على التشبث بأصنامهم ومعبوداتهم الباطلة، فكانت النتيجة لهذا الإصرار والاستكبار الهلاك والدمار فى الدنيا، وفى الآخرة الخلود فى عذاب النار.

وهنا نتساءل لماذا يستمر هذا النَّبى العظيم كل هذه الآماد الطويلة، ويبذل هذه الجهود الكبيرة، دون كللٍ أو مللٍ يدعو إلى مبدأ التوحيد؟!!

ولماذا يمدحه الله ويثنى عليه الثناء العاطر، ويخلد ذكره ويجعله فى عداد الرسل أولى العزم؟

هل دعوة التوحيد تستحق كل هذه العناية والإكبار؟

هل هذا المنهج وتحديد هذا المنطق لهذا النَّبى الكريم مجانب للمنطق والحكمة والعقل؟ أو أنَّه عين الحكمة ومقتضى المنطلق الصحيح، والعقل الواعى الرجيح؟

لماذا يقره الله على سلوك هذا المنهج فى الدعوة طوال ألف سنة إلا خمسين عاماً ويشيد به ويخلد اسمه وقصصه، ويكلف أعظم الرسل وأعقل البشر أن يجعل منه أسوة فى دعوته وصبره؟

الجواب المنصف القائم على العقل والحكمة. ومعرفة مكانة النبوَّة والثقة العظيمة فيها وتقديرها حق قدرها، أنَّ دعوة التوحيد ومحاولة القضاء على الشرك وتطهير أرض الله منه تستحق كل هذا وأنه عين الحكمة ومقتضى الفطرة والعقل، وأنَّ الواجب على كلِّ الدعاة إلى الله أن يفهموا هذا المنهج، وهذه الدعوة الإلهيَّة العظيمة، والمطلب الكبير، فيكرسوا كلَّ جهودهم وطاقاتهم لتحقيقه ونشره فى أرض الله كلها، وأن يتعاونوا ويتكاتفوا ويتَّحدوا، ويصدق بعضهم بعضاً، كما كان الرّسل دعاة التوحيد ويبشر سابقهم بلاحقهم ويصدق لاحقهم سابقه ويؤيِّد دعوته ويسير فى مضماره.

يجب أن نعتقد أنَّه لو كان هناك منهج أفضل وأقوم من هذا المنهج لاختاره الله لرسله وآثرهم به، فهل يليق بمؤمن أن يرغب عنه ويختار لنفسه منهجاً سواه ويتطاول على هذا المنهج الربانى وعلى دعاته؟!!![1].



(١) «منهج الأنبياء فى الدعوة إلى الله» ص ٥٢ ـ ٥٤ ط دار ابن رجب.

على الداعية أن يتحلى بالحكمة وحسن الخلق:

على الداعية أن يكون متحلّياً بالخلق الحسن مستعملاً للحكمة فى دعوته لأنَّ هذا أدعى لقبول دعوته كما أمر الله نبييه الكريمين موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام أن يستعملا ذلك في مواجهة أكفر أهل الأرض وهو فرعون الذى ادَّعى الربوبيَّة ، حيث قال سبحانه: ﴿ **فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ** ﴾[طه: ٤٤].

وقال تعالى لموسى عليه الصلاة والسلام: ﴿ **اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (١٧) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ** ﴾[النازعات: ١٧ ـ ١٩].

وقال تعالى فى حقِّ نبينا محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقال تعالى: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾[القلم: ٤] وقال تعالى: ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ [النحل: ١٢٥][(١)].

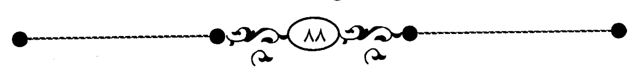
تلطف الداعية مع المدعوين:

على الداعية أن يتلطف فى مخاطبة من يدعوهم، وذلك باستعمال الألفاظ الرقيقة التى تساعد على إقبال المدعو على الداعى وإصغائه لما يقول، كأن يقول له: «يا أخى» أو يناديه بكنيته كأن يقول له: «يا أبا فلان» وإذا كان يخاطب جمعاً من الناس فمن المستحسن أن يقول لهم كما كان يقول نوح عليه السلام لقومه وهو يخاطبهم أو يقول لهم: يا أبناء عشيرتى، أو يا أبناء محلتى، مما يشعرهم بأنه ـ أى الداعى ـ واحد منهم ليس بعيداً عنه. ويجوز للداعى أن يخاطب المدعوين بما يذكرهم بطيب أصلهم، وحسن سيرة آبائهم وأجدادهم، وجهادهم فى خدمة الإسلام، وأنهم ـ أى من يخاطبهم ويدعوهم ـ أهل لأن يكونوا مثل آبائهم وأجدادهم جهاداً فى سبيل الله، وخدمة لدينه، على أن يكون مدح الداعى لآباء المدعوين بحدود ما يعلمه عنهم، وبدون إسراف فى المدح والثناء.

التلطف مع المدعوين لا يعنى المداهنة ولا النفاق:

وليكن معلوماً أن تطلف الداعى مع المدعو فى القول على النحو الذى ذكرناه لا يعنى المداهنة ولا النفاق، ولا إخفاء الحق وتحسين الباطل أو الرضا بما عليه المدعو من

(١) من مقدمة الشيخ صالح بن فوزان لكتاب «منهج الأنبياء فى الدعوة إلى الله» ص ٨.



المخالفة لشرع الله، وإنما هو من الخلق الحسن، ومن باب التشويق للمدعو لقبول الحق، والتشويقُ بقبول الحق أمر مشروع فى الإسلام.

الشفقة على المدعو والنصح له:

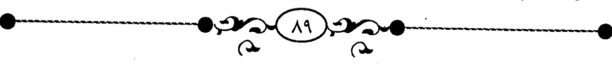
وعلى الداعى أن يُشعر المدعوَّ بالشفقة عليه، والنصح له، وأن يبتعد عن روح الإستعلاء على المدعو، أو احتقاره، أو إظهار فضله عليه، وإنما عليه أن يكلمه بروح الناصح الشفيق المخلص فى نصحه وشفقته.. يكلمه كمبلغ لمعانى الإسلام، لا أن يكلمه كمبلغ له فضله وعلمه.. إنه كالطبيب، يكلمه كطبيب ناصح يخبره بما يعرفه من أمور الطب فى ضوء ما ظهر له من مرض المريض، ولا يكلمه ليبلغه ويخبره بما يعرفه من علوم الطب، أو يعلمه بمهارته فى الطب وامتيازه عليه بهذه المهارة. إن إشعار الداعى للمدعو بالشفقة والنصح يكون بنظرة الداعى إليه، وبانبساط أسارير وجهه. وبنبرة صوته، وبإخباره بالحقائق كما هى دون تهويل، وبتحذيره من مخالفة الشرع. وعلى الداعى المسلم أن يبقى على هذا النهج ولا يحيد عنه، ولو قابله المدعو بما لا يليق. إن المدعوَّ مريض الروح، والمريض يصدر منه ما لا يصدر من الصحيح المُعَافى، فقوم نوح عليه السلام قالوا له: ﴿ **إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾، فأجابهم نوح: ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ . أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾[1] ،فنوح عليه السلام لم يغضب لقولهم واتهامهم له بالضلال، وإنما نفى عن نفسه الضلال، وأخبرهم بأنه رسول من رب العالمين؛ ليبلغهم ما أُرسِلَ به إليهم، فكيف يكون الرسول ضالاً؟ وبمثل هذا الجواب الخالى من الغضب والانفعال والانتصار للنفس يقبل المدعو على الداعى، ويستجيب لما يدعوه إليه إن لم يكن فى المرة الأولى ففى المرات القادمة.

التبليغ بالكلام المبين:

وعلى الداعى أن يعلم بأنَّ عليه أنْ يُبلغ ما يريد تبليغه للمدعو بوضوح تام لا إبهام فيه ولا غموض، قال تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ** ﴾[2] وجعل الله تعالى وظيفة الرسل الكرام التبليغ المبين، أى الواضح، لتقوم الحجة على المخاطبين، وهذا واجب الرسل قال تعالى: ﴿ **وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ** ﴾[3]؛ ولهذا قال نوح

---

(١) سورة الأعراف، الآيات: ٦٠، ٦٢.
(٢) سورة إبراهيم الآية: ٤.
(٣) سورة العنكبوت: الآية: ١٨.



عليه السلام لقومه: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[1]، ومقياس الوضوح فى كلام الداعى للمدعو ليس نفس الداعى وفهمه، فقد يكون الكلام واضحا بالنسبة له غير واضح بالنسبة للمدعو، وكذلك ليس مقياس الوضوح وضوح الكلام بذاته، فقد يكون الكلام واضحاً بنفسه غير واضح بالنسبة للمدعو، فالمقياس إذن فى وضوح كلام الداعى للمدعو هو أن يكون الكلام واضحاً بالنسبة للمدعو، وهذا هو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾، فالبيان لهم أى للمدعوين وليس للداعى. وفى الحديث النبوى الشريف عن عائشة رضى الله عنها قالت: «كان كلام رسول الله ﷺ كلاماً فصلاً» أى بيّناً ظاهراً يفهمه كل من يسمعه.

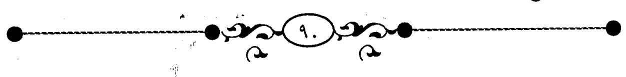
الدعوة إلى الله فى كل وقت ملائم:

والدعوة إلى الله يقوم بها الداعى فى أى وقت ملائم فى الليل وفى النهار، وبكل صيغة ملائمة لحال المدعو، فعلى الداعى أن يراعى الظروف والأحوال الملائمة للقيام بالدعوة، فلا يدعو فى حالة غير ملائمة ولا مناسبة للمدعو، كأن يكون مشغولاً، أو فى حالة شديدة من الإرهاق والتعب. وكذلك على الداعى أن يتخير الوقت المناسب فلا يقصد المدعو فى وقت القيلولة مثلاً، أو فى ساعة متأخرة من الليل.

على الداعى أن لا يثقل على المدعو:

على الداعى أن لا يثقل على المدعو أو على المدعوين فى تكرار تذكيرهم وموعظتهم مخافة السآمة، وهذا بالنسبة لشخص مُعيّن أو جماعة معينة يدعوهم الداعى. أما بالنسبة لأصل قيام الداعى بالدعوة إلى الله فهذا يجب أن يستمر ولا ينقطع، ويتكرر، ودليلنا على ما قلناه أن رسول الله ﷺ كان يتخول أصحابه الموعظة فى الأيام كراهة السآمة عليهم، فقد أخرج الإمام البخارىُ رحمه الله تعالى عن ابن مسعود قال: «كان النبى ﷺ يتخول بالموعظة فى الأيام كراهة السآمة علينا» قال الإمام الخطابى تعليقاً على هذا الخبر: (كان النبى ﷺ يراعى الأوقات فى تذكيرهم، ولا يفعل ذلك كل يوم لئلا يملّوا). وقال ابن حجر العسقلانى: ويستفاد من هذا الحديث إستحباب ترك المداومة فى الجدّ فى العمل خشيه الملال وإن كانت المواظبة مطلوبة. وقد التزم عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه بنهج رسول الله ﷺ وسننه فى وعظ الناس وتذكيرهم بمعانى الإسلام، فكان يقوم بذلك فى كل خميس ولم يستجب لمن طلب منه

(1) سورة نوح: الآية: ٢.



أن يعظ الناس كل يوم محتجاً بسنة رسول الله ﷺ في تخولهم بالموعظة، فقد أخرج الإمام البخاري رحمه الله عن أبي وائل قال: (كان ابن مسعود يذكّر الناس في كل خميس، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن لَوددتُ أنك ذكرتنا كل يوم. قال ابن مسعود: أما إنه يمنعني من ذلك أن أملكم وإني أتخولكم بالموعظة كما كان النبي ﷺ يتخولنا بها مخافة السآمة علينا)(1).

خامساً الترغيب والترهيب:

رأينا فيما سبق أنَّ سيدنا نوحاً عليه السلام رغبَّ قومه في الاستجابة لدعوته بما وعدهم من مغفرة الله لذنوبهم وبما يسبغه عليهم ربهم من نعمه في الدنيا. كما أنه عليه السلام خوّفهم من رفضهم دعوة الله بما يصيبهم من نقمة في الدنيا وعذاب في الآخرة. وهذا المسلك في الترغيب والترهيب في الدعوة، يجب أن يأخذ به الداعي، فيرغبّ المدعوين برضوان الله وجناته في الآخرة، وبالعيش الرضي في الدنيا إن هم أطاعوا الله، وأطاعوا رسوله، والتزموا بأحكام الشرع في جميع أمورهم. كما يرغبهم بخيرات الدنيا إن هم أطاعوا الله ورسوله، قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾(2).

فهذه الآيات فيها ترغيب بمغفرة الله، ودخول جنته في الآخرة لمن يؤمن بالله ورسوله، ويجاهد في سبيل الله بماله ونفسه، وترغيب لهم أيضاً بالنصر الذي يحبونه، والفتح القريب أي العاجل. فهذه الزيادة ـ النصر والفتح القريب ـ هي خير الدنيا موصول بنعيم الآخرة لمن أطاع الله ورسوله بعد أن آمن ونصر دين الله بماله ونفسه(3)، ومن الترغيب بالحياة الطيبة في الدنيا وبالثواب الحسن في الآخرة قوله تعالى: ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾(4).

ويكون الترهيب بعذاب الله في الآخرة، وبضنك العيش في الدنيا لمن يُعْرِضُ عن

---

(1) صحيح البخاري بشرح العسقلاني (1/163).
(2) سورة الصف: الآية 10 ـ 13.
(3) تفسير ابن كثير: (4/361).
(4) سورة النحل: الآية: 97.

شرع الله، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ . قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا . قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾[1]. ومن الآيات التى جمعت الترغيب والترهيب قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾[2].

جدال الداعى مع المخالفين:

يحتاج الداعى إلى الجدال مع المخالفين لدعوته، فعلى الداعى المسلم أن يجادلهم بالتى هى أحسنُ كما جادل نوح قومه، وكما أمرنا به صراحة، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[3] يأمر الله رسوله محمداً ﷺ أن يدعو الخلق إلى الله بالحكمة والموعظة ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، أى من احتاج منهم إلى جدال فليكن بالوجه الذى هو أحسن وجوه الجدل، فتجادلهم برفق ولين وحسن خطاب ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ،أى قد علم الشقى منهم والسعيد فادعهم إلى الله تعالى ولا تذهب نفسك حسرات على من ضل منهم، فإنه ليس عليك هداهم إنما أنت نذير، عليك البلاغ وعلينا الحساب[4].

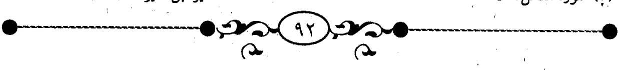
حِلْمُ الداعى على المخالفين:

على الداعى أن يَحْلُمَ على المخالفين وهو يجادلهم بالحسنى وهم يفترون الكذب ويلصقون به وبالدعوة التهم، وليأخذ عبرة من مواقف نوح فى جداله مع قومه، فلا يستفزه ما يقوله المبطلون عنه وعن الدعوة، وإنما للداع فقط أن ينفى ما يتهمونه به بالحجة والبرهان ويحصر جداله معهم فى موضوع الدعوة فالداعى لا ينتصر لنفسه ولا يغضب لها بل يَحْلُمُ عليهم، ويصبر على أذاهم بما يفترون عليه من أكاذيب.

قطع الجدال إذا انتفت فائدته:

إذا انتفت الفائدة من الجدل، فعلى الداعى أن يقطعه ولا يستمر فيه، لأن الغرض من الجدل تبصير المخالف بالحق والسعى لهدايته، فإذا تبين للداعى انتفاء هذا الغرض لم

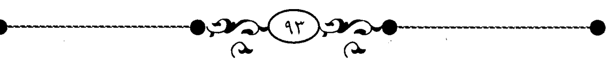
(١) سورة طه: آية ١٢٤ ـ ١٢٦. (٢) سورة النساء: آية ١٣ ـ ١٤.
(٣) سورة النحل: الآة ١٢٥. (٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٥١).



يبق مشروع ولا مبرر معقول للاستمرا فى هذا الجدل العقيم. ويعرف الداعى أنَّ الجدل صار بهذه الكيفية أو وصل إلى هذه الحالة بما يصرح به المخالف، أو بما تدل عليه القرائن، فمن ذلك فى قصة نوح عليه السلام أنَّ قومه قالوا له: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾(1)، وقولهم كما حكاه الله عنهم ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾(2) أى لئن لم تنته من دعوتك إيانا إلى دينك لتكونن من المرجومين، أى لنرجمنك(3).

وقال تعالى حكاية عما قاله قوم نوح: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾(4) أى هو - بزعمهم - رجل مجنون فيما يزعمه من أن الله أرسله إليكم واختصه من بينكم بالوحى ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾، أى انتظروا به ريب المنون واصبروا عليه مدّة حياته تستريحوا منه بعد ذلك(5)، ومن الواضح أنَّ هذه الأقوال لا تدل على أنَّ أصحابها يريدون بجدالهم مع نوح الوصول إلى الحقيقة، ففى الآية الأولى: أظهروا مللهم من كثيرة الجدال، وطلبوا من نوح أن يأتيهم بالعذاب الذى وعدهم به إن لم يؤمنوا. وفى الآية الثانية: هددوه برجمه بالحجارة إن لم يكف عن دعوته فلا يدعو أحداً لها. وهذا التهديد دليل قاطع على عدم الفائدة من الاستمرار بالجدال. وفى الآية الثالثة: رَمَوْهُ بالجنون فيما يدعيه أنه رسول الله، وطلبوا من قومهم انتظاره حتى يموت ويستريحوا منه، وهذا يدل على أنْ لا فائدة من التشبث بجدالهم لهدايتهم، ولهذا دعا نوح عليهم بالهلاك بعد أن سمع مقالتهم هذه، قال تعالى بعد أن ذكر قولهم إنَّ به جنة: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ (25) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (26) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ﴾(6) الخ. وقال تعالى حكاية عمّا دعا به ربه بعد أن هددوه بالرجم: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ. قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ. فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ. ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾(7) وكذلك يُعْرَفُ انتفاء الفائدة من الجدل مع المخالفين إذا تبين للداعى عدم جديتهم فى الجدل، أو أظهروا السخرية بالداعى أو بالدعوة، وغير ذلك

(1) سورة هود: الآية: 32.
(2) سورة الشعراء: الآية: 116.
(3) تفسير ابن كثير (3/341).
(4) سورة المؤمنون: الآية: 25.
(5) تفسير ابن كثير (3/244).
(6) سورة المؤمنون: الآيات 25 - 27 وفى آخر الآية 27 ﴿إنهم مغرقون﴾.
(7) سورة الشعراء: الآية: 116 - 120.



من القرائن.

العمل الصالح وليس النسب هو وسيلة النجاة:

ذكرنا فى قصة نوح عليه السلام أنه نادى ابنه أن يركب معه فى السفينة، لينجو من الغرق، فرفض الابن ذلك، فدعا نوح ربه بشأنه، وأخبره الله تعالى بأنه ليس من أهلك الذين وعدتك بإنجائهــم لكونه كافراً، وهذا يبين لنا أنَّ نسب الإنسان لا يغنى عنه شـيئاً إذا كان صاحبه عارياً من الإيمان والعمل الصالـح، فابن نوح لا شك فى رفعة نسبه فهو ابن نوح رسول الله، ولكن لم ينفـعه شيئـاً، لكونه كافراً فالله تعـالى يجزى الناس فى الدنيا والآخرة بإيمانهم وأعمالهم الصالحة، وليس بأنسابهم، ولا يحابى أحداً منهم لأجل آبائه وأجداده الصالحين، وإن كانوا من الأنبياء المرسلين[1].

وما قلنا هو من أصـول شريعتنا الإسلامـية، فقد أخـرج الإمام أحمد عن عـائشة رضى الله عنها قالت: لما نزلت ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ**﴾ [الشعراء: ٢١٤] قام رسول الله ﷺ فقال: «**يا فاطمة ابنة محمد، يا صفـية ابنة عبد المطلب، يا بنى عبد المطلب، لا أملك لكم من الله شيئاً سلونى من ما لى ما شئتم**»[2].

وفى كتاب الله إخـبارٌ عن (أبى لهب) وأن مصيـره إلى النار؛ لكفره ولم يغنِ عنه كونه عمَّ رسول الله ﷺ، ﴿**فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي الأَبْصَارِ**﴾ [الحشر: ٢].

ونسـتدل بقـصة هلاك ابن نوح على أن الإيمـان والعمل الصـالح لا علاقـة لهمـا بالوراثة والأنسـاب، وإلا لكان ابن نـوح مؤمنـاً، وإنما يكون الإيمان والعـمل الصـالح بكسب الإنسان وتزكية نفسه[3].

مصاحبة المؤمنين لا تفيد إذا لم يكن المصاحب مؤمناً:

إن امرأة نوح لم تكن من أهل نوح الذين وعد الله نوحـاً بإنجائهم، وإنما كانت من الذين سـبق عليهم حكم الله بالغـرق لكفرهم، وعلمنا ذلك بـإخبار الله لنا بـأن امرأته كانت من الكافرين، ولذلك استحقت دخول النار، قال تعالى: ﴿ **ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ** ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿ **ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ**

---

(١) تفسير المنار ج١٢ ص ٨٧.
(٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٤٩ ـ ٣٥٠.
(٣) تفسير المنار ج١٢ ص٨٦.
(٤) سورة التحريم: الآية ١٠.

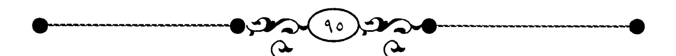


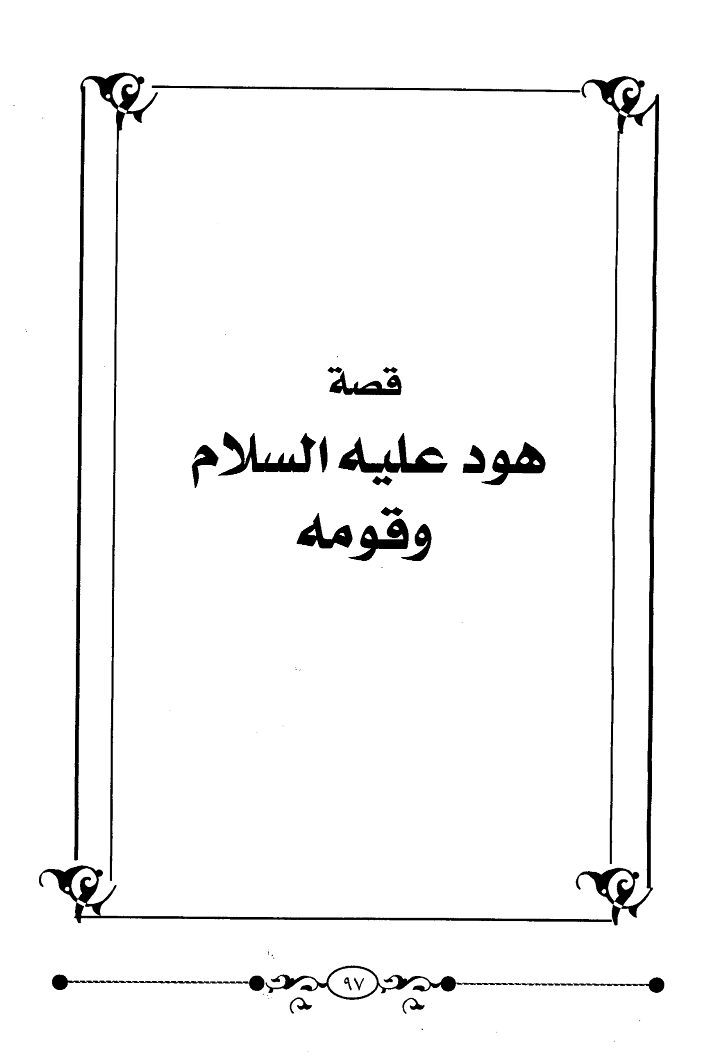
كَفَرُوا﴾ أى فى مخالطتـهم المسلمين ومعاشرتهم لهم أن ذلك لا يغنى عنهم شـيئاً، ولا ينفـعهم عند الله تعـالى إن لم يكن الإيمان حـاصلاً فى قلوبهم، ثم ذكـر المثل فقـال: ﴿امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾ [التحريم: ١٠]، أى نبيين رسولين كانتا عندهمـا فى صحبتهما ليلاً ونهـاراً يؤاكلانهما ويضاجعانهمـا ويعاشرانهما أشد العشرة والإختلاط ﴿ فَخَانَتَاهُمَا﴾ أى فى الإيمان، لم توافقاهما على الإيمان، ولا صدقتاهما فـى الرسالة، فلم يُجْدِ ذلك كله شيئاً، ولا دفع عنهما مـحذوراً، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾[التحـريم: ١٠] أى لكفرهـما﴿ وَقِيلَ﴾، أى للمرأتين: ﴿ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾[التحريم: ١٠] وليس المراد بقوله ﴿ فَخَانَتَاهُمَا﴾ فى فاحـشة بل فى الدين، فإنَّ نسـاء الأنبيـاء معصـومات عن الوقوع فى الفـاحشة لحـرمة الأنبياء، أما خيانة امرأة نوح، فكانت تخـبر أنه مجنون، وكانت على غير دينه، وتطلع على سره، فإذا آمن أحـد برسالة نوح، وأنه رسول الله، أخبرت الجـبابرة من قوم نوح بإيمانه[1].

الداعى لا يطلب مالاً على دعوته:

والداعى لا يطلب من أحد مالاً على قيـامه بالدعوة إلى الله تعالى، ولا يطلب أى شىء آخر ممـا يمكن أن يظنه الناس عوضـاً عن قيـامه بالدعـوة، وهذا ما أخبـر به نوح قومه، قـال الله تعالى حكاية عما قـاله نوح لقومه: ﴿**ويا قوم لا أسألكـم عليه مالا إن أجرى إلا على الله**﴾، فنوح عليه السلام صرح لقومه بأنه لا يسألهم على ما يدعوهم إليه مالاً، فيكون متهـماً فيه عندهم ﴿ **إن أجرى إلا على الله**﴾، أى ما أجرى على تبليغ ما أرسلت به إلا على الله الذى أرسلنى به. وهذا أمـر مهم على الداعى المسلم أن يـلتفت إليه، ويحذر من أن يطلب من المدعوين أو من أحد من الناس شيئاً لمنفعته، لئلا يُظَنَّ به أنه يتخذ الدعوة وسيلة لجرِّ المنافع لنفسه. ولأهمية هذا الأمر صرّح رسل الله به، فكلهم قالوا لأقوامهم ما قاله نوح لقومـه من أنهم لا يسألونهم أجراً على قيامهم بدعوتهم إلى الله تعالى. فهود عليه السلام، مثلاً، قال لقومه: ﴿ **يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾[2] [3].

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٩٣). (٢) سورة هود الآية: ٥١.
(٣) «المستفاد من قصص القرآن» الدكتور عبد الكريم زيدان (١/ ١٥٣ ـ ١٦٩) باختصار. ط مؤسسة الرسالة.





قصة

هود عليه السلام وقومه

قصة هود عليه السلام وقومه

هود عليه السلام هو ابن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام وكان من قبيلة يقال لهم: عاد بن عوص بن سام بن نوح، وكانوا عرباً يسكنون الأحقاف ـ وهى جبال الرمل ـ وكانت باليمن بين عمان وحضرموت، وكانوا كثيراً ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ [الفجر: ٦ ـ ٧].

وقبيلة عاد تلقب بإرم أيضاً، فقوله تعالى: ﴿ إِرَمَ ﴾ عطف بيان لعاد للدلالة على أنهم عاد الأولى، لا عاد الآخرة[١] وقوله تعالى: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴾، أى مثل القبيلة التى لم يخلق مثلها فى بلادهم لقوتهم وشدتهم وعظم تركيبهم[٢]، وعاد الأولى هم أول من عبد الأصنام بعد الطوفان، فأرسل الله إليهم هوداً عليه السلام، وهو رجل منهم يدعوهم إلى عبادة الله وحده والإخلاص له، وترك عبادة الأصنام.

«فلما أمرهم بعبادة الله ورغبهم فى طاعته واستغفاره، ووعدهم على ذلك خير الدنيا والآخرة، وتوعدهم على مخالفة ذلك عقوبة الدنيا والآخرة: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦]، أى هذا الأمر الذى تدعونا إليه سفه بالنسبة إلى ما نحن عليه من عبادة هذه الأصنام التى يُرتجى منها النصر والرزق، ومع هذا نظن أنك تكذب فى دعواك أن الله أرسلك.

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٦٧]، أى ليس الأمر كما تظنون ولا كما تعتقدون ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [الأعراف: ٦٨] ، والبلاغ يستلزم عدم الكذب فى أصل المبلَّغ، وعدم الزيادة فيه والنقص منه، ويستلزم أداءه بعبارة فصيحة وجيزة جامعة مانعة لا لبْس فيها ولا اختلاف ولا اضطراب.

وهو مع هذا البلاغ على هذه الصفة فى غاية النصح لقومه والشفقة عليهم والحرص على هدايتهم، لا يبتغى منهم أجراً ولا يطلب منهم جُعْلا، بل هو مخلص لله

---

(١) محاسن التأويل للقاسمى (١٧/٦١٤٧) و «فتح القدير» للشوكانى (٥/٤٣١).
(٢) تفسير ابن كثير (٤/٥٠٧).



عز وجل فى الدعوة إليه والنصح لخلقـه، لا يطلب أجره إلا من الذى أرسله، فإن خير الدنيا والآخرة كله فى يده وأمره إليه، ولهذا قال: ﴿ **يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾ [هود: ٥١]، أى أما لكم عقل تميّزون به وتفهمون أنى أدعوكم إلى الحق المبين الذى تشـهد به فِطَركم التى خُلقتم عليـها، وهو دين الحق الذى بعث الله به نوحاً وأهلك من خـالفه من الخلق، وها أنا أدعوكم إليه ولا أسـألكم أجراً عليه، بل أبتغى ذلك عند الله مالك الضر والنفع.

وقال قومُ هود له فيما قالوا: ﴿ **يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ . إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ** ﴾ [هود: ٥٣، ٥٤] يقولون: ما جئتنا بخارق يشهد لك بصـدق ما جئت به، وما نحن بالذين نترك عبادة أصنامنا عن مجرَّد قولك بلا دليل أقَمْته ولا برهان لأن بعض آلهتنا غضب عليك فأصابك فى عقلك فاعتراك جنون بسبب ذلك وهو قولهم: ﴿ **إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ**﴾.

﴿**قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ** ﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٥].

وهذا تحدٍ منه لهم، وتبرأ من آلهتهم وتنقص منه لهـا، وبيان أنها لا تنفع شيئا ولا تضر، وأنها جمـاد حُكْمها حكمه وفعلها فـعله فإن كانت كما تزعمـون من أنها تنصر وتنفع وتضر فهـا أنا برىء منها لاعنٌ لها ﴿ **فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ**﴾ أنتم جميعا بجميع ما يمكنكم أن تصلوا إليه وتقدروا عليه، ولا تؤخرون ساعة واحدة ولا طرفة عين فإنى لا أبالى بكم ولا أفكر فيكم، ولا أنظر إليكم. ﴿ **إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [هود: ٥٦]، أى أنا متوكل على الله ومتأيد به، وواثق بجنابه الذى لا يضيع من لاذ به واستند إليه، فلست أبالى مخلوقاً سواه، لست أتوكل إلا عليه ولا أعبد إلا إياه.

وهذا وحده برهان قاطع على أن هوداً عبد الله ورسوله، وأنهم على جهل وضلال فى عبادتهم غير الله؛ لأنهم لم يصلوا إليه بسوء ولا نالوا منه مكروهاً.

فدل على صدقه فيما جاءهم به، وبطلان ما هم عليه وفساد ما ذهبوا إليه.

وهذا الدليل بعينه قد استدل به نوح عليه السلام قبله فى قوله: ﴿ **يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ**



أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١].

﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ . وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ . أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴾[المؤمنون: ٣٣، ٣٥].

استبعدوا أن يبعث الله رسولا بشرياً. وهذه الشبهة أدلى بها كثير من جهلة الكفرة قديماً وحديثاً، كما قال تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: ٢].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً . قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً﴾ [الإسراء: ٩٤، ٩٥].

ولهذا قال لهم هود عليه السلام: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٩]، أى ليس هذا بعجيب؛ فإن الله أعلم حيث يجعل رسالته.

وقوله: ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ . هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ . إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ . إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ . قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ [المؤمنون: ٣٥ ـ ٣٩] استبعدوا الميعاد وأنكروا قيام الأجساد بعد صيرورتها تراباً وعظاماً، وقالوا: هيهات هيهات، أى بعيدٌ بعيدٌ هذا الوعد، ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ أى يموت قوم ويحيا آخرون وهذا هو اعتقاد الدهرية، كما يقول بعض الجهلة من الزنادقة: أرحام تدفع وأرض تبلع.

وهذا كله كذب وكفر وجهل وضلال، وأقوال باطلة وخيال فاسد بلا برهان ولا دليل، يستميل عقل الفجرة الكفرة من بنى آدم الذين لا يعقلون ولا يهتدون، كما قال تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٣].

وقال لهم فيما وعظهم به: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ . وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ



تَخْلُدُونَ ﴾ الشعـراء: ١٢٨، ١٢٩]. يقولُ لهم: أتبنون بكـل مكان مرتفع بناءً عظيـماً هائلاً كالقصور ونحوها، تعبثون ببنائها لأنه لا حاجة لكم فيه، وما ذاك إلا لأنهم كانوا يسكنون الخيام.

وقوله: ﴿**وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ**﴾ قيل: هى القـصور، وقيل: بروج الحمـام، وقيل: مآخذ الماء ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ** ﴾، أى رجاء منكم أن تعمروا فى هذه الدار أعماراً طويلة: ﴿**وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ . وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ . أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ . وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾ [الشعراء: ١٣٠ إلى ١٣٥].

وقالوا له مما قالوا: ﴿ **أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾ [الأعـراف: ٧٠]، أى أجئـتنا لنعـبد الله وحـده، ونخـالف آباءنا وأسلافنا ومـا كانوا عليه؟ فـإن كنت صادقاً فـيما جـئت به فأتنا بما تعـدنا من العذاب والنَّكال، فإنا لا نؤمن بك ولا نتبعك ولا نصدقك.

كما قالوا: ﴿ **سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ . إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ . وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ** ﴾[الشـعـراء: ١٣٦إلى١٣٨]أى إن هذا الدين الـذى نحن عليـه إلا دين ﴿**الأَوَّلِينَ**﴾ الآباء والأجداد من الأسلاف، ولن نتحول عنه ولا نتغير، ولا نزال متمسكين به.

قال: ﴿ **قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ** ﴾ [الأعراف: ٧١]، أى قد استحقـقتم بهذه المقالة الرجسَ والغضب من الله، أتعارضون عـبادة الله وحده بعبادة أصنام نحتموها وسـميتموها آلهة من تلقاء أنفسكم؟ اصطلحـتم عليها أنتم وآباؤكم، ما نَزَّل الله بها من سلطان أى لم ينزل على ما ذهبتم إليـه دليلا ولا برهاناً. وإذ أبيتم قبول الحق وتماديتم فى البـاطل، وسواء عليكم أنهـيتكم عمـا أنتم فيـه أم لا، فانتظروا الآن عذاب الله الواقع بكم، وبأسه الذى لا يرّد ونكاله الذى لا يصُدّ.

وقال تعالى: ﴿**قال رب انصرنى بما كذبون. قال عما قليل ليصبحن نادمين. فأخذتهم**



الصيحة فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين﴾ وقال تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ . فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ . تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ الأحقاف: من ٢٢ إلى ٢٥].

وقد ذكر الله تعالى خبر إهلاكهم فى غير ما آية مجملا ومفصلا، كقوله: ﴿فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين﴾ وكقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ . وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٥٨، ٦٠] وكقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[المؤمنون: ٤١] وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ١٣٩ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾[الشعراء: ١٣٩، ١٤٠].

وأما تفصيل إهلاكهم فكما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأحقاف: ٢٤] كان هذا أول ما ابتدأهم العذاب، أنهم كانوا مُمحلين(١)، فطلبوا السُّقيا فرأوا عارضاً فى السماء وظنوه سُقيا رحمة، فإذا هو سقيا عذاب، ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ﴾ أي من وقوع العذاب، وهو قولهم: ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧]، أى كوامل متتابعات. ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٧] شبَّهم بأعجاز النخل التى لا رءوس لها؛ وذلك لأن الريح كانت تجىء إلى أحدهم فتحمله فترفعه فى الهواء؛ ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى جثة بلا رأس، كما قال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ [القمر: ١٩] أى فى يوم نحس عليهم مستمر عذابه عليهم.

---

(١) ممحلين: أى انقطع عنهم المطر ويبست أرضهم من الكلأ.

﴿ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠] ومن قـال: إن اليوم النحس المستمر يوم الأربعاء وتشاءم به[١] لهذا الفهم، فقد أخطـأ وخالف القرآن؛ فإنه قال فى الآية الأخرى: ﴿فأرسلنا عليهم ريحا صرصراً فى أيام نحسات﴾، ومعلوم أنها ثمانية أيام متتـابعات، فلو كانت نحـسات فى أنفسهـا لكانت جميع الأيام السبـعة المندرجة فـيها مشئمة، وهذا لا يقوله أحد، وإنما المراد فى أيام نحسات، أى عليهم.

وقال تعالى: ﴿وفى عاد إذ أرسلـنا عليهم الريح العـقيم﴾، أى التى لا تنتج خيراً، فإن الريح المفردة لا تثير سحابا ولا تلقح شجراً، بل هى عقيم لا نتيجة خير لها، ولهذا قال: ﴿ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم﴾، أى كالشىء البالى الفانى الذى لا ينتفع به بالكلية.

وقـد ثبت فى الصـحيـحين [٢] عن ابن عـباس عـن رسول الله ﷺ أنه قـال: «نصرت بالصبًا، وأهلكت عادٌ بالدبور»[٣].

قال الحافظ ابن حجـر: قوله (بالصبا) يقال لها القبول؛ لأنهـا تقابل باب الكعبة إذ مهبهـا من مشرق الشمس وضدها الدبور وهى التى اهلكت بهـا قوم عاد، ومن لطيف المناسبة كون القبول نصرت أهل القبول وكون الدبور أهلكت أهل الإدبار[٤].

(تنويه)

أشكل على بعض الناس قول الله تعالى ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٥]، وقـالوا :كيف يؤاخى الله بين هود

---

(١) ورد حديث ضعيف فى أن يـوم الأربعاء الأخير من الشهر يوم نحس، وهذا الحديـث ذكره السيوطى فى «الدر المنثور» (٦/ ١٨١) وضعفـه. وقد صح عن النبى ﷺ ما يخالف هذا الاعتقـاد، فقد روى الإمام أحمد فى «مسنده» (٣/ ٣٣٢) بسند حسن، عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه أن النبى ﷺ دعا على الأحزاب يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء فاستجيب له يوم الأربعاء بين الظهر والعصر. قال جابر: فما نزل بى أمرٌ مهم إلا توخيت ذلك الوقت فدعوت الله فيه، فرأيت الإجابة».

(٢) رواه البخـارى (١٠٣٥) كتاب الاستـسقاء، باب: قـول النبى ﷺ نصرت بالصبـا. ومسلم (٢٠٥٣) كتاب الصلاة، باب: فى ريح الصبا والدبور.

والصبا: هى الريح الشرقية. والدبور: هى الريح الغربية ـ مشئومة ـ.

(٣) «البداية والنهاية» (١/ ١٣٧ ـ ١٤٧) باختصار. (٤) «فتح البارى» (٢/ ٦٠٥).

وهو رسول وبين قومه وهم كفار؟

والجواب: أن الأخوة الـتى ذكرها الله تعالى ليست أخـوة فى الدين وإنما أخوة فى النسب والقومية، فأخوة الدين منقطعة بين هود عليه السلام وقومه. وقد أظهر هود عليه السلام هذه المـقاطعة والبـراءة من قومـه ومما يعبدون وذلـك فى قوله ﴿ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٤] وهكذا يجب أن يكون الداعيـة صريحاً واضحاً فى ولائه وبراءته، وقـوياً بربه لا يخاف غيره ولا يعتمد إلا عليه.

دروس وعبر

التقدم المادى؛ العمرانى، والصناعى، له جذوره فى الأحقاب الماضية؛ فقبيلة عاد الأولى، التى كـانت تسكن بجنوب الجزيرة العـربية، امـتلكت قوة فى الجـسم، والبناء المرتفع على قـمم مرتفعـة، والمصانع للادخار والحـفظ، والثورة الحـيوانية والزراعـية، والطاقة البشرية.

ولم يكن ارتباط بين التقدم المادى هذا، والفكر السائـد لدى قوم عاد، فقد كان التخـلف الفكرى، والرضا بتـقليد الآباء والأجـداد، ولم تسعـفهم الحضـارة المادية فى تشغيل عقولهم إلا فى المزيد من الماديات، وازدادوا طغياناً وكفراً وجحوداً.

الحضارة الماديـة مهما اتسعت دائرتـها، وتنوعت مجالاتهـا، وأخذت الأرض بها زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها، مهـما كانت نتائجها من ضخامة وفن، وفكر، إذا لم يُدعم هذه الحضارة إيمان بواهب هذه الحضارة، والهادى إليها ستكون إلى بوار وهلاك، وفى تاريخ قوم عاد عبرة وعظة، وما يذكر إلا ألوا الألباب.

من طبع الجـاهليين المعادين اتهـام من يريد إنقـاذهم بالجنون، وعلى الداعيـة أن يوطن نفسه لتلقى مثل هذه التهمة، مع حـرصه في الوقت نفسه على البعد عن مواطن الشبهة، ولا ييأس حين يُفاجأ بالاتهام زوراً وبهتاناً[1].

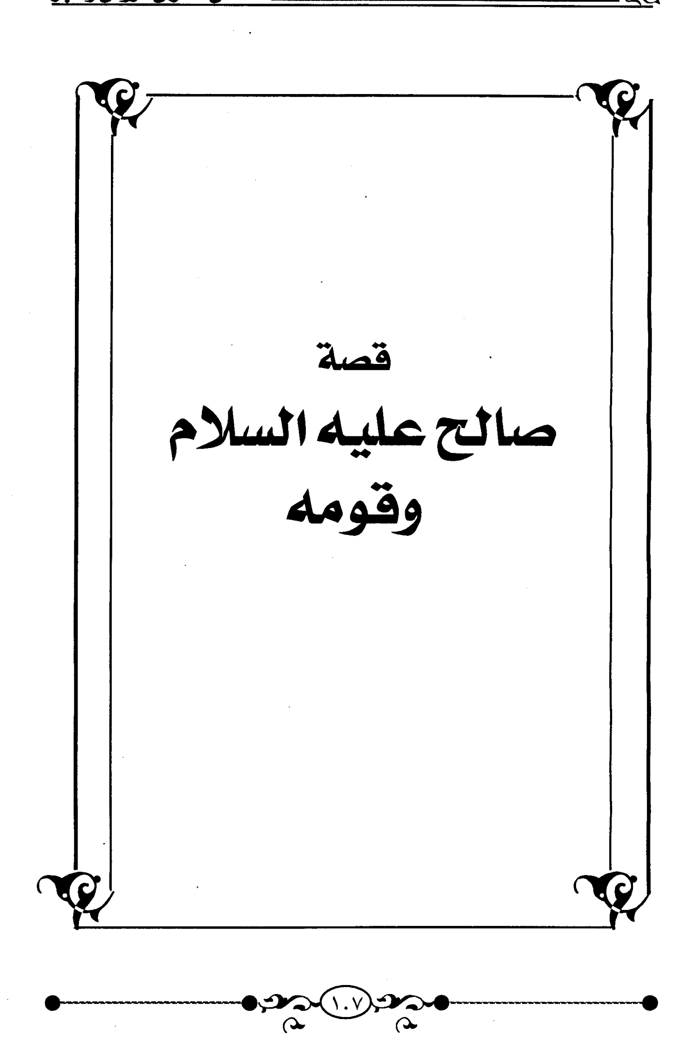
إن الذى يتولى عظة الناس وإرشادهم والنصح لهم ينبغى أن يكون آخذاً أخذ هود عليه السـلام فى سعة الصدر وعـدم مقابلة الشـر بمثله ويحتمل صلف المدعـوين وسوء

(١) « فى موكب النبيين» سيد احمد الكيلانى (١/١٥٨ ـ ١٥٩) باختصار .ط دار القلم الكويت.

ردهم عليه رجاء أن يظفر ببغيته منهم ويفوز بهدايتهم أو هداية بعض منهم، وأن يكون جوابه عند اليأس بعد بذل الجهد واستنفاد أساليب الترغيب ما قاله هود عليه السلام:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هود: ٥٧] (١).

(١) «قصص الأنبياء» عبد الوهاب النجار (ص ٥٧) ط. دار الفكر..



قصة
صالح عليه السلام وقومه

••••• قصة صالح عليه السلام وقومه

صالح عليه السلام هو ابن عبيد بن ماسح بن عبيد بن حادر بن ثمود بن عائر بن آدم بن سام بن نوح عليه السلام .

وقد أرسله الله إلى قومه ثمود فى قبيلة سميت باسم جدهم ثمود، وكانوا يعبدون الأصنام، وكانوا عرباً يسكنون الحجر الذى بين الحجاز وتبوك. وكانوا بعد عاد ولم يعتبروا بما كان من أمرهم.

وكانوا خلفاء لقوم عاد فى الحضارة والعمران والقوة والبأس وكانوا يبنون فى الأرض قصوراً، وينحتون فى الجبال بيوتاً وكهوفاً يسكنون فيها؛ لأن الأبنية والسقوف كانت تفنى قبل فناء أعمارهم.

ولما جاءهم صالح عليه السلام ودعاهم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام والأنداد وقال لهم: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، أى هو الذى خلقكم فأنشأكم فى الأرض، وجعلكم عمَّارها، أى أعطاكموها بما فيها من الزروع والثمار، فهو الخالق الرزاق، وهو الذى يستحق العبادة وحده لا سواه. ﴿ فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٦١]، أى أقلعوا عما أنتم فيه وأقبلوا على عبادته، فإنه يقبل منكم ويتجاوز عنكم ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١].

﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا﴾ [هود: ٦٢]، أى كنا نرجوا أن يكون عقلك كاملا قبل هذه المقالة، وهى دعاؤك إيانا إلى إفراد العبادة، وترك ما كنا نعبده من الأنداد، والعدول عن دين الآباء والأجداد ولهذا قالوا: ﴿ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢].

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود: ٦٣].

وهذا تلطف منه لهم فى العبارة ولين الجانب، وحُسن تأتٍ فى الدعوة لهم إلى الخير ،أى فما ظنكم إن كان الأمر كما أقول لكم وأدعوكم إليه؟ .



ما عذركم عند الله ؟ وماذا يخلصكم بين يديه وأنتم تطلبون منى أن أترك دعاءكم إلى طاعته؟ وأنا لا يمكننى هذا لأنه واجب علىّ، ولو تركته لما قدرَ أحد منكم ولا من غيركم أن يجيرنى منه ولا ينصرنى، فأنا لا أزال أدعوكم إلى الله وحده لا شريك له، حتى يحكم الله بينى وبينكم.

وقالوا له أيضاً: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣]، أى من المسحورين، يعنون مسحوراً لا تدرى ما تقول فى دعائك إيانا إلى إفراد العبادة لله وحده، وخلع ما سواه من الأنداد. وقولهم: ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[الشعراء: ١٥٤] سألوا منه أن يأتيهم بخارق يدل على صدق ما جاءهم به. قال: ﴿هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (١٥٥) وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٦] كما قال: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣] وقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾. [الإسراء: ٥٩].

وقد ذكر المفسرون أن ثمود اجتمعوا يوماً فى ناديهم، فجاءهم رسول الله ﷺ فدعاهم إلى الله وذكرهم وحذرهم ووعظهم وأمرهم، فقالوا له: إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة ـ وأشاروا إلى صخرة هناك ـ ناقة، من صفتها كيت وكيت وذكروا أوصافاً سمُّوها ونعتوها وتعنتوا فيها. وأن تكون عشراء طويلة، من صفتها كذا وكذا فقال لهم النبى صالح عليه السلام: أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذى طلبتم، أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقونى فيما أرسلت به؟ قالوا: نعم فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك.

ثم قام إلى مصلاة فصلى لله عز وجل ما قُدِّر له، ثم دعا ربه عزوجل أن يجيبهم إلى ما طلبوا، فأمر الله عزوجل تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء على الوجه المطلوب الذى طلبوا، أو على الصفة التى نعتوا.

فلما عاينوها كذلك رأوا أمراً عظيماً ومنظراً هائلا، وقدرة باهرة ودليلاً قاطعاً وبرهاناً ساطعاً فآمن كثير منهم، واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم ولهذا قال: ﴿ظَلَمُوا بِهَا﴾، أى جحدوا بها ولم يتبعوا الحق بسببها، أى أكثرهم.

ولهذا قال لهم صالح عليه السلام: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ أضافها لله سبحانه وتعالى



إضافة تشريف وتعظيم، كـقوله بيتُ الله وعبدُ الله ﴿لَكُمْ آيَةً﴾ أي دليلا على صدق ما جئتكم به﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

فاتفق الحال على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم، ترعى حيث شاءت من أرضهم ، وترد الماء يوماً بعد يوم، وكـانت إذا وردت الماء تشرب ماء البئـر يومها ذلك، فكانوا يرفـعون حاجـتهم من المـاء فى يومهم لغـدهم. ويقال: إنهم كـانوا يشربون من لبنـها كفايتهم، ولهذا قال: ﴿ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ .

ولهذا قـال تعالى: ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ ﴾ [القمـر:٢٧]، أى اختـباراً لهم أيؤمنون بها أم يكفـرون؟ والله أعلم بما يفعلون. ﴿فَارْتَقِبْهُمْ ﴾ أى انتظر ما يكون من أمرهم ﴿وَاصْطَبِرْ﴾ على أذاهم فسيأتيك الخير على جليّة. ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾ . [القمر: ٢٨].

فلما طال عليهم هذا الحال اجتـمع ماؤهم، واتفق رأيهم على أن يعقروا هذه الناقة ليـسـتـريحـوا منهـا ويتوفـر عليـهم مـاؤها، وزين لهم الشـيطان أعـمالهم. قـال الله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٧٧].

وكان الذى تولى قتلها منهم رئيسهم: قدار بن سالف بن جندع، وكان أحمر أزرق أصهـب. وكان يقـال: إنه ولد زانية ولد على فـراش سالف، وهو ابن رجل يقـال له صبيان. وكان فعله ذلك باتفاق جميعهم، فلهذا نسب الفعل إليهم كلهم.

وذكر ابن جـرير وغيره من علمـاء المفسريـن: أن امرأتين من ثمود اسم إحـداهما «صدوق» ابنة المحيا بن زهير بن المختـار. وكانت ذات حسب ومال، وكانت تحت رجل من أسلم ففارقتـه، فدعت ابن عم لها يقال له« مصرع» بن مبـرج بن المحيا، وعرضت عليه نفسها إن هو عقـر الناقة، واسم الأخرى «عنيزة» بنت غنيم بن مجلَز، وتكنى أم غنمـة وكانت عجـوزاً كافـرة، لها بنات من زوجـها ذؤاب بن عـمرو أحـد الرؤساء، فعـرضت بناتهـا الأربع على قدار بن سـالف، إن هو عقـر الناقلة فله أى بناتهـا شاء، فانتدب هذان الـشابان لعقرها وسعـوا فى قومهم بذلك، فاسـتجاب لهم سبـعة آخرون فصاروا تسعة. وهم المذكورون فى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ ﴾ [النمل:٤٨]، وسـعوا فى بقـية القـبيلة وحـسنوا لهم عقـرها،

فأجابوهم إلى ذلك وطاوعوهم فى ذلك. فانطلقوا يرصدون الناقة، فلما صدرت من وردها كمن لها« مصرع» ، فرماها بسهم فانتظم عظم [1] ساقها، وجاء النساء يذمرن [2] القبيلة فى قتلها، وحسرْن عن وجوههن ترغيباً لهم فى ذلك فأسرعهم قدار بن سالف، فشدّ عليها بالسيف فكشف عن عرقوبها فخرت ساقطة إلى الأرض. ورغت رغاة واحدة عظيمة تحذر ولدها، ثم طعن فى لبنها فنحرها، وانطلق سقبها ـ وهو فَصيلها ـ فصعد جبلا منيعاً ورَغَا ثلاثاً.

قال الله تعالى: ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ [القمر: ٢٩ ـ ٣٠] وقال الله تعالى: ﴿ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴾ [الشمس: ١٢ ـ ١٣]، أى احذروها ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١٤ ـ ١٥].

عن عبد الله بن زَمعة قال: خطب رسول الله ﷺ فذكر الناقة وذكر الذى عقرها فقال: إذ انبعث أشقاها انبعث لها رجل عارم عزيز منيع فى رهطه، مثل أبى زَمَعَة»[3].

وعن عمار بن ياسر ، قال: قال رسول الله ﷺ لعلى: « ألا أحدثك بأشقى الناس؟ قال: بلى قال: رجلان أحدهما أحَيمْر ثمود الذى عقر الناقة والذى يضربك يا علىٌّ على هذا ـ يعنى قرنه ـ حتى تبتل منه هذه ـ يعنى لحيته ـ » [4].

---

(١) عضلة ساقها.

(٢) يذمرن: يحضضن.

(٣) رواه البخارى (٤٩٤٢) كتاب التفسير ، باب: سورة ﴿الشمس وضحاها﴾. ومسلم (٧٠٥١) كتاب صفة الجنة والنار، باب : النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء.

وعارم: أى كثير الشهامة والشر. وعزيز: أى : قليل المثل. ومنيع فى رهطه: أى قوى ذو منعة ومطاع فى قومه.

وأبو زمعة: هو الأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزى، وكان الأسود أحد المستهزئين، ومات على كفره بمكة، وقتل ابنه زمعة يوم بدر كافراً أيضاً، ووجه تشبيهه به أنه كان فى عزة ومنعة فى قومه كما كان ذلك الكافر.

(٤) حسن. رواه أحمد (٤/ ٢٦٣) والنسائى فى «خصائص على» (١٤٩) والطحاوى فى «مشكل الآثار» (١/ ٣٥١ ـ ٣٥٢) والطبرى فى «تاريخه» (٢/ ٤٠٨) والحاكم (٣/ ١٤٠ ـ ١٤١) والبيهقى فى «دلائل النبوة » (٣/ ١١ ـ ١٢) وانظر « السلسلة الصحيحة» (١٧٤٣).

وأحَيْمِر: تصغير أحمر، وقيل: لأنه أحمر أشقر أزرق دميم.

وقال تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧] فجمعوا فى كلامهم هذا بين كفر بليغ من وجوه:

منها: أنهم خالفوا الله ورسوله فى ارتكابهم النهى الأكيد فى عقر الناقة التى جعلها الله لهم آية.

ومنها: أنهم استعجلوا وقوع العذاب بهم فاستحقوه من وجهين: أحدهما الشرط عليهم فى قوله: ﴿لا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ وفى آية ﴿عظيم﴾ وفى الأخرى﴿ أليم﴾ والكل حق. والثانى استعجالهم على ذلك.

ومنها: أنهم كذبوا الرسول الذى قام الدليل القاطع على نبوته وصدقه، وهم يعلمون ذلك علماً جازماً، ولكن حملهم الكفر والضلال والعناد على استبعاد الحق ووقوع العذاب بهم قال الله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥].

وذكروا أنهم لما عقروا الناقة كان أول من سطَا قدارُ بن سالف، لعنه الله؛ فعقرها فسقطت إلى الأرض، ثم ابتدروها بأسيافهم يقطعونها فلما عاين ذلك سقبها - وهو ولدها - شرد عنهم فعلا أعلى الجبل هناك، ورغا ثلاث مرات.

فلهذا قال لهم صالح: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ﴾ أى غير يومهم ذلك، فلم يصدقوه أيضاً فى هذا الوعد الأكيد. بل لما أمسوا همّوا بقتله وأرادوا - فيما يزعمون - أن يُلحقوه بالناقة. ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ [النمل: ٤٨] لنكبسنه فى داره مع أهله فنلقتلنه، ثم نجحدن قتله ولننكرن ذلك إن طالبنا أولياؤه بدمه. ولهذا قالوا: ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [النمل: ٤٨].

قال الله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٤٩ - ٥٣].

وذلك أن الله تعالى أرسل على أولئك النفر الذين قصدوا قتل صالح حجارة رضختهم فأهلكهم سلفاً وتعجيلا قبل قومهم، وأصبحت ثمود يوم الخميس وهو اليوم الأول من أيام النظرة - ووجوههم مصفرة، كما أنذرهم صالح عليه السلام. فلما أمسوا نادوا بأجمعهم: ألا قد مضى يوم من الأجل ثم أصبحوا فى اليوم الثانى من أيام



التأحيل وهو يوم الجمعة ـ ووجوهم محمرة، فلما أمسوا نادوا: ألا قد مضى يومان من الأجل. ثم أصبحوا فى اليوم الثالث من أيـام المتاع وهو يوم السبت ووجوههم مسودة، فلما أمسوا نادوا: ألا قد مضى الأجل.

فلما كـان صبيـحة يوم الأحد تحنّطوا وتأهبـوا وقعدوا ينتظـرون ماذا يحل بهم من العذاب والنكال والنقمة، لا يدرون كيف يفعل بهم؟ ولا من أى جهة يأتيهم العذاب؟.

فلما أشـرقت الشمس جاءتهم صيـحة من السمـاء من فوقهم، ورجفـة من أسفل منهم، ففـاضت الأرواح وزهقت النفوس، وسكتت الحـركات، وخشـعت الأصوات، وحققت الحقائق، فأصبحوا فى دارهم جاثمين، جثثاً لا أرواح فيها ولا حِراك بها، قالوا ولم يبق منهم أحـد إلا جارية كانت مـقعدة واسـمهـا «كلية» بنت السلق ـ ويقـال لها الذرِّيعة ـ وكانت شديدة الكفر والعداوة لصالح عليه السلام، فلما رأت العذاب أطلقت رجلاها، فقـامت تسعى كأسرع شئ فأتت حـياً من العرب فأخـبرتهم بما رأت وما حلَّ بقومها واستسقتهم ماء، فلما شربت ماتت.

قال الله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩] إخبارٌ عن صالح عليه السلام، أنه خاطب قومه بعد هلاكهم، وقد أخذ فى الذهاب عن محلتهم إلى غيرها قائلا لهم ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾، أى جـهـدت فى هدايتكم بـكل مـا أمكننى، وحرصت على ذلك بقولى وفعلى ونيتى.

﴿وَلَكِن لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ ،أى لم تكن سجاياكم تقبل الحق ولا تريده، فلهذا صرتم إلى مـا أنتم فيـه من العذاب الأليم، المسـتمر بكم المتـصل إلى الأبد، وليس لى فيكم حـيلة ولا لى بالدفع يدَان. والذى وجب علىَّ من أداء الرسالـة والنصح لكم قد فعلته وبذلته لكم، ولكن الله يفعل ما يريد.

ذكر مرور النبى ﷺ
بوادى الحِجْر من أرض ثمود عام تبوك

عن ابن عمر قال: لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك، نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود، فاستقى الناس من الآبار التى تشرب منها ثمود، فعجنوا منها ونصبوا القدور، فأمرهم رسول الله فأهرقوا القدور، وعلفوا العجين الإبل؟ ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التى كانت تشرَّب منه الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا فقال: « **إنى أخشى أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم** »(١).

وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر: « **لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم** »(٢).

وفى بعض الروايات: أنه عليه السلام لما مر بمنازلهم قنّع رأسه وأسرع راحلته ونهى عن دخول منازلهم إلا أن تكونوا باكين. وفى رواية: « **فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يُصيبكم مثلُ ما أصابهم** »(٣).

قال النووى: وفيه [أى حديث] الحث على المراقبة عند المرور بديار الظالمين، ومواضع العذاب، ومثله الإسراع فى وادى محسر؛ لأن أصحاب الفيل هلكوا هناك، فينبغى للمار فى مثل هذه المواضع المراقبة والخوف والبكاء والاعتبار بهم وبمصارعهم، وأن يستعيذ بالله من ذلك(٤).

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنه، أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ على الحجر، أرض ثمود، فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين، فأمرهم رسول الله ﷺ أن

---

(١) صحيح. رواه أحمد (٢/ ١١٧).

(٢) رواه البخارى (٣٣٨٠) كتاب أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحًا﴾. ومسلم ـ(٧٣٢٠، ٧٣٢١) كتاب الزهد والرقائق، باب: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين.

(٣) « البداية والنهاية» (١/ ١٥٢ ـ ١٥٩) باختصار.

(٤) « شرح النووى على صحيح مسلم» (٨/ ٤٣٢) ط. دار الغد العربى.

يهريقوا ما استقوا ويعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من التى كانت تردها الناقة»[1].

قال الحافظ ابن حجر: سُئِلَ شيخنا الإمام البلقينى: من أين عُلِمتْ تلك البئر؟ فقال: بالتواتر إذ لا يشترط فيه الإسلام. انتهى والذى يظهر أن النبىﷺ علمها بالوحى، ويحمل كلام الشيخ على من سيجئ بعد ذلك، وفى الحديث كراهة الاستقاء من ديار ثمود، ويلتحق بها نظائرها من الآبار والعيون التى كانت لمن هلكت بتعذيب الله تعالى على كفره[2].

●●●●●

---

(١) رواه البخارى (٣٣٧٩) كتاب أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾. ومسلم (٧٣٢٢) كتاب الزهد والرقائق، باب: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين.

(٢) «فتح البارى» (٦/٤٣٨).



قصة
إبراهيم عليه السلام
وقومه

قصة إبراهيم عليه السلام وقومه

إبراهيم عليه السلام هو ابن تارخ بن ناحور بن ساروغ بن أرغوبن فالغ بن عابر بن شالخ بن قينان بن أرفخْشَد بن سام بن نوح (١).

واختلفوا فى الموضع الذى كان فيه والموضع الذى وُلد فيه، فقال بعضهم: كان مولده بالسُّوس من أرض الأهواز، وقال بعضهم: كان مولده ببابل ،وقال بعضهم: كان بالسواد بناحية كوثى وقال بعضهم: كان مولده بحران ولكن أباه نقله إلى أرض بابل (٢) قال ابن عساكر: والصحيح أنه ولد ببابل (٣) ،و رجحه ابن كثير (٤) وعامة السلف من أهل العلم أن ابراهيم عليه السلام ولد فى زمن نمرود بن كنعان بن كوش (٥) .

وقد انتقل إبراهيم مع أبيه إلى أرض حرّان وهى أرض الكلدانيين فى ذلك الزمان، وكان أهل حران يعبدون الكواكب والأصنام وكل من كان على وجه الأرض كانوا كفاراً سوى إبراهيم عليه السلام وامرأته سارة وابن أخيه لوط عليه السلام.

ولم يكن بين إبراهيم ونوح عليهما السلام نبى إلا هود وصالح عليهما السلام.

وإبراهيم عليه السلام هو خليل الرحمن ووالد الأنبياء. وإمام الحنفاء.

قال تعالى﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً** ﴾[النساء: ١٢٥] ، وفى هذه الآية أمرٌ من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ باتباع ملة ابراهيم عليه السلام فملة إبراهيم عليه السلام هى ملة نبينا ﷺ وهى ملتنا وهى اسوة نبينا ﷺ وأسوتنا كما قال تعالى: ﴿ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ** ﴾ [الممتحنة: ٤].

(١) تاريخ الطبرى (١/ ١٢٣) و« البداية والنهاية» (١/ ١٦٠) و «المنتظم» لابن الجوزى (١/ ٢٥٨) و« الكامل» لابن الأثير (١/ ٧٢).
(٢) تاريخ الطبرى (١/ ٢٣٣) و« الكامل» لابن الأثير (١/ ٧٢)
(٣) البداية والنهاية (١/ ١٦١)
(٤) المصدر السابق (١/ ١٦٢).
(٥) تاريخ الطبرى (١/ ٢٣٣) و« المنتظم» » لابن الجوزى (١/ ٢٥٩).



قال ابن كثير: والحنيف هو المائل عن الشرك قصداً، أى تاركاً له عن بصيرة ومقبل على الحق بكليته ولا يصده عنه صاد ولا يرده عنه راد. وقوله﴿**وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً**﴾ وهذا من باب الترغيب فى اتباعه؛ لأنه إمام يقتدى إلى درجة الخلة التى هى أرفع مقامات المحبة، وما ذاك إلا لكثرة طاعته لربه كما وصفه به فى قوله: ﴿**وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ**﴾[النجم: ٣٧] قال كثير من علماء السلف أى قام بجميع ما أمر به وفى كل مقام من مقامات العبادة فكان لا يشغله أمر جليل عن حقير ولا كبير عن صغير. وقال تعالى: ﴿**وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ**﴾ [البقرة: ١٢٤] الآية [1]. وقد أثنى الله أيضاً على نبيه إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [النحل: ١٢ ـ ١٢٣].

قال ابن كثير: يمدح تعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء ووالد الأنبياء ويبرئه من المشركين ومن اليهودية والنصرانية فقال: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا**﴾ [النحل: ١٢٠] فأما الأمة فهو الإمام الذى يقتدى به، والقانت هو الخاشع المطيع، والحنيف المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد ولهذا قال: ﴿**وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [النحل: ١٢٠] وقوله: ﴿**شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ**﴾ أى قائماً بشكر نعم الله عليه وقوله: ﴿**اجْتَبَاهُ**﴾ أى اختاره واصطفاه، ثم قال: ﴿**وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [النحل: ١٢١] وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرع مرضى، وقوله: ﴿**وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً**﴾ [النحل: ١٢٢] أى جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه من اكمال حياته الطيبة وقوله: ﴿**ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا**﴾ [النحل: ١٢٣]، أى ومن كماله وعظمته وصحة توحيده، وطريقه أنا أوحينا إليك يا خاتم الرسل وسيد الأنبياء﴿**أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [النحل: ١٢٣] [2].

•••••

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٥٥٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٦٠٩ ـ ٦١٠) باختصار



بعثة ابراهيم عليه السلام

أنعم الله على إبراهيم عليه السلام بأن آتاه رشده فى صغره، قبل أن يبعثه ويتخذه خليلاً فى كبره، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١]. **قال ابن كثير**: يخبر تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه آتاه كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣] ،أى وكان أهلاً لذلك.

وكانت أول دعوة إبراهيم عليه السلام« لأبيه وكان أبوه ممن يعبد الأصنام، لأنه أحق الناس بإخلاص النصيحة له كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤١ ـ ٤٨].

فذكر تعالى ما كان بينه وبين أبيه من المحاورة والمجادلة، وكيف دعا أباه إلى الحق بألطف عبارة وأحسن إشارة وبين له بطلان ما هو عليه من عبادة الأوثان التى لا تسمع دعاء عابدها ولا تبصر مكانه، فكيف تغنى عنه شيئاً أو تفعل به خيراً من رزق أو نصر؟ ثم قال له منبهاً على ما أعطاه الله من الهدى والعلم النافع وإن كان أصغر سناً من أبيه: ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ٤٣] أى مستقيماً واضحاً سهلاً حنيفاً يفضى بك إلى الخير فى دنياك وأخراك.

فلما عرض هذا الرشد عليه وأهدى هذه النصيحة إليه، لم يقبلها منه ولا أخذها عنه، بل تهدده وتوعده قال: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾ [مريم :٤٦] قيل بالمقال وقيل بالفعال. ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم:٤٦]، أى واقطعنى وأطل هجرانى.

فعندها قال له إبراهيم : ﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ [مريم ٤٧]، أى لا يصلك منى مكروه

ولا ينالك منى أذى، بل أنت سالم من ناحيتى و زاده خيراً فقال: ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم :٤٧] قال ابن عباس وغيره أى لطيفاً، يعنى فى أن هدانى لعبادته والإخلاص له. ولهذا قال: ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم:٤٨].

وقد استغفر له إبراهيم عليه السلام كما وعده فى أدعيته، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٤].

وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: « يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبره، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصنى؟فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك. فيقول إبراهيم: يارب. . إنك وعدتنى أن لا تخزينى يوم يبعثون فأى خزى أخزى من أبى الأبعد؟ فيقول الله: إنى حرمت الجنة على الكافرين. ثم يقال: يا إبراهيم. . ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بذبح متلطخ، فيؤخذ فيلقى فى النار»[1].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤] . . هذا يدل على أن اسم أبى إبراهيم آزر، وجمهور أهل النسب، منهم ابن عباس، على أن اسم أبيه «تارح» وأهل الكتاب يقولون«تارخ» بالخاء المعجمة، فقيل: إنه لقب بصنم كان يعبده اسمه آزر[2].

وقال ابن جرير: والصواب أن اسمه آزر ولعل له اسمان علمان، أو أحدهما لقب والآخر علم.

وهذا الذى قاله محتمل. . والله أعلم[3].

ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى

---

(١) رواه البخارى (٣٣٥٠) كتاب احاديث الأنبياء ، باب: قول الله تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾

(٢) قال الحافظ ابن حجر: حكى الطبرى من طرق ضعيفة عن مجاهد أن آزر اسم الصنم وهو شاذ «الفتح» (٨/ ٣٥٨).

(٣) وذكر الحافظ فى «الفتح» (٦/ ٤٤٨) و: أن آزر اسمه تارح وهذا القول لعله أرجح الأقوال، والله أعلم.



الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ٧٥ ـ ٨٣].

وهذا المقام مقـام مناظرة لقومه، وبيان لهم أن هذه الأجـرام المشاهدة من الكواكب النيرة، لا تصلح للألوهية، ولا أن تعبد مع الله عزوجل؛ لأنها مخلوقة مربوبة مصنوعة مدبرة مسخرة، تطلع تارة وتأفل أخرى، فتغيب عن هذا العالم، والرب تعالى لا يغيب عنه شيء، ولا تخـفى عليه خافـية، بل هو الدائم البـاقى بلا زوال، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

فبين لهم أولاً عـدم صلاحية الكوكب لذلك. قـيل هو الزهرة. ثم ترقى منها إلى القمـر والذى هو أضوأ منهـا وأبهى من حسنهـا، ثم ترقى إلى الشمس الـتى هى أشد الأجرام المشاهدة ضيـاء وسناء وبهاء. فبين أنها مسخـرة مسيرة مقدرة مـربوبة، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً﴾ [الأنعام: ٧٨] أى طالعة ﴿ قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ [الأنعام: ٧٨ ـ ٨٠]، أى لست أبالى هذه الآلهة التـى تعبدونهـا من دون الله، فإنهـا لا تنفع شيـئاً ولا تسمع ولا تعـقل، بل هى مربوبة مسخرة كالكواكب ونحوها، أو مصنوعة منحوتة منجورة.

والظاهر أن موعظته هذه فى الكواكب لأهل حران، فإنهم كانوا يعبدونها .

وأما أهل بابل فكانوا يعبدون الأصنام، وهم الذين ناظرهم فى عبادتها وكسرها عليهم ، وأهانها وبين بطلانها، كما تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وقال فى سورة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١ - ٧٠]

وقال فى سورة الشعراء: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [الشعراء: ٦٩ - ٨٣].

وقال تعالى فى سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات: ٨٣ ـ ٩٨].

يخبر الله تعالى عن إبراهيم خليله عليه السلام، أنه أنكر على قومه عبادة الأوثان وحقَّرها عندهم وصغَّرها وتنقصها، فقال: ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢]، أى معتكفون عندها وخاضعون لها، قالوا: ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٣] ما كان حجتهم إلا صنيع الآباء والأجداد، وما كانوا عليه من عبادة الأنداد.

﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء: ٥٤] كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٥ ـ ٨٧]. قال قتادة: فما ظنكم به أنه فاعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟

وقال لهم: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٢ ـ ٧٤] سلموا له أنها لا تسمع داعيًا ولا تنفع ولا تضر شيئاً، وإنما الحامل لهم على عبادتها الاقتداء بأسلافهم ومن هو مثلهم فى الضلال من الآباء الجهال. ولهذا قال لهم: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[الشعراء: ٧٥ ـ ٧٧].

وهذا برهان قاطع على بطلان ألوهية ما ادعوه من الأصنام؛ لأنه تبرأ منها وتنقص بها، فلو كانت تضر لضرته، أو تؤثر لأثرت فيه.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾؟ [الأنبياء: ٥٥] ويقولون: هذا الكلام الذى تقوله لنا وتنتقص به آلهتنا، وتطعن بسببه فى آبائنا أتقوله محقاً جاداً فيه أو لاعباً؟.



﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ الأنبياء:٥٦]، يعنى بل أقول لكم ذلك جاداً محقاً، إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو. ربكم ورب كل شيء، فاطر السموات والأرض، الخالق لهما على غير مثال سبق، فهو المستحق للعبادة وحده لا شريك له، وأنا على ذلكم من الشاهدين.

وقوله: ﴿وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء:٥٧] أقسم ليكيدن هذه الأصنام التى يعبدونها بعد أن يولوا مدبرين إلى عيدهم.

قيل: إنه قال: هذا خفية فى نفسه، وقال ابن مسعود: سمعه بعضهم.

وكان لهم عيد يذهبون فيه فى كل عام إلى ظاهر البلد، فدعاه أبوه ليحضره فقال: إنى سقيم. كما قال تعالى: ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ. فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ [الصافات:٨٨، ٨٩] عَرَّضَ لهم فى الكلام حتى توصل إلى مقصوده من إهانة أصنامهم ونصرة دين الله الحق، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التى تستحق أن تكسر وأن تهان غاية الإهانة.

فلما خرجوا إلى عيدهم، واستقر هو فى بلدهم ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ﴾ [الصافات، ٩١] لفظ ﴿فَرَاغَ﴾، أى ذهب إليها مسرعاً مستخفياً، فوجدها فى بهو عظيم، وقد وضعوا بين أيديها أنواعاً من الأطعمة قرباناً إليها فقال لها على سبيل التهكم والازدراء: ﴿ أَلا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات ٩١ ـ ٩٣] لأنها أقوى وأبطش وأسرع وأقهر، فكسرها بقدوم فى يده كما قال تعالى: ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ [الأنبياء:٥٨]، أى حطاماً، كسرها كلها ﴿إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء:٥٨] قيل: إنه وضع القدوم فى يد الكبير، إشارة إلى أنه غار أن تعبد معه هذه الصغار!

فلما رجعوا من عيدهم ووجدوا ما حل بمعبودهم: ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء:٥٩].

وهذا فيه دليل ظاهر لهم لو كانوا يعقلون، وهو ما حل بآلهتم التى كانوا يعبدونها، فلو كانت آلهة لدفعت عن أنفسها من أذاها بسوء لكنهم قالوا من جهلهم وقلة عقلهم وكثرة ضلالهم وخبالهم : ﴿مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾؟

﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠]، أى يذكرها بالعيب

والتنقص لها والازدراء بها، فهو المقيم عليها والكاسر لها.

﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٦١]، أى فى الملأ الأكبر على رءوس الأشهاد، لعلهم يشهدون مقالتـه ويسمعون كلامه، ويعانون ما يحل به من الاقتصاص منه.

وكان هذا أكـبر مقاصـد الخليل عليه السلام أن يجـتمع الناس كلهم، فيـقيم على جمـيع عبـاد الأصنام الحجة علـى بطلان ما هم عليـه، كما قـال موسى عليـه السلام لفرعون: ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩].

فلما اجتمعـوا وجاءوا به كما ذكروا: ﴿ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٢ ـ ٦٣] قيل معناه: هو الحامل لى على تكسيرهم، وإنما عَرَّضَ لهم فى القول﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ـ ٦٣].

وإنما أراد بقوله هذا أن يبـادروا إلى القول بأن هذه لا تنطق، فـيعتـرفوا بأنها جـماد كسائر الجمادات.

﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٤]، أى فـعادوا على أنفسـهم بالملامة، فـقالوا إنكم أنتـم الظالمون، أى فى تركهـا لا حافظ لهـا ولا حارس عندها.

﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٦٥] قال قتـادة: أدركت القوم حيرة سوء، أى فأطرقوا ثم قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥]، أى لقد علمت يا إبراهيم أن هذه لا تنطق فكيف تأمرنا بسؤالها؟!.

فعند ذلك قال لهم الخـليل عليه السلام: ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٦ ـ ٦٧]. كما قال: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ [الصافات: ٩٤] قال مجـاهد: يسرعون. قال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصـافات: ٩٥]، أى كـيف تعـبدون أصنامـاً أنتم تنحـتـونها من الخـشب والحـجـارة، وتصـــورنهـا وتشكلونهـا كـــمـا تريدون: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]. فمقتضى الكلام أنكم مخلوقون، وهذه الأصنام مخلوقة، فكيف يتعبد مخلـوق لمخلوق مثله؟ فـإنه ليس عبـادتكم لها بأولى من عـبادتهـا لكم، وهذا باطل، فالآخر باطل للتحكم إذ ليست العبادة تصلح ولا تجب إلا للخالق وحده لا شريك له.



﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات: ٩٧ ـ ٩٨].

عدلوا عن الجـدل والمناظرة لما انقطعوا وغلبوا، ولم تبـق لهم حجة ولا شبـهة إلا استعمال قوتهم وسلطانهم، لينصروا مـا هم عليه من سفههم وطغيانهم. فكادهم الرب جل جلاله، وأعلى كلمته ودينه وبرهانه كما قال تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨ ـ ٧٠]

وذلك أنهم شرعوا يجمعون حطبـا من جميع ما يمكنهم من الأماكن، فمكثوا مدة يجمعون له حتى أن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطباً لحريق إبراهيم، ثم عمدوا إلى حوبة [(١)] عظيمة فـوضعوا فيها ذلك الحطب وأطلقـوا فيه النار فاضطرمت وتأججت والتـهبت وعلا لها شَرَرٌ لم ير مثله قط. ثم وضـعوا إبراهيم عليه السلام فى كفة منجنيق[(٢)]. ثم أخذوا يقيدونه ويكتفـونه وهو يقول: لا إله أنت سبحانك رب العالمين. لك الحمد ولك الملك، لا شريك لك.

فلما وضع الخليل عليه السلام فى كفة المنجنيق مقيداً مكتوفاً ثم ألقوه منه إلى النار قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، كما روى ابن عـباس أنه قال: حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم حين ألقى فى النار، وقالهـا محمد حين قيل له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ [آل عمران: ١٧٣ ـ ١٧٤] [(٣)].

﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] قال على بن أبى طالب: أى لا تضربه.

وقـال ابن عـباس وأبو العـاليـة: لولا أن الله قال: ﴿وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ لآذى إبراهيم بردها.

---

(١) الحوبة: الأرض الصلبة الملساء، يحاط عليها بالحجارة أو التراب فيجتمع فيها الماء.

(٢) المنجنيق: آلة قديمة من آلات الحصار، كانت تلقى بها حجارة ثقيلة على الأسوار فتهدمها

(٣) رواه البخارى (٤٥٦٣] كتاب التفسير، باب: قول الله تعالى: **﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم﴾** الآية.

فأرادوا أن ينتصروا فخذلوا، وأرادوا أن يرتفعوا فاتضعوا، وأرادوا أن يغلبوا قال الله تعالى: ﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٠] وفى الآية الآخرى ﴿الْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات: ٩٨] ففازوا بالخسارة والسفال هذا فى الدنيا، وأما فى الآخرة فإن نارهم لا تكون عليهم برداً ولا سلاماً، ولا يلقون فيها تحية ولا سلاماً، بل هى كما قال تعالى: ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٦].

●●●●●●

ذكر مناظرة إبراهيم الخليل

مع من أراد أن ينازع الجليل فى إزار العظمة ورداء الكبرياء فادعى الربوبية، وهو أحد العبيد الضعفاء

قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة :٢٥٨].

يذكر تعالى مناظرة خليله مع هذا الملك الجبار المتمرد الذى ادعى لنفسه الربوبية فأبطل الخليل عليه دليله، وبين كثرة جهلة وقلة عقله، وألجمه الحجة، وأوضح له طريق المحجة.

قال المفسرون وغيرهم من علماء النسب والأخبار: وهذا الملك هو ملك بابل، واسمه النمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح.

ولما دعاه إبراهيم الخليل إلى عبادة الله وحده لا شريك له، حمله الجهل والضلال وطول الآمال على إنكار الصانع، فحاج إبراهيم الخليل فى ذلك وادعى لنفسه الربوبية. فلما قال الخليل: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]

قال قتادة والسدى ومحمد بن إسحاق: يعنى أنه إذا أوتى بالرجلين قد تحتم قتلهما، فإذا أمر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر فكأنه قد أحيا هذا وأمات الآخر.

وهذا ليس معارضة للخليل، بل هو كلام خارج عن مقام المناظرة، ليس بمنع ولا بمعارضة، بل هو تشغيب محض، وهو انقطاع فى الحقيقة، فإن الخليل استدل على وجود الصانع بحدوث هذه المشاهدات من إحياء الحيوانات وموتها، على وجود فاعل ذلك الذى لابد من استنادها إلى وجوده و ضرورة عدم قيامها وموتها، ولابد من فاعل لهذه الحوادث المشاهدة، من خلقها وتسخيرها، وتسيير هذه الكواكب والرياح والسحاب والمطر، وخلق هذه الحيوانات التى توجد مشاهدة، ثم إماتتها، ولهذا قال إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨].

فقول هذا الملك الجاهل: ﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ إن عنى أنه الفاعل لهذه المشاهدات،

فقد كابر وعاند. وإن عنى ما ذكره قتادة والسدى ومحمد بن إسحاق، فلم يقل شيئاً يتعلق بكلام الخليل. إذ لم يمنع مقدمة ، ولا عارض الدليل.

ولما كان انقطاع مناظرة هذا الملك قد تخفى على كثير من الناس ممن حضره وغيرهم ذكر دليلاً آخر يبين وجود الصانع، وبطلان ما ادعاه النمرود وانقطاعه جهرة:

﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ [البقرة :٢٥٨] أى هذه الشمس مسخرة كل يوم تطلع من الشرق كما سخرها خالقها ومسيرها وقاهرها، وهو الذى لا إله إلا هو خالق كل شىء، فإن كنت كما زعمت من أنك الذى تحيى وتميت فائت بهذه الشمس من المغرب فإن الذى يحيى ويميت هو الذى يفعل ما يشاء ولا يمانع ولا يغالب، بل قد قهر كل شىء ودان له كل شىء، فإن كنت كما تزعم فافعل هذا، فإن لم تفعله فلست كما زعمت، وأنت تعلم وكل أحد أنك لا تقدر على شىء من هذا، بل أنت أعجز وأقل من أن تخلق بعوضة أو تنتصر منها.

فبين ضلاله وجهله وكذبه فيما ادعاه، وبطلان ما سلكه وتبجح به عند جهلة قومه ولم يبق له كلام يجيب الخليل به، بل انقطع وسكت ولهذا قال: **﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** [البقرة:٢٥٨][1] .

●●●●●

(١) «البداية والنهاية» (١/ ١٦٢ ـ ١٧٢) باختصار.



هجرة إبراهيم عليه السلام إلى
بلاد مصر ثم إلى بلاد الشام

اعتزل إبراهيم عليه السلام قومه ، وهجرهم، ثم هاجر من بين أظهرهم يلتمس الفرار بدينه، والأمان على عبادة ربه، وكان معه فى هجرته امرأته سارة، وابن أخيه لوط عليه السلام ،وهبط إبراهيم وزوجه الديار المصرية وقبل أن يخرجا من مصر حدثت لهما بعض الأحداث، وهذه الأحداث قد أخبرنا بها النبى ﷺ .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: « لَمْ يَكذِبْ إبْراهِيم النَّبىُّ عَلَيه السَّلامْ، قطُّ إلاَّ ثَلاث كَذَبَات. ثنتين فى ذَات الله. قَولهُ: إنِّى سَقيمُ. وقولهُ: بَل؟ فَعَلَهُ كَبيرُهُم هَذَا. ووَاحدةٌ فِى شَأن سَارَة. فَإنَّهُ قَدمَ أرضَ جَبَارٍ وَمَعَهُ سَارة، وكَانت أحْسَنَ النَّاس. فَقَال لَهَا: إنَّ هَذَا الْجَبَّارَ، إنْ يَعْلم أنَّك امْرأتى، يَغْلبنى عَلَيك. فَإنْ سَألك فأخبريه أنَّك أخْتى. فَإنَّك أخْتى فى الإسْلاَم. فَإنِّى لاَ أعلمْ فى الأَرْضَ مُسْلماً غَيرى وغَيرك. فلمَّا دَخَل أرْضَهُ رَآهَا بعْضُ أهْلِ الْجَبَّار. أتَاهُ فَقَال لَهُ: لَقَدْ قَدمَ أرْضَكَ امْرأَةٌ لا يَنْبغى لَهَا أنْ تَكُونَ إلاَّ لَكَ. فأَرْسَلَ إلَيْهَا فأُتى بهَا. فَقَامَ إبْرَاهيمُ عَلَيه السَّلامْ إلَى الصَّلاة. فَلَمَّا دَخَلتْ عَلَيه لَمْ يَتَمالك أنْ بَسَطَ يَدَه إليها. فَقُبضتْ يَدُهُ قَبضةً شَديدةً. فَقَال لَهَا: ادْعى الله أنْ يُطلق يدى ولا أضُرّك. فَفَعَلتْ. فَعَادَ. فَقبضَتْ أشَدَّ منَ الْقَبْضَة الأُولىَ. فَقَال لَهَا مثلَ ذَلك. فَفَعَلتْ. فَعَادَ. فَقُبضتْ أشدُّ منَ الْقَبْضَتين الأُولَيين. فَقَال: ادْعى الله أنْ يُطلقَ يَدى. فَلَكَ الله أن لا أضُرك. فَفَعَلتْ. وأُطلقتْ يَدُهُ. وَدَعا الَّذى جَاءَ بهَا فَقَال له: إنَّكَ إنَّما أتَيتنى بشَيْطان. ولَمَ تَأتنى بإنْسان. فَأخْرجْهَا منْ أرضى، وأعْطها هَاجَرَ.

قالَ: فَأقَبلتَ تَمْشى. فَلَمَّا رَآهَا إبْراهيمْ عَليهُ السَّلامُ انصَرَفَ. فَقَالَ لَهَا: مَهْيَمْ؟ قَالَتْ: خَيْراً. كَفَّ اللهُ يَدَ الفَاجر. وأخَدمَ خَادماً.

قَال أبو هُريرة: فَتلكَ أمُكمْ يا بَنى مَاء السَّمَاء[1].

---

(١) رواه البخارى (٥٠٨٤) كتاب النكاح،باب: إعجاز السدادى. ومسلم (٦٠٣٠) كتاب الفضائل، باب: فضائل إبراهيم عليه السلام.

شرح الحديث

قال أهل العلم: إن كذبات إبراهيم الثلاث كانت من باب المعاريض والتورية، وأما إطلاق الكذب على الأمور الثلاثة فلكونه قال قولاً يعتقده السامع كذباً، لكنه إذا حقق لم يكن كذباً محضاً «وإنما سمى إبراهيم عليه السلام هذه كذبات تواضعاً؛ لأنها بحسب مراده صدق مطابق للواقع[1] .

قال ابن عقيل: دلالة العقل تصرف ظاهر إطلاق الكذب على إبراهيم؛ وذلك أن العقل قطع بأن الرسول ينبغى أن يكون موثوقاً به ليعلم صدق ما جاء به عن الله، ولا ثقة مع تجويز الكذب عليه، فكيف مع وجود الكذب منه، وإنما أطلق عليه ذلك لكونه بصورة الكذب عند السامع، وعلى تقديره فلم يصدر ذلك من إبراهيم عليه السلام - يعنى إطلاق الكذب على ذلك - إلا فى حال شدة الخوف لعلو مقامه، وإلا فالكذب المحض فى مثل تلك المقامات يجوز، وقد يجب لتحمل أخف الضررين دفعاً لأعظمها وأما تسمية إياها كذبات فلا يريد أنها تذم، فإن الكذب وإن كان قبيحاً مخلاً لكنه قد يحسن فى مواضع وهذا منها[2] .

قال النووى: قوله ﷺ: « ثنتين فى ذات الله تعالى وواحدة فى شأن سارة»، فمعناه أن الكذبات المذكورة إنما هى بالنسبة إلى فهم المخاطب والسامع، وإما فى نفس الأمر فليست كذباً مذموماً لوجهين أحدهما: أنه ورّى بها فقال: فى سارة: أختى فى الإسلام وهو صحيح فى باطن الأمر..

والوجه الثانى: لو كان كذباً لا تورية فيه لكان جائزاً فى دفع الظالمين [3] ، وقد اتفق الفقهاء على أنه لو جاء ظالم يطلب إنساناً مختفياً ليقتله أو يطلب وديعة لإنسان ليأخذها غصباً، وسأل عن ذلك وجب على من علم ذلك إخفاؤه وإنكار العلم به، وهذا كذب جائز بل واجب، لكونه فى دفع الظالم، فنبه النبىﷺ على أن هذه

(١) « شرح العقيدة الواسطية» الشيخ ابن عثيمين(٢/ ١٧٢).
(٢) « فتح البارى» (٦/ ٤٥١).
(٣) لأن الملك إذا عرف أن لسارة زوج لبادر بقتله، فدفع ابراهيم القتل عن نفسه بقوله عن سارة: إنها أختى.



الكذبات ليست داخله فى مطلق الكذب المذموم. .

قال العلماء: والواحدة التى فى شأن سارة هى أيضاً فى ذات الله تعالى؛ لأنها سبب دفع كافر ظالم عن مواقعة فحشاء عظيمة، وقد جاء ذلك مفسرا فى غير مسلم فقال: ما فيها كذبة إلا بماحل بها عن الإسلام أى يجادل ويدافع، قال: وإنما خصّ الثنتين بأنهما فى ذات الله تعالى لكون الثالثة تضمنت نفعاً له وحظاً، مع كونها فى ذات الله تعالى، وذكروا فى قوله: « إنى سقيم»، أى سأسقم؛ لأن الإنسان عرضة للأسقام، وأراد بذلك الاعتذار عن الخروج معهم إلى عيدهم وشهود باطلهم وكفرهم وقيل: سقيم بما قُدِّر عليّ من الموت(1).

وأما قوله ﴿**بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا**﴾ [الأنبياء: ٦٣] قال القرطبى: هذا قاله تمهيداً للاستدلال على أن الأصنام ليست بآلهة وقطعاً لقومه فى قولهم: إنها تضر وتنفع وهذا الاستدلال يتجوَّزُ فيه فى الشرط المتصل ولهذا أردف قوله﴿ **بل فعله كبيرهم هذا**﴾ بقوله ﴿**فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ**﴾ [الأنبياء: ٦٣] قال ابن قتيبة معناه إن كانوا ينطقون فقد فعله كبيرهم هذا، فالحاصل أنه مشترط بقوله: ﴿ **إِن كَانُوا يَنطِقُونَ**﴾، أو أنه أسند إليه ذلك لكونه السبب(2) .

وقيل: إن إبراهيم عليه السلام قال هذا القول من باب التهكم على عبدة الأصنام والاستهزاء بهم، فإنه عندما يقول لهم أن الصنم الأكبر هو الذى حطّم بقية الأصنام، فقد يحملهم هذا القول على التفكر فى هذه الأصنام ويعلموا أنها لا تستطيع أن تحطم بعضها؛ لأنها مصنوعة من الحجارة، وبذلك يكون ابراهيم عليه السلام قد أقام الحجة على قومه.

قال ابن كثير: قوله فى الحديث: « هى أختى» أى فى دين الله. وقوله لها: « إنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك» يعنى زوجين مؤمنين غيرى وغيرك، ويتعين حمله على هذا؛ لأن لوطاً معهم وهو نبى عليه السلام.

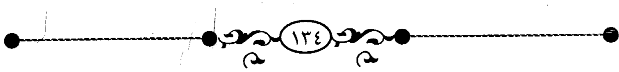
وقوله لها لما رجعت إليه: مهيم؟ معناه: ما الخبر؟ فقالت: إن الله رد كيد الكافرين. وفى رواية: الفاجر وهو الملك. وأخدم جارية.

وكان إبراهيم عليه السلام من وقت ذهب بها إلى الملك، قام يصلى لله عزّ وجلّ

---

(1) « شرح النووى على صحيح مسلم» (٧/ ٣٥٢ ـ ٣٥٣) ط دار الغد العربى.

(2) « فتح البارى» (٦/ ٤٥١).



ويسأله أن يدفع عن أهله. وأن يرد بأس هذا الذى أراد أهله بسوء. وهكذا فعلت هى أيضاً. فلما أراد عدو الله أن ينال منها أمراً قامت إلى وضوئها وصلاتها، ودعت الله، عزّوجلّ بما تقدم من الدعاء العظيم. ولهذا قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾ [البقرة: ٤٥] فعصمها الله وصانها لعصمة عبده ورسوله وحبيبه وخليله إبراهيم عليه السلام.

وقد ذهب بعض العلماء إلى نبوة ثلاث نسوة: سارة، وأم موسى، ومريم عليهن السلام.

والذى عليه الجمهور أنهن صديقات رضى الله عنهن وأرضاهن.

ورأيت فى بعض الآثار أن الله عزوجل كشف الحجاب فيما بين إبراهيم عليه السلام وبينها، فلم يرها منذ خرجت من عنده إلى أن رجعت إليه. وكان شاهداً لها وهى عند الملك، وكيف عصمها الله منه، ليكون ذلك أطيب لقلبه وأقر لعينه وأشد لطمأنينته، فإنه كان يحبها حبّاً شديداً، لدينها وقرابتها منه وحسنها الباهر، فإنه قد قيل إنه لم تكن امرأة بعد حواء إلى زمانها، أحسن منها، رضى الله عنها ولله الحمد والمنة.

وذكر بعض أهل التواريخ أن فرعون مصر هذا كان أخاً للضحاك الملك المشهور بالظلم، وكان عاملاً لأخيه على مصر. ويقال: كان اسمه سنان بن علوان بن عويج بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح. وذكر ابن هشام فى التيجان: أن الذى أرادها عمرو ابن امرئ القيس بن مايلون بن شبأ، وكان على مصر. نقله السهيلى.. والله أعلم.

ثم إن الخليل عليه السلام رجع من بلاد مصر إلى أرض التيمن، وهى الأرض المقدسة التى كان فيها، ومعه أنعام وعبيد ومال جزيل، وصحبتهم هاجر القبطية المصرية.

ثم إن لوطاً عليه السلام نزح بما له من الأموال الجزيلة بأمر الخليل له فى ذلك، إلى أرض الغور، المعروف بغور زغر، فنزل بمدينة سدرم [1] وهى أم تلك البلاد فى ذلك الزمان. وكان أهلها أشراراً كفاراً فجاراً [2].

●●●●●

(١) سدوم: مدينة قديمة فى فلسطين على شاطئ البحر الميت، وهى قرية قوم لوط عليه السلام.
(٢) «البداة والنهاية» (١/ ١٧٥ ـ ١٧٦).



مولد إسماعيل عليه السلام

كانت سارة رضى الله عنها عاقراً لا يولد لها، وكانت هاجر أمَةً لسارة فوهبتها لإبراهيم عليه السلام ليتسرى بها لعل الله أن يرزقه الولد منها، فوقع عليها إبراهيم عليه السلام فولدت له إسماعيل عليه السلام، فغارت منها سارة، فطلبت من إبراهيم عليه السلام أن يُغَيِّبَ وجهها عنها فأوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام أن يأتى مكة لتبرد عن سارة حرارة الغيرة فذهب إليها إبراهيم وأخذ معه هاجر وإسماعيل عليه السلام.

الأحداث التى وقعت لهاجر وإسماعيل عليه السلام فى مكة وبناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام الكعبة المشرفة.

عن ابن عباس رضى الله عنه قال: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقاً لتعفى أثرها على سارة(١) ، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهى ترضعه، حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد (٢) ،وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء. فوضعهما هنالك ووضع عندها جرياً فيه تمر، وسقاء فيه ماء.

ثم قفى إبراهيم (٣) منطلقاً فتبعته أم إسماعيل، فقالت : يا إبراهيم. . أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس به أنيس ولا شىء؟ فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها. فقالت له: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيعنا. ثم رجعت.

فانطلق إبراهيم، حتى إذا كان عند الثنية (٤) حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت،

(١) المنطق: هو ما يشد به الوسط. وكان سبب ذلك أن سارة لما غارت من هاجر حلفت لتقطعن منه ثلاثة أعضاء، فاتخذت هاجر منطقا فشدت به وسطها وهربت وجرت ذيلها لتخفى أثرها على سارة ، ويقال: إن إبراهيم شفع فيها وقال لسارة: حللى بيمينك بأن تثقبى أذنيها وتخفضيها وكانت أول من فعل ذلك.

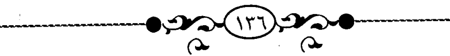
(٢)أى مكان المسجد؛ لأنه لم يكن قد بنى حينئذ . .

وذهب بعض أهل العلم إلى: أن البيت الحرام كان مبنياً قبل إبراهيم عليه السلام، وأن أول من بناه هو آدم عليه السلام.

وقال ابن كثير فى «البداية والنهاية» (١/ ١٨٨): لم يجئ فى خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنياً قبل الخليل عليه السلام ومن تمسك فى هذا بقوله: « مكان البيت فليس بناهض ولا ظاهر؛ لأن المراد مكانه المقدَّر فى علم الله، المقرر فى قدره، المعظَّم عند الأنبياء موضعه من لدن آدم إلى زمان إبراهيم.

(٣) أى: ولى راجعاً إلى الشام.

(٤)مكان فى مكة.



ثم دعا بهؤلاء الدعـوات ورفع يديه فقال: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسمـاعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى ـ فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحداً، فلم تر أحـداً فهبطت من الصـفا حتى إذا بلـغت بطن الوادى رفعت طرف ذراعهـا، ثم سعت سـعى الإنسان المجـهود [١] ،حتى جـاوزت الوادى ثم أتت المروة فقامت عليها، ونظرت هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، فعلت ذلك سبع مرات.

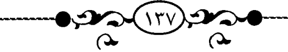
قال ابن عباس: قال النبىﷺ :« فذلك سعى الناس بينهما».

فلمـا أشرفت على المروة سـمـعت صوتاً فـقالـت: صه، تريد نفـسهـا [٢]. ثم تسمـعت. فسـمعت أيضا، فـقالت: قد أسـمعت إن كـان عندك غوات[٣] .فإذا هى بالملك[٤] عند مـوضوع زمزم. فـبحث بعـقبـه ـ أو قال بجناحـه ـ حتى ظهـر الماء. فجعلت تحوضه [٥] و تقول بيدها هكذا. وجعلت تغـرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعد ما تغرف.

قال ابن عباس: قال النبىﷺ:« يرحم الله أم إسماعيل! لو تركت زمزم ـ أو قال: لو لم تغرف من الماء ـ لـكانت زمزم عيناً مـعيناً»[٦] قال : فشـربت وأرضعت ولدها. فقال لها الملك: لا تخـافى الضيعة فإن ها هنا بيتـاً لله يبنيه هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله.

وكان البـيت مرتفعاً عن الأرض كـالرابية[٧] ،تأتيه السـيول فتـأخذ عن يمينه وعن شمـاله، فكانت كـذلك حتى مـرت بهم رفقـه من جرهم، أو أهل بيت من جـرهـم، مقبلين من طريق كداء، فنزلوا فى أسفل مكة فـرأوا طائراً عائفاً، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، لعـهدنا بهذا الوادى وما فيه مـاء، فأرسلوا جرياً [٨] و جريين فإذا هم

(١) أى: الذى أصابه الجهد والمشقة.
(٢) أى: كأنها خاطبت نفسها فقالت لها: اسكتى.
(٣) أى: أغثنى.
(٤) الملك: هو جبريل عليه السلام.
(٥) أى: تجعله مثل الحوض.
(٦) قال الحـافظ ابن حجر: وهذا الـقدر صرح ابن عـباس برفعـه عن النبى ﷺ، وفيـه إشعار بأن جـميع الحديث مرفوع. « الفتح» (٦/ ٤٦٣) وقوله عيناً معنياً: أى ظاهراً جارياً على وجه الأرض.
(٧) أى: مكان المسجد مرتفعاً كالتل.
(٨) جريا: أى رسولاً



بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا.

قال: وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم. ولكن لا حق لكم فى الماء عندنا. قالوا: نعم.

قال عبد الله بن عباس: قال النبىﷺ: فألفى ذلك أم إسماعيل وهى تحب الأنس، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم. وشب الغلام وتعلم العربية منهم، وأنفسهم وأعجبهم حين شب. فلما أدرك زوجوه امرأته منهم .

وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغى لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بِشَرٍّ، نحن فى ضيق وشدة، وشكت إليه. قال: فإذا جاء زوجك فأقرئى عليه السلام وقولى له يغير عتبة بابه.

فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً. فقال: هل جاءكم من أحد؟. فقالت: نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنى عنك فأخبرته، وسألنى كيف عيشنا؟. فأخبرته أنا فى جهد وشدة. قال: فهل أوصاك بشىء؟. قالت: نعم، أمرنى أن أقرأ عليك السلام، ويقول لك: غير عتبة بابك(٢) . قال: ذاك أبى، وقد أمرنى أن أفارقك فالحقى بأهلك، وطلقها وتزوج منهم أخرى، ولبث عنهم إبراهيم ما شاء الله. ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغى لنا. قال: كيف أنتم؟. وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله عزّ وجلّ. فقال: ما طعامكم؟. قالت: اللحم. قال: فما شرابكم؟. قالت: الماء. قال: «اللهم بارك لهم فى اللحم والماء».

قال النبىﷺ: «ولم يكن لهم يومئذ حب، ولو كان لهم حب لدعا لهم فيه» قال: فهما لا يخلو (٣) عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه.

قال: فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام، ومريه يثبت عتبه بابه، فلما جاء

---

(١) أنفسهم: بفتح الفاء بلفظ التفضيل من النفاسة أى كثرت رغبتهم فيه.

(٢) قال الحافظ ابن حجر : قوله: (عتبة بابك) كناية عن المرأة، وسماها بذلك لما فيها من الصفات الموافقة لها وهو حفظ الباب وصون ما هو داخله وكونها محل الوطء. «الفتح» (٦/ ٤٦٥).

(٣) يخلو: يقتصر.



إسماعيل قال: هل أتاك من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا بخير، قال: فأوصاك بشيء ؟ قالت: نعم. هو يقرئك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. قال: ذاك أبي وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك.

ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ثم. قال: يا إسماعيل.. إن الله أمرني بأمر. قال : فاصنع ما أمرك به ربك، قال: وتعينني؟. قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني ها هنا بيتاً. وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها[1] .

قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: **﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾** [البقرة:١٢٧].

قال: فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: **﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾** [2] .

●●●●●

(١) الأكمة : هي الرابية: أي التل.

(٢) رواه البخاري (٣٣٦٤) كتاب أحاديث الأنبياء، باب: يزفون: النسلان في المشي.

صفة بناء البيت الحرام

أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام أن يبنى له بيتاً يكون لأهل الأرض كتلك المعابد للملائكة السموات، وأرشده الله إلى مكان البيت المهيأ له، المعين لذلك منذ خلق السموات والأرض، كما ثبت فى الصحيحين:

« **إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق الله السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة**»[1].

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٦ ـ ٢٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦ ـ ٩٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٤ ـ ١٢٩].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾[آل عمران: ٩٦]، « أى أول بيت وضع لعموم الناس للبركة والهدى، البيت الذى ببكة

وقيل: محل الكعبة ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ﴾ [الحج:٢٦]، أى على أنه بناء الخليل، والد الأنبياء من من بعده وإمام الحنفاء من ولده، يقتدون به ويتمسكون بسنته، ولهذا قال: ﴿مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران:٩٧]، أى الحجر الذى كان يقف عليه قائماً كلما ارتفع البناء عن قامته، فوضع له ولده هذا الحجر المشهور، ليرتفع عليه لما تعالى البناء وعظم الفناء.

وقد كان هذا الحجر ملصقا بحائط الكعبة على ما كان من قديم الزمان إلى أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فأخّره عن البيت قليلاً، لئلا يشغل المصلين عنده الطائفين بالبيت، وأتبع عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى هذا، فإنه قد وافقه وبه فى أشياء، منها قوله لرسولﷺ : لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى، فأنزل الله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة :١٢٥] ، وقد كانت آثار قدمى الخليل باقية فى الصخرة إلى أول الإسلام.

ولهذا قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ [البقرة:١٢٧]، أى فى حال قولهما: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٢٧] فهما فى غاية الإخلاص والطاعة لله عزوجل، وهما يسألان من الله عزوجل السميع العليم أن يتقبل منهما ما هما فيه من الطاعة العظيمة والسعى المشكور: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨].

فلما بلغا القواعد وتسلما الركن، قال إبراهيم لإسماعيل: يا بنى.. اطلب لى حجراً حسناً أضعه ها هنا. قال: يا أبت.. إنى كسلان تعب. قال: على ذلك فانطلق وجاءه جبريل بالحجر الأسود من الهند، وكان أبيض ياقوتة بيضاء مثل الثغامة .

وكان آدم هبط به من الجنة فاسود من خطايا الناس، فجاءه إسماعيل بحجر فوجده عند الركن. فقال: ياأبت.. من جاءك بهذا؟. قال: جاء به من هو أنشط منك.

فبنيا وهما يدعوان الله: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة:١٢٧]

وقد كانت الكعبة على بناء الخليل مدة طويلة، ثم بعد ذلك بنتها قريش، فقصرت بها عن قواعد إبراهيم من جهة الشمال مما يلى الشام على ما هى عليه اليوم.

وفى الصحيحين عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: « ألم تَرَ أن قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم»؟. فقلت: يا رسول الله ألا تردها على قواعد إبراهيم؟ فقال: « لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت». وفى رواية: « لولا أن قومك حديثو عهد

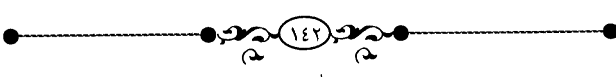
بجاهليــة ـ أو قال بكفر ـ لأنفقت كنز الكعــبة فى سبيل الله. ولجــعلت بابها بالأرض، ولأدخلت فيها الحجر» .

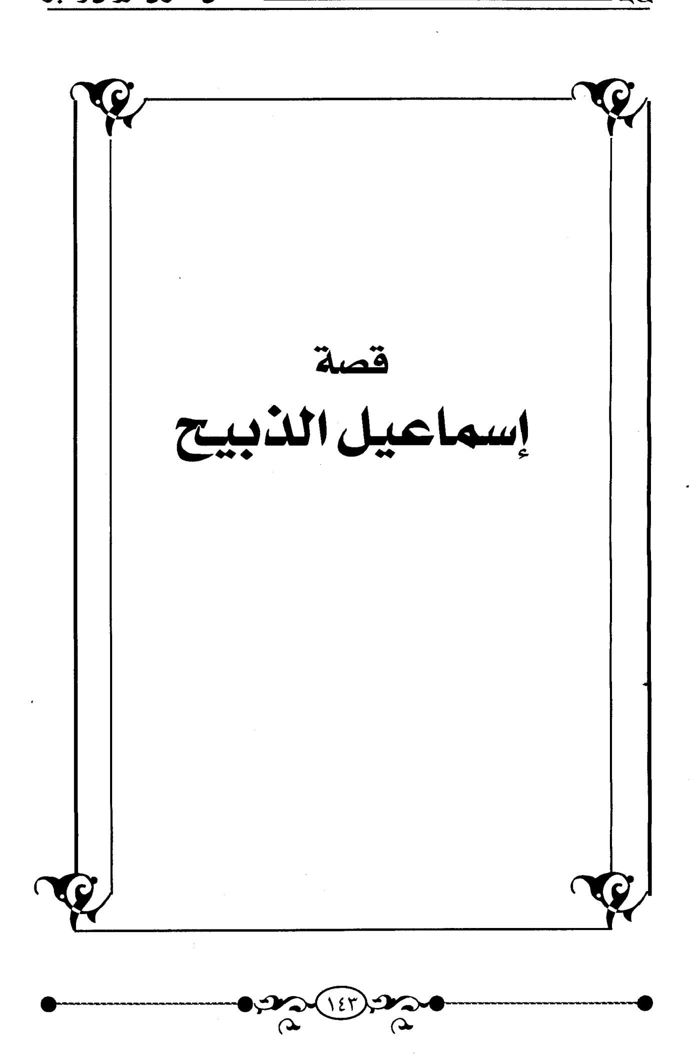
وقد بناها ابن الزبيــر رحمه الله فى أيامه على ما أشــار إليه رسول الله ﷺ حسبما أخبرته به خالته عائشة، أم المؤمنين عنه، فلما قتله الحجاج فى سنة ثلاث وسبعين كتب إلى عبد الملك بن مروان الخليفة إذ ذاك، فاعتقدوا أن ابن الزبير إنما صنع ذلك من تلقاء نفسه، فأمر بردها إلى ما كانت عليه، فنقضوا الحائط الشامى وأخرجوا منها الحجر، ثم سدوا الحائط وردمــوا الأحجار فى جوف الكعــبة، فارتفع بابها الشــرقى وسدوا الغربى بالكلية، كما هو مشاهد إلى اليوم.

ثم لما كان فى زمن المهدى بن المنصور اســتشار الإمام مالك بن أنس فى ردها على الصفة التى بناها ابن الزبير فقال له: إنى أخشى أن يتخذها الملوك لعبة. يعنى كلما جاء ملك بناها على الصفة التى يريد. فاستقر الأمر على ما هى عليه اليوم[1].

•••••

(١) « البداية والنهاية» (١/ ١٨٨ ـ ١٩١) باختصار.





قصة
إسماعيل الذبيح

إسماعيل الذبيح

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾.[ا لصافات: ٩٩ ـ ١٠٣]

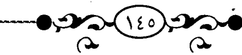
قال ابن كثير: يذكر تعالى عن خليله إبراهيم أنه لما هاجر من بلاد قومه، سأل ربه أن يهب له ولدًا صالحًا ، فبشره الله بغلام حليم، وهو إسماعيل عليه السلام؛ لأنه أول من ولد له على رأس ست وثمانين سنة من عمر الخليل. وهذا ما لا خلاف فيه بين أهل الملل، لأنه أول ولده وبكره.

وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ (الصافات: ١٠٢)، أى شب وصار يسعى فى مصالحه كأبيه. قال مجاهد: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾، أى شب وارتحل وأطلق ما يفعله أبوه من السعى والعمل.

فلما كان هذا، رأى إبراهيم عليه السلام فى المنام أنه يؤمر بذبح ولده هذا، وفى الحديث من ابن عباس مرفوعًا: «**رؤيا الأنبياء وحى**»[1] قاله عبيد بن عمر أيضًا. وهذا اختبار من الله عز وجل لخليله فى أن يذبح هذا الولد العزيز الذى جاءه على كبر، وقد طعن فى السن، بعد ما أمر بأن يسكنه هو وأمه فى بلاد قفر، وواد ليس به حسيس ولا أنيس، ولا زرع ولا ضرع، فامتثل أمر الله فى ذلك، وتركهما هناك ثقة بالله وتوكلا عليه، فجعل الله لهما فرجًا ومخرجًا، ورزقهما من حيث لا يحتسبان.

ثم لما أمر بعد هذا كله بذبح ولده هذا الذى قد أفرده عن أمر ربه، وهو بكره

(١) ضعيف. رواه الطبرانى فى «الكبير» (١٢/ ٦) رقم (١٢٣٠٢) وفى سنده عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبى مريم وهو ضعيف كما قال الهيثمى فى «المجمع» (٧/ ١٧٦)، والصواب: أنه موقوف على ابن عباس رضى الله عنه.



ووحيده الذى ليس له غيره، أجاب ربه وامتثل أمره، وسارع إلى طاعته.

ثم عرض ذلك على ولده ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يأخذه قسرًا ويذبحه قهرًا: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢].

فبادر الغلام الحليم، سر والده الخليل إبراهيم، فقال: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[الصافات: ١٠٢] وهذا الجواب فى غاية السداد والطاعة للوالد ولرب العباد.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣] قيل: «أسلما»: أى استسلما لأمر الله؟ وعزما على ذلك و «تله للجبين»، أى ألقاه على وجهه. قيل: أراد أن يذبحه من قفاه لئلا يشاهده فى حالة ذبحه.

فعند ذلك نودى من الله عز وجل: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ [الصافات: ١٠٤ ـ ١٠٥]، أى قد حصل المقصود من اختبارك وطاعتك، ومبادرتك إلى أمر ربك، وبذلك ولدك للقربان، كما سمحت ببدنك للنيران. وكما مالك مبذول للضيفان! ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ [الصافات: ١٠٦] أى الاختبار الظاهر البين.

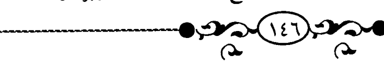
وقوله: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧]، أى وجعلناه فداء ذبح ولده ما يسره الله تعالى من العوض عنه.

والمشهور عن الجمهور أنه كبش أبيض أعين أقرن(١)، رآه مربوط بسمرة فى ثبير، عن ابن عباس، قال: كبش قد رعى فى الجنة أربعين خريفًا. وقال سعيد بن جبير: كان يرتع فى الجنة حتى تشقق عنه ثبير. وكان عليهم عهن(٢) أحمر. وعن ابن عباس: هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء فذبحه.

وعن صفية بنت شيبة قالت: أخبرتنى امرأة من بنى سليم ولدت عامة أهل دارنا قالت: أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن طلحة، وقالت مرة: إنها سألت عثمان: لم دعاك رسول الله ﷺ قال: قال لى رسول الله: «إنى كنت رأيت قرنى الكبش حين دخلت البيت، فنسيت أن آمرك أن تخمرها(٣) فخمرها فإنه لا ينبغى أن يكون فى البيت شىء يشغل المصلى»(٤).

---

(١) أى عظيم سواد العينين، وكبير القرنين.
(٢) العهن: الصوف المصبوغ ألوانًا.
(٣) خَمَّر الشىء: ستره وواراه.
(٤) صحيح. رواه أحمد (٤/٦٨) وأبو داود (٢٠٣٠).



قال سفيان: لم يزل قرنا الكبش معلقين فى البيت حتى احترق البيت فاحترقا.

وكذا روى عن ابن عباس أن رأس الكبش لم يزل معلقًا عند ميزاب الكعبة قد يبس.

وهذا وحده دليل على أن الذبيح إسماعيل؛ لأنه كان هو المقيم بمكة وإسحاق لا نعلم أن قدمها فى حال صغره . . والله أعلم.

وهذا هو الظاهر من القرآن، بل كأنه نص على أن الذبيح هو إسماعيل؛ لأنه ذكر قصة الذبيح ثم قال بعده: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾[الصافات: ١٢٢]

ومن جعله حالاً فقد تكلف، ومستنده أنه إسحاق إنما هو إسرائيليات. وكتابهم فيه تحريف، ولا سيما هاهنا قطعًا لا محيد عنه، فإن عندهم أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده، وفى نسخه من المعربة: بكره إسحاق.، فلفظة إسحاق هاهنا مقحمة مكذوبة مفتراة، لأنه ليس هو الوحيد ولا البكر إنما ذاك إسماعيل.

وإنما حملهم هلى هذا حسد العرب، فإن إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز الذين منهم رسول الله ﷺ، وإسحاق والد يعقوب وهو إسرائيل - الذى ينتسبون إليه، فأرادوا أن يجروا هذا الشرف إليهم، فحرفوا كلام الله وزادوا فيه وهم قوم بهتٌ ولم يقرأوا بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

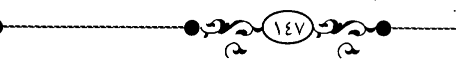
وقد قال: بأنه إسحاق طائفة كثيرة من السلف وغيرهم، وإنما أخذوه - والله أعلم - من كعب الأحبار، أو من صحف أهل الكتاب.

وليس فى ذلك حديث صحيح عن المعصوم (١) حتى نترك لأجله ظاهر الكتاب العزيز ولايفهم من القرآن، بل المفهوم بل المنطوق بل النص عند التأمل على أنه إسماعيل.

وما أحسن ما استدل به ابن كعب القرظى على أنه إسماعيل وليس بإسحاق من قوله: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] قال: فكيف تقع البشارة بإسحاق وأنه سيولد له يعقوب، ثم يؤمر بذبح إسحق وهو صغير قبل أن يولد له؟

---

(١) وأما الحديث المرفوع إلى النبى ﷺ أنه قال: «الذبيح إسحاق» فهو حديث ضعيف لا يصح وانظر «الضعيفة» (٣٣٢) وقال الألبانى بعد إيراد طرق الحديث وتضعيفها وبالجملة: فطرق هذا الحديث كلها ضعيفة ليس فيها ما يصلح أن يحتج به، وبعضها أشد ضعفا من بعض والغالب أنها إسرائيليات رواها بعض الصحابة ترخصاً أخطأ فى رفعها بعض الضعفاء. اهـ وقد ذكر: الشيخ الألبانى أيضاً عدة أحاديث تذكر: أن الذبيح هو إسحاق عليه السلام، وجميع هذه الأحاديث ضعيفة وانظر الضعيفة» (٣٣٣ - ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٧).

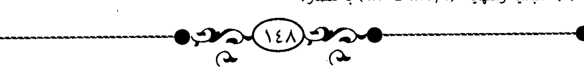


هذا لا يكون؛ لأنه يناقض البشارة المتقدمة.. والله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق عن بريدة عن سفيان بن فروة الأسلمى، عن محمد بن كعب: أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة، إذ كان معه بالشام - يعنى استدلاله بقوله بعد القصة: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] فقال له عمر: إن هذا الشيء ما كنت أنظر فيه وإنى لأراه كما قلت.

ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام، كان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه، وكان يرى أنه من علمائهم، قال: فسأله عمر بن عبد العزيز: أى ابنى إبراهيم أمر بذبحه؟

فقال: إسماعيل والله يا أمير المؤمنين، وإن اليهود لتعلم بذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذى كان من أمر الله فيه والفضل الذى ذكره الله منه لصبره لما أمر به، فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق؛ لأن إسحاق أبوهم (١).



(١) «البداية والنهاية» (١/ ١٨١ - ١٨٥) باختصار.

ثناء الله تعالى على إسماعيل عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥].

قال ابن كثير: هذا ثناء من الله تعالى على إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهم السلام وهو والد عرب الحجاز كلهم بأنه كان صادق الوعد. قال ابن جريج: لم يعد ربه عدة إلا أنجزها يعنى ما التزم عبادة قط بنذر إلا قام بها ووفاها حقها. وقال بعضهم: إنما قيل له ﴿كَانَ صَادِقَ﴾، لأنه قال لأبيه: ﴿ستجدنى إن شاء الله من الصابرين﴾ فصدق فى ذلك، فصدق الوعد من الصفات الحميدة كما أن خُلْفهُ من الصفات الذميمة.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣] وقال رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان» (١)، ولما كانت هذه صفات المنافقين كان التلبس بضدها من صفات المؤمنين، ولهذا أثنى الله على عبده ورسوله اسماعيل بصدق الوعد. وقوله: ﴿وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾ فى هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق؛ لأنه إنما وصف بالنبوة فقط وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة.

وقد ثبت فى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله اصطفى من ولد ابراهيم إسماعيل» وذكر تمام الحديث فدل على صحة ما قلناه. وقوله: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ هذا أيضا من الثناء الجميل والصفة الحميدة والخلة السديدة حيث كان صابراً على طاعة ربه عز وجل آمراً بها لأهله كما قال تعالى لرسوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[طه: ١٣٢] الآية وقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[التحريم: ٦]،أى مروهم بالمعروف وانهوهم

(١) رواه البخارى (٣٣) كتاب الإيمان، بابا: قيام ليلة القدر من الإيمان. ومسلم (٢٠٧) كتاب الإيمان، باب: بيان خصال المنافق. من حديث أبى هريرة رضى الله عنه

من المنكر ولا تدعوهم هَمَـلاً فتأكلهم النار يوم القـيامة، وقد جـاء فى الحديث عن أبى هريرة قال: قـال رسول الله ﷺ: «**رحم الله رجلاً قـام من الليل فصلى وأيـقظ امرأته فإن أبت نضح فى وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فإن أبى نضحـت فى وجهه الماء**»[1]، وعن أبى سعيـد وأبى هريرة رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «**إذا استـيقظ الرجل من الليل وأيقظ امـرأته فصليا ركـعتين كتـبا من الذاكرين لله كثيرا والذاكرات**»[2]. [3]

وقوله تعالى ﴿**وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا**﴾، أى رضيًا زاكيًا صالحًا[4].

وكان إسـماعـيل عليه السـلام رسولاً إلى أهل مكة ومـا والاها من قبـائل جرهم والعماليق وأهل اليمن.

وقد كـان عليه السلام من الرماة المهـرة، فقد مـرّ النبى ﷺ على نفر من أسْلم يَنْتَضِلُون، فقال رسول الله ﷺ: «**ارموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان راميًا**»[5].



(١) **صحيح**. رواه أبو داود (١٣٠٨) وابن ماجه (١٣٣٦).

(٢) صحيح. رواه أبو داود (١٣٠٩) وابن ماجه (١٣٣٥).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ١٢٩ ـ ١٣٠) باختصار يسير.

(٤) تفسير القرطبى (٦/ ٤١٥٥).

(٥) رواه البخارى (٣٣٧٣) كتاب أحاديث الأنبياء، باب: قوله تعالى: ﴿**واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد**﴾[مريم: ٥٤]

ما يستفاد من قصة إسماعيل للدعوة والدعاة

فى قصة إسماعيل عبر وعظات:

فى قصة إسماعيل عبر وعظات يجب على الدعاة استيعابها وجعلها من جملة مواضيع الدعوة التى يحرصون على تبيانها للناس لا سيما للشيوخ والشباب والآباء والأبناء، ونذكر فيما يلى بعض هذه العبر والعظات المستفادة من قصة إسماعيل عليه السلام.

الانقياد لأمر الله:

الشأن بالمسلم انقياده لأمر الله ومبادرتُه إلى تنفيذه بكامل الرضا والقبول دون تردد ولا كسل ولا تعقيب، وهذا ما كان عليه إبراهيم عليه السلام، وقد تلقى أمر ربه بذبح ابنه إسماعيل. فعلى الدعاة المسلمين تعميقُ هذا المعنى فى قلوب المدعوّين، فما أحوج المسلمين اليوم لهذا الانقياد لأوامر الله.

فى إسماعيل أسوة حسنة للشباب المسلم:

قصة إسماعيل، هى قصة شاب مسلم آمن بالله وامتُحِنَ امتحانًا شديدًا بأن يموت ذبحًا على يد أبيه إبراهيم، ومع هذا لم يرتجف، ولم يهتز عندما أخبره أبوه بأنه رأى فى المنام أنه يذبحه بل راح يشجِّع أباه على المضىِّ فى تنفيذ ما يأمره به الله، فعلى الدعاة المسلمين أن يُذكّروا الشباب المسلم بقصة إسماعيل، ويستشهدوا بها فى أحاديثهم معهم ليكون للشباب المسلم أسوة حسنة فى إسماعيل. إنَّ شبابنا المسلم الضائع لابد لهم من مُثُل عليا تملأ عيونهم، وتثير فيهم معانى الإيمان؛ وتحملهم على طاعة الرحمن، والاستعلاء على الشهوات، ومن أعظم ما يثير فيهم هذه المعانى عرضُ النماذج الإيمانية العالية من المؤمنين السابقين ومن سلفنا الصالح من الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

تفريجُ الكُرُبات بإحسان الطاعة لله:

إنَّ الله تعالى يفرج عن المسلمين المنقادين لأمر الله ما هم فيه من شدائد وكربات ما داموا حاضرين ومستعدين وعازمين على تنفيذ أمر الله، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿**كذلك نجزى المحسنين**﴾.

ابتلاء الله عباده المؤمنين:

وليعلم الدعاة المسلمون أنَّ الله تعالى يبتلى عباده المؤمنين على وجه الاختبار والامتحان؛ ليتبين مخبوء نفوسهم، ومدى طاعتهم فى الشدائد، ومدى استمساكهم

بمعانى الإسلام فى أوقات الشدائد والصعاب، وعلى هذه السنّة الإلهية امتحن اللهُ خليله إبراهيم بذبح ابنه إسماعيل كما امتحن بهذا إسماعيل نفسه، أيَعصى أباه أم يطيعه..؟، وليكن معلومًا أيضًا للدعاة أنَّ امتحان الله عباده المؤمنين من اختصاص وتفرد رب العالمين، فهو الذى يقرر امتحان المؤمنين فى الوقت الذى يريده وبالكيفية التى يريدها، ولا اعتراض ولا تعقيب على حكم أحكم الحاكمين وهذا ما يجب على الدعاة توضيحهُ للمدعوين لأنه يتعلق بالعقيدة، والعقيدة أهم مطالب الدين[1].

طاعة الوالدين فى غير معصية الله تعالى:

رأينا كيف استجاب اسماعيل لأبيه إبراهيم عندما طلب منه أن يطلق امرأته، وهكذا ينبغى على الابن أن يطيع والده إذا أمره بتطليق امرأته، ولكن هذه الطاعة تكون مشروطة بسوء خلق الزوجة، فيكون الفراق فى هذه الحالة لمصلحة دينية، وأما إذا كانت الزوجة حسنة الخلق وأمر الوالد ولده بتطليقها، فعلى الولد فى الحالة هذه أن يتلطف مع أبيه فى الخطاب ويجهد نفسه فى إقناعه بالحسنى حتى يعدل عن رأيه، وليحذر الابن كل الحذر من التطاول على أبيه أو التحدث معه بطريقة غير ملائمة.

قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[الإسراء: ٢٣].

التحلى بأخلاق الإسلام:

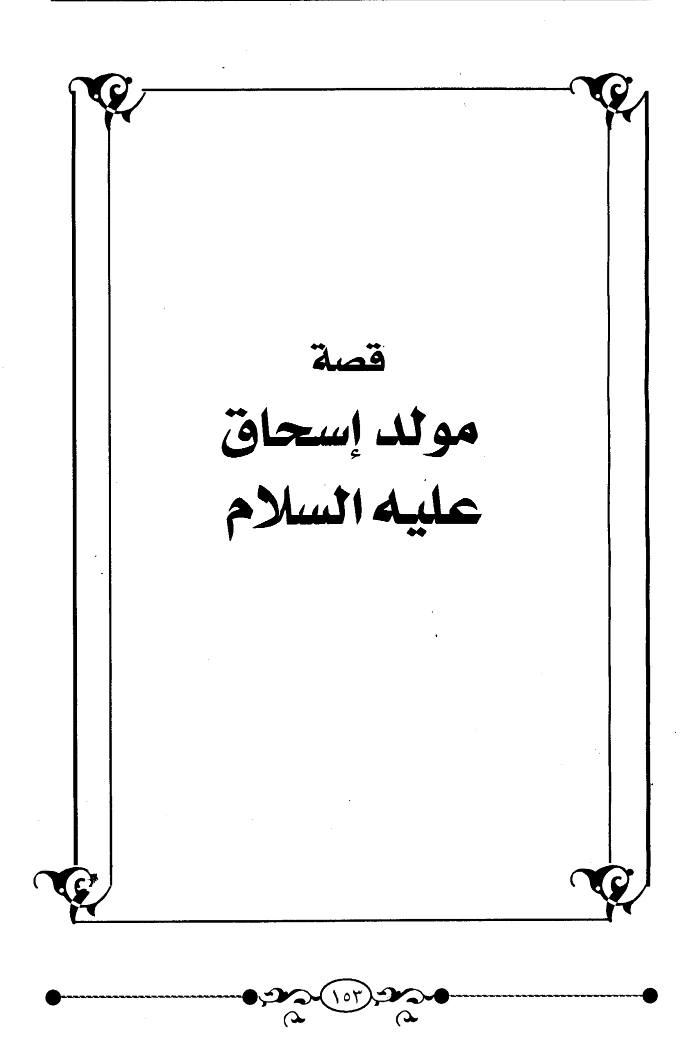
مدح الله إسماعيل بقوله تعالى: ﴿إنه كان صادق الوعد﴾، وصدْقُ الوعد من أخلاق الإسلام ومن صفات أهل الإيمان، كما أن خُلْفَهُ من الصفات الذميمة، فعلى الدعاة أن يجعلوا موضوع (أخلاق الإسلام) موضوعًا مهمًا من مواضيع الدعوة، ويبينوا للناس أن عدم التخلق بالأخلاق الإسلامية دليل على عدم صفاء الإيمان وتلوثه بالنفاق. والملاحظ أنَّ من أمراض المسلمين اليوم عدم الالتزام بالأخلاق الإسلامية، ولذا نجد الخُلْفَ بالوعد وعدم الالتزام بالمواعيد من الأمور الفاشية فى المسلمين، وعلى الدعاة تذكيرهم بذلك.

القيام بحق الأهل:

ومما مدح الله به عبده إسماعيل أنه: ﴿وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة﴾، ومعنى ذلك أنه كان يهتم بأمور دينهم، فهو كما قال الرازى: وكان نظره لهم فى الدين يغلبُ على شفقته عليهم بالدنيا بخلاف ما عليه أكثر الناس»[2]، فعلى الدعاة تذكير المسلمين بواجبهم نحو بيوتهم وأهليهم؛ وذلك بأن يحملوهم على طاعة الله والالتزام بشرعه، وأن يكون اهتمامهم بهم فى أمورهم الدينية أكثَرَ من اهتمامهم بأمورهم الدنيوية والمعيشية، وأن يربوا أولادهم على معانى الإسلام وأحكامه[3].

---

(١) «المستفاد من قصص القرآن» (١/ ٢٢٥ ـ ٢٦).
(٢) تفسير الرازى (٢١/ ٢٣٢).
(٣) «المستفاد من قصص القرآن» (١/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧) باختصار يسير.



قصة
مولد إسحاق
عليه السلام

مولد إسحاق عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٢ ـ ١١٣].

وقد كانت البشارة به من الملائكة لإبراهيم وسارة لما مروا بهما مجتازين ذاهبين إلى مدائن قوم لوط، ليدمروا عليهم لكفرهم وفجورهم.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٦٩ ـ ٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥١ ـ ٥٦].

وقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٢٤ ـ ٣٠].

يذكر تعالى: أن الملائكة قالوا: وكانوا ثلاثة: جبريل وميكائيل وإسرافيل لما وردوا على الخليل حسبهم أولاً أضيافًا فعاملهم معاملة الضيوف، وشوى لهم عجلاً سمينًا من خيار بقره، فلما قرّبه إليهم وعرض عليهم لم ير لهم همة إلى الأكل بالكلية؛ وذلك لأن الملائكة ليس فيهم قوة الحاجة إلى الطعام فنكرهم إبراهيم ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾[هود: ٧٠]، أي لندمر عليهم، فاستبشرت عند ذلك



سارة غضبًا لله عليهم. وكانت قائمة على رءوس الأضياف كما جرت به عادة الناس من العرب وغيرهم، فلما ضحكت استبشارًا بذلك قال الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] ، أى بشرتها الملائكة بذلك ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾ [الذاريات: ٢٩] أى فى صرخة ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ [الذاريات: ٢٩] أى كما يفعل النساء عند التعجب وقالت: ﴿يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾[هود: ٧٢]، أى كيف يلد مثلى وأنا كبير وعقيم أيضًا، وهذا بعلى، أى زوجى، شيخًا؟ تعجبت من وجود ولد والحالة هذه. ولهذا قالت: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾[هود: ٧٢ ـ ٧٣].

وكذلك تعجب إبراهيم عليه السلام استبشارًا بهذه البشارة وتثبيتًا لها وفرحًا بها: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾ [الحجر: ٥٤ ـ ٥٥] أكدوا الخبر بهذه البشارة وقرروه معه، فبشروهما ﴿بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣]، وهو إسحاق أخو إسماعيل، غلام عليم مناسب لمقامه وصبره، وهكذا وصفة ربه بصدق الوعد والصبر، وقال فى الآية الأخرى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١].

وهذا مما استدل به محمد بن كعب القرطبى وغيره على أن الذبيح هو إسماعيل، وأن إسحاق لا يجوز أن يؤمر بذبحه بعد أن وقعت البشارة بوجوده ووجود ولده يعقوب المشتق من العقب من بعده[1].

وقد ولد اسحاق عليه السلام ولأبيه مائة سنة، بعد أخيه إسماعيل بأربع عشرة سنة وكان عمر أمه سارة حين بُشرت به تسعين سنة. قال تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾[الصافات: ١١٢، ١١٣].

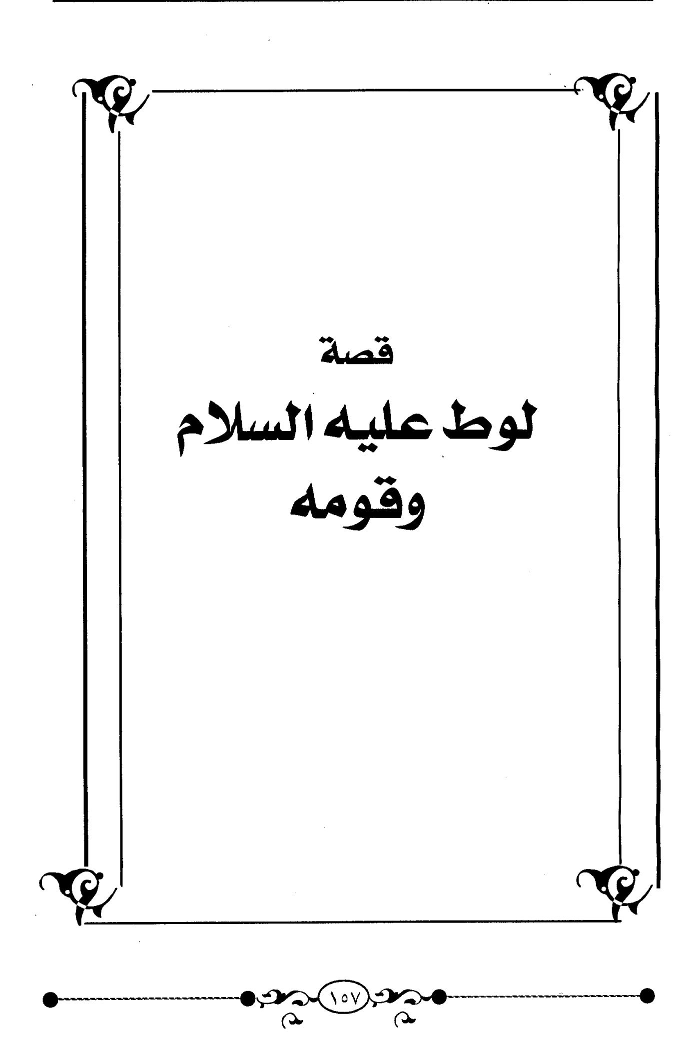
وقد ذكره الله بالثناء عليه فى غير ما آية من كتابه العزيز.

وعن ابن عمر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم**»[2]

---

(١) «البداية والنهاية» (١/ ١٨٥ ـ ١٨٦).

(٢) رواه البخارى (٣٣٩٠) كتاب أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿لقد كان ليوسف وإخوته آيات للسائلين﴾[يوسف: ٧].



قصة لوط عليه السلام وقومه

قصة لوط عليه السلام وقومه

ذكر الله فى كتابه العزيز قصة لوط عليه السلام فى غير ما موضع، فقال تعالى فى سورة الأعراف: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠ ـ ٨٤].

وقال تعالى فى سورة هود: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٦٩ـ ٨٣].

وقال تعالى فى سورة الحجر: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ (٥٦) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ

مُّجْرِمِينَ (٥٨) إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (٦٠) فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (٦٦) وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٥١-٧٧].

وقال تعالى فى سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[الشعراء: ١٦٠ - ١٧٥].

وقال تعالى فى سورة النمل: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (٥٨)﴾[النمل ٥٤ - ٥٨].

وقال تعالى فى سورة العنكبوت: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ



الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٨ : ٣٥].

وقال تعالى فى صورة الصافات: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[الصافات: ١٣٣ ـ ١٣٨].

وقال تعالى فى سورة الذاريات بعد قصة ضيف إبراهيم وبشارتهم إياه بغلام عليم: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ . فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ .وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [الذاريات: ٣١ ٣٦].

وقال تعالى فى سورة القمر: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ (٣٤) نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٣٣ ـ ٤٠].

ولوط عليه السلام هو ابن أخى إبراهيم الخليل عليه السلام، وقد حدثت وقائع قصته مع قومه فى حياة عمه إبراهيم عليه السلام.

«وكان لوط قد نزح عن محلة عمه الخليل عليهما السلام بأمره له وإذنه، فنزل بمدينة سدوم[1] من أرض غور زغر، وكان أم تلك المحلة ولها أرض ومعتملات وقرى

(١) سَدُوم: بلدة من أعمال حلب. «معجم البلدان» ياقوت (٣/ ٢٠٠).

مضـافة إليـها. ولها أهل من أفـجر الناس وأكـفرهم وأسوأهم طـوية، وأردأهم سريرة وسيرة، يقطعون السبيل ويأتون فى ناديهم المنكر، ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون.

ابتدعوا فاحـشة لم يسبقهم إليها أحد مـن بنى آدم، وهى إتيان الذكران من العالمين وترك ما خلق من النسوان لعباده الصالحين.

فـدعـاهم لوط إلى عـبادة الله وحـده، لا شـريك له، ونهـاهم عن تعـاطى هذه المحرمات والفواحش والمنكرات، والأفاعيل المستقبحات فتمادوا على ضلالهم وطغيانهم، واستـمروا على فجورهم وكـفرانهم، فأحل الله بهم البـأس الذى لا يرد ما لم يكن فى خلدهم وحسبانهم، وجعلهم مثاله فى العالمين، وعبرة يتعظ بها الألباء من العالمين.

وذلك أن لوطا عليه السـلام لما دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شـريك له، ونهاهم عن تعاطى مـا ذكر الله عنهم من الفـواحش، لم يستجـيبوا له ولم يـؤمنوا به حتى ولا رجل واحد منهم، ولم يتركوا ما عنه نهـوا. بل استمروا على حالهم، ولم يرعووا عن غيهم وضلالهم، وهـموا بإخراج رسولهم من بين ظهرانيهم. ومـا كان حاصل جوابهم عن خطابهم ـ إذا كانوا لا يعـقلون إلا أن قالوا: ﴿**أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ**﴾ [النمل: ٥٦]. فجعلوا غاية المدح ذمًّا يقتضى الإخراج ! وما حملهم على مقالتهم هذه إلا العناد واللجاج.

فطهره الله وأهله إلا امرأته، وأخـرجهم منها أحسن إخراج، وتركـهم فى محلتهم خالدين، لكن بعدما صيرها عليهم بحرة منتنة ذات أمواج، لكنها عليهم فى الحقيقة نار تأجج، وحر يتوهج، وماؤها ملح أجاج.

ومـا كان هـذا جوابهم إلا لما نـهاهن عن ارتكـاب الطامة الـعظمى، والفـاحشـة الكبرى، التى لم يسبقهم إليها أحد من العالمين أهل الدنيا. ولهذا صاروا مثلة فيها وعبرة لمن عليها.

وكـانوا من ذلك يقطعـون الطريق، ويخـونون الرفيـق، ويأتون فى ناديهم ـ وهو مجتمعهم ومحل حديثهم وسمرهم ـ المنكر من الأقوال والأفعال على اختلاف أصنافه.

وربما وقع منهم الفـعلة العظيمـة فى المحافل ولا يسـتنكفون، ولا يرعـوون لوعظ واعظ ولا نصيـحة عما كانـوا عليه فى الحاضر، ولا ندمـوا على ما سلف من الماضى، ولا راموا فى المستقبل تحويلاً، فأخذهم الله أخذًا وبيلاً.

وقالوا له فـيمـا قالوا: ﴿ **ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾ [العنكبوت: ٢٩] فطلبوا منه وقوع ما حذرهم عنه من العذاب الأليم، وحلول البأس العظيم.

فعند ذلك دعا عليهم نبيهم الكريم، فسأل من رب العالمين وإله المرسلين أن ينصره على القوم المفسدين.

فغار الله لغيرته، وغضب لغضبته، واستجاب لدعوته، وأجابه إلى طلبته وبعث رسله الكرام، وملائكته العظام، فمروا على الخليل إبراهيم وبشروه بالغلام العليم، وأخبروه بما جاءوا له من الأمر الجسيم العميم: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات: ٣١ ـ ٣٤] وقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾[العنكبوت: ٣١ ـ ٣٢] وقال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾[هود: ٧٤]؛ وذلك أنه كان يرجو أن يجيبوا أو ينيبوا ويسلموا ويقلعوا ويرجعوا، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦)﴾[هود: ٧٥ ـ ٧٦]، أى أعرض عن هذا وتكلم غيره، فإنه قد حتَمَ أمرهُم، ووجب عذابهم وتدميرهم وهلاكهم، ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾، أى قد أمر به من لا يرد أمره، ولا يرد بأسه ولا معقب لحكمه ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾[هود: ٧٧] قال المفسرون: لما فصلت الملائكة من عند إبراهيم ـ وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل ـ أقبلوا حتى أتوا أرض سدوم، في صور شبان حسان، اختبارًا من الله تعالى لقوم لوط وإقامة للحجة عليهم، فاستضافوا [1] لوطا عليه السلام وذلك عند غروب الشمس، فخشى إنْ لم يضفهم أن يضيفهم غيره، وحسبهم بشرًا من الناس: و ﴿سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾. قال ابن عباس ومجاهد وقتادة ومحمد بن إسحاق: شديدة بلاؤه. وذلك لما يعلم من مدافعته الليلة عنهم، كما كان يصنع بهم فى غيرهم.

فجاء بهم فلم يعلم أحد إلا أهل البيت، فخرجت امرأته فأخبرت قومها، فقالت: إن فى بيت لوط رجالاً ما رأيت مثل وجوههم قط. فجاءه قومه يهرعون إليه.

---

(١) أى طلبوا من لوط أن يَضيّفهم عنده.



﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾[هود: ٧٨] يرشدهم إلى غشيان نسائهم وهن بناته شرعًا[1]؛ لأن النبى للأمة بمنزلة الوالد، كما قال تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب:٦] وفى قول بعض الصحابة والسلف: وهو أب لهم وهذا كقوله: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾[الشعراء: ١٦٥ ـ ١٦٦].

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨] نهى لهم عن تعاطى ما لا يليق من الفاحشة، وشهادة عليهم بأنه ليس فيهم رجل له مسكة ولا فيه خير، بل الجميع سفهاء، فجرة أقوياء، كفرة أغبياء.

وكان هذا من جملة ما أراد الملائكة أن يسمعوه منه من قبل أن يسألوه عنه.

فقال قومه عليهم لعنة الله الحميد المجيد، مجيبين لنبيهم فيما أمرهم به من الأمر السديد: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾[هود:٧٩]يقولون ـ عليهم لعائن الله ـ لقد علمت يا لوط أنه لا أرب لنا فى نسائنا[2]، وإنك لتعلم مرادنا وغرضنا.

واجهوا بهذا الكلام القبيح رسولهم الكريم، ولم يخافوا سطوة العظيم، ذى العذاب الأليم ـ ولهذا قال عليه السلام: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[هود: ٨٠]. ود أن لو كان له بهم قوة، أو له منعة وعشيرة ينصرونه عليهم، ليحل بهم ما يستحقونه من العذاب على هذا الخطاب.

وعن أبى هريرة مرفوعًا: «نحن أحق بالشك من إبراهيم، ويرحم الله لوطًا، لقد كان يأوى إلى ركن شديد، ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى»[3].

---

(١) وقد ظن أحد المأفونين أن لوطًا عليه السلام قد عرض بناته على قومه كى يفعلوا بهن الفاحشة!! فكتب يقول: «وكان على رأس فضائل الناس ـ كما أسلفنا قبلاً أن تقدم لأضيافك: زوجتك أو بنتك، ولعل هذا يفسر قول نبى الله لوط عليه الصلاة والسلام لقومه حين هاجموا داره ليفتكوا بضيوفه فتكًا جنسيًا: ﴿هؤلاء بناتى هنّ أطهر لكم إن كنتم فاعلين﴾. انظر كتاب «هذا. .أو الجنون»للشيخ محمود مهدى الاستانبولى.

(٢) أى:لا حاجة لنا فى نسائنا.

(٣) رواه البخارى (٣٣٧٢) كتاب أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى:﴿ونبئهم عن ضيف إبراهيم﴾. ومسلم (٣٧٥) كتاب الإيمان، باب: زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة. وأحمد (٢/ ٢٣٦) وابن ماجه (٤٠٢٦) كتاب الفتن، باب: الصبر على البلاء.

قال النووى: اختلف العلماء فى معنى نحن أحق بالشك من إبراهيم على أقوال كثيرة أحسنها وأصحها ما قاله الإمام أبو إبراهيم المزنى صاحب الشافعى وجماعات من العلماء معناه: أن الشك مستحيل فى حق إبراهيم فإن الشك فى إحياء الموتى لو كان متطرقًا إلى الأنبياء لكنت أحق به من إبراهيم، وقد علمتم أنى لم أشك فاعلموا أن إبراهيم عليه السلام لم يشك، وإنما خصّ إبراهيم ﷺ لكون الآية قد يسبق إلى بعض الأذهان الفاسدة منها احتمال الشك، وإنما رجح إبراهيم على نفسه ﷺ تواضعًا وأدبا، أو قبل أن يعلم ﷺ أنه خير ولد آدم، قال صاحب التحرير: قال جماعة من العلماء لما نزل قول الله تعالى: ﴿أو =

= لم تؤمن﴾ قالت طائفة: شك إبراهيم ولم يشك نبينا فقال النبى ﷺ: نحن أحق بالشك منه، فذكر نحو ما قدمته ثم قال: ويقع لى فيه معنيان أحدهما: أنه خرج مخرج العادة فى الخطاب، فإن من أراد المدافعة عن إنسان قال للمتكلم فيه: ما كنت قائلاً لفلان أو فاعلاً معه من مكروه فقله لى وافعله معى ومقصوده لا تقل ذلك فيه. والثانى: أن معناه أن هذا الذى تظنونه شكًا أنا أولى به فإنه ليس بشك وإنما هو طلبٌ لمزيد اليقين، وقيل: غير هذا من الأقوال فنقتصر على هذه لكونها أصحها وأوضحها والله أعلم. «شرح النووى على صحيح مسلم» (١/ ٨٥٧ ـ ٨٥٨).

وقد سأل إبراهيم ربه أن يريه كيفية إحياء الموتى «ليزيد سكونًا بالمشاهدة المنضمة إلى اعتقاد القلب؛ لأن تظاهر الأدلة أسكن للقلوب. وكأنه قال: أنا مصدق، ولكن للعيان لطيف معنى. وقال عياض: لم يشك إبراهيم بأن الله يحيى الموتى، ولكن أراد طمأنينة القلب وترك المنازعة لمشاهدة الإحياء فحصل له العلم الأول بوقوعه، وأراد العلم الثانى بكيفيته ومشاهدته، ويحتمل: أنه سأل زيادة اليقين وإن لم يكن فى الأول شك لأن العلوم قد تتفاوت فى قوتها فأراد الترقى من علم اليقين إلى عين اليقين والله أعلم «فتح البارى» (٦/ ٤٧٥٦).

قال النووى: وأما قول النبى ﷺ: ويرحم الله لوطًا لقد كان يأوى إلى ركن شديد، فالمراد بالركن الشديد هو الله سبحانه وتعالى فإنه أشد الأركان وأقواها وأمنعها، ومعنى الحديث والله أعلم: أن لوطًا ﷺ لما خاف على أضيافة ولم يكن له عشيرة تمنعهم من الظالمين ضاق ذرعه واشتد حزنه عليهم فغلب ذلك عليه فقال فى ذلك الحال: لو أن لى بكم قوة فى الدفع بنفسى أو آوى إلى عشيرة تمنع لمنحتكم وقصد لوط إظهار العذر عند أضيافه وأنه لو استطاع دفع المكروه عنهم بطريق ما لفعَلَهُ وأنه بَذَل ما وسعه فى إكرامهم والمدافعة عنهم ولم يكن ذلك إعراضًا منه ﷺ عن الاعتماد على الله تعالى، وإنما كان لما ذكرناه من تطييب قلوب الأضياف ويجوز أن يكون نسى الالتجاء إلى الله تعالى فى حمياتهم ويجوز أن يكون التجأ فيما بينه وبين الله تعالى وأظهر للأضياف التألم وضيق الصدر والله أعلم «شرح النووى على صحيح مسلم» (١/ ٨٦٠)

وقال الحافظ ابن حجر: يقال: إن قوم لوط لم يكن فيهم أحد يجتمع معه فى نسبه لأنهم من سدوم وهو من الشام وكان أصل إبراهيم ولوط من العراق، فلمّا هاجر إبراهيم إلى الشام هاجر معه لوط فبعث الله لوطًا إلى أهل سدوم فقال: لو أن لى منعة وأقارب وعشيرة لكنت استنصر بهم عليكم ليدفعوا عن أضيافى، ولهذا جاء فى بعض طرق هذا الحديث كما أخرجه أحمد عن النبى ﷺ قال: «قال لوط: لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد، قال فإنه كان يأوى إلى ركن شديد ولكنه عنى عشيرته فما بعث الله نبيًا فى ثروة من قوم» زاد ابن مردويه من هذا الوجه «ألم تر إلى قول قوم شعيب: ولولا رهطك لرجمناك» وقيل: معنى قوله: «لقد كان يأوى إلى ركن شديد» أى إلى عشيرته، لكنه لم يأو إليهم وأوى إلى الله، والأول أظهر لما بيناه. وقال النووى: يجوز أنه لمّا اندهش بحال الأضياف قال ذلك، أو أنه التجأ إلى الله فى باطنه وأظهر هذا القول للأضياف اعتذارًا، وسمى العشيرة ركنًا؛ لأن الركن يُستند إليه ويُمتنع به فشبههم بالركن من الجبل لشدتهم ومنعتهم. «فتح البارى» (٦/ ٤٧٨ ـ ٤٧٩)

أما قوله ﷺ «ولو لبثت فى السجن ما لبثا يوسف لأجبت الداعى» قال الحافظ فى «الفتح (٦/ ٤٧٦) أى لأسرعت الإجابة فى الخروج من السجن ولما قدمت طلب البراءة. فوصفه بشدة الصبر حيث لم يبادر بالخروج

قال النووى: فهو ثناء على يوسف عليه الصلاة والسلام وبيان لصبره وتأنيه، والمراد بالداعى: رسول الملك الذى أخبر الله سبحانه وتعالى أنه قال: **﴿ائتونى به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن﴾** [يوسف: ٥٠] فلم يخرج يوسف ﷺ مبادراً إلى الراحة ومفارقة السجن الطويل بل تثبت وتوقر وراسل الملك فى كشف أمره الذى سجن بسببه ولتظهر براءته عند الملك وغيره، ويلقاه مع اعتقاده براءته مما نُسب إليه. فبين نبينا ﷺ فضيلة يوسف هذه وقوة نفسه فى الخير وكمال صبره وحسن نظره، وقال النبى ﷺ عن نفسه: ما قاله تواضعًا وإيثارًا للإبلاغ فى بيان كمال فضيلة يوسف ﷺ والله أعلم «شرح النووى على صحيح مسلم» (١/ ٨٦١).



وعن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «رحمة الله على لوط، أن كان يأوى إلى ركن شديد - يعنى الله عز وجل - فما بعث الله بعده من نبى إلا فى ثروة من قومه»[1].

وقال تعالى: ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الحجر: ٦٧ - ٧١] فأمرهم بقربان نسائهم، وحذرهم الاستمرار على طريقتهم وسيئاتهم.

وهذا وهم فى ذلك لا ينتهون ولا يرعوون، بل كلما نهاهم يبالغون فى تحصيل هؤلاء الضيفان ويحرصون، ولم يعلموا ما حم به القدر مما إليه صائرون، وصبيحة ليلتهم إليه منقلبون.

ولهذا قال تعالى مقسمًا بحياة نبية محمد صلوات الله وسلامه عليه: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: ٣٦ - ٣٨].

ذكر المفسرون وغيرهم: أن نبى الله لوطًا عليه السلام جعل يمانع قومه الدخول ويدافعهم والباب مغلق، وهم يرومون فتحه وولوجه، وهو يعظهم وينهاهم من وراء الباب، فلما ضاق الأمر وعسر الحال قال ما قال: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[هود: ٨٠] لأحللت بكم النكال.

قالت الملائكة ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨١]، وذكروا أن جبريل عليه السلام خرج عليهم، فضرب وجوههم خفقة بطرف جناحه فطمست أعينهم، حتى قيل إنها غارت بالكلية ولم يبق لها محل ولا عين ولا أثر، فرجعوا يتحسسون من الحيطان، ويتوعدون رسول الرحمن، ويقولون: إذا كان الغد كان لنا وله شأن!

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾[القمر: ٣٧ - ٣٨].

فذلك أن الملائكة تقدمت إلى لوط، عليه السلام، آمرين بأن يسرى هو وأهله من آخر الليل: ﴿وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾[هود: ٨١]، يعنى عند سماع صوت العذاب إذا حل بقومه، وأمروه أن يكون سيره فى آخرهم كالساقة لهم.

(١) صحيح رواه احمد (٢/ ٢٣٢).



وقوله ﴿إِلاَّ امْرَأَتَكَ﴾ [هود: ٨١] كأنه يقول إلا امرأتك فلا تسر بها.

وقالوا له مبشرين بهلاك هؤلاء البغاة العتاة الملعونين النظراء والأشباه الذين جعلهم الله سلفًا لكل خائن مريب: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

فلما خرج لوط عليه السلام بأهله، وهو ابنتاه، لم يتبعه منهم رجل واحد.

فلما خلصوا من بلادهم وطلعت الشمس فكانت عند شروقها، جاءهم من أمر الله ما لا يرد، ومن البأس الشديد ما لا يمكن أن يصد.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢ ـ ٨٣].

قالوا: اقتلعهن جبريل بطرف جناحه من قرارهن ـ وكن سبع مدن ـ بمن فيهن من الأمم ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢] والسجيل فارسي معرب: وهو الشديد الصلب القوى ﴿مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢]، أي يتبع بعضها بعضا فى نزولها عليهم من السماء ﴿مُسَوَّمَةً﴾[هود: ٨٣]، أي معلمة مكتوب على كل حجر اسم صاحبه الذى يهبط عليه فيدمغه، كما قال: ﴿مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾[الذاريات: ٣٤] وكما قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٣، النمل: ٥٨] وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ (٥٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾[النجم: ٥٣ ـ ٥٥] يعنى قلبها فأهوى بها منكسة عاليها سافلها، وغشاها بمطر من حجارة من سجيل، متتابعة، مسومة مرقومة على حجر كل اسم صاحبه الذى سقط عليه، من الحاضرين منهم فى بلدهم، والغائبين عنها من المسافرين والنازحين والشاذين منها.

ويقال: إن امرأة لوط مكثت مع قومها، ويقال: إنها خرجت مع زوجها وبنتيها، ولكنها لما سمعت الصيحة وسقوط البلدة، التفتت إلى قومها وخالفت أمر ربها قديمًا وحديثًا، وقالت: واقوماه! فسقط عليها حجر فدمغها وألحقها بقومها، إذ كانت على دينهم، وكانوا عينًا لهم على من يكون عند لوط من الضيفان.

كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠]، أي خانتاهما فى الدين فلم يتبعاهما فيه. وليس المراد أنهما



كانتا على فاحشة - حاشا وكلا - فإن الله لا يقدر عن نبى قط أن تبغى امرأته، كما قال ابن عباس وغيره من أئمة السلف والخلف: ما بغت امرأة نبى قط. ومن قال خلاف هذا فقد أخطأ خطأ كبيرًا. قال الله تعالى فى قصة الإفك، لما أنزل براءة أم المؤمنين عاشة بنت الصديق، زوج رسول الله ﷺ حين قال لها: هل الإفك ما قالوا؟ فعاتب الله المؤمنين وأنَّب وزجر، ووعظ وحذر وقال فيما: قال: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ . وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾[النور: ١٥-٦]، أى سبحانك أن تكون زوجة نبيك بهذه المثابة.

وقوله هنا: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[هود: ٨٣]، أى وما هذه العقوبة ببعيدة ممن أشبههم فى فعلهم.

ولهذا ذهب من ذهب من العلماء إلى أن اللائط يرجم، سواء أكان محصنًا أم لا. ونص عليه الشافعى وأحمد بن حنبل وطائفة كثيرة من الأئمة.

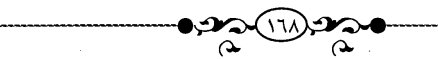
واحتجوا أيضًا بما رواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديث ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: **«من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»**[1].

وذهب أبو حنيفة إلى أن اللائط يلقى من شاهق جبل ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط. لقوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾

وجعل الله مكان تلك البلاد بحرة منتنة لا ينتفع بمائها، ولا بما حولها من الأراضى المتاخمة لفنائها، لرداءتها ودناءتها، فصارت عبرة ومثلة وعظة وآية على قدرة الله تعالى وعظمته، وعزته فى انتقامه ممن خالف أمره، وكذَّب رسله، واتَّبع هواه وعصى مولاه، ودليلاً على رحمته بعباده المؤمنين فى إنجائه إياهم من المهلكات، وإخراجه إياهم من الظلمات إلى النور، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ⑧ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٨ - ٩].

وقال الله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ⑦③ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ⑦④ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ⑦⑤ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ⑦⑥ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[الحجر: ٧٣ - ٧٧]، أى من نظر بعين الفراسة والتوسم فيهم، كيف غير

(١) صحيح رواه أحمد (١/ ٣٠٠) وأبو داود (٤٤٦٢) والترمذى (١٤٦١) وابن ماجه (٢٥٦١) وابن الجارود فى «المنتقى» (٨٢٠) والدارقطنى (٣/ ١٢٢) والحاكم (٤/ ٣٥٥) والبيهقى (٨/ ٢٣٢) والبغوى فى «شرح السنة» (١٠/ ٣٠٨).



الله تلك البلاد وأهلها؟ وكيف جعلها بعد ما كانت آهلة عامرة هالكة غامرة؟

وقوله: ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ أى لبطريق مُعْلَم مسلوك إلى الآن. كما قال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧ ـ ١٣٨].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٣٥] وقال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [الذاريات: ٣٥ ـ ٣٧].

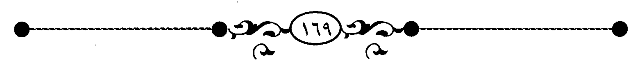
أى تركناها عبرة وعظة لمن خاف عذاب الآخرة، وخشى الرحمن بالغيب، وخاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فانزجر عن محارم الله وترك معاصيه، وخاف أن يشابه قوم لوط. ومن تشبه بقوم فهو منهم. وإن لم يكن من كل وجه، فمن بعض الوجوه. كما قال بعضهم:

فإن لم تكونوا قوم لوط بعينهم فما قوم لوط منكم ببعيد

فالعاقل اللبيب الفاهم الخائف من ربه، يمتثل ما أمره الله به عز وجل، ويقبل ما أرشده إليه رسول الله ﷺ من إتيان ما خلق له من الزوجات الحلال. وإياه أن يتبع كل شيطان مريد، فيحق عليه الوعيد، ويدخل فى قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٣][١].

●●●●●

(١) «البداية والنهاية» (١/ ٢٠٣ ـ ٢١١) باختصار.



الدروس المستفادة من قصة لوط عليه السلام وقومه

المعاصي تستوجب سخط الله عزّ وجلّ

رأينا كيف كانت عاقبة قوم لوط عليه السلام لمّا أصروا على معصية الله تعالى ولم يستجيبوا لدعوة نبي الله لوط عليه السلام عندما دعاهم إلى التخلي عن رذيلة إتيان الذكور وكيف أن الله عزّ وجلّ خسف بهم وبدارهم واقتلع شأفتهم جزاءً وفاقًا؛ لأن الجزاء من جنس العمل.

وهذه سنة من سنن الله الكونية التي لا تتبدل ولا تتحول ﴿**فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً**﴾ [فاطر: ٤٣].

وقد حذر النبي ﷺ أمته من مشابهة العصاة في أفعالهم وأقوالهم حتى لا يعاقبنا الله بمثل ما عاقبهم.

فقال ﷺ **(يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن. لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا. ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين**[١] **وشدة المؤنة وجور السلطان عليهم.**

ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط عليهم عدوا من غيرهم فأخذوا ما بين أيديهم وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا بما أنزل الله[٢] **إلا جعل بأسهم بينهم)**[٣].

وعندما ظهرت فاحشة الشذوذ الجنسي في مجتمعات أوروبا وأمريكا وأعلنوا بهذه الفاحشة[٤] ظهر عندهم طاعون العصر وهو المسمى بالإيدز. وهذه الكلمة اختصار لمجموعة كلمات معناها إنهيار وسائل الدفاع الطبيعية في الجسم، ويأتي هذا المرض بسبب

(١) السنين: جمع سنة أي جدب وقحط.

(٢) يتخيروا: أي يطلبوا الخير، أي: وما لم يطلبوا الخير والسعادة مما أنزل الله.

(٣) حسن رواه ابن ماجه (٤٠١٩) وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣٣٣ - ٣٣٤) وانظر «السلسة الصحيحة» (١٠٦)

(٤) ولم يكتفوا بشيوع هذه الفاحشة القبيحة، بل وضعوا لها القوانين التي تجعل من الشذوذ الجنسي عملاً مشروعًا!! وأصبح القساوسة في بعض الكنائس يزوجون الرجال للرجال والنساء للنساء ويباركون هذه الجريمة البشعة والتي هي أبشع وأعظم إثمًا من جريمة الزنا.

وقد نشرت جريدة الجمهورية المصرية في ٢٤ من ربيع الآخر سنة ١٣٧٧هـ تحت عنوان «الشذوذ الجنسي عمل مشروع يوافق عليه مجلس الكنائس الإنجليزية».

قالت الصحيفة: «وافق مجلس الكنائس الإنجليزية بعد مناقشات حامية على التوصية التي كانت =



الشذوذ الجنسى

وقد أثار هذا المرض الهلع والفزع والرعب فى أوروبا وأمريكا وأصبح المريض بالإيدز منبوذ من جميع المحيطين به حتى أقرب الناس إليه، حتى أن بعض من يدفنون الموتى يرفضون دفنه! خشية انتقال المرض إليهم.

ويشبه «لارى كرامر» حالة الذعر هذه السائدة الآن بين الشواذ فى أمريكا بحالة سكان مدينة لندن أثناء القصف الألمانى فى الحرب العالمية الثانية فهم لا يعرفون أين تسقط القنبلة الثانية.

وحتى الآن لم يكتشف الأطباء دواءً لهذا المرض، ولم يُصب به أحد إلا كانت نهايته الموت.

يقول الدكتور هنرى ماسيور من المعهد الوطنى للصحة:

«إنه لا يعرف حالة واحدة من الحالات التى قام بدراستها قد نجت من الموت فى مدة أقصاها ثمانية عشر شهرًا فما أن يصابوا بالمرض بشدة إلا وأعتقد أنهم هالكون».

عوارض المرض:

يبدو أن المرض يتسلل إلى المصاب على مدى شهور أو سنوات ويظهر على شكل أورام فى الغدد الليمفاوية مع نقص فى الوزن وعرق فى الليل وبانخفاض فى الحرارة وفى ٤٠٪ من الحالات تتحول الأورام إلى أورام سرطانية

كما يتعرض «ضحايا الإيدز» إلى أخطار العدوى بأمراض فتاكة قلما يتعرض لها الإنسان الصحيح ومن أسوأ هذه الأمراض مرض يسببه طفيلى من نوع «الهربس» وهو يهاجم الجهاز المركزى.

اختلال التوازن بين الخلايا:

والخلل الذى يسببه«الإيدز»مرتبط بتناقص شديد فى أعداد الخلايا البيضاء وهى الخلايا المجهزة لمجابهة أنواع من الفيروس والفطريات وجسيمات من نوعT B والطفيليات؛ فيختل التوازن بين الخلايا التى تعمل على تنشيط الحصانة وتلك التى تعمل على تقليلها والنسبة الصحيحة بين الاثنين٢ : ١على التوالى ولكنها فى

= تقدمت بها إحدى اللجان الحكومية باعتبار الشذوذ الجنسى الذى يحدث بين البالغين وبرضاهم عملا مشروعاً لا يعاقب عليه القانون، وكان كبير أساقفة «كانتربرى» «جوفوى نيشر» هو الذى قاد الحملة لتأييد هذه التوصية التى تمت الموافقة عليها فى مجلس الكنائس بأغلبية ١٥٥ صوتاً ضد ١٣٨ صوتاً «وقال كبير الأساقفة :«إنه كان يشعر بالقلق لما يصيب الشخص المصاب بالشذوذ الجنسى من ظلم القانون فى حين يستطيع أى شخص آخر أن يدمر أسرة ويشردها دون أى عقاب». !!



ضحايا«الإيدز»تكون عكس ذلك.

ومرض آخر يستشرى فى الشواذ:

وعلى نمط مرض (الإيدز) وبالطريقة نفسها ينتشر الهيباتيتس ب وهو مرض فى الكبد يستشرى فى الشواذ ومدمني المخدرات وأحياناً المرضى الذين ينقل لهم دم وينتقل المرض عند الاتصال الجنسى أو عدوى من إبر المخدرات الملوثة.

عواقب أخرى تنتظر الشواذ

إذا كان هذا المرض الرهيب «إيدز» من حصاد تلك الثورة الجنسية، فإن أضرارا أخرى كثيرة وخطيرة تنتظر أهل الشذوذ عن الفطرة والانحراف عن الطريقة المشروعة للممارسة الجنسية السليمة.

وقدجمعها **الدكتور محمد وصفى** فى كتابه **«الإسلام والطب»** ننقلها لكم هنا بشيء من التصرف.

أولاً: التأثير على الجهاز العصبى:

فاللواط يسبب اختلالاً فى الجهاز العصبى وارتباكاً فى التفكير وركوداً فى التصرفات وبلاهة فى العقل وضعفاً فى الإرادة ويرجع ذلك كله إلى قلة الإفرازات التى تفرزها الغدة الدرقية وغيرها.

كما أن اللواط علة شاذة وطريقة غير كافية لإشباع العاطفة الجنسية؛ وذلك لأنها بعيدة الأصل عن الملامسة الطبيعية ولا تقوم بإرضاء المجموع العصبى.

ثانيا: الرغبة عن المرأة:

من الأمور الفطرية ميل الرجل إلى المرأة ولكن من شأن اعتياد الممارسة الجنسية بطريقة اللواط أن تصرف الرجل عن المرأة،وقد يبلغ به الأمر إلى الحد الذى يعجز فيها عن مباشرتها وبذلك تتعطل أهم وظيفة من وظائف الزواج وهى التناسل،ولو قدر لمثل هذا الرجل أن يتزوج فإن زوجته تكون ضحية معذبة معلقة لا هى متزوجة ولا هى مطلقة

ثالثاً: تأثيرات موضعية:

فاللواط من ناحية أخرى يتسبب فى تمزيق المستقيم وهتك أنسجته وارتخاء عضلاته وسقوط بعض أجزائه، وقد يصل الأمر إلى فقدان السيطرة على عملية التبرز فتخرج الفضلات بغير إرادة أو شعور.

رابعاً: اللواط والصحة العامة:

يصاب مقترف اللواط بضيق فى الصدر وخفقان فى القلب وضعف عام يجعله عرضة للإصابة بعديد من الأمراض، كما أن اللواط يضعف مراكز الإنزال الرئيسية فى الجسم ويقضى على الحيوية المنوية ويؤثر فى تركيب المنى مما يؤدى إلى عدم القدرة على الانجاب.

خامسا: التيفود وغيره من الأمراض المعدية:

يتسبب اللواط فى كثير من الأحيان فى الإصابة بمرض التيفود وغيره من الأمراض المعدية وذلك عن طريق التلوث بالمواد البرازية التى تحتوى على أنواع كثيرة من الميكروبات.

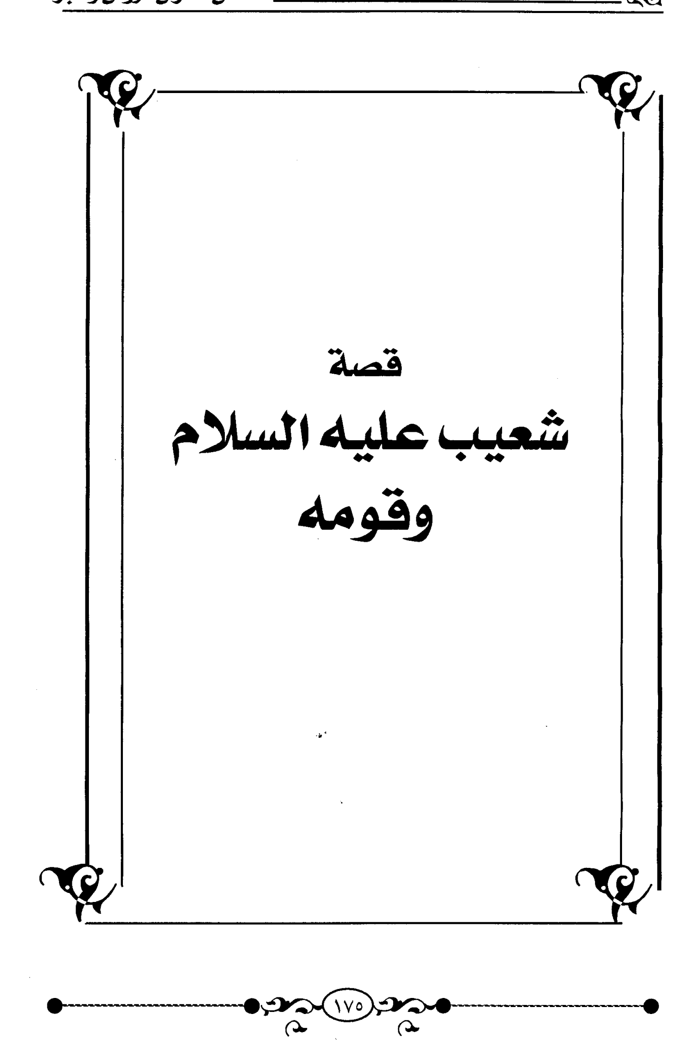
سادساً: أمراض الزنا:

إن الأمراض التى تنتشر عن طريق الزنا مثل الزهرى والسيلان تنتشر كذلك عن طريق اللواط.

وأخيراً: فإن اللواط لوثة أخلاقية ومرض نفسى خطير فنجد جميع من يتصفون به سيئ الخلق لا يُميزون بين الفضائل والرذائل ليس لهم وجدان يؤنبهم ولا ضمير يردعهم لذلك لا يتحرج أحدهم من السطو على الأطفال واستعمال العنف لإشباع عاطفته الفاسدة.

ولذا حرص التشريع الإسلامى على التنكيل بمقترفيه وأمر بالقضاء عليهم وتخليص العالم من شرورهم.

●●●●●



قصة
شعيب عليه السلام وقومه

قصة شعيب عليه السلام وقومه

اختلف العلماء فى نسب شعيب عليه السلام.

فقيل هو: شعيب بن ميكيل بن يشجر بن لاوى بن يعقوب.

ويقال: شعيب بن نويب بن عيفا بن مدين إبراهيم ويقال: شعيب بن صيفون بن عيفان بن ثابت بن مدين بن إبراهيم.

وشعيب عليه السلام أرسله الله إلى أهل مدين وهم أصحاب الأيكة، والأيكة شجرة كانوا يعبدونها من دون الله تعالى، وكانوا أيضاً يبخسون الناس في المكاييل والموازين، وكان الله قد وسَّع عليهم فى الرزق وبسط لهم فى العيش استدراجاً لهم منه مع كفرهم بالله تعالى.

و«كان أهل مدين قوماً عرباً يسكنون مدينتهم «مدين» التى هى قريبة من أرض معان من أطراف الشام، مما يلى ناحية الحجاز قريباً من بحيرة قوم لوط، وكانوا بعدهم بمدة قريبة. ومدين قبيلة عرفت بهم، وهم من بنى مدين بن مديان بن إبراهيم الخليل[2].

وقد ذكر الله قصة نبيه شعيب مع قومه فى غير ما آية من كتابه الكريم.

فقال تعالى فى سورة الأعراف بعد قصة قوم لوط. ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ

---

(١) قال الحافظ فى «الفتح» (٦/ ٥١٧) كذا قال ابن إسحاق ولا يثبت.

(٢) «البداية والنهاية» (١/ ٢١٣).

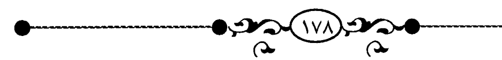


شعيبا إنكم إذا لخاسرون ﴿٩٠﴾ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴿٩١﴾ الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين ﴿٩٢﴾ فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين ﴾ [الأعراف: ٨٥ ـ ٩٣]

وقال فى سورة هود بعد قصة قوم لوط أيضا: ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ﴿٨٤﴾ ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴿٨٥﴾ بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ ﴿٨٦﴾ قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد ﴿٨٧﴾ قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقا حسنا وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴿٨٨﴾ ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد ﴿٨٩﴾ واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود ﴿٩٠﴾ قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز ﴿٩١﴾ قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا إن ربي بما تعملون محيط ﴿٩٢﴾ ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إني معكم رقيب ﴿٩٣﴾ ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴿٩٤﴾ كأن لم يغنوا فيها ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود﴾ [هود: ٨٤ ـ ٩٥]

وقال فى الحجر بعد قصة قوم لوط أيضاً: ﴿وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين ﴿٧٨﴾ فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين﴾ [الحجر: ٧٨ ـ ٧٩].

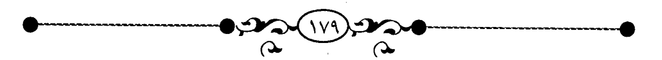
وقال تعالى فى الشعراء بعد قصتهم: ﴿كذب أصحاب الأيكة المرسلين ﴿١٧٦﴾ إذ قال لهم شعيب ألا تتقون ﴿١٧٧﴾ إني لكم رسول أمين ﴿١٧٨﴾ فاتقوا الله وأطيعون ﴿١٧٩﴾ وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين ﴿١٨٠﴾ أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين ﴿١٨١﴾ وزنوا بالقسطاس المستقيم ﴿١٨٢﴾ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴿١٨٣﴾ واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين ﴿١٨٤﴾ قالوا إنما أنت من المسحرين ﴿١٨٥﴾ وما أنت



إلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٧٦ ـ ١٩١].

ولما أرسل شعيب عليه السلام إلى قومه دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطى هذه الأفاعيل القبيحة من بخس الناس أشياءهم وإخافتهم لهم فى سُبُلِهم وطرقاتهم، فآمن به بعضهم وكفر أكثرهم، حتى أحل الله بهم البأس الشديد، وهو الولى الحميد.

كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥]، أى دلالة وحجة واضحة. وبرهان قاطع على صدق ما جئتكم به وإنه أرسلنى، وهو كا أجرى الله على يديه من المعجزات التى لم ينقل إلينا تفصيلها، وإن كان هذا اللفظ قد دخل عليها إجمالاً.


﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ [الأعراف: ٨٥] أمرهم بالعدل ونهاهم عن الظلم، وتوعدهم على خلاف ذلك فقال: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨٥) وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ [الأعراف: ٨٥ ـ ٨٦] أى طريق ﴿توعدون﴾، أى تتوعدون الناس بأخذ أموالهم من مكوس وغير ذلك وتخيفون السبل.

قال السدى فى تفسيره عن الصحابة: ﴿وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ أنهم كانوا يأخذون العشور من أموال المارة.

﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٨٦] نهاهم عن قطع الطريق الحسية الدنيوية، والمعنوية الدينية.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٦] ذكرهم بنعمة الله تعالى عليهم فى تكثيرهم بعد القلة، وحذرهم نقمة الله بهم إن خالفوا ما أرشدهم إليه ودلهم عليه. كما قال لهم فى القصة الأخرى: ﴿وَلا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤]، أى لا تركبوا ما أنتم عليه وتستمروا فيه فيمحق الله بركة مافى أيديكم، ويفقركم ويذهب مابه يغنيكم.

وهذا مضاف إلى عذاب الآخرة، ومن جمع له هذا وهذا، فقد باء بالصفقة الخاسرة.

فنهاهم أولاً عن تعاطى ما لا يليق من التطفيف، وحذرهم سلب نعمة الله عليهم فى دنياهم، وعذابه الأليم فى أخراهم، وعنفهم أشد تعنيف.

ثم قال لهم آمرا بعدما كان عن ضده زاجراً: **﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾** [هود: ٨٥، ٨٦]. قال ابن عباس والحسن البصرى: **﴿أى بقية الله خير لكم﴾**، أى رزق الله خير لكم من أخذ أموال الناس. وقال ابن جرير: ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال الناس بالتطفيف. قال: وقد روى هذا عن ابن عباس.

وهذا الذى قاله وحكاه الحسن، وهو شبيه بقوله تعالى: **﴿قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾** [المائدة: ١٠٠]، يعنى أن القليل من الحلال خير لكم من الكثير من الحرام، فإن الحلال مبارك وإن قل، والحرام ممحوق وإن كثر، كما قال تعالى: **﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾** [البقرة: ٢٧٦]

وقال رسول الله ﷺ: **«إن الربا وإن كثر فإن مصيره إلى قل»** [(١)]، أى إلى قلة

وقال رسول الله ﷺ: **«البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما»** [(٢)].

والمقصود أن الربح الحلال مبارك فيه وإن قل، والحرام لا يجدى وإن كثر؛ ولهذا قال نبى الله شعيب: **﴿بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾**.

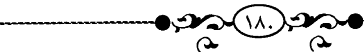
وقوله: **﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾** [هود:٨٦]، أى افعلوا ما آمركم به ابتغاء وجه الله ورجاء ثوابه، لا لأراكم أنا وغيرى.

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] يقولون هذا على سبيل الاستهزاء والتنقص والتهكم: أصلاتك هذه التى تصليها، هى الآمرة لك بأن تحجر علينا فلا نعبد إلا إلهك؟ ونترك ما يعبد آباؤنا الأقدمون وأسلافنا الأولون؟ أو أن لا نتعامل إلا على الوجه الذى ترتضيه أنت، ونترك المعاملات التى تأباها وإن كنا نحن نرضاها؟

﴿إنك لأنت الحليم الرشيد﴾ قال ابن عباس وميمون بن مهران وابن جريج وزيد بن

(١) **صحيح**.رواه أحمد (١/ ٣٩٥) وابن ماجة (٢٢٧٩) كتاب التجارات، باب: التغليظ فى الربا.

(٢) رواه البخارى (٢٠٧٩) كتاب البيوع باب: إذا بين البيعان ولم يكتما ونصحا. ومسلم (٣٧٨٤) كتاب البيوع، باب: الصدقة في البيع والبيان من حديث حكيم بن حزام رضى الله عنه.



أسلم وابن جرير: يقولون ذلك أعداء الله على سبيل الاستهزاء.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨] هذا تلطف معهم فى العبارة، ودعوة لهم إلى الحق بأبين إشارة. يقول لهم: أرأيتم أيها المكذبون ﴿إن كنت على بينة من ربى﴾، أى على أمر بين من الله تعالى أنه أرسلنى إليكم، ﴿ورزقنى منه رزقاً حسناً﴾ يعنى النبوة والرسالة، يعني وعمى عليكم معرفتها، فأى حيلة لى فيكم؟.

وقوله: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾، أى ليست آمركم بالأمر إلا وأنا أول فاعل له، وإذا نهيتكم عن الشيء فأنا أول من يتركه.

وهذه هى الصفة المحمودة العظيمة، وضدها هى المردودة الذميمة، كما تلبس بها علماء بنى إسرائيل فى آخر زمانهم، وخطباؤهم الجاهلون. قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

وفى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**يؤتى بالرجل فيلقى فى النار فتندلق أقتاب بطنه - أى تخرج أمعاؤه من بطنه - فيدور بها كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار فيقولون: يا فلان... مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه**»[1].

وهذه صفة مخالفى الأنبياء من الفجار والأشقياء، فأما السادة من النجباء، والألباء من العلماء، الذين يخشون ربهم بالغيب، فحالهم كما قال نبى الله شعيب: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود:٨٨]، أى ما أريد فى جميع أمرى إلا الإصلاح فى الفعال والمقال بجهدى وطاقتى.

﴿وَمَا تَوْفِيقِي﴾ أى فى جميع أحوالى ﴿إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾ أى عليه أتوكل فى سائر الأمور، وإليه مرجعى ومصيرى فى كل أمرى. وهذا مقام ترغيب.

ثم انتقل إلى نوع من الترهيب فقال: ﴿وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩].

أى لا يحملنكم مخالفتى وبغضكم ما جئتكم به على الاستمرار على ضلالكم

---

(١) رواه البخارى (٣٢٦٧) كتاب بدء الخلق، باب: صفة النار وأنها مخلوقة. ومسلم (٧٣٣٩) كتاب الزهد والرقائق، باب: عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر ويفعله. من حديث أسامة بن زيد رضى الله عنه.

وجهلكم ومخالفتكم، فيحل الله بكم من العذاب والنكال، نظير ما أحله بنظرائكم وأشباهكم، من قوم نوح وقوم هود وقوم صالح من المكذبين المخالفين.

وقوله: ﴿**وما قوم لوط منكم ببعيد**﴾ قيل معناه: فى الزمان، أى ما بالعهد من قدم، مما قد بلغكم ما أحل بهم على كفرهم وعتوهم. وقيل معناه: وما هم منكم ببعيد فى المحلة والمكان. وقيل فى الصفات والأفعال المستقبحات، من قطع الطريق، وأخذ أموال الناس جهرة وخفية بأنواع الحيل والشبهات.

والجمع بين هذه الأقوال ممكن: فإنهم لم يكونوا بعيدين منهم لا زماناً ولا مكاناً ولا صفات.

ثم مزج الترهيب بالترغيب فقال: ﴿**وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ**﴾ [هود: ٩٠]، أى أقلعوا عما أنتم فيه، وتوبوا إلى ربكم الرحيم الودود، فإنه من تاب إليه تاب عليه، فإنه رحيم بعباده، أرحم بهم من الوالدة بولدها، ﴿**وَدُودٌ**﴾ وهو الحبيب ولو بعد التوبة على عبده، ولو من الموبقات العظام.

﴿ **قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا**﴾ [هود: ٩١]

روى عن ابن عباس وسعيد بن جبير والثورى أنهم قالوا: كان ضرير البصر.

وقولهم: ﴿**وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ**﴾ [هود: ٩١] هذا من كفرهم البليغ، وعنادهم الشنيع، حيث قالوا: ﴿**مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ** ﴾ [هود: ٩١]

أى ما نفهمه ولا نعقله، لأنا لا نحبه ولا نريده، وليس لنا همة إليه، ولا إقبال عليه.

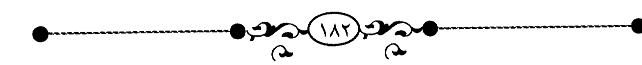
وهو كما قال كفار قريش لرسول الله ﷺ: ﴿**وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ**﴾ [فصلت: ٥]

وقولهم: ﴿**وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا**﴾ [هود: ٩١] أى مضطهداً مهجوراً.

﴿**وَلَوْلا رَهْطُكَ**﴾ أي قبيلتك وعشيرتك فينا ﴿**لرجمناك، وما أنت علينا بعزيز**﴾.

﴿**قال يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله**﴾ [هود: ٩٢] أى تخافون قبيلتى وعشيرتى وتراعونى بسببهم، ولا تخافون عذاب الله؟ ولا تراعونى لأنى رسول الله؟ فصار رهطى أعز عليكم من الله ﴿**وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ** ﴾ [هود: ٩٢]، أى جانب الله وراء ظهوركم ﴿**إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ**﴾ [هود: ٩٢]، أى هو عليم بما تعملونه وما تصنعونه، محيط بذلك كله، وسيجزيكم عليه يوم ترجعون إليه.

﴿ **وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ**﴾[هود: ٩٣]هذا أمر تهديد شديد ووعيد أكيد، بأن يستمروا



على طريقتهم ومنهجهم وشاكلتهم فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار ومن يحل عليه الهلاك والبوار ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ [هود:٣٩]، أى فى هذه الحياة الدنيا ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٩]، أى فى الأخرى ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ [هود:٩٣]، أى منى ومنكم فيما أخبر وبشر وحذر.

﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: ٩٣] هذا كقوله: ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف:٨٧].

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف:٨٨ ـ ٨٩].

طلبوا بزعمهم أن يردوا من آمن منهم إلى ملتهم، فانتصب شعيب للمحاجة عن قومه فقال: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾، أى هؤلاء لايعودون إليكم اختياراً، وإنما يعودون إليكم إن عادوا، اضطراراً مكرهين؛ وذلك لأن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أحد، ولا يرتد أحد عنه، ولا محيد لأحد منه.

ولهذا قال: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الأعراف:٨٨] أى فهو كافينا، وهو العاصم لنا وإليه ملجأنا فى جميع أمرنا.

ثم استفتح على قومه، واستنصر به عليهم فى تعجيل ما يستحقونه إليهم فقال: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف:٨٩] أى الحاكمين فدعا عليهم، والله لا يرد دعاء رسله إذا استنصروه على الذين جحدوه وكفروه، ورسوله وخالفوه.

ومع هذا صموا على ما هم عليه مشتملون، وبه متلبسون: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٠].

قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف:٩١]

ذكر فى سورة الأعراف أنهم أخذتهم رجفة، أى رجفت بهم أرضهم، وزلزلت زلزالاً شديداً أزهقت أرواحهم من أجسادهم، وصيرت حيوان أرضهم كجمادهم وأصبحت جثثهم جاثية، لا أرواح فيها ولا حركات بها، ولا حواس لها هامدين موتى لا حراك بهم.



وقد جمع الله عليهم أنواعاً من العقوبات، وصنوفاً من المثلات، وأشكالاً من البليات، وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات، سلط الله عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات، وصيحة عظيمة أخمدت الأصوات، وظلة أرسل عليهم منها شرر النار من سائر أرجائها والجهات.

ولكنه تعالى أخبر عنهم فى كل سورة بما يناسب سياقها ويوافق طباقها، فى سياق قصة الأعراف ارجفوا نبى الله وأصحابه، وتوعدهم بالإخراج من قريتهم، أو ليعودون فى ملتهم راجعين. فقال تعالى: ﴿**فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ**﴾ [الأعراف: ٩١] فقابل الإرجاف بالرجفة، والإخافة بالخيفة، وهذا مناسب لهذا السياق ومتعلق بما تقدمه من السياق.

وأما فى سورة هود: فذكر أنهم أخذتهم الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين وذلك لأنهم قالوا لنبى الله على سبيل التهكم والاستهزاء والتنقص: ﴿**أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ**﴾ [هود: ٨٧]، فناسب أن يذكر الصيحة التى هى الزجر عن تعاطى هذا الكلام القبيح، الذى واجهوا به هذا الرسول الكريم الأمين الفصيح، فجاءتهم صيحة أسكتتهم مع رجفة أسكنتهم.

وأما فى سورة الشعراء: فذكر أنه أخذهم عذاب يوم الظلة، وكان ذلك إجابة لما طلبوا، وتقريباً إلى ما إليه رغبوا، فإنهم قالوا: ﴿**إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ . وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ . فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ . فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾ [الشعراء: ١٨٥ ـ ١٨٨]. قال الله تعالى وهو السميع العليم: ﴿**فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾ [الشعراء: ١٨٩]. ومن زعم من المفسرين كقتادة وغيره: أن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير أهل مدين فقوله ضعيف.

وإنما عمدتهم شيئان: أحدهما أنه قال: ﴿**كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ**﴾ [الشعراء: ١٧٦ ـ ١٧٧] ولم يقل أخوهم كما قال: ﴿**وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا**﴾ [الأعراف: ٨٥، هود: ٨٤، العنكبوت: ٣٦].

والثانى: أنه ذكر عذابهم بيوم الظلة، وذكر فى أولئك الرجفة أو الصيحة.

والجواب عن الأول: أنه لم يذكر الأخوة بعد قوله: ﴿**كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ**﴾ لأنه وصفهم بعبادة الأيكة، فلا يناسب ذكر الأخوة ها هنا. ولما نسبهم إلى القبيلة ساغ ذكر شعيب بأنه أخوهم. وهذا الفرق من النفائس اللطيفة العزيزة الشريفة.

وأما احتجاجهم بيوم الظلة، فإن كان دليلاً بمجرده على أن هؤلاء أمة أخرى،



فليكن تعداد الانتقام بالرجفة والصيحة دليلاً على أنهما أمتان أخريان، وهذا لا يقوله أحد يفهم شيئاً من هذا الشأن.

فأما الحديث الذى أورده الحافظ ابن عساكر فى ترجمة النبى شعيب عليه السلام، من طريق محمد بن عثمان بن أبى شيبة، عن أبيه، عن معاوية بن هشام، عن هشام بن سعد، عن شفيق بن أبى هلال، عن ربيعة بن سيف، عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «إن قوم مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيباً النبى عليه السلام». فإنه حديث غريب. وفى رجاله من تكلم فيه. والأشبه أنه من كلام عبد الله بن عمرو، مما أصابه يوم اليرموك من تلك الزاملتين من أخبار بنى إسرائيل.. والله أعلم.

ثم قد ذكر الله عن أهل الأيكة من المذمة ما ذكره عن أهل مدين من التطفيف فى المكيال والميزان، فدل على أنهم أمة واحدة، أهلكوا بأنواع من العذاب. وذكر فى كل موضع ما يناسب من الخطاب.

وقوله: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩] ذكروا أنهم أصابهم حر شديد، وأسكن الله هبوب الهواء عنهم سبعة أيام، فكان لا ينفعهم مع ذلك ماء ولا ظل ولا دخولهم فى الأسراب، فهربوا من محلتهم إلى البرية، فأظلتهم سحابة، فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها. فلما تكاملوا فيه أرسلها الله ترميهم بشرر وشهب، ورجفت بهم الأرض، وجاءتهم صيحة من السماء، فأزهقت الأرواح، وخربت الأشباح. ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩١ -٩٢] ونجى الله شعيباً ومن معه من المؤمنين، كما قال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾[هود: ٩٤، ٩٥] وقال تعالى ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٠ - ٩٢] وهذا فى مقابلة قولهم: ﴿ولئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون﴾ .

ثم ذكر تعالى عن نبيهم: أنه نعاهم إلى أنفسهم موبخاً ومؤنباً ومقرعاً، فقال تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ



كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣].

أى أعرض عنهم موليا عن محلتهم بعد هلكتهم قائلاً: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾، أى قد أديت ما كان واجباً على من البلاغ التام والنصح الكامل، وحرصت على هدايتكم بكل ما أقدر عليه وأتوصل إليه، فلم ينفعكم ذلك؛ لأن الله لا يهدى من يضل وما لهم من ناصرين فلست أتأسف بعد هذا عليكم، لأنكم لم تكونوا تقبلون النصيحة، ولا تخافون يوم الفضيحة.

ولهذا قال: ﴿فكيف آسى﴾ أى أحزن ﴿على قوم كافرين﴾، أى لا يقبلون الحق ولا يرجعون إليه ولا يلتفتون إليه فحل بهم من بأس الله الذى لا يرد ما لا يدفع ولا يمانع، ولا محيد لأحد أريد به عنه، ولا مناص عنه [1].

•••••

(١) «البداية والنهاية» (١/ ٢١٤ ـ ٢٢٠) باختصار يسير.

قصة

يوسف عليه السلام



قصة يوسف عليه السلام

روى البخاري عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام» (١).

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ: من أكرم الناس؟ قال: أتقاهم لله، قالوا ليس عن هذا نسألك قال: فأكرم الناس يوسف بنى الله ابن نبى الله بن خليل الله. قالوا: ليس عن هذا نسألك قال: فعن معادن العرب تسألوننى؟ الناس معادن خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا» (٢).

وقد أنزل الله عز وجل فى شأن يوسف عليه السلام وما كان من أمره سورة كاملة من القرآن العظيم ليتدبر ما فيها من الحكم والمواعظ والآداب والأمر الحكيم.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم: **﴿الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ . إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ . قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ . وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾** [يوسف: ١ ـ ٦].

أولاد يعقوب عليه السلام

كان ليعقوب عليه السلام من البنين اثنا عشر ولداً ذكراً وهم: يوسف وروبيل وهو أكبرهم، وشمعون، ولاوى، ويهوذا، ودانى، ونفتالى، وكاد، وأشير، وأيساجر، ورايلون، وبنيامين.

وكان أشرفهم وأجلهم وأعظمهم يوسف عليه السلام.

وأخوة يوسف عليهم السلام هم الأسباط، وقد اختلف فى نبوتهم فقيل: كانوا أنبياء. وذهبت طائفة من أهل العلم إلى: أنه لم يكن فيهم نبى غير يوسف عليه السلام

---

(١) رواه البخارى (٣٣٩٠) كتاب أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: **«لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين»**.

(٢) رواه البخارى (٣٣٨٣) كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: **«لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين»**

وباقى إخوته لم يوح إليهم.

وظاهر ما ذكر من فعالهم ومقالهم فى هذه القصة يدل على هذا القول.

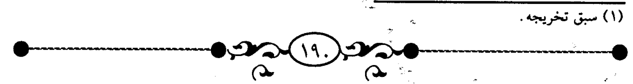
ومن استدل على نبوتهم بقوله: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ﴾ [آل عمران: ٨٤]، وزعم أن هؤلاء هم الأسباط فليس استدلاله بقوى، لأن المراد بالأسباط شعوب بنى إسرائيل وما كان يوجد فيهم من الأنبياء الذين ينزل عليهم الوحى من السماء.. والله أعلم.

ومما يؤيد أن يوسف عليه السلام هو المختص من بين إخوته بالرسالة والنبوة - أنه ما نص على واحد من إخوته سواه، فدل على ما ذكرناه.

قال المفسرون وغيرهم: رأى يوسف عليه السلام وهو صغير قبل أن يحتلم، كأن أحد عشر كوكباً، وهم إشارة إلى بقية إخوته، والشمس والقمر وهما عبارة عن أبويه، وقد سجدوا له، فهاله ذلك. فلما استيقظ قصها على أبيه، فعرف أبوه أنه سينال منزلة عالية ورفعة عظيمة فى الدنيا والآخرة، بحيث يخضع له أبوه وإخوته فيها. فأمره بكتمانها وأن لا يقصها على إخوته. كيلاً يحسدوه ويبغوا له الغوائل ويكيدوه بأنواع الحيل والمكر.

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾، أى وكما أراك هذه الرؤيا العظيمة، فإذا كتمتها ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أى يخصك بأنواع اللطف والرحمة ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾، أى يفهمك من معانى الكلام وتعبير المنام ما لا يفهمه غيرك.

﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾، أى بالوحى إليك ﴿وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾ أى بسببك، ويحصل لهم بك خير الدنيا والآخرة. ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ أى ينعم عليك ويحسن إليك بالنبوة، كما أعطاها أباك يعقوب، وجدك إسحاق، ووالد جدك إبراهيم الخليل، ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[يوسف:٥] كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].



لهذا قال رسول الله ﷺ لما سئل: أى الناس أكرم؟ قال: «يوسف نبى الله ابن نبى الله ابن خليل الله»[1].

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ⑦ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ⑧ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ⑨ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ

(١) سبق تخريجه.

﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [يوسف: ٧ ـ ١٠]

ينبه تعالى على ما فى هذه القصة من الآيات والحكم، والدلالات والمواعظ والبينات. ثم ذكر حسد إخوة يوسف له على محبة أبيه له ولأخيه ـ يعنون شقيقه لأمه بنيامين ـ أكثر منهم، وهم عصبة أى جماعة يقولون: فكنا نحن أحق بالمحبة من هذين ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾، أى بتقديمه حبهما علينا.

ثم اشتوروا فيما بينهم فى قتل يوسف أو إبعاده إلى أرض لا يرجع منها ليخلوا لهم وجه أبيهم: أى لتتمحض محبته لهم وتتوفر عليهم، وأضمروا التوبة بعد ذلك.

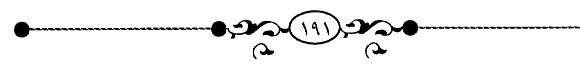
فلما تمالأوا على ذلك وتوافقوا عليه ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾ قال مجاهد: هو شمعون، وقال السدى: هو يهوذا، وقال قتادة ومحمد بن إسحاق: هو أكبرهم روبيل: ﴿لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾، أى المارة من المسافرين ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ما تقولون لا محالة، فليكن هذا الذى أقول لكم، فهو أقرب حالاً من قتله أو نفيه وتغريبه.

فأجمعوا رأيهم على هذا، فعند ذلك ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ۝ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ۝ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ [يوسف: ١١ ـ١٤] طلبوا من أبيهم أن يرسل معهم أخاهم يوسف، وأظهروا له أنهم يريدون أن يرعى معهم، وأن يلعب وينبسط، وقد أضمروا له ما الله به عليم.

فأجابهم الشيخ، عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم: يا بنى.. يشق على أن أفارقه ساعة من النهار، ومع هذا أخشى أن تشتغلوا فى لعبكم وما أنتم فيه، فيأتى الذئب فيأكله، ولا يقدر على دفعه عنه لصغره وغفلتكم عنه.

﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾، أى لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا، أو اشتغلنا عنه حتى وقع هذا ونحن جماعة، إنا إذاً لخاسرون، أى عاجزون هالكون.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ۝ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ۝ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ۝ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾



[يوسف ١٥ ـ ١٨]

لم يزالوا بأبيهم حتى بعثه معهم، فما كان إلا أن غابوا عن عينيه، فجعلوا يشتمونه ويهينونه بالفعال والمقال، وأجمعوا على إلقائه في غيابة الجب، أي في قعره على راعونته، وهي الصخرة التي تكون في وسطه يقف عليها «الماتح» وهو الذي ينزل ليملأ الدلاء إذا قل الماء.

فلما ألقوه فيه ﷺ أوحى الله إليه: أنه لابد لك من فرج ومخرج من هذه الشدة التي أنت فيها، ولتخبرن إخوتك بصنيعهم هذا في حال أنت فيها عزيز، وهم محتاجون إليك خائفون منك، ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾.

عن ابن ابن عباس: ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾، أي: لتخبرنهم بأمرهم هذا في حال لا يعرفونك فيها،

فلما وضعوه فيه ورجعوا عنه، أخذوا قميصه فلطخوه بشيء من دم، ورجعوا إلى أبيهم عشاء وهم يبكون، أي على أخيهم. ولهذا قال بعض السلف: لا يغرنك بكاء المتظلم فرب ظالم وهو باك، وذكر بكاء أخوة يوسف وقد جاءوا أباهم عشاء يبكون، أي في ظلمة الليل، ليكون أمشى لعذرهم لا لعذرهم.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا﴾، أي ثيابنا ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾، أي في غيبتنا عنه في استباقنا. وقولهم: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ أي ما أنت بمصدق لنا في الذي أخبرناك من أكل الذئب له، ولو كنا غير متهمين عندك. فكيف وأنت تتهمنا في هذا؟ فإنك خشيت أن يأكله الذئب، وضمنا لك أن لا يأكله لكثرتنا حوله، فصرنا غير مصدقين عندك، فمعذور أنت في عدم تصديقك لنا والحالة هذه.

﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾، أي مكذوب مفتعل، لأنهم عمدوا إلى سخلة[1] ذبحوها، فأخذوا من دمها فوضعوه على قميصه، ليوهموه أنه أكله الذئب. قالوا: ونسوا أن يخرقوه. وآفة الكذب النسيان ولما ظهرت عليهم علائم الريبة لم يرج صنيعهم على أبيهم، فإنه كان يفهم عداوتهم له، وحسدهم إياه على محبته له من بينهم أكثر منهم، لما كان يتوسم فيه من الجلالة والمهابة التي كانت عليه في صغره، لما يريد الله أن يخصه به من نبوته. ولما راودوه عن أخذه فبمجرد ما أخذوه أعدموه، وغيبوه عن عينيه وجاءوا وهم يتباكون، وعلى ما تمالأوا يتواطأون ولهذا ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

(١) السخلة: الذكر والأنثى من ولد الضأن والمعز ساعة يولد.



﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠) وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ١٩ ـ٢٢].

يخبر تعالى عن قصة يوسف حين وضع في الجب: أنه جلس ينتظر فرج الله ولطفه به، فجاءت سيارة، أى مسافرون. قاصدين ديار مصر من الشام، فأرسلوا بعضهم ليستقوا من ذلك البئر، فلما أدلى أحدهم دلوه تعلق فيه يوسف.

فلما رآه ذلك الرجل ﴿قَالَ يَا بُشْرَىٰ﴾ أى يا بشارتي ﴿هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾، أى أوهموا أنه معهم غلام من جملة متجرهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾، أى هو عالم بما تمالأ عليه إخوته، وبما يسره واجدوه من أنه بضاعة لهم. ومع هذا لا يغيره تعالى، لما له فى ذلك من الحكمة العظيمة والقدر السابق والرحمة بأهل مصر، بما يجرى الله على يدى هذا الغلام الذى يدخلها فى صورة أسير رقيق، ثم بعد هذا يملكه أزمة الأمور وينفعهم الله به فى دنياهم وأخراهم، بما لا يحد ولا يوصف.

ولما استشعر إخوة يوسف بأخذ السيارة له لحقوهم، وقالوا: هذا غلامنا أبق منا، فاشتروه منهم بثمن بخس [١] أى قليل نزر، وقيل: هو الزيف ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾.

قال ابن مسعود وابن عباس ونوف البكالى والسدى وقتادة وعطية العوفى: باعوه بعشرين درهماً، اقتسموها درهمين. وقال مجاهد: اثنان وعشرون درهماً. وقال عكرمة ومحمد بن إسحاق: أربعون درهماً. . والله أعلم.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾، أى أحسنى إليه ﴿عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾، وهذا من لطف الله به ورحمته وإحسانه إليه، بما يريد أن يوله له ويعطيه من خيرى الدنيا والآخرة.

قالوا: وكان الذى اشتراه من أهل مصر عزيزها وهو الوزير بها، الذى الخزائن مسلمة إليه. قال ابن إسحاق: واسمه قطفير بن روحيب قال: وكان ملك مصر يومئذ

(١) ذكر بعض المفسرين: أن الذين باعوا يوسف هم السيارة الذين وجدوه فى البئر وليس إخوته. وقال ابن كثير: قال ابن عباس ومجاهد والضحاك: إن الضمير فى قوله: «وشروه» عائد على إخوة يوسف وقال قتادة: بل هو عائد على السيارة والأول أقوى لأن قوله «وكانوا فيه من الزاهدين» إنما أراد إخوته لا أولئك السيارة، لأن السيارة استبشروا به وأسروه بضاعة ولو كانوا فيه من الزاهدين لما اشتروه فترجح من هذا أن الضمير فى وشروه» إنما هو لإخوته ا هـ «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٨٤).

الريان بن الوليد، رجل من العماليق. قال: واسم امرأة العزيز: «راعيل» بنت رمابيل. وقال غيره: كان اسمها «زليخا» والظاهر أنه لقبها وقال ابن مسعود قال: أفرس الناس ثلاثة: عزيز مصر حين قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾، والمرأة التى قالت لأبيها عن موسى: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر ابن الخطاب رضى الله عنهما.

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ﴾، أى وكما قيضنا هذا العزيز وامرأته يحسنان إليه ويعتنيان به مكنا له فى أرض مصر ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ أى فهمها، وتعبير الرؤيا من ذلك. ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾، أى إذا أراد شيئاً فإنه يقيض له أسباباً وأمورا لا يهتدى إليها العباد، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢] فدل على أن هذا كله كان وهو قبل بلوغ الأشد، وهو حد الأربعين الذى يوحى الله فيه إلى عباده النبيين، عليهم الصلاة والسلام من رب العالمين. ويشهد له قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: ١٥]

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف ٢٣ ـ ٢٩].

يذكر تعالى ما كان من مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام عن نفسه وطلبها منه مالا يليق بحاله ومقامه، وهى فى غاية الجمال والمال، والمنصب، والشباب.

وكيف غلقت الأبواب عليها وعليه، وتهيأت له وتصنعت، ولبست أحسن ثيابها وأفخر لباسها، وهى مع هذا كله امرأة الوزير.

وهذا كله مع أن يوسف عليه السلام شاب بديع الجمال والبهاء، إلا أنه نبى من سلالة الأنبياء، فعصمه ربه عن الفحشاء، وحماه عن مكر النساء، فهو سيد السادة النجباء، السبعة الأتقياء، المذكورين فى الصحيحين عن خاتم الأنبياء، فى قوله عليه الصلاة والسلام من رب الأرض والسماء: **«سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل معلق قلبه بالمساجد إذا خرج منه**



حتى يعود إليه، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، وشاب نشأ فى عبادة الله، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله» (١).

والمقصود أنهـا دعته إليها وحرصت على ذلك أشـد الحرص، فقال: ﴿**مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي**﴾ يعنى زوجها صاحب المنزل سيدى ﴿**أَحْسَنَ مَثْوَايَ**﴾، أى أحسن إلى وأكرم مقامى عنده ﴿**إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**﴾ قوله تـعالى: ﴿**وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ**﴾.

وأكثـر أقوال المفـسرين هاهنا متلقى مـن كتب أهل الكتاب فـالإعراض عنه أولى بنا(٢).

---

(١) رواه البخـارى (١٤٢٣) كتاب الزكـاة، باب: الصدقة باليـمين. ومسلم (٢٣٤٢) كتـاب: الزكاة، باب: فضل اخفاء الصدقة. عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) إن مسألتى هم يوسف عليه السلام والبرهان الذى رآه قد خاض فيهما بعض المفسرين بغير وأوردوا كلاماً لا يليق بنبى الله يوسف عليه السلام.

كقـولهم فى مسألة الهم: إن امرأة العـزيز استلقت ليوسف عليـه السلام وأنه جلس بين رجليهـا مجلس الرجل من امرأته وحل ثيابه وثيابها !!؟ إلى آخر ما قيل من هذا الكلام الذي لا يليق.

وذهب آخرون من أهل العلم: إلى تأويل هم يوسف عليه السـلام فقالوا: همت المرأة بيوسف، وهم هو بضربها، والقـول الثاني، قالوا: إن فى الكلام تقديم وتأخيـر والمعنى أن يوسف عليه السلام لولا أن رأى برهان ربه لكان قد همّ بها فـقد امتنع همه بها لرؤيته برهـان ربه فلم يقع منه هم أصلا. وهذا القول هو اختيار أبو حيان فى تفسيره.

ولكن هذين التأويلين فـيهما نظر. والصواب والله أعلم: أن يوسف علـيه السلام قد هم علي الحقـيقة، ولكن كان همه خاطراً قلبياً وصرفه عنه وازع التقوى. وهذا الهم لا يؤاخذ العبد عليه لقول النبى ﷺ : **«من هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة كاملة»**؛ وذلك لأنه ترك ما تميل إليه طبيعته البشرية خوفاً من الله وامتـثالاً لأمره . وقـد ورد سؤال للجنة الدائمـة للبحوث الـعلمية والافـتاء عن معنى هـم يوسف عليه السلام.

فأجـابت: الصحيح من أقـوال العلماء فى ذلك أن الهم الذى وجـد من يوسف عليه وعلي نبـينا أفضل الصلاة والسـلام هو الميل الجنسى الطبيعى الذى يوجـد مع أى إنسان عند وجود سـببه، وقد صـرفه الله سبحانه وتعالى عنه بقوله: ﴿**كذلك لنصرف عنه السود والفـحشاء إنه من عبادنا المخلصين**﴾ يوسف ٢٤، ولا يجوز صـرف الآية عن ظاهرها إلا بدليل وليس هنا دليل فـيما نـعلم يوجب صرفهـا عن ظاهرها، والهم بالسيئة لا يضر المسلم إذا لم يفعل بل يكتب له بذلك حسنة إذا ترك الفعل من أجل الله، كما صح بذلك الخبر عن رسول الله ﷺ .

وبالله التوفيق وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء.

عضو	عضو	نائب رئيس اللجنة	الرئيس
عبد الله بن قعود	عبد الله بن غديان	عبد الرزاق عفيفى	عبد العزيز بن عبد الله بن باز

وأما البرهان الذى رآه يوسف فقد ذُكرت فيه أقوال كثـيرة لم يثبت منها شىء يمكن التعويل عليه كقولهم: لما همت به تزينت ثم استقلت على فراشها، وهم بها وجلس بين رجليها يحل ثيابه، نودى من السماء يا ابن يعقوب، لا تكن كطائر ينتف ريشـه فيبقى لا ريش له» فلم يتعظ على النداء شـيئاً، حتى رأى برهان ربه جبريل عليه السلام فى صـورة يعقوب عاضًا على أصبعيه. ففزع فـخرجت شهوته من أنامله، فوثب إلى الباب فوجـده مغلقًا، فرفع يوسـف رجله فضرب بها الباب الأدنى فانفرج له ، وأتبعتـه فأدركته ، =

. . . .

= فوضعت يديها فى قميصه فشقته حتى بلغت عضلة ساقه، فألفيا سيدها لدى الباب.

وقولـهم: لما حل يوسف السراويل وجلس منـها مجلـس الرجل من امرأته صـيح به: يا يوسف لا تكن كالطير له ريش فإذا زنى قعـد ليس له ريش!! وقولهم: لما همّ يوسف بحل تكة السروال قامت المرأة إلى صنم مكلل بالدر واليواقيت فى ناحـية البيت فسترته بثوب أبيض بينهـا وبينه، فقال: أى شىء تصنعين؟ فقالت: استـحيى من إلهى أن يرانى على هذه الصورة. فقال يوسف عليه السـلام: تستحين من صُنم لا يأكل ولا يشرب، ولا أستحيى أنا من إلهى الذى هو قـائم على كل نفس بما كسبت! ثم قال: لا تنالينها منى أبداً.

وقولهم: لما حل يوسف سراويله وجـلس من المرأة مجلس الرجل من امرأته مُثّل له يعقـوب عليه السلام فضرب بيده على صدره فخرجت شهوته من أنامله!!

وفى قول: أنه رأى صورة أبيـه يعقوب فى وسط البيت عـاضاً على إبهامه، فأدبـر هارباً وقال: «وحقك يا أبت لا أعود أبداً».

وقالوا أيضـاً: لما حل السراويل وجلس منها مجلس الخـائن، رأى صورة فيهـا وجه يعقوب عـاضا على أصابعه، فدفع صدره فخرجت الشهوة من أنامله، فكل ولد يعقوب قد ولد له اثنا عشر ولداً إلا يوسف عليه السلام، فإنه نقص بتلك الشهوة ولداً فلم يولد له غير أحد عشر ولدا.

وقيل أيضا: تمثل له يعقوب عليه السلام فضرب فى صدر يوسف فطارت شهوته من أطراف أنامله، فولد لكل يعقوب اثنا عشر ذكراً، غير يوسف لم يولد له إلا غلامان.

وقيل أيضاً: إن يوسف رأى يعقـوب عاضاً على أصابعه يقول: يوسف يوسف وقـيل: إن يعقوب مثل له عاضا على اصبعـيه وهو يقول: يا يوسف أتهم بعمل السفهاء وأنت مكتـوب فى الأنبياء، فانتزع الله كل شهوة كانت فى مفاصله.

وقيل: مثل له يعقوب علـيه السلام عاضاً على أصبعيه يقـول: «يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم خليل الرحمن، اسمك مكتوب فى الأنبياء، وتعمل عمل السفهاء !».

وقيل: رأى صورة يعقوب عليه السلام في الجدار.

وقيل: إنه لما هم قـيل له: ارفع رأسك يا يوسف، فرفع رأسه فـإذا هو بصورة فى سقف البـيت تقول: يا يوسف! يا يوسف! أنت مكتوب فى الأنبياء؛ فعصمه اللهُ عزّ وجلّ.

وقيل: رأى آية من كتاب الله فنهته، مثلت له فى جدار الحائط.

وقيل: رأى يوسف عليه السلام ثلاث آيات من كتاب الله: **﴿وإن عليكم لحافظين. كرامـا كاتبين. يعلمون ما تفـعلون﴾**[الانفطار: ١٠ ـ ١٢] وقول الله تعـالى: **﴿ومـا تكون فى شأن ومـا تتلوا منه من قـرءان ولا تعملون من عـمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفـيضون فـيه﴾**[يونس: ٦١] وقول الله تعالى: **﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾**[الرعد: ٣٣].

وقيل: رأى فى البيت فى ناحـية الحائط مكتوبا **﴿ولاتقربوا الزنى إنه كـان فاحشـة وساء سبـيلا﴾**[الإسراء: ٣٢].

وقيل لما خلا يوسف وامرأة العزيز خرجت كف بلا جسد بينهما، مكتوب عليها بالعبرانية **﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾** [١٣/ ٣٣]، ثم انصرفت الكف، وقـاما مقامـهما، ثم رجـعت الكف مكتوبا عليها بالعبرانية: **﴿وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون﴾** [٨٢/ ١٠ . ١٢،] ثم انصرفت الكف، وقاما مـقامهما، فـعادت الكف الثالثة مكتـوبا عليها: **﴿ولا تقربوا الزنى إنه كـان فاحشـة وساء سـبـيلا﴾** [١٧/ ٣٢]، وانصـرفت الكف، وقـاما مـقـامـهمـا، فـعادت الـكف الرابعة مـكتوبا علـيهـا بالعبرانية: **﴿واتقوا يوما ترجعون فيـه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾** [البقرة: ٢٨١] [٢/ ٢٨١]، فولى يوسف عليه السلام هاربا.

وقيل: رأى تمثال الملك. =



والذى يجب أن يعتقد: أن الله تعالى عصمه وبرأه، ونزهه عن الفاحشة وحماه عنها وصانه منها، ولهذا قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾

﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ أى هرب منها طالبًا الباب ليخرج منه فرارًا منها فاتبعته فى أثره ﴿وَأَلْفَيَا﴾ أى وجدا ﴿سَيِّدَهَا﴾ أى زوجها ﴿لَدَا الْبَابِ﴾ فبدرته بالكلام وحرضته عليه ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ اتهمته وهى المتهمة، وبرأت عرضها ونزهت ساحتها. فلهذا قال يوسف عليه السلام: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾، احتاج إلى أن يقول الحق عند الحاجة.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قيل: كان صغيرًا فى المهد.

وقيل: كان رجلاً قريبًا إلى «قطفير» بعلها، وقيل: قريبًا إليها.

فقال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أى لأنه يكون قد راودها فدافعته حتى قدت مقدم قميصه. ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أى لأنه يكون قد هرب منها فاتبعته وتعلقت فيه فانشق قميصه لذلك، وكذلك كان. ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ أى هذا الذى جرى من مكركن، أنت راودتيه عن نفسه ثم اتهمتيه بالباطل.

ثم أضرب بعلها عن هذا صفحًا فقال: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ أى لا تذكره لأحد، لأن كتمان مثل هذه الأمور هو الأليق والأحسن وأمرها بالاستغفار لذنبها الذى صدر منها والتوبة إلى ربها، فإن العبد إذا تاب إلى الله تاب الله عليه.

= قال الشنقيطى رحمه الله! هذه الأقوال. منقسمة إلى قسمين:
قسم لم يثبت نقله عمن نقل عنه بسند صحيح، وهذا لا إشكال فى سقوطه.
وقسم ثبت ، ومن ثبت عنه منهم شيء من ذلك، فالظاهر الغالب على الظن، المزاحم لليقين: أنه إنما تلقاه عن الإسرائيليات؛ لأنه لا مجال للرأى فيه، ولم يرفع منه قليل ولا كثير إليه ﷺ.
وبهذا تعلم أنه لا ينبغى التجرؤ على القول فى نبى الله يوسف بأنه جلس بين رجلى كافرة أجنبية، يريد أن يزنى بها؛ اعتماداً على مثل هذه الروايات. مع أن فى الروايات المذكورة ما تلوح عليه لوائح الكذب؛ كقصة الكف التى خرجت له أربع مرات، وفى ثلاث منهن لا يبالى بها؛ لأن ذلك على فرض صحته فيه أكبر زاجر لعوام الفساق، فما ظنك بخيار الأنبياء! مع أنا قدمنا دلالة القرآن على براءته من جهات متعددة، وأوضحنا أن الحقيقة لا تتعدى أحد أمرين:
إما أن يكون لم يقع منه هم بها أصلاً، بناء على تعليق همه على عدم رؤية البرهان، وقد رأى البرهان.
وإما أن يكون همه الميل الطبيعى المزموم بالتقوى، والعلم عند الله تعالى ا هـ. «أضواء البيان» (٣/ ٢١٤ ـ٢١٥) ط دار الفكر ـ بيروت



وأهل مصر وإن كانوا يعبدون الأصنام، إلا أنهم يعلمون أن الذى يغفر الذنوب ويؤاخذ بها هو الله وحده لا شريك له فى ذلك. ولهذا قال لها بعلها، وعذرها من بعض الوجوه، لأنها رأت مالا صبر لها على مثله، إلا أنه عفيف نزيه برىء العرض سليم الناحية فقال: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٩]

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ يوسف ٣٠ ـ ٣٤].

يذكر تعالى ما كان من قبل نساء المدينة، من نساء الأمراء وبنات الكبراء فى الطعن على امرأة العزيز وعيبها، والتشنيع عليها فى مراودتها فتاها، وحبها الشديد له، وهو لا يساوى هذا، لأنه مولى من الموالى وليس مثله أهلا لهذا. ولهذا قلن: ﴿إنا لنراها فى ضلال مبين﴾ أى فى وضعها الشىء فى غير محله.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ أى بتشنيعهن عليها والتنقص لها، والإشارة إليها بالعيب والمذمة بحب مولاها وعشق فتاها، فاظهرن ذماً وهى معذورة فى نفس الأمر، فلهذا أحبت أن تبسط عذرها عندهن، وتبين أن هذا الفتى ليس كما حسبن، ولا من قبيل ما لديهن. فأرسلت إليهن فجمعتهن فى منزلها، وأعتدت لهن ضيافة مثلهن، وأحضرت فى جملة ذلك شيئاً مما يقطع بالسكاكين، كالأترج[1] ونحوه، وآتت كل واحدة منهن سكيناً، وكانت قد هيأت يوسف عليه السلام، وألبسته أحسن الثياب وهو فى غاية طراوة الشباب وأمرته بالخروج عليهن بهذه الحالة، فخرج وهو أحسن من البدر لا محالة . ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾، أي أعظمنه وأجللنه وهبنه، وما ظن أن يكون مثل هذا في بنى آدم، وبهرهن حسنه حتى اشتغلن عن أنفسهن، وجعلن يحززن فى أيديهن بتلك السكاكين ولا يشعرن بالجراح ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

وقد جاء فى حديث الإسراء: «فمررت بيوسف وإذا هو قد أعطى شطر الحسن» قال السهيلى وغيره من الأئمة: معناه أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام؛

(١) الأترج: شجر، ثمره كاليمون الكبار.

لأن الله تعالى خلق آدم بيده، ونفخ فيه روحه، فكان فى غاية نهايات الحسن البشرى. ولهذا يدخل أهل الجنة على طول آدم وحسنه، ويوسف كان على النصف من حسن آدم. ولم يكن بينهما أحسن منهما، كما أنه لم تكن أنثى بعد حواء أشبه بها من سارة امرأة الخليل عليه السلام.

ولهذا لما قام عذرن امرأة العزيز فى محبتها لهذا المعنى المذكور، وجرى لهن وعليهن ما جرى، من تقطيع أيديهن بجراح السكاكين، وما ركبهن من المهابة والدهش عند رؤيته ومعاينته.

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ ثم مدحته بالعفة التامة فقالت: **﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾**، أى امتنع **﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾** وكان بقية النساء حرضنه على السمع والطاعة لسيدته. فأبى أشد الإباء، ونأى لأنه من سلالة الأنبياء، ودعا فقال فى دعائه لرب العالمين: **﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾** يعنى إن وكلتنى إلى نفسى، فليس لى من نفسى إلا العجز والضعف، ولا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله فأنا ضعيف إلا ما قويتنى وعصمتنى وحفظتنى.

ولهذا قال تعالى: **﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ (٣٥) وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٤٠) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ**



﴿الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٣٤ ـ ٤١].

يذكر تعالى عن العزيز وامرأته أنهم بدا لهم، أى ظهر لهم من الرأى بعد ما علموا براءة يوسف أن يسجنوه إلى وقت، ليكون ذلك أقل لكلام الناس فى تلك القضية، وأحمد لأمرها، وليظهروا أنه راودها عن نفسها فسجن بسببها، فسجنوه ظلماً وعدواناً.

وكان هذا مما قدر الله له، ومن جملة ما عصمه به، فإنه أبعد له عن معاشرتهم ومخالطتهم.

قال الله: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ قيل: كان أحدهما ساقى الملك والآخر خبازه، يعنى الذى يلى طعامه، وكان الملك قد اتهمهما فى بعض الأمور فسجنهما. فلما رأيا يوسف فى السجن أعجبهما سمته وهديه، ودله وطريقته، وقوله وفعله، وكثرة عبادته ربه، وإحسانه إلى خلقه، فرأى كل واحد منهما رؤيا تناسبه.

قال أهل التفسير: رأيا فى ليلة واحدة. أما الساقى فرأى كأن ثلاث قضبان من حبلة[1] وقد أورقت وأينعت عناقيد العنب، فأخذها فاعتصرها فى كأس الملك وسقاه.



ورأى الخباز على رأسه ثلاث سلال من خبز، وضوارى الطيور تأكل من السل الأعلى فقصاها عليه وطلبا منه أن يعبرها لهما وقالا ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فأخبرهما أنه عليم بتعبيرهما خبير بأمرها: ﴿قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ قيل: معناه مهما رأيتما من حلم فإنى أعبره لكم قبل وقوعه فيكون كما أقول. وقيل: معناه أنى أخبركم بما يأتيكما من الطعام قبل مجيئه حلوا وحامضاً.

وقال لهما: إن هذا من تعليم الله إياى؛ لأنى مؤمن به موحد له متبع ملة آبائى الكرام: إبراهيم الخليل، وإسحاق ويعقوب. ﴿مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾ أى بأن هدانا لهذا، ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾ أى بأن أمرنا أن ندعوهم إليه ونرشدهم وندلهم عليه وهو فى فطرهم مركوز، وفى جبلتهم مغروز ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾. ثم دعاهم إلى التوحيد وذم عبادة ما سوى الله عزّ وجلّ، وصغَّر أمر الأوثان وحقَّرها، وضعَّف أمرها فقال: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾، أى المتصرف فى خلقه الفعال لما يريد، الذى يهدى من يشاء

(١) الحبلة: الكرم، أو القضيب من الكرم.

ويضل من يشاء ﴿أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ أى وحده لا شريك له و﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾، أى المستقيم والصراط القويم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ أى فهم لا يهتدون إليه مع وضوحه وظهوره، وكانت دعوته لهما فى هذه الحال فى غاية الكمال؛ لأن نفوسهما معظمة له، منبعثة على تلقى ما يقول بالقبول، فناسب أن يدعوهما إلى ما هو الأنفع لهما مما سألا عنه وطلبا منه.

ثم لما قام بما وجب عليه وأرشد إلى ما أرشد إليه قال: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ قالوا وهى الساقى ﴿وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ﴾ قالوا وهو الخباز ﴿قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾، أى وقع هذا لا محالة، ووجب كونه على كل حالة. ولهذا جاء فى الحديث: «**الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر، فإذا عبرت وقعت**»[1].

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢].

يخبر تعالى أن يوسف قال للذى ظنه ناجياً منهما وهو الساقى: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، يعنى اذكر أمرى وما أنا فيه من السجن بغير جرم عند الملك. وفي هذا دليل علي جواز السعى فى الأسباب، ولا ينافى ذلك التوكل على رب الأرباب.

وقوله: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ أى فأنسى الناجى منهما الشيطان أن يذكر ما وصاه به يوسف عليه السلام.

﴿فَلَبِثَ﴾ يوسف ﴿فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾. والبضع: ما بين الثلاث إلى التسع.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ (٤٤) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً

---

(١) صحيح. رواه أحمد (٤/ ١٠، ١٣) وأبو داود (٥٠٢٠) والترمذى (٢٢٧٨) وابن ماجة (٣٩١٤) وابن أبى شيبة (١٢/ ١٨٩/ ١) والطيالسى (١٠٨٨) والحاكم (٤/ ٣٩٠) وصححه ووافقه الذهبى. وهو من حديث أبى رزين العقيلى رضى الله عنه.

مِمَّا تُحْصِنُونَ (48) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾[يوسف: ٤٣ ـ ٤٩]

هذا كـان من جملة أسـبـاب خروج يوسف عليـه السـلام من السجن على وجـه الاحترام والإكرام؛ وذلك أن ملك مصر، وهو الريان بن الوليد رأى هذه الرؤيا.

فلما قصـها على ملئه وقومـه لم يكن فيهم من يحسن تعـبيرها، بل ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ﴾، فعند ذلك تذكر الـناجي منهما، الذى وصاه يوسف بأن يذكره عـند ربه فنسيه إلى حـينه هذا، وذلك عن تقـدير الله عز وجل ولـه الحكمة فى ذلك. فـلما سـمع رؤيا الملك، ورأى عـجز الناس عـن تعبـيرهـا، تذكر أمـر يوسف، ومـا كان أوصـاه به من التذكار.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ﴾ أى تذكر ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾، أى بعد مدة من الزمان، وهو بضع سنين: فقال لقومه وللملك: ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾، أى فأرسلونى إلى يوسف فجاءه فقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. فبذل يوسف عليه السـلام ما عنده من العلم بلا تأخر ولا شرط، ولا طلب الخـروج سريعاً، بل أجابهم إلى ما سألوه، وعبر لهم ما كان من منام الملك، الدال على وقوع سبع سنين من الخصب ويعقبها سبع جدب ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ يعنى يأتيهم الغيث والخصـب والرفاهية ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ يعنى ما كـانوا يعصرونه من الأقـصاب والأعناب والزيتون والسمسم وغيرها.

فعـبر لهم وعلى الخـير دلهم، وأرشـدهم إلى ما يعتـمدونه فى حـالتى خصـبهم وجدبهم، وما يفـعلونه من ادخار حبوب سنى الخـصب فى السبع الأول فى سنبله، إلا ما يرصد بسبب الأكل، ومن تقليل البذر فى سنى الجـدب فى السبع الثانية، إذ الغالب على الظن أنه لا يـرد البـذر من الحـقل، وهذا يدل على كـمـال العلم وكـمـال الرأى والفهم.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (50) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (51) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (52) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠ ـ ٥٣].

لما أحاط الملك علماً بكمال علم يوسف عليه الصلاة والسلام، وتمام عقله، ورأيه السديد وفهمه، أمر بإحضاره إلى حضرته، ليكون من جملة خاصته. فلما جاءه الرسول بذلك، أحب أن لا يخرج حتى يتبين لكل أحد أنه حبس ظلماً وعدواناً، وأنه برىء الساحة مما نسبوه إليه بهتاناً. ﴿قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ يعنى الملك ﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ قيل معناه: إن سيدى العزيز يعلم براءتى مما نسب إلى، أى فمر الملك فليسألهن: كيف كان امتناعى الشديد عند مراودتهن إياى؟ وحثهن لى على الأمر الذى ليس برشيد ولا سديد؟

فلما سئلن عن ذلك اعترفن بما وقع من الأمر، وما كان منه من الأمر الحميد ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾. فعند ذلك ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ﴾ وهى زليخا ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾، أى ظهر وتبين ووضح، والحق أحق أن يتبع ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾، أى فيما يقوله ومن أنه برىء وأنه لم يراودنى، وأنه حبس ظلماً وعدواناً، وزوراً وبهتانا.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ قيل: إنه من كلام يوسف، أى إنما طلبت تحقيق هذا ليعلم العزيز أنى لم أخنه بظهر الغيب.

وقيل: إنه من تمام كلام زليخا، أى إنما اعترفت بهذا ليعلم زوجى أنى لم أخنه فى نفس الأمر، وإنما كان مراودة لم يقع معها فعل فاحشة.

وهذا القول هو الذى نصره طائفة كثيرة من أئمة المتأخرين وغيرهم. ولم يحك ابن جرير وابن أبى حاتم سوى الأول.

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، قيل: إنه من كلام يوسف، وقيل من كلام زليخا وهو مفرع على القولين الأولين وكونه من تمام كلام زليخا أظهر وأنسب وأقوى.. والله أعلم.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٤ ـ ٥٧]. لما ظهر للملك براءة عرضه، ونزاهة ساحته عما كانوا أظهروا عنه مما نسبوه إليه قال: ﴿ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ أى أجعله من

خاصتى، ومن أكابر دولتى، ومن أعيان حاشيتى، فلما كلمه وسمع مقاله وتبين حاله ﴿قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أى ذو مكانة وأمانة. ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ طلب أن يوليه النظر فيما يتعلق بالأهراء [1]، لما يتوقع من حصول الخلل فيها بعد مضى سبع سنى الخصب. لينظر فيها بما يرضى الله فى خلقه، من الاحتياط لهم والرفق بهم، وأخبر الملك أنه حفيظ، أى قوى على حفظ ما لديه أمين عليه، عليم بضبط الأشياء ومصالح الأهراء. وفى هذا دليل على جواز طلب الولاية لمن علم من نفسه الأمانة والكفاءة.

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾، أى بعد السجن والضيق والحصر، صار مطلق الركاب بديار مصر، ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾، أى أين شاء حل منها مكرماً معظماً. ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، أى أن وهذا كله من جزاء الله وثوابه للمؤمن، مع ما يدخر له فى آخرته من الخير الجزيل والثواب الجميل.

لهذا قال: ﴿وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٥٨) وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٥٩) فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلا تَقْرَبُونِ (٦٠) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١) وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[يوسف ٥٨ - ٦٢].

يخبر تعالى عن قدوم إخوة يوسف عليه إلى الديار المصرية يمتارون طعاماً، وذلك بعد إتيان سنى الجدب وعمومها على سائر العباد والبلاد.

وكان يوسف عليه السلام إذا ذاك الحاكم فى أمور الديار المصرية ديناً ودنيا، فلما دخلوا عليه عرفهم ولم يعرفوه، لأنهم لم يخطر ببالهم ما صار إليه يوسف عليه السلام من المكانة والعظمة، فلهذا عرفهم وهم له منكرون.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾، أى أعطاهم من الميرة ما جرت به عادته، من إعطاء كل إنسان حمل بعير لا يزيده عليه ﴿قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾، وكان قد سألهم عن حالهم، وكم هم؟ فقالوا: كنا اثنى عشر رجلاً، فذهب منا واحد وبقى شقيقه عن أبينا. فقال: إذا قدمتم من العام المقبل فائتونى به معكم. ﴿أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي

(1) الهرى: بيت كبير ضخم يجمع فيه طعام السلطان، والجمع: أهراء.

﴿الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾، أى قد أحسنت نزلكم وقراكم، فرغبهم ليأتوه به ثم رهبهم إن لم يأتوه به فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلا تَقْرَبُونِ﴾، أى فلست أعطيكم ميرة، ولا أقربكم بالكلية عكس ما أسدى إليهم أولاً. فاجتهد فى إحضاره معهم ليبل شوقه منه.

﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾، أى سنجتهد فى مجيئه معنا وإتيانه إليك بكل ممكن. ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾، أى وإنا لقادرون على تحصيله.

ثم أمر فتيانه أن يضعوا بضاعتهم وهى ما جاءوا به يتعوضون به عن الميرة فى أمتعتهم من حيث لا يشعرون بها ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. قيل: أراد أن يردوها إذا وجدوها فى بلادهم، وقيل: خشى أن لا يكون عندهم ما يرجعون به مرة ثانية، وقيل: تذمم أن يأخذ منهم عوضاً عن الميرة.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤) وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦) وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٦٣ ـ ٦٨].

يذكر تعالى ما كان من أمرهم بعد رجوعهم إلى أبيهم وقولهم له: ﴿مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾، أى بعد عامنا هذا إن لم ترسل معنا أخانا، فإن أرسلته معنا لم يمنع منا. ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ أى: أى شىء نريد وقد ردت إلينا بضاعتنا؟ ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾، أى نمتار لهم ونأتيهم بما يصلحهم فى سنتهم ومحلهم، ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ﴾ بسببه ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾. قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أى فى مقابلة ذهاب ولده الآخر[1].

وكان يعقوب عليه السلام أضن شىء بولده بنيامين؛ لأنه كان يشم فيه رائحة أخيه

(١) «البداية والنهاية» (١/ ٢١٤ ـ ٢٢٠) باختصار يسير.

ويتسلى به عنه، ويتعوض بسببه منه. فلهذا قال: **﴿لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾**، أى إلا أن تغلبوا كلكم عن الإتيان به.

﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾. أكد المواثيق وقرر العهود، واحتاط لنفسه فى ولده، ولن يغنى حذر من قدر! ولولا حاجته وحاجة قومه إلى الميرة، لما بعث الولد العزيز، ولكن الأقدار لها أحكام والرب تعالى يقدر ما يشاء ويختار ما يريد، ويحكم ما يشاء وهو الحكيم العليم.

ثم أمرهم أن لا يدخلوا المدينة من باب واحد، ولكن ليدخلوا من أبواب متفرقة.

قيل: أراد أن لايصيبهم أحد بالعين، وذلك لأنهم كانوا أشكالاً حسنة وصوراً بديعة.

وقال تعالى: **﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه، قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧) قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾** [يوسف: ٦٨ ـ ٧٩].

يذكر تعالى: ما كان من أمرهم حين دخلوا بأخيهم بنيامين على شقيقه يوسف، وإيوائه إليه وإخباره له سراً عنهم بأنه أخوه، وأمره بكتم ذلك عنهم وسلاه عما كان منهم من الإساءة إليه.

ثم احتال على أخذه منهم وتركه إياه عنده دونهم، فأمر فتيانه بوضع سقايته، وهى التى كان يشرب بها ويكيل بها الناس الطعام، عن غرة فى متاع بنيامين، ثم أعلمهم بأنهم قد سرقوا صواع الملك، ووعدهم جعالة على رده، حمل بعير، وضمنه المنادى لهم، فأقبلوا على من اتهمهم بذلك فأنبوه وهجنوه فيما قاله لهم: **﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم**



﴿مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ يقولون: أنتم تعلمون منا خلاف ما رميتمونا به من السرقة.

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾، وهذه كانت شريعتهم: أن السارق يدفع إلى المسروق منه.. ولهذا قالوا: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ ليكون ذلك أبعد للتهمة وأبلغ فى الحيلة، ثم قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾، أى لولا اعترافهم بأن جزاءه من وجد فى رحله فهو جزاؤه، لما كان يقدر يوسف على أخذه منهم فى سياسة ملك مصر ﴿إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾، أى فى العلم ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾. وذلك لأن يوسف كان أعلم منهم، وأتم رأيا وأقوى عزماً وحزماً، وإنما فعل ما فعل عن أمر الله له فى ذلك؛ لأنه يترتب على هذا الأمر مصلحة عظيمة بعد ذلك: من قدوم أبيه وقومه عليه ووفودهم إليه.

فلما عاينوا استخراج الصواع من حمل بنيامين ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾ يعنون يوسف، قيل كان قد سرق صنم جده أبى أمه فكسره. وقيل: كانت عمته قد علقت عليه بين ثيابه وهو صغير منطقاً كانت لإسحاق، ثم استخرجوها من بين ثيابه وهو لا يشعر بما صنعت، وإنما أرادت أن يكون عندها وفى حضانتها لمحبتها له. وقيل كان يأخذ الطعام من البيت فيطعمه الفقراء. وقيل غير ذلك. فلهذا: ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾ وهى كلمته بعدها، وقوله: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أجابهم سراً لا جهراً، حلمًا وكرمًا وصفحًا وعفوًا، فدخلوا معه فى الترفق والتعطف فقالوا: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾أى إن اطلقنا المتهم وأخذنا البرىء، وهذا ما لا نفعله ولا نسمح به، وإنما نأخذ من وجدنا متاعنا عنده.

﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠) ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣)



وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦) يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٠ ـ ٨٧].

يقول تعالى مخبراً عنهم: لما استيأسوا من أخذه منه: خلصوا يتناجون فيما بينهم، قال كبيرهم وهو روبيل: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾، لتأتننى به إلا أن يحاط بكم؟ لقد أخلفتم عـهده، وفرطتم فيه كما فـرطتم فى أخيه يوسف من قبله، فلم يبق لى وجـه أقابله به ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾، أى لاأزال مقيـما ها هنا ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ فى القدوم عليه، ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ بأن يقدرنى على رد أخى إلى أبى ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

﴿ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾ أى أخبروه بما رأيتم من الأمر فى ظاهر المشاهدة ﴿مَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾، أى فإن هذا الذى أخبرناك به ـ من أخذهم أخانا لأنه سرق ـ أمر اشتهر بمصر وعلمه العير التى كنا نحن وهم هناك ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، أى ليس الأمر كما ذكرتم، لم يسرق، فإنه ليس سجية له ولا خُلُقه. وإنما ﴿ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾.

قال ابن إسحاق وغـيره: لما كان التفريط منهم فى بنامين مترتـباً على صنيعهم فى يوسف قـال لهم ما قال: وهذا كـما قـال بعض السلف: إن من جزاء السـيئـة السيئة بعدها.

ثم قال: ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ يعنى يوسف وبنيامين وروبيل ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ أى بحالى ومـا أنا فيه من فراق الأحـبة ﴿الْحَكِيمُ﴾ فيـما يقدره ويـفعله، وله الحكمة البالغة والحجة القاطعة.

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾، أى أعرض عن بـنيه ﴿وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ ذكَّرَه حـزنه الجديد بالحزن القديم، وحرك مـا كان كامناً. وقوله: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾، أى من كثرة البكاء. ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾، أى مكظم من كثرة حزنه وأسفه وشوقه إلى يوسف.

فلما رأى بنوه مـا يقاسيه من الوجـد وألم الفراق ﴿ قَالُوا﴾ له على وجه الرحـمة

والرأفة والحرص عليه: ﴿ تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾. يقولون: لا تزال تتذكره حتى ينحل جسدك وتضعف قوتك، فلو رفقت بنفسك كان أولى بك. ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ يقول لبنيه: لست أشكو إليكم ولا إلى أحد من الناس ما أنا فيه، إنما أشكوه إلى الله عزّ وجلّ، وأعلم أن الله سيجعل لى مما أنا فيه فرجاً ومخرجاً، وأعلم أن رؤيا يوسف لابد أن تقع، ولابد أن أسجد له أنا وأنتم حسب ما رأى. ولهذا قال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾

ثم قال لهم محرضاً على تطلُّب يوسف وأخيه، وأن يبحثوا أمرهما: ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾، أى لا تيأسوا من الفرج بعد الشدة، فإنه لا ييأس من روح الله وفرجه، وما يقدره من المخرج فى المضايق، إلا القوم الكافرون.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ(٨٩) قَالُوا أَئِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: ٨٨ ـ ٩٣].

يخبر تعالى عن رجوع إخوة يوسف إليه وقدومهم عليه، ورغبتهم فيما لديه من الميرة، والصدقة عليهم برد أخيهم بنيامين إليهم: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾، أى من الجدب وضيق الحال وكثرة العيال. ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾، أى ضعيفة لا يقبل مثلها منا إلا أن تتجاوز عنا. ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾.



فلما رأى ما هم فيه من الحال وما جاءوا به مما لم يبق عندهم سواه من ضعيف المال، تعرف إليهم وعطف عليهم، قائلاً لهم عن أمر ربه وربهم، وقد حسر لهم عن جبينه الشريف، وما يحويه من الحال الذي يعرفون فيه: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾. ﴿قَالُوا﴾ وتعجبوا كل العجب، وقد ترددوا إليه مراراً عديدة وهم لا يعرفون أنه هو ﴿أَئِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ﴾. ﴿ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾، يعنى أنا يوسف الذي صنعتم معه ما صنعتم، وسلف من أمركم فيه ما فرطتم. وقوله: ﴿وَهَذَا أَخِي﴾ تأكيد لما قال، وتنبيه على ما كانوا أضمروا لهما من الحسد، وعملوا فى أمرهما من

الاحتيال. ولهذا قال: ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أى بإحسانه إلينا وصدقته علينا، وإيوائه لنا وشده معاقد عزنا. وذلك بما أسلفنا من طاعة ربنا، وصبرنا على ما كان منكم إلينا وطاعتنا وبرنا لأبينا ومحبته الشديدة لنا وشفقته علينا. ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أى فضلك وأعطاك ما لم يعطنا، ﴿وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ أى فيما أسدينا إليك، وها نحن بين يديك. ﴿قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾، أى لا أعاتبكم على ما كان منكم بعد يومكم هذا. ثم زادهم على ذلك فقال: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

ثم أمرهم بأن يذهبوا بقميصه، وهو الذى يلى جسده، فيضعوه على عينى أبيه، فإنه يرجع إليه بصره بعد ما كان ذهب، بإذن الله. وهذا من خوارق العادات ودلائل النبوات وأكبر المعجزات، ثم أمرهم أن يتحملوا بأهلهم أجمعين إلى ديار مصر، إلى الخير والدعة وجمع الشمل بعد الفرقة، على أكمل الوجوه وأعلى الأمور.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٤ ـ ٩٨].

قال ابن عباس: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ قال لما خرجت العير: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ قال: فوجد ريحه من مسيرة ثلاثة أيام.

وقال الحسن البصرى وابن جريج المكى: كان بينهما مسيرة ثمانين فرسخاً، وكان له منذ فارقه ثمانون سنة.

وقوله: ﴿لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ﴾، أى تقولون إنما قلت هذا من الفند، وهو الخرف وكبر السن.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾ قال قتادة والسدى: قالوا له كلمة غليظة.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾، أى بمجرد ما جاء ألقى القميص على وجه يعقوب فرجع من فوره بصيراً بعدما كان ضريراً. وقال لبنيه عند ذلك: ألم أقل لكم، إنى أعلم من الله ما لا تعلمون أى أعلم أن الله سيجمع شملى بيوسف، وسيقر عينى به، وسيرينى فيه ومنه ما يسرنى.



فمنذ ذلك ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ طلبوا منه أن يستغفر لهم الله عزّ وجلّ عما كانوا فعلوا ونالوا منه ومن ابنه، وما كانوا عزموا عليه، ولما كان من نيتهم التوبة قبل الفعل، وفقهم الله للاستغفار عند وقوع ذلك منهم، فأجابهم أبوهم إلى ما سألوا، وما عولوا قائلاً: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

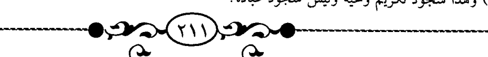
﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ٩٩ ـ ١٠١].

هذا إخبار عن حال اجتماع المتحابين بعد الفرقة الطويلة، التى قيل: إنها ثمانون سنة وقيل فيها خمس وثلاثون سنة. وقال محمد بن إسحاق: ذكروا أنه غاب عنه ثمانى عشرة سنة.

وظاهر سياق القصة يرشد إلى تحديد المدة تقريبا، فإن المرأة راودته وهو شاب ابن سبع عشرة سنة، فيما قاله غير واحد، فامتنع، فكان فى السجن بضع سنين،، وهى سبع عند عكرمة وغيره. ثم أخرج فكانت سنوات الخصب السبع لما أمحل الناس فى السبع البواقى، جاء إخوته يمتارون فى السنة الأولى وحدهم، وفى الثانية ومعهم أخوه بنيامين، وفى الثالثة تعرف إليهم وأمرهم بإحضار أهلهم، فجاءوا كلهم.

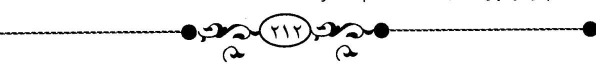
﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ واجتمع بهما خصوصًا وحدهما دون إخوته، ﴿وقال ادخلوا مصر إن شاء آمنين﴾ قيل: هذا من المقدم والمؤخر، تقديره قال: ادخلوا مصر، وآوى إليه أبويه. وقيل: بل تلقاهما وآواهما فى منزل الخيام، ثم لما اقتربوا من باب مصر قال ﴿ادخلوا مصر إن شاء آمنين﴾، قاله السدى ولو قيل: إن الأمر لا يحتاج إلى هذا أيضًا، وأنه ضمن قوله: ادخلوا، بمعنى اسكنوا مصر، أو أقيموا بها ﴿إن شاء آمنين﴾ لكان صحيحًا مليحًا أيضًا. قال الله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ ورفعهما على العرش، أى أجلسهما معه على سريره، ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾، أى سجد له الأبوان والأخوة الأحد عشر[1]، تعظيمًا وتكريمًا وكان هذا مشروعًا لهم، ولم يزل ذلك معمولاً به فى سائر الشرائع حتى حرم فى ملتنا.

(١) وهذا سجود تكريم وتحية وليس سجود عبادة.



﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ﴾، أى هذا تعبير ما كنت قصصته عليك: من رؤيتى الأحد عشر كوكبًا والشمس والقمر، حين رأيتهم لى ساجدين، وأمرتنى بكتمانها، ووعدتنى عند ذلك ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾، أى بعد الهم والضيق، جعلنى حاكمًا نافذ الكلمة فى الديار المصرية حيث شئت ﴿وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾ أى البادية. وكانوا يسكنون أرض العربات من بلاد الخيل ﴿مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾، فيما كان منهم من الأمر الذى تقدم وسبق ذكره. ثم قال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾، أى إذا أراد شيئًا هيأ أسبابه، ويسرها وسهلها من وجوه لا يهتدى إليها العباد، بل يقدرها وييسرها بلطيف صنعه وعظيم قدرته ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ أى بجميع الأمور ﴿الْحَكِيمُ﴾ فى خلقه وشرعه وقدره.

ثم لما رأى يوسف عليه السلام نعمته قد تمت، وشمله قد اجتمع، عرف أن هذه الدار لا يَقرُّ بها قرار، وأن كل شىء فيها ومن عليها فان، وما بعد التمام إلا النقصان، فعند ذلك أثنى على ربه بما هو أهله، واعترف له بعظيم إحسانه وفضله، وسأل منه ـ وهو خير المسئولين ـ أن يتوفاه، أى حين يتوفاه على الإسلام، وأن يلحقه بعباده الصالحين[1].



(١) «البداية والنهاية» (١/ ٢٢٨ ـ ٢٥٢) باختصار.

الدروس المستفادة من قصة يوسف عليه السلام

خطورة الحسد:

رأينا كيف حمل الحسد إخوة يوسف على ايذاء أخيهم وأقرب الناس إليهم ثم جمعوا مع الإيذاء جريمة أخرى وهى الكذب على أبيهم يعقوب عليه السلام وزعموا أن الذئب قد أكل أخاهم يوسف عليه السلام. فالحسد يغير من فطرة الحاسد ويحوله إلى شخص ساخط لا يحب النعمة لإخوانه ويؤدى به إلى ارتكاب الجرائم.

وقد لا تزول النعمة عن المحسود كما يؤمل الحاسد، بل وقد يزداد المحسود من نعم الله عليه، ويزداد الحاسد حسرة وهلاكًا.

وصدق الشاعر

ألا قل لمن كان لى حاسدًا: أتدرى على من أسأت الأدب؟

أسأت على الله فى فعلـه لأنك لـم ترض لى ما وهب

ما جازاك عنى بأنه زادنـى وسدّ عليك وجـوه الطلب

ألا فليعرف الناس هذه الحقيقة، وليحذر الدعاة من مفاسد الحسد، حتى يصفو المجتمع المسلم من الأكدار والأمراض الفتاكة.

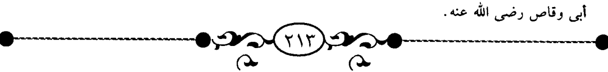
الصبر على الابتلاء: من سنن الله الكونية أن يبتلى أنبيائه ورسله وعباده الصالحين بصنوف من الابتلاءات، وكلما زاد العبد فى الصلاح والتقوى زيد له فى البلاء، كما قال النبى ﷺ: **«أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان فى دينه صُلبًا اشتدَّ بلاؤهُ، وإن كان فى دينه رقة ابتلى على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض وما عليه من خطيئة»**[1].

وقد بين الله تعالى حكمته من الابتلاء فى قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [سورة محمد: ٣١].

وقد ابتُلى يوسف عليه السلام بتعلق امرأة العزيز به وعشقها له ومراودته عن نفسه بشتى طرق الفتنة.

---

(١) صحيح: رواه أحمد (١/ ١٧٢ و ١٧٤ و ١٨٠ و ١٨٥) والترمذى (٢٣٩٨) وابن ماجه (٤٠٣٠) والدارمى (٢/ ٣٢٠) والحاكم (١/ ٤٠، ٤١) وقال الترمذى: حسن صحيح. وهو من حديث سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه.



ولكن يوسف عليه السلام جاهد هواه فى الله تعالى وتغلب على هذه المحنة القاسية، وشهدت امرأة العزيز بعفته وطهارته فقالت: ﴿**ولقد راودته عن نفسه فاستعصم**﴾ أى أردت أن أنال وطرى منه وأن أقضى شهوتى معه، فامتنع امتناعًا شديدًا وأبى إبياءًا عنيفًا واستعصم. قال ابن عطية: أى طلب العصمة وتمسك بها وعصانى.

ثم عاودت امرأة العزيز مراودة يوسف عن نفسه مرة أخرى بمحضر النساء اللاتى قطعن أيديهن وهتكت جلباب الحياء وتوعدت يوسف بالسجن إن لم يستجب لرغباتها، ولم تعد تخشى لومًا ولا مقالاً، خلاف أول أمرها إذ كان ذلك سرًا بينها وبينه، فعندئذ قال يوسف عليه السلام: ﴿**رب السجن أحب إلىّ مما يدعوننى إليه**﴾ أى من الفاحشة ﴿**وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن**﴾ أى إن وكلتنى إلى نفسى فليس لى منها قدرة ولا أملك لها صرفًا ولا نفعًا إلا بحولك وقوتك وأنت المستعان وعليك التكلان فلا تكلنى إلى نفسى ﴿**أصب إليهن وأكن من الجاهلين فاستجاب له ربه**﴾، وذلك أن يوسف عليه السلام عصمه الله عصمة عظيمة وحماه فامتنع منها أشد الامتناع واختار السجن على ذلك، وهذا فى غاية مقامات الكمال[1] وهكذا جاهد يوسف هواه فى الله تعالى وظهر مدى صبره على الابتلاء والاختبار.

الدعوة إلى التوحيد قبل أى شىء وفى كل حال.

إن قضية التوحيد وإفراد الله تعالى بالعبادة هى القضية الكبرى الأساس التى دعا إليها جميع الأنبياء ودارات حولها جهودهم، وحاربوا من أجلها وسالموا، وأوذوا، واستغرقت منهم ساعات ولياليهم وأيامهم وكانت همَّهم وديدنهم ولهجهم ليلاً ونهارًا، وسرًا وجهارًا[2].

وقد مرّ بنا فى قصة يوسف عليه السلام أنه كان مهمومًا بالدعوة إلى التوحيد حتى وهو فى سجنه فما أن عرض عليه صاحباه رؤياهما حتى اغتنم يوسف هذه الفرصة ودعاهما إلى عقيدة التوحيد الصافية.

وهكذا ينبغى على الدعاة أن يكون شاغلهم الشاغل هو الدعوة إلى توحيد الخالق توحيدًا خالصًا، وتصحيح عقائد الناس وتخليصها من شوائب الشرك. ويجب عليهم أن لا ينشغلوا بأى شاغل عن هذه الدعوة النبيلة حتى لو وقعوا فى ضيق وشدة.

الأخذ بالأسباب لجلب نفع أو دفع ضر :

أخذ يوسف عليه السلام بأسباب النجاة من السجن: فقال لأحد صاحبيه فى السجن: ﴿**اذكرنى عند ربك**﴾ أى: سيدك.

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٨٩).

(٢) «كيف علَّم الأنبياء: لا إله إلا الله» سلمان العودة ص ٣٧، ط مكتبة السنة.

قال القـرطبى: فى هذه الآية دليل على جـواز التعلق بالأسـباب وإن كـان اليقين حاصـلا فإن الأمور بيـد مُسبِّبِـها، ولكنه جعلهـا سلسلة، وركَّب بعضـها على بعض، فتحريكهـا سنّة والتعويل على المنتهى يقين. والذى يدلّ على جواز ذلك نسـبة ما جرى من النسيان إلى الشيطان كما جرى لموسى فى لقيا الخضر(1)؛ وهذا بيّن فتأموله(2).

جواز تولى الوزارة للملك الكافر:

يجوز للرجل الفاضل أن يتولى الوزارة لملك كافر إذا كان فى استطاعته إقامة العدل وفعل الخير والدعوة إلى الإيمان.

قال شيخ الإسـلام ابن تيمية: وكذلك يوسـف الصديق كان نائبًا لفرعـون مصر ـ وهو وقومه مشركون وفعل من العدل والخـير ما قدر عليه. ودعاهم إلى الإيمان بحسب الإمكان(3).

قال القـرطبى: قـال بعض أهل العلم: فى هذه الآية مـا يبيح للرجل الفـاضل أن يعمل لـلرجل الفاجر، والسـلطان الكافر، بشرط أن يـعلم أنه يفوّض إليـه فى فعل لا يعارضه فيـه، فيصلح منه ما شاء؛ وأما إذا كـان عمله بحسب اختيار الفـاجر وشهواته وفجـوره فلا يجوز ذلـك. وقال قوم: إن هذا كـان ليوسف خاصـة، وهذا اليوم غـير جائز؛ والأوّل أولـى إذا كان على الشرط الـذى ذكرناه والله أعلم. قـال الماوردىّ: فإن كان المولّى ظالما فـقد اختلف الناس فى جـواز الولاية من قبله على قولين: أحـدهما ـ جوازها إذا عمل بالحق فـيما تقلده؛ ولأن يوسف وُلِّى من قبل فرعـون، ولأن الاعتبار فى حقـه بفعله لا بفـعل غيـره. الثانى ـ أنه لا يجـوز ذلك، لما فيـه من تولى الظالمين بالمعونة لهم، وتزكـيتهم بتـقلد أعمالهم؛ فـأجاب من ذهب إلى هذا المذهب عن ولاية يوسف من قبل فرعون بجوابين: أحدهما ـ أن فرعون يوسف كان صالحا، وإنما الطاغى فرعون مـوسى، والثانى ـ أنه نظر فى أملاكه دون أعمـاله، فزالت عنه التبعة فـيه. قال الماوردىّ. والأصح من إطلاق هذين القولين أن يفـصّل ما يتولاه من جـهة الظالم على ثلاثة أقسـام: أحدها ـ ما يـجوز لأهله فعله من غـير اجتـهاد فى تنفـيذه كالصـدقات والزكوات، فـيجـوز توليه من جـهة الظالم، لأن النص على مـستـحقه قـد أغنى عن الاجتهاد فـيه، وجواز تفرّد أربابه به قد أغنى عن التقليد. والقـسم الثانى ـ ما لا يجوز أن يتفـرّدوا به ويلزم الاجتـهاد فى مَصْـرفه كـأموال الفىء، فلا يجـوز تولّيه من جـهة الظالم؛ لأنه يتصرف بغير حق، ويجتهد فيما لا يستحق. والقسم الثالث ـ ما يجوز أن يتولاه لأهله وللاجتهاد فيه مدخل كالقضـايا والأحكام، فعقد التقليد محلول، فإن كان

(1) وذلك فى قول فتى موسى: ﴿وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره﴾ [الكهف: ٦٣].
(2) تفسير القرطبى (٩/١٩٨).
(3) «الحسبة» ص٧.



النظر تنفيذا للحكم بين متراضيين، وتوسطا بين مجبورين جاز، وإن كان إلزاما لن يجز.

الثالثة ـ ودلت الآية أيضا على جواز أن يخطب الإنسان عملا يكون له أهلا؛ فإن قيل: فقد روى مسلم عن عبد الرحمن بن سَمُرة قال قال لى رسول الله ﷺ «**يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسئلة وُكلت إليهاوإن أعطيتها عن غير مسئلة أعنت عليها**». وعن أبى بُردة قال قال أبو موسى: أقبلت إلى النبى ﷺ ومعى رجلان من الأشعريين، أحدهما عن يمينى والآخر عن يسارى، فكلاهما سأل العمل، والنبى ﷺ يستاك، فقال: «ما تقول يا أبا موسى ـ أو يا أبا عبد الله بن قيس»؟. قال: قلت: والذى بعثك بالحق ما اطلعانى على ما فى أنفسهما، وما شعرت أنهما يطلبان العمل، قال: وكأنى أنظر إلى سواكه تحت شفته وقد قلصت[1]، فقال: (**لن ـ أو ـ لا نستعمل على عملنا من أراده**» وذكر الحديث؛ خرجه مسلم أيضا وغيره؛ فالجواب: أولا ـ أن يوسف عليه السلام إنما طلب الولاية لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه فى العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم فرأى أن ذلك فرض متعين عليه فإنه لم يكن هناك غيره، وهكذا الحكم اليوم، لو علم إنسان من نفسه أنه يقوم بالحق فى القضاء أو الحسبة ولم يكن هناك من يصلح ولا يقوم مقامه لتعيّن ذلك عليه، ووجب أن يتولاها ويسأل ذلك، ويخبر بصفاته التى يستحقها من العلم والكفاية وغير ذلك، كما قال يوسف عليه السلام، فأما لو كان هناك من يقوم بها ويصلح لها وعلم بذلك فالأولى ألا يطلب؛ لقوله عليه السلام لعبد الرحمن: «**لا تسأل الإمارة**» وأيضا فإن فى سؤالها والحرص عليها مع العلم بكثرة آفاتها وصعوبة التخلص منها دليل على أنه يطلبها لنفسه ولأغراضه، ومن كان هكذا يوشك أن تغلب عليه نفسه فيهلك؛ وهذا معنى قوله عليه السلام: «وكل إليها» ومن أباها لعلمه بآفتها، ولخوفه من التقصير فى حقوقها فرَّ منها، ثم انَ ابتلى بها فيرجى له التخلص منها، وهو معنى قوله: «أُعينَ عليها». الثانى ـ أنه لم يقل: إنى حسيب كريم، وإن كان كما قال النبى ﷺ: «**الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم**» ولا قال: إنى جميل مليح، إنما قال: ﴿**إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ**﴾ فسألها بالحفظ والعلم، لا بالنسب والجمال. الثالث ـ إنما قال ذلك عندَ من لا يعرفَه فأراد تعريف نفسه، وصار ذلك مستثنى من قوله تعالى: ﴿**فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ**﴾. الرابع ـ أنه رأى ذلك فرضًا متعينًا عليه؛ لأنه لم يكن هنالك غيره، وهو الأظهر، والله أعلم.



الرابعة ودلّت الآية أيضًا على أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بما فيه من علم وفضل؛ قال الماوردىّ: وليس هذا على الإطلاق فى عموم الصفات، ولكنه مخصوص فيما اقترن بوصله، أو تعلق بظاهر من مكسب، وممنوع منه فيما سواه، لما فيه من تزكية ومراءاة، ولو ميزه الفاضل عنه لكان أليق بفضله؛ فإن يوسف دعته الضرورة إليه لما سبق من حاله، ولما يرجو من الظَّفر بأهله[2].

---

(١) قلصت: انقبضت وانزوت.

(٢) تفسير القرطبى (٩/ ٢١٥ ـ ٢١٧)

❊الأصل عدم جواز المشاركة فى وزارة ملك كافر.

قد يتذرع البعض بتولية يوسف عليه السلام للوزارة فى عهد ملك كافر، ويتولون الوزارة فى ظل حكم حاكم لا يحكم بشريعة الله تعالى، من غير أن يوازنوا بين المصالح والمفاسد المترتبة على توليتهم الوزارة.

وما فعله يوسف عليه السلام هو استثناء من الأصل ـ وهو عدم جواز المشاركة ـ وهذا الاستثناء لا ينبغى التوسع فيه.

قال الدكتور عمر الأشقر:

الأصل عدم جواز المشاركة فى الوزارة التى تحكم بشريعة غير شريعة الله والأدلة على ذلك كثيرة منها:

١ ـ النصوص الحاكمة على من يحكم بغير ما أنزل الله بالكفر والظلم والفسق **﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾**(١) **﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾**(٢) **﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾**(٣).

٢ ـ أن الحاكمية يجب أن تكون لله وحده **﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾**(٤).

٣ ـ نهى رب العالمين المؤمنين أن يحتكموا إلى شريعة غير شريعة الله، وجعل ذلك منافيا للإيمان حينما قال: **﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾**(٥).

٤ ـ فى المشاركة فى الحكم غير الإسلامى مفاسد عظيمة، فالذين لا يُحكّمون شرع الله يحادون الله فى أمره، وينازعونه فى حكمه **﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾**(٦) **﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾**(٧)، فكيف يشارك المسلم فى هذا النوع من الحكم؟

٥ ـ مشاركة المسلم فى هذا النوع من الحكم توقعه فى تناقض كبير، فالمسلم مطالب بأن يجاهد لإقامة حكم الله، وينكر أشد الإنكار على من حكم بغير ما أنزل الله، فكيف يكون مقيما للحكم بغير ما أنزل الله؟!، وقد عجّب الله رسوله ـ ﷺ ـ من

(١) سورة المائدة: ٤٤. (٢) سورة المائدة: ٤٥. (٣) سورة المائدة: ٤٧.
(٤) سورة يوسف: ٤٠. (٥) سورة النساء: ٦٥. (٦) سورة يوسف: ٤٠.
(٧) سورة الكهف: ١١٠.



حال المنافقين الذين يزعمون الإيمان، ثم هم بعد ذلك يتحاكمون إلى من لا يقيم شرع الله؟ ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا**﴾[1].

٦ ـ إنَّ طاعة الحكام فيما يشرعونه مخالفين أمر الله تعنى اتخاذ المطيع لهم أربابا من دون الله كما قال الحق فى شأن أهل الكتاب: ﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا** ﴾[2].

وقد بين الرسول ـ ﷺ ـ لعدى بن حاتم أن معنى هذا الاتخاذ هو طاعتهم فى تحليلهم ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله.

٧ ـ من المفاسد التى تترتب على المشاركة، أن بعض الحكام قد يتخذون من يستوزرونهم من المسلمين الصالحين زينة يحلون بها حكمهم، ويدلسون بذلك على السذج والعوام، فيقولون لو كنا على الباطل لما قبل فلان مشاركتنا فى الحكم، ويزداد الطين بله عندما يمررون من خلال الوزير المسلم القوانين الجائرة الظالمة وبعد أن يحققوا من ورائه أهدافهم ينبذونه نبذ النواة.

٨ ـ وفى المشاركة فى الحكم ركون إلى الذين ظلموا، وقد حذرنا الحق من الركون إليهم ﴿**وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ**﴾[3].

٩ ـ وقد يكون فى المشاركة فى الحكم إطالة لعمر هذا النمط من الحكم الذى يحكم بغير ما أنزل الله فى بعض الأحيان.

من أجل هذه النصوص التى سقناها، والمفاسد المترتبة على المشاركة قلنا: إن الأصل عدم جواز المشاركة[4].

العفو عند المقدرة:

لقد عفا يوسف عن إخوته وقد فعلوا فيه ما لا يفعله العدو بعدوه، ألقوه فى غيابة الجب ولم يمنعهم من ذلك صغر سن يوسف وتعلق أبيهم به وعدم صدور أى إساءة منه لهم، عفا عنهم وهو فى مقام السلطة والقدرة وهم فى مقام الذلة والضعف، ولما اعترفوا بذنبهم بعدما عرّفهم بنفسه بأن ذكّرهم بما فعلوه بيوسف، قال لهم: ﴿**لا تثريب**

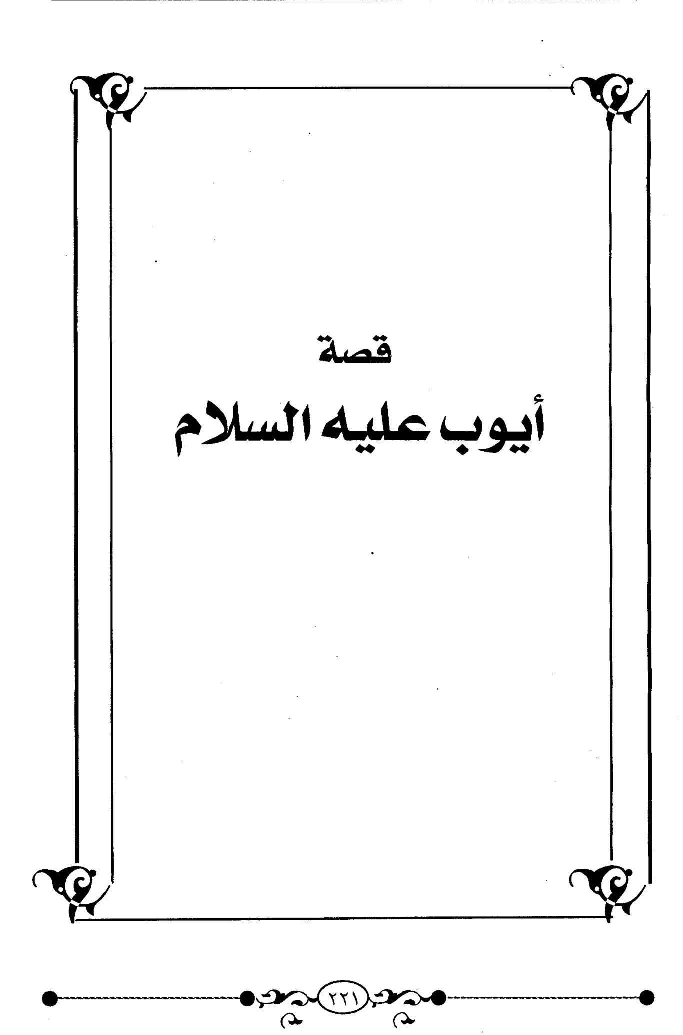
(١) سورة النساء: ٦٠. (٢) سورة التوبة: ٣١. (٣) سورة هود: ١١٣.
(٤) «حكم المشاركة فى الوزارات والمجالس النيابية» ص ٢٩ ـ ٣٣. ط دار النفائس، الأردن ـ عمان.

عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾ أى لا تعبير ولا توبيخ ولا تقريع عليكم اليوم، ثم زادهم تكريمًا بأن دعا لهم بالمغفرة لما فرط منهم بقوله **﴿يغفر الله لكم﴾**وقوله **﴿وهو أرحم الراحبم﴾** تحقيق لحصول المغفرة لأنه عفا عنهم فالله هو أولى بالعفو والرحمة لهم(1).

هذا وإنَّ تجاوز يوسف عن ذنب إخوته يعلمنا أن نغفر لمن يسيء إلينا ونحسن إليه(2) فإن كظم الغيظ والعفو عن الناس من مقامات الإحسان، كما قال تعالى **﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾**[آل عمران: ١٣٤] وقال ﷺ : **«من كظم غيظًا وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق، حتى يخيره من الحور العين يزوجه منها ما شاء»**(3).



(١) تفسير القاسمي (٩/ ٢٧٢ - ٢٧٣).
(٢) «المستفاد من قصص القرآن» (١/ ٢٩٦).
(٣) حسن. رواه أحمد (٣/ ٤٤٠).



قصة
أيوب عليه السلام

قصة أيوب عليه السلام

هو أيوب بن موص بن رازح بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل. وكان رجلاً من الرجل من الروم. قاله ابن إسحاق.

وقال غيره: هو أيوب بن موص بن رعويل بن العيص بن إسحاق بن يعقوب، وقيل غير ذلك في نسبه، والمشهور الأول.

وهو من الأنبياء المنصوص على الإيحاء إليهم في سورة النساء في قوله تعالى: **﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ﴾** [النساء: ١٦٣] الآية.

فالصحيح أنه من سلالة العيص بن إسحاق وامرأته قيل: اسمها «ليا» بنت يعقوب، وقيل: «رحمة» بنت أفراثيم، وقيل: «ليا» بنت منسا بن يعقوب. وهذا أشهر.

قال الله تعالى: **﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾** [الأنبياء: ٨٣ ـ ٨٤] وقال تعالى في سورة ص: **﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾** [سورة ص ٤١ ـ ٤٤].

قال علماء التفسير والتاريخ وغيرهم: كان أيوب رجلاً كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه، من الأنعام والعبيد والمواشي، والأراضي المتسعة بأرض الثنية من أرض حوران، وحكى ابن عساكر: أنها كلها كانت له. وكان له أولاد وأهلون كثير.

فسلب منه ذلك جميعه، وابتلي في جسده بأنواع من البلاء ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه، يذكر الله عز وجل بهما، وهو في ذلك كله صابر محتسب، ذاكر لله عز وجل في ليله ونهاره وصباحه ومسائه.

وطال مرضه حتى عافه الجليس، وأوحش منه الأنيس، وأخرج من بلده وألقي على مزبلة خارجها، وانقطع عنه الناس، ولم يبق أحد يحنو عليه سوى زوجته، كانت ترعى له حقه، وتعرف قديم إحسانه إليها وشفقته عليها. فكانت تتردد إليه فتصلح من

(١) «البداية والنهاية» (١/ ٢١٤ ـ ٢٢٠) باختصار يسير.

شأنه، وتعينه على قضاء حاجته. وتقوم بمصلحته. وضعف حالها وقل مـلالها حتى كانت تخدم الناس بالأجر، لتطعمه وتقوم بأوده، رضى الله عنها وأرضاها، وهى صابرة معه على ما حلّ بها من فراق المال والولد، وما يختص بها من المصيبة بالزوج، وضيق ذات اليد وخدمة الناس، بعد السعادة والنعمة والخدمة والحرمة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل» وقال: «يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه»[1].

ولم يزد هذا كله أيوب عليه السلام إلا صبرًا واحتسابًا وحمدًا وشكرًا حتى إن المثل ليضرب بصبره عليه السلام، ويضرب المثل أيضًا بما حصل له من أنواع البلايا.

وقد روى عن وهب بن منبه وغيره من علماء بنى إسرائيل فى قصة أيوب خبر طويل، فى كيفية ذهاب ماله وولده، وبلائه فى جسده .. والله أعلم بصحته.

وعن مجاهد أنه قال: كان أيوب عليه السلام أول من أصابه الجدرى.

وقد اختلفوا فى مدة بلواه على أقوال: فزعم وهب أنه ابتلى ثلاث سنين لا تزيد ولا تنقص. وقال أنس: ابتلى سنين وأشهرًا، وألقى على مزبلة لبنى إسرائيل تختلف الدواب فى جسده حتى فرَّج الله عنه وأعظم الأجر وأحسن الثناء عليه. وقال حميد: مكث فى بلواه ثمانى عشرة سنة، وقال السدى: تساقط لحمه حتى لم يبق إلا العظم والعصب فكانت امرأته تأتيه بالرماد تفرشه تحته، فلما طال عليها، قالت: يا أيوب .. لو دعوت ربك يفرج عنك، فقال: قد عشت سبعين سنة صحيحا، فهل قليل لله أن أصبر له سبعين سنة؟ فجزعت من هذا الكلام، وكانت تخدم الناس بالأجر وتطعم أيوب عليه السلام.

ثم إن الناس لم يكونوا يستخدمونها، لعلمهم أنها امرأة أيوب، خوفًا أن ينالهم من بلائه أو تعديهم بمخالطته، فلما لم تجد أحدًا يستخدمها، عمدت فباعت لبعض بنات الأشراف إحدى ضفيرتها بطعام طيب كثير، فأتت به أيوب، فقال: من أين لك هذا؟ وأنكره، فقالت: خدمت به أناسًا. فلما كان الغد لم تجد أحدًا فباعت الضفيرة الأخرى بطعام فأتته به، فأنكره وحلف لا يأكله حتى تخبره من أين لها هذا الطعام؟ فكشفت عن رأسها خمارها، فلما رأى رأسها محلوقًا قال فى دعائه: ﴿رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[الأنبياء: ٨٣].

---

(١) سبق تخريجه.

وعن أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال: «إن نبى الله أيوب لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة. فرفضه القريب والبعيد، إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه له، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد من العالمين. قال صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثمانى عشرة سنة لم يرحمه ربه فيكشف ما به، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب: لا أدرى ما تقول؟ غير أن الله عزَّ وجلَّ يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله فأرجع إلى بيتى فأكفر عنهما، كراهية أن يذكر الله إلا فى حق.

قال: وكان يخرج فى حاجته، فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يرجع، فلما كان ذات يوم أبطأت عليه، فأوحى الله إلى أيوب فى مكانه: أن ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [سورة ص: ٤٢]، فاستبطأته فتلقته تنظر، وأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء، وهو أحسن ما يكون، فلما رأته قالت: أى بارك الله فيك! هل رأيت نبى الله المبتلى؟ فو الله القدير على ذلك ما رأيت رجلاً أشبه منك إذ كان صحيحا. قال: فإنى أنا هو، قال: وكان له أندران[١] أندر للقمح وأندر للشعير، فبعث الله سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض وأفرغت الأخرى فى أندر الشعير الورِق حتى فاض»[٢].

قال ابن عباس: ورد الله عليه ماله وولده بأعيانهم، ومثلهم معهم.

وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «**لما عافى الله أيوب عليه السلام أمطر عليه جرادًا من ذهب، فجعل يأخذ منه بيده ويجعل فى ثوبه، قال: فقيل له: يا أيوب .. أما تشبع؟ قال: يارب .. ومن يشبع من رحمتك**»[٣].

وقال رسول الله ﷺ: «**بينما أيوب يغتسل عريانًا خر عليه رجل جراد من ذهب، فجعل أيوب يحثى[٤] فى ثوبه. فناداه ربه عزّ وجلّ: يا أيوب .. ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى يارب، ولكن لا غنى لى عن بركتك**»[٥].

---

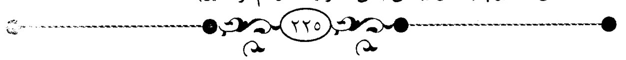
(١) الأندر: البيدر، وهو الموضع الذى يُداس فيه الطعام.

(٢) صحيح. رواه ابن حبان (٢٨٩٨ ـ احسان) والطبرى فى تفسيره (٢٣/ ١٦٧) وأبو يعلى (٣٦١٧) والبزار (٢٣٥٧) والحاكم (٢/ ٥٨١ ـ ٥٧٢) وأبو نعيم فى «الحلية» (٣/ ٣٧٤ ـ ٣٧٥) وصححه الحاكم ووافقه الذهبى. وقال الهيثمى فى «المجمع» (٨/ ٢٠٨): رواه أبو يعلى والبزار ورجال الصحيح.

(٣) صحيح. رواه أحمد (٢/ ٣٠٤ و ٤٩٠ و ٥١١) والطيالسى (٢٤٥٥) وابن حبان (٦٢٣٠ ـ إحسان).

(٤) أى يغترف بيده فى ثوبه.

(٥) رواه البخارى (٢٧٩) فى الغسل: باب من اغتسل عريانًا وحده. وفى أحاديث الأنبياء (٣٣٩١) باب قول الله تعالى: «**وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين**﴾.



وقوله: ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾[سورة ص: ٤٢] أى اضرب الأرض برجلك، فامتثل ما أمر به. فأنبع الله له عينًا باردة الماء وأمر أن يغتسل فيها ويشرب منها فأذهب الله عنه ما كان يجـده من الألم والأذى، والسقم والمرض، الذى كان فى جـسده ظاهرًا أو باطنًا، وأبدله الله بعد ذلك صحة ظاهرة وباطنة، وجمالاً كـثيرًا، حتى صب له من المال صبًا، مطرًا عظيمًا جرادًا من ذهب.

وأخلف الله له أهله، كما قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٤] فقيل أحـياهم الله بأعيانهم، وقـيل آجره فيمن سلف، وعوضـه عنهم فى الدنيا بدلهم وجمع له شمله بكلهم فى الدار الآخرة، وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾[الأنبياء: ٨٤] أى رفـعنا عنه شدته، وكـشـفنا ما به من ضـر، رحمـة منا به ورأفـة وإحسـانًا ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤] أى تذكرة لمن ابتلى الله بما هو أعظم من ذلك فـصبر واحتسب حتى فرج الله عنه.

وعاش أيوب بعد ذلك سبعين سنة بأرض الروم على دين الحنيـفية ثم غيروا بعده دين إبراهيم.

وقوله: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [سورة ص: ٤٤]، هذه رخصة من الله تـعالى لعبده ورسوله أيوب عليه السـلام، فيما كان من حلفه ليضربن امرأته مائة سوط فقـيل:حلفه ذلك لبيعها ضفائرها، وقيل: لأنه عارضـها الشـيطان فى صورة طبيب يـصف لها دواء لأيوب فأتتـه وأخبـرته وعرف أنه الشيطان، فحلف ليـضربنها مائة سوط. فلما عـافاه الله عزّ وجلّ أفتاه أن يأخـذ ضغثًا وهو كالعثكال الذى يجمع الشماريخ، فيجمعها كلها ويضربها به ضربة واحدة. ويكون هذا منزلاً منزلة الضرب بمائة سوط ويبر ولا يحنث.

وهذا من الفرج والمخرج لمـن اتقى الله وأطاعه، ولا سيما فى حق امـرأته الصابرة المحتسبة، المكابدة الصديقة البارة الراشدة، رضى الله عنها.

ولهذا عقّبَ الله الرخصة وعللها بقوله: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾

وقد ذكر ابن جرير وغيره من علمـاء التاريخ: أن أيوب عليه السلام لما توفى كان عمره ثلاثًا وتسعين سنة، وقيل:إنه عاش أكثر من ذلك(١).

---

(١) «البداية والنهاية» (١/ ٢٥٤ ـ ٢٥٩) باختصار.



ما يستفاد من قصة أيوب عليه السلام

فوائد الابتلاء للمؤمنين وثواب الصبر عليه

الابتلاء سنة من سنن الله تعالى فى خلقه، ولابد للمؤمنين من ابتلاء وفتنة واختبار سـواء كانـت بالسراء أو بـالضراء، قـال تعـالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[الأنبياء: ٣٥]

ولابتلاء المؤمنين فوائد نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر.

١ ـ تربية المؤمنين وصـقل معادنهم وتمحـيص ما فى قلوبهم فهم ينضـجون بالمحن كما ينضج الطعام بالنار.

قال تعالى: ﴿لَوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]

يقول ابن القيم: (فإن القلوب يخالطها بغلبات الـطبائع وميل النفوس وحكم العادة وتزيين الشيطان واستيلاء الغفلة ما يضاد ما أودع فيها من الإيمان والإسلام والبر والتقوى فلو تركت فى عافية مستمرة لم تتـخلص من هذه المخالطة ولم تتمحص منها، فاقتضت حكمة العـزيز أن قيض لها من المحـن والبلاء ما يكون كـالدواء لمن عرض له داء إن لم يتداركه طبيبه بإزالته وتنقيته من جسده وإلا خيف عليه من الفساد والهلاك)(١).

٢ ـ رفع درجات المؤمنين: ومضاعفة حسناتهم وتكفير خطاياهم حتى يمشى أحدهم على الأرض وما عليه خطيـئة قال ﷺ: **«ما يزال البـلاء بالمؤمن والمؤمنة وفى نفسه وولده وماله حـتى يلقى الله وما عليه خطيـئة»**(٢)، وقال رسول الله ﷺ: **«ما يصيب المسلم من هم وغم ولا نصب(٣) ولا وصب(٤) ولا حزن ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر بها من خطاياه»**(٥).

٣ ـ تطهيـر الصف المؤمن من أدعياء الإيمان من المنافـقين والذين فى قلوبهم مرض فإبان العـافيـة والسراء يخـتلط الحابل بالنابل والخـبيث بالطيب، وإنما يقع التـمـيـيز بين

---

(٢) «زاد المعاد» (١/ ٢٣٧).

(٢) صحيح. رواه الترمذى (٢٣٩٩) كتاب الزهد، باب: ما جاء فى الصبر على البلاء. وقال: حسن صحيح.

(٣) النصب: التعب. (٤) الوصب: المرض.

(٥) رواه البخارى (٥٦٤١، ٥٦٤٢) كتاب المرضى؛ باب ما جاء فى كفارة المرض.

الأصيل والدخيل بالمحن والبلاء، كما يتميز الذهب الحقيقى من الزائف بالإمتحان بالنار: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾[آل عمران: ١٧٩]

إن من الناس من يدخل فى زمرة المؤمنين ويلبس لباسهم ويتكلم بلسانهم فإذا أصابته فتنة أو محنه فى سبيل دينه خارت قواه وانحلت عراه وبرئ مما كان يدعو من قبل وعن هذا النموذج البشرى يقول المولى عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠ و ١١]

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١]، فالمحن التى تَعْرِضُ لأصحاب الدعوات هى التى تميز هذه الأصناف وتفرزهم من بين المؤمنين وتنقى الخبث من صفوفهم كما ينقى الكير خبث الحديد»[1].

الصبر على البلاء ينشأ من عدة أسباب:

يقول ابن القيم: (والصبر على البلاء ينشأ من أسباب عدة:

أحدها: شهود جزائها وثوابها.

ثانيها: شهود تكفيرها للسيئات ومحولها لها.

ثالثها: شهود القدر السابق الجارى بها، وأنها مقدرة فى أم الكتاب قبل أن يُخْلَق فلابد منها فجزعه لا يزيده إلا بلاء.

رابعها: شهود حق الله عليه فى تلك البلوى وواجبه فيها الصبر بلا خلاف بين الأمة أو الصبر والرضا على أحد القولين فهو مأمور بأداء حق الله وعبوديته عليه فى تلك البلوى فلابد له منه وإلا تضاعفت عليه.

خامسها: شهود ترتبها عليه بذنبه كما قال تعالى: **﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾**؛ فهذا عام فى كل مصيبة دقيقة وجليلة فشغله شهود هذا السبب بالاستغفار الذى هو أعظم الأسباب فى دفع تلك المصيبة قال على بن أبى طالب **(ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة)**.

سادسها: أن يعلم أن الله قد ارتضاها له واختارها وقسمها، وأن العبودية تقتضى

(١) «أهمية الجهاد» لعلى بن نفيع العليانى (ص ٩٨، ٩٩، ١٠٠) نقلاً عن «الابتلاء سنة ماضية» عبد الله عبدالفتاح ص ٤٠ ـ ٤٢.



رضاه بما رضى له به سيده ومولاه، فإن لم يوف قدر المقـام حقه فهو لضعفه فلينزل إلى مقام الصبر عليها فإن نزل عنه إلى مقام الظلم وتعدى الحق.

سابعـها: أن يعلم أن هذه المصـيبة دواء نافع سـاقه إليـه الطبيب العليم بمصلحـته الرحيم به فليصبر على تجرعه ولا يتقيأه بتسخطه وشكواه فيذهب نفعه باطلاً.

ثامنها: أن يعلم أن فى عقبى هذا الدواء من الشفاء والعـافية والصحة وزوال الألم ما لا تحصل بدونه فإذا طالعت نفسه كراهة هذا الدواء ومرارته فلينظر إلى عاقبته وحسن تأثيره قال الله تعالى: ﴿ **وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ٢١٦].

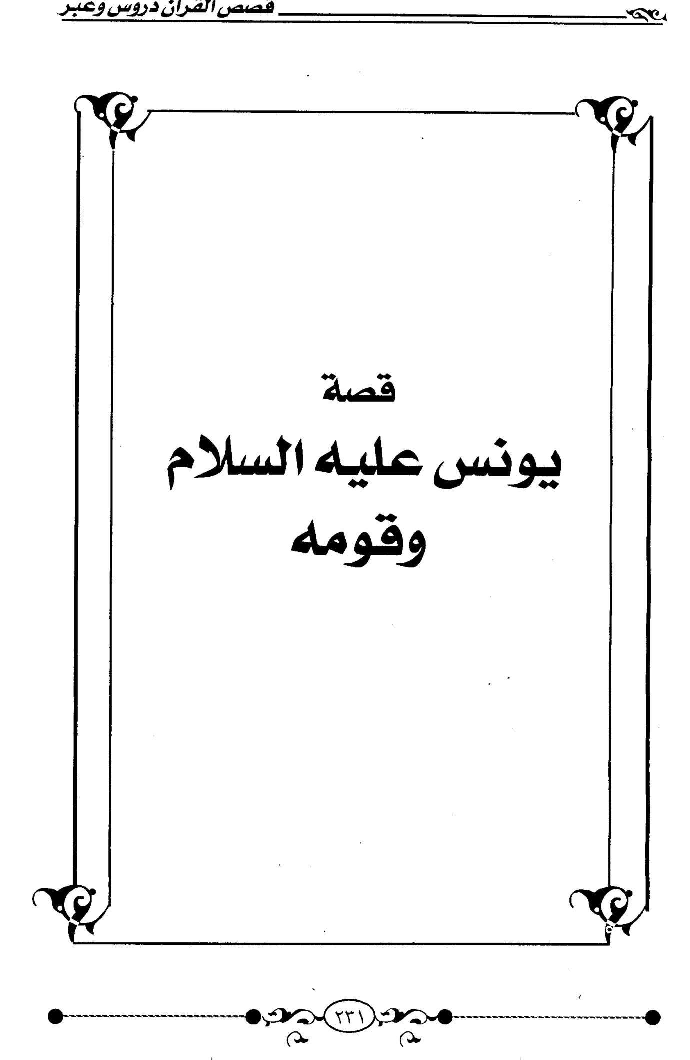
قال تعالى ﴿ **فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾ [النساء: ١٩].

تاسعـها: أن يعلم أن المصيبـة ما جاءت لتهلكه وتقـتله وإنما جاءت لتمتـحن صبره وتبتليه فـيتبين حينئذ هل يصلح لاسـتخدامه وجعله من أوليـائه وحزبه أم لا؟ فإن ثبت اصطفاه واجتـباه وخلع عليه خِلَع الإكرام وألبـسه ملابس الفضل وجـعل أولياءه وحزبه خدمًا له وعونًا له وإن انقلب عـلى وجهه ونكص على عقبيه طُرِدَ وصُـفِعَ قفاه وأقصى وتضاعفت عليـه المصيبة وهو لا يشعر فى الحال بـتضاعفها وزيادتها ولكن سـيعلم بعد ذلك بأن المصيبة فى حقـه صارت مصائب كما يعلم الصابر أن المصيـبة فى حقه صارت نعمًـا عديدة ومـا بين هاتين المنزلتين إلا صبر سـاعة وتشـجيع القلب فى تلك السـاعة والمصيبة لابد أن تقلع عن هذا وهذا ولكن تقلع عن هذا بأنواع الكرامات والخيرات وعن الآخر بالحرمـان والخذلان لأن ذلك تقدير العزيز العليم وفـضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

عاشرها: أن يعلم أن الله يربى عبده على السراء والضراء والنعمة والبلاء فيستخرج منه عبوديته فى جميع الأحوال، فإن العبد على الحقيقة من قام بعبودية الله على اختلاف الأحوال وأما عبد السـراء والعافية الذى يعبد الله على حرف فإن أصـابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجـهه فليس من عبيده الذين اختارهم لعـبوديته، فلا ريب أن الإيمان الذى يثبت على محـل الابتلاء والعافية هو الإيمان النافع وقت الحـاجة، وأما إيمان العافية فلا يكاد يصحب العبد ويبلغه منازل المؤمنين، وإنما يصحبه إيمان يثبت على البلاء والعافية فالابتلاء كير العبد ومحك إيمانه فإما أن يخرج تبرًا أحمر، وإما أن يخرج رغلاً محـضًا وإما أن يخرج فـيه مادتان ذهبية ونحـاسية فلا يزال به البـلاء حتى يخرج المادة النحاسية من ذهبه ويبقى ذهبا خالصا[1].

(١) «طريق الهجرتين» لابن القيم (ص٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨) نقلاً عن «الابتلاء سنة ماضية» (ص ٤٣ ـ ٤٥).





قصة
يونس عليه السلام وقومه

قصة يونس عليه السلام مع قومه

يونس ـ عليه السلام ـ هو ابن متى، قال الحافظ ابن حجر: ولم أقف فى شىء من الأخبار على اتصال نسبه، وقد قيل: إنه كان فى زمن ملوك الطوائف من الفرس(١).

وقد ذكر الله تعالى قصة يونس عليه السلام مع قومه فى أكثر من موضع فى كتابه العزيز.

قال الله تعالى فى سورة يونس: ﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

وقال تعالى فى سورة الأنبياء: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾[الأنبياء: ٨٧ ـ ٨٨].

وقال تعالى فى صورة الصافات: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الصافات: ١٣٩ ـ ١٤٨].

وقال تعالى فى سورة ن: ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[القلم: ٤٨ ـ ٥٠].

قال أهل التفسير: بعث الله يونس عليه السلام إلى أهل «نينوى» من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ، فكذبوه وتمردوا عليه وبقوا كفرهم وعنادهم، فلما طال ذلك عليه من أمرهم خرج بين أظهرهم، ووعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث.

قال ابن مسعود، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، وغير واحد من السلف والخلف: فلما خرج من بين ظهرانيهم، وتحققوا نزول العذاب بهم قذف الله فى قلوبهم التوبة والإنابة، وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم، فلبسوا المسوح وفرقوا بين كل

(١) «فتح البارى» (٦/ ٥٢٠).

بهيمة وولدها، ثم عجلوا إلى الله عزّ وجلّ، وصرخوا وتضرعوا إليه، وتمسكنوا لديه، وبكى الرجال النساء والبنون والبنات والأمهات. وجأرت الأنعام والدواب والمواشى، فرغت الإبل وفصلانها، وخارت البقر وأولادها، وثغت الغنم وحملانها وكانت ساعة عظيمة هائلة.

فكشف الله العظيم بحوله وقوته ورأفته ورحمته عنهم العذاب الذى كان قد اتصل بهم سببه، ودار على رءوسهم كقطع الليل المظلم.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾[يونس: ٩٨]، أى هلا وجدت فيما سلف من القرون قرية آمنت بكمالها، فدل على أنه لم يقع ذلك، بل كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾[سبأ: ٣٤]. وقوله: ﴿إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨] أى آمنوا بكمالهم.

وقد اختلف المفسرون: هل ينفعهم هذا الإيمان فى الدار الآخرة، فينقذهم من العذاب الأخروى كما أنقذهم من العذاب الدنيوى؟ على قولين:

الأظهر من السياق: نعم. والله أعلم، كما قال تعالى: ﴿لَمَّا آمَنُوا﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصافات: ١٤٧ ـ ١٤٨]، وهذا المتاع إلى حين لا ينفى أن يكون معه غيره من رفع العذاب الأخروى .. والله أعلم.

وقد كانوا مائة ألف لا محالة. واختلفوا فى الزيادة: فعن مكحول عشرة آلاف.

وعن ابن عباس: كانوا مائة ألف وثلاثين ألفًا، وعنه: وبضعة وثلاثين ألفًا، وعنه وبضعة وأربعين ألفًا. وقال سعيد بن جبير: كانوا مائة ألف وسبعين ألفًا.

والمقصود أنه عليه السلام لما ذهب مغاضبًا بسبب قومه، ركب سفينة فى البحر فلجت بهم، واضطربت وماجت بهم وثقلت بما فيها، وكادوا يغرقون على ما ذكره المفسرون.

قالوا: فاشتوروا فيما بينهم على أن يقترعوا، فمن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينة ليتخففوا منه.

فلما اقترعوا وقعت القرعة على نبى الله يونس فلم يسمحوا به، فأعادوها ثانية فوقعت عليه أيضًا، فشمر ليخلع ثيابه ويلقى بنفسه، فأبوا عليه ذلك، ثم أعادوا القرعة ثالثة فوقعت عليه أيضًا، لما يريده الله به من الأمر العظيم.



قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾[الصافات: ١٣٩ ـ ١٤٣]؛ وذلك أنه لما وقعت عليه القرعة ألقى فى البحر، وبعث الله عزّ وجلّ حوتًا عظيمًا من البحر الأخضر فالتقمه وأمره الله تعالى أن لا يأكل له لحمًا ولا يهشم له عظمًا فليس ذلك برزق، فأخذه فطاف به البحار كلها.

قالوا: ولما استقر فى جوف الحوت حسب أنه قد مات، فحرك جوارحه فتحركت، فإذا هو حى فخر لله ساجدًا وقال: يارب .. اتخذت لك مسجدًا فى موضع لم يعبدك أحد فى مثله.

وقد اختلفوا فى مقدار لبثه فى بطنه. فقال مجالد عن الشعبى: التقمه ضحى ولفظه عشية، وقال قتادة: مكث فيه ثلاثًا، وقال جعفر الصادق: سبعة أيام.

وقال سعيد بن أبى الحسن، وأبو مالك: مكث فى جوفه أربعين يوما .. والله أعلم كم مقدار ما لبث فيه.

والمقصود أنه لما جعل الحوت يطوف به فى قرار البحار اللجية، ويقتحم به لجج الموج الأجاجى[1]، فسمح تسبيح الحيتان للرحمن، وحتى سمع تسبيح الحصى لفالق الحب والنوى، ورب السموات السبع والأرضين السبع وما بينهما وما تحت الثرى، فعند ذلك وهنالك، قال ما قال بلسان الحال والمقال، كما أخبر عنه ذو العزة والجلال، الذى يعلم السر والنجوى، ويكشف الضر والبلوى، سميع الأصوات وإن ضعفت، وعالم الخفيات وإن دقت، ومجيب الدعوات وإن عظمت، حيث قال فى كتابه المبين، المنزل على رسوله الأمين، وهو أصدق القائلين ورب العالمين وإله المرسلين: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ﴾[الأنبياء: ٨٧ ـ ٨٨] أى إلى أهله ﴿مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧ ـ ٨٨] ﴿فظن أن لن نقدر عليه﴾أن نضيق عليه. ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ ظلمة الحوت و ظلمة البحر وظلمة الليل.

وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣ ـ ١٤٤] قيل: معناه فلولا أنه سبح الله هنالك، وقال ما قال من

(١) الأجاج: الشديد الملوحة.



التهليل والتسبيح، والاعتراف لله بالخضوع، والتوبة إليه والرجوع إليه للبث هنالك إلى يوم القيامة، ولبعث من جوف ذلك الحوت.

وقيل معناه: ﴿**فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ**﴾ من قبل أخذ الحوت له ﴿**مِنَ الْمُسَبِّحِينَ**﴾، أي المطيعين المصلين الذاكرين الله كثيرًا.

قال الله تعالى: ﴿**فنبذناه**﴾، أى ألقيناه ﴿**بالعراء**﴾ وهو المكان القفر الذى ليس فيه شىء من الأشجار، بل هو عار منها، ﴿**وهو سقيم**﴾، أى ضعيف البدن. ﴿**وأنبتنا عليه شجرة من يقطين**﴾ هو القرع.

قال بعض العلماء: فى إنبات القرع عليه حكم جمة، منها: أن ورقه فى غاية النعومة، وكثير، وظليل، ولا يقربه ذباب، ويؤكل ثمره من أول طلوعه إلى آخره. نيًا، ومطبوخًا، ويقشره، وببزره أيضًا، وفيه نفع كثير وتقوية للدماغ وغير ذلك.

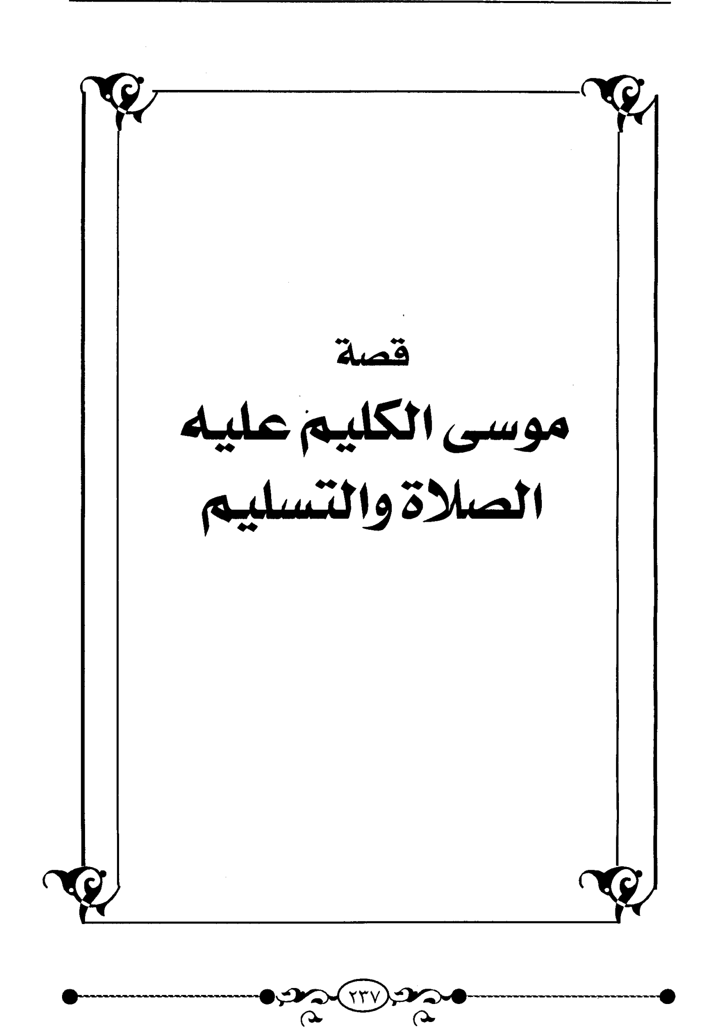
وهذا من رحمة الله به ونعمته عليه وإحسانه إليه. ولهذا قال تعالى: ﴿**فاستجبنا له ونجيناه من الغم**﴾، أى الكرب والضيق الذى كان فيه ﴿**وكذلك ننجى المؤمنين**﴾، أى وهذا صنيعنا بكل من دعا واستجار بنا[(١)].

وقال رسول الله ﷺ: «**دعوة ذى النون إذ هو فى بطن الحوت: ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين﴾، فإنه لم يدع بها مسلم ربه فى شىء قط إلا استجاب له**»[(٢)].



(١) «البداية والنهاية» (١/ ٢٦٧ ـ ٢٧١) باختصار.

(٢) صحيح. رواه أحمد (١/ ١٧٠) والترمذى (٣٥٠٥) والنسائى فى «عمل اليوم والليلة» (٦٦١) من حديث سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه.



قصة
موسى الكليم عليه الصلاة والتسليم

قصة موسى الكليم

عليه الصلاة والسلام

موسى ـ عليه السلام ـ هو ابن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾[مريم: ٥١ ـ ٥٣].

وقد ذكره الله تعالى فى مواضع كثيرة متفرقة من القرآن. وذكر قصته فى مواضع متعددة مبسوطة وغير مطولة.

قال الله تعالى: ﴿طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[القصص: ١ ـ ٦].

يذكر تعالى ملخص القصة، ثم يبسطها بعد هذا، فذكر أنه يتلو على نبيه خبر موسى وفرعون بالحق، أى بالصدق الذى كأن سامعه مشاهدًا للأمر معاين له.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾، أى تجبر وعتًا وطغى وبغى، وآثر الحياة الدنيا، وأعرض عن طاعة الرب الأعلى. وجعل أهلها شيعًا، أى قسم رعيته إلى أقسام، وفرق وأنواع، يستضعف طائفة منهم، وهم شعب بنى إسرائيل الذين هم من سلالة نبى الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله وكانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض. وقد سلط عليهم هذا الملك الظالم الغاشم الكافر الفاجر، يستعبدهم ويستخدمهم فى أخس الصنائع والحرف وأرادها وأدناها ومع هذا ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

وكان الحامل له على هذا الصنيع القبيح أن بنى إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يأثرونه عن إبراهيم عليه السلام، من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه. وذلك ـ والله أعلم ـ حين كان جرى على سارة امرأة الخليل من ملك مصر، ......

من إرادته إياها على السوء وعصمة الله لها. وكانت هذه البشارة مشهورة فى بنى إسرائيل، فتحدث بها القبط فيما بينهم، ووصلت إلى فرعون فذكرها له بعض أمرائه وأساودته وهم يسمرون عنده، فأمر عند ذلك بقتل أبناء بنى إسرائيل، حذرًا من وجود هذا الغلام، ولن يغنى حذر من قدر !

وعن ابن عباس وابن مسعود وعن أناس من الصحابة: أن فرعون رأى فى منامه، كأن نارًا قد أقبلت من نحو بيت المقدس، فأحرقت دور مصر وجميع القبط ولم تضر بنى إسرائيل. فلما استيقظ هاله ذلك، فجمع الكهنة والحذقة والسحرة. وسألهم عن ذلك، فقالوا: هذا غلام يولد من هؤلاء، يكون هلاك أهل مصر على يديه، فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك النسوان.

والمقصود أن فرعون احترز كل الاحتراز أن لا يوجد موسى، حتى جعل رجالاً وقوابل يدورون على الحبالى، ويعلمون ميقات وضعهن، فلا تلد امرأة ذكرًا إلا ذبحه أولئك الذباحون من ساعته.

هذا، والقدر يقول: أيهاذا الملك الجبار، المغرور بكثرة جنوده وسلطة بأسه واتساع سلطانه: قد حكم العظيم الذى لا يغالب ولا يمانع، ولا تخالف أقداره، إن هذا المولود الذى تحترز منه، وقد قتلت بسببه من النفوس ما لا يعد ولا يحصى، لا يكون مرباه إلا فى دارك وعلى فراشك، ولا يغذى إلا بطعامك وشرابك فى منزلك وأنت الذى تتبناه وتربيه وتتفداه، ولا تطلع على سر معناه، ثم يكون هلاكك فى دنياك وأخراك على يديه، لمخالفتك ما جاءك به من الحق المبين، وتكذيبك ما أوحى إليه، لتعلم أنت وسائر الخلق، أن رب السموات والأرض هو الفعال لما يريد، وأنه هو القوى الشديد، ذو البأس، والحول والقوة، والمشيئة التى لا مرد لها!

وقد ذكر غير واحد من المفسرين: أن القبط شكوا إلى فرعون قلة بنى إسرائيل، بسبب قتل ولدانهم الذكور، وخشى أن تتفانى الكبار مع قتل الصغار، فيصيرون هم الذين يلون ما كانوا بنو إسرائيل يعالجون فأمر فرعون بقتل الأبناء عامًا وأن يتركوا عامًا فذكروا أن هارون عليه السلام ولد فى عام المسامحة عن قتل الأبناء وأن موسى عليه السلام ولد فى عام قتلهم، فضاقت أمه به ذرعًا واحترزت من أول ما حبلت، ولم يكن يظهر عليها مخايل الحبل. فلما وضعت ألهمت أن اتخذت له تابوتًا، فربطته فى جبل وكانت دارها متاخمة للنيل، فكانت ترضعه، فإذا خشيت من أحد وضعته فى ذلك التابوت، فأرسلته فى البحر، وأمسكت طرف الحبل عندها، فإذا ذهبوا استرجعته إليها به.

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ⑦ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ⑧ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ⑨ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ⑩ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ٧ ـ ٩].

هذا الوحى وحى إلهام وإرشاد كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ⑥٨ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا﴾ [النحل: ٦٨ ـ ٦٩] الآية. وليس هو بوحى نبوة كما زعمه ابن حزم وغير واحد من المتكلمين بل الصحيح الأول، كما حكاه أبوه الحسن الأشعرى عن أهل السنة والجماعة.

قال السهيلى: واسم أم موسى «أيارخا» وقيل: «أيا ذخت». المقصود أنها أُرشدت إلى هذا الذى ذكرناه، وألقى فى خلدها وروعها أن لا تخافى ولا تحزنى، فإنه إن ذهب فإن الله سيرده إليك، وإن الله سيجعله نبياً مرسلاً، يعلى كلمته فى الدنيا والآخرة، فكانت تصنع ما أمرت به فأرسلته ذات يوم وذهلت أن تربط طرف الحبل عندها فذهب مع النيل فمر على دار فرعون ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ قال الله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ قال بعضهم: هذه (لام) العاقبة، وهو ظاهر إن كان متعلقاً بقوله فالتقطه، وأما إن جعل متعلقاً بمضون الكلام، وهو أن آل فرعون قيضوا لالتقاطه ليكون لهم عدواً وحزناً. وصارت اللام معللة كغيرها.. والله أعلم، ويقوى هذا التقدير الثانى قوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ﴾ وهو الوزير السوء ﴿وَجُنُودَهُمَا﴾ والتابعين لهما ﴿كَانُوا خَاطِئِينَ﴾، أى كانوا على خلاف الصواب، فاستحقوا هذه العقوبة والحسرة.

وذكر المفسرون: أن الجوارى التقطته من البحر فى تابوت مغلق عليه، فلم يتجاسرن على فتحه، حتى وضعنه بين يدى امرأة فرعون «آسية» بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد، الذى كان فرعون مصر فى زمن يوسف.

فلما فتحت الباب وكشفت الحجاب، ورأت وجهه يتلألأ بتلك الأنوار النبوية



والجلالة الموسوية، فلما رأته ووقع نظرها عليه أحبته حباً شديداً جداً فلما جاء فرعون قال: ما هذا؟ وأمر بذبحه، فاستوهبته منه ودفعت عنه وقالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾. فقال لها فرعون: أما لك فنعم وأما لى فلا، أى لا حاجة لى به والبلاء موكل بالمنطق!.

وقولها: ﴿عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا﴾ قد أنالها الله ما رجت من النفع، أما فى الدنيا فهداها الله به، وأما فى الآخرة فأسكنها جنته بسببه. ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ وذلك أنهما تبنياه؛ لأنه لم يكن يولد لهما ولد. قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ أى لا يدرون ماذا يريد الله بهم، أن قيضهم لالتقاطه، من النقمة العظيمة بفرعون وجنوده؟

وقال الله تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ . وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ . فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١٠ـ ١٣].

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو عبيدة والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾، أى من كل شىء من أمور الدنيا إلا من موسى ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾، أى لتظهر أمره وتسأل عنه جهرة ﴿لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ أى صبرناها وثبتناها﴿ لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ⑩ وَقَالَتْ لأُخْتِهِ﴾ وهى ابنتها الكبيرة: ﴿ قُصِّيهِ﴾ أى اتبعى أثره، واطلبى لى خبره ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ﴾ قال مجاهد: عن بعد. وقال قتادة: جعلت تنظر إليه وكأنه لا تريده. ولهذا قال: ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾.؛ وذلك لأن موسى عليه السلام لما استقر بدار فرعون أرادوا أن يغدوه برضاعة فلم يقبل ثدياً ولا أخذ طعاماً، فحاروا فى أمره: واجتهدوا على تغذيته بكل ممكن فلم يفعل كما قال تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ فأرسلوه مع القوابل والنساء إلى السوق، لعلهم يجدون من يوافق رضاعته. فبينما هم وقوف به والناس عكوف عليه إذ بصرت به أخته، فلم تظهر أنها تعرفه بل قالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾؟ قال ابن عباس: لما قالت ذلك، قالوا لها: ما يدريك بنصحهم وشفقتهم عليه؟ فقالت: رغبة فى سرور الملك ورجاء منفعته.

فأطلقوها وذهبوا معها إلى منزلهم، فأخذته أمه. فلما أرضعته التقم ثديها وأخذ يمتصه ويرتضعه، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، وذهب البشير إلى «آسية» يُعلمها بذلك، فاستدعتها إلى منزلها وعرضت عليها أن تكون عندها، وأن تحسن إليها، فأبت عليها

وقالت: إن لى بعلاً وأولاداً، ولست أقدر على هذا إلا أن ترسليه معى. فأرسلته معها، ورتبت لها رواتب، وأجرت عليها النفقات والكساوى والهبات، فرجعت به تحوزه إلى رحلها وقد جمع الله شمله بشملها.

قال الله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾، أى كما وعدناها برده ورسالته، فهذا رده، وهو دليل على صدق البشارة برسالته. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقد امتن على موسى بهذا ليلة كلمه، فقال له فيما قال: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٧ ـ ٣٩]؛ وذلك أنه لا يراه أحد إلا أحبه ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٤٠] قال قتادة وغير واحد من السلف: أى تطعم وترفه وتغذى بأطيب المآكل، وتلبس أحسن الملابس بمرأى منى، وذلك كله بحفظى وكلاءتى لك فيما صنعت بك ولك، وقدرته من الأمور التى لا يقدر عليها غيرى. ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٤ ـ١٧].

لما ذكر تعالى أنه أنعم على أمه برده لها وإحسانه بذلك وامتنانه عليها، شرع فى ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى، وهو احتكام الخلق والخلق [(١)]، وهو سن الأربعين فى قول الأكثرين، آتاه الله حكماً وعلماً، وهو النبوة والرسالة التى كان بشر بها أمه حين قال: ﴿إنا رادوه إليك وجعلوه من المرسلين﴾.

ثم شرع فى ذكر سبب خروجه من بلاد مصر، وذهابه إلى أرض مدين وإقامته هنالك، حتى كَمَّلَ الأجل وانقضى الأمد، وكان من كلام الله له، وإكرامه بما أكرمه به،

(١) الخلق والخلق: الأولى بفتح الخاء وتسكين اللام والثانية بضم الخاء واللام.

كما سيأتى.

قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة والسدى: وذلك نصف النهار، وعن ابن عباس: بين العشائين [1] ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ﴾، أى يتضاربان ويتهاوشان ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ﴾، أى إسرائيلى ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ أى قبطى. ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾، وذلك أن موسى عليه السلام، كانت له بديار مصر صولة، بسبب نسبته إلى تبنى فرعون له وتربيته فى بيته، وكانت بنو إسرائيل قد عزوا وصارت لهم وجاهة، وارتفعت رؤوسهم بسبب أنهم أرضعوه، وهم أخواله ـ أى من الرضاعة، فلما استغاث ذلك الإسرائيلى موسى عليه السلام على ذلك القبطى أقبل إليه موسى ﴿فَوَكَزَهُ﴾ قال مجاهد: أى طعنه بجمع كفه، وقال قتادة: بعصا كانت معه، ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أى فمات منها.

وقد كان ذلك القبطى كافراً مشركاً بالله العظيم، ولم يُرد موسى قتله بالكلية، وإنما أراد زجره وردعه. ومع هذا، ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ أى من العز والجاه ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ . فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ . وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ. فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[القصص: ١٨ـ ٢١].

يخبر تعالى: أن موسى أصبح بمدينة مصر خائفاً ـ أى من فرعون وملئه ـ أن يعلموا أن هذا القتيل الذى رفع إليه أمره، إنما قتله موسى فى نصرة رجل من بنى إسرائيل، فتقوى ظنونهم أن موسى منهم، ويترتب على ذلك أمر عظيم.

فصار يسير فى المدينة فى صبيحة ذلك اليوم ﴿خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أى يلتفت، فبينما هو كذلك، إذا ذلك الرجل الإسرائيلى الذى استنصره بالأمس يستصرخه، أى يصرخ به ويستغيثه على آخر قد قاتله، فعنفه موسى ولامه على كثرة شره ومخاصمته، قال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ ثم أراد أن يبطش بذلك القبطى، الذى هو عدو لموسى.

وللإسرائيلي، فيردعه عنه ويخلصه منه، فلما عزم على ذلك وأقبل على القبطي ﴿**قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ**﴾. قال بعضهم: إنما قال هذا الكلام الإسرائيلي الذي اطلع على ما كان صنع موسى بالأمس، وكأنه لما رأى موسى مقبلاً إلى القبطي اعتقد أنه جاء إليه، لما عنفه قبل ذلك بقوله: ﴿**إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ**﴾ فقال ما قال لموسى، وأظهر الأمر الذي كان وقع بالأمس. فذهب القبطي فاستعدى فرعون على موسى. وهذا الذي لم يذكر كثير من الناس سواه. ويحتمل أن قائل هذا هو القبطي، وأنه لما رآه مقبلاً إليه خافه، ورأى من سجيته انتصاراً جديداً للإسرائيلي، فقال ما قال من بابا الظن والفراسة: إن هذا لعله قاتل ذاك القتيل بالأمس، أو لعله فهم من كلام الإسرائيلي حين استصرخه عليه ما دله على هذا.. والله أعلم.

والمقصود أن فرعون بلغه أن موسى هو قاتل ذلك المقتول بالأمس فأرسل فى طلبه، وسبقهم رجل ناصح من طريق أقرب. ﴿**وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ**﴾ ساعياً إليه مشفقاً عليه فقال: ﴿**يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ**﴾، أى من هذه البلدة ﴿**إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ**﴾ أى فيما أقوله لك.

قال الله تعالى: ﴿**فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ**﴾، أى فخرج من مدينة مصر من فوره على وجهه لا يهتدى إلى طريق ولا يعرفه، قائلاً: ﴿**رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ**﴾ [القصص: ٢١ ـ ٢٤].

يخبر تعالى عن خروج عبده ورسوله وكليمه من مصر خائفاً يترقب، أى يتلفت، خشية أن يدركه أحد من قوم فرعون، وهو لا يدرى أين يتوجه، ولا إلى أين يذهب، وذلك لأنه لم يخرج من مصر قبلها. ﴿**وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ**﴾، أى اتجه له طريق يذهب فيه، ﴿**عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ**﴾ أى عسى أن تكون هذه الطريق موصلة إلى المقصود، وكذا وقع، فقد أوصلته إلى المقصود وأى مقصود. ﴿**وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ**﴾ وكانت بئرا يستقون منها، ومدين هى المدينة التى أهلك الله فيها أصحاب الأيكة، وهم قوم شعيب عليه السلام، وقد كان هلاكهم قبل زمن موسى عليه السلام فى أحد قولى العلماء.

ولما ورد الماء المذكور ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أى تكفكفان عنهما غنمهما أن تختلط بغنم الناس. ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾، أي لا نقدر على ورود الماء إلا بعد صدور الرعاء، لضعفنا، وسبب مباشرتنا هذه الرعية ضعف أبينا وكبره. قال الله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾. قال المفسرون: وذلك أن الرعاء كانوا إذا فرغوا من وردهم، وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة، فتجيء هاتان المرأتان فيشربان غنمهما فى فضل أغنام الناس، فلما كان ذلك اليوم، جاء موسى فرفع تلك الصخرة وحده، ثم استقى لهما وسقى غنمهما ثم رد الحجر كما كان. قال أمير المؤمنين عمر: وكان لا يرفعه إلا عشرة، وإنما استقى ذنوباً واحداً فكفاهما. ثم تولى إلى الظل، قالوا: وكان ظل شجرة من السمر ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾. قال عطاء بن السائب لما قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أسمع المرأة.

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٥ ـ ٢٨].

لما جلس موسى عليه السلام فى الظل وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ سمعته المرأتان فيما قيل، فذهبتا إلى أبيهما فيقال إنه استنكر سرعة رجوعهما، فأخبرتاه بما كان من أمر موسى عليه السلام، فأمر إحداهما، أن تذهب إليه فتدعوه ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾، أى مشى الحرائر، ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ صرحت له بهذا لئلا يوهم كلامها ريبة، وهذا من تمام حيائها وصيانتها. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ وأخبره خبره، وما كان من أمره فى خروجه من بلاد مصر فراراً من فرعونها، ﴿قَالَ﴾ له ذلك الشيخ: ﴿لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، أى خرجت من سلطانهم فلست فى دولتهم.

وقد اختلفوا فى هذا الشيخ من هو؟. فقيل: هو شعيب عليه السلام. وهذا هو

المشهور عند كثيرين، وممن نص عليه الحسن البصرى ومالك بن أنس، وجاء مصرحا به فى حديث، ولكن فى إسناده نظر.

وصرح طائفة: بأن شعيبا عليه السلام عاش عمرا طويلا بعد هلاك قومه، حتى أدركه موسى عليه السلام وتزوج بابنته.

وروى ابن أبى حاتم وغيره عن الحسن البصرى: أن صاحب موسى عليه السلام هذا، اسمه شعيب، وكان سيد الماء، ولكن ليس بالنبى صاحب مدين. وقيل: إنه ابن أخى شعيب، وقيل: ابن عمه، وقيل: رجل مؤمن من قوم شعيب، وقيل: رجل اسمه «يثرون» هكذا هو فى كتب أهل الكتاب: يثرون كاهن مدين، أى كبيرها وعالمها.

وقال ابن عباس وأبو عبيدة بن عبد الله: اسمه يثرون. زاد أبو عبيدة: وهو ابن أخى شعيب. وزاد ابن عباس: صاحب مدين.

والمقصود: أنه لما أضافه وأكرم مثواه، وقص عليه ما كان من أمره بشره بأنه قد نجا، فعند ذلك قالت إحدى البنتين لأبيها: ﴿**يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ**﴾، أى لرعى غنمك، ثم مدحته بأنه قوى أمين.

قال عمر، وابن عباس، وشريح القاضى، وأبو مالك، وقتادة، ومحمد بن إسحاق، وغير واحد: لما قالت ذلك، قال لها أبوها: وما علمك بهذا؟! فقالت: إنه رفع صخرة لا يطيق رفعها إلا عشرة، وإنه لما جئت معه تقدمت أمامه فقال: كونى من ورائى، فإذا اختلف الطريق فاحذفى لى بحصاة أعلم بها كيف الطريق.

قال ابن مسعود: أفرس الناس ثلاثة: صاحب يوسف حين قال لامرأته: أكرمى مثواه، وصاحبة موسى حيث قالت: ﴿ **يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ**﴾ وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب.

﴿ **قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ** ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ **قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ**﴾، يقول: إن موسى قال لصهره: الأمر على ما قلت، فأيهما قضيت فلا عدوان على، والله على مقالتنا سامع وشاهد، ووكيل على وعليك، ومع هذا فلم يقض موسى إلا أكمل الأجلين وأتمهما وهو العشر سنين كوامل تامة.

عن سعيد بن جبير، قال: سألني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى؟ فقلت: لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله. فقدمت فسألت ابن عباس فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله إذا قال فعل(1).

قال الله: ﴿ **فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ** ﴾ [القصص: ٢٩ ـ ٣٢].

تقدم أن موسي قضى أتم الأجلين وأكملهما. وقد يؤخذ هذا من قوله: ﴿ **فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ** ﴾. وقوله ﴿ **وَسَارَ بِأَهْلِهِ** ﴾، أي من عند صهره، زاعماً ـ فيما ذكره غير واحد من المفسرين وغيرهم ـ أنه اشتاق إلى أهله، فقصد زيارتهم ببلاد مصر في صورة مختف فلما سار بأهله ومعه ولدان منهم وغنم قد استفادها مدة مقامه.

قالوا: واتفق ذلك فى ليلة مظلمة باردة، وتاهوا فى طريقهم فلم يهتدوا إلى السلوك فى الدرب المألوف، وجعل يورى زناده فلا يرى شيئا، واشتد الظلام والبرد. فبينما هو كذلك إذ أبصر عن بعد ناراً تأجج فى جانب الطور ـ وهو الجبل الغربى منه عن يمينه فـ ﴿ **قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا** ﴾ وكأنه والله أعلم رآها دونهم؛ لأن هذه النار هى نور فى الحقيقة، ولا يصلح رؤيتها لكل أحد. ﴿ **لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ** ﴾، أى لعلى أستعلم من عندها عن الطريق ﴿ **أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ** ﴾ فدل علي أنهم كانوا قد تاهو عن الطريق فى ليلة باردة ومظلمة، لقوله فى الآية الأخرى: ﴿ **وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (٩) إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى** ﴾ [طه: ٩ ـ ١٠] فدل على وجود الظلام وكونهم تاهوا عن الطريق. وجمع الكل فى سورة النمل فى قوله: ﴿ **إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ** ﴾ [النمل: ٧]، وقد آتاهم بخبر وأى خبر، ووجد عندها هدى وأى هدى واقتبس منها نوراً وأى نور؟.

(١) رواه البخارى.



قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[القصص: ٣٠].

وقال فى النمل: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٨] أى سبحان الله الذى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النمل: ٩].

وقال فى سورة طه: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (١٥) فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١١ ـ ١٦].

قال غير واحد من المفسرين من السلف والخلف: لما قصد موسى إلى تلك النار التى رآها فانتهى إليها، وجدها تأجج فى شجرة خضراء من العوسج [1]، وكل ما لتلك النار فى اضطرام، وكل ما لخضرة تلك الشجرة فى ازدياد. فوقف متعجباً، وكانت تلك الشجرة فى لحف جبل غربى منه عن يمينه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [القصص: ٤٤] وكان موسى فى واد اسمه «طوى» فكان موسى مستقبل القبلة، وتلك الشجرة عن يمينه من ناحية الغرب، فناداه ربه بالواد المقدس طوى، فأمر أولاً بخلع نعليه تعظيماً وتكريماً وتوقيراً لتلك البقعة المباركة، ولا سيما فى تلك الليلة المباركة.

ثم خاطبه تعالى كما يشاء قائلاً له: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠] ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]، أى أنا رب العالمين الذى لا إله إلا هو، الذى لا تصلح العبادة وإقامة الصلاة إلا له.

ثم أخبره أن هذه الدنيا ليست بدار قرار، وإنما الدار الباقية يوم القيامة، التى لا بد من كونها ووجودها ﴿**لتجزى كل نفس بما تسعى**﴾، أى من خير وشر، وحضه وحثه على العمل لها، ومجانبة من لا يؤمن بها ممن عصى مولاه واتبع هواه. ثم قال له مخاطباً ومؤانساً ومبيناً له أنه القادر على كل شىء، الذى يقول للشىء كن فيكون: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧]، أى أما هذه عصاك التى تعرفها منذ صحبتها؟ ﴿قَالَ هِيَ

(١) العوسج: الشوك.

عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨]، أى بلى هذه عصاى التى أعرفها وأتحققها، ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ . فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٩ ـ ٢٠]. وهذا خارق عظيم وبرهان قاطع على أن الذى يكلمه هو الذى يقول للشىء: كن فيكون، وأنه الفعال بالاختيار.

وقد قال تعالى فى الآية الأخرى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [القصص: ٣١]، أى قد صارت حية عظيمة لها ضخامة هائلة وأنياب تصك، وهى مع ذلك فى سرعة حركة الجان، وهو خرب من الحيات يقال له الجان والجنان، وهو لطيف ولكن سريع الاضطراب والحركة جداً، فهذه جمعت الضخامة والسرعة الشديدة. فلما عاينها موسى عليه السلام: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾، أى هارباً منها، لأن طبيعته البشرية تقتضى ذلك ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾، أى ولم يلتفت، فناداه ربه قائلاً له: ﴿يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾. فلما رجع أمره الله تعالى أن يمسكها ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾ [طه: ٢١] ثم أمره تعالى بإدخال يده فى جيبه، ثم أمره بنزعها فإذا هى تتلألأ كالقمر بياضاً من غير سوء، أى من غير برص ولا بهق، ولهذا قال: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ [القصص: ٣٢] قيل معناه: إذا خفت فضع يدك على فؤادك يسكن جأشك.

وقال فى سورة النمل: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[النمل: ١٢]، أى هاتان الآيتان وهما: العصا واليد، هما البرهانان المشار إليهما فى قوله: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[القصص: ٣٢] ومع ذلك سبع آيات أخر. فذلك تسع آيات بينات وهى المذكورة فى آخر سورة سبحان، حيث يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١-١٠٢]. وهى المبسوطة فى سورة الأعراف فى قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١)



وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾[الأعراف: ١٣٠ـ ١٣٣]

والمقصود أن الله سبحانه لما أمـر موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [القصص: ٣٣ ـ ٣٥].

يقول تعالى مخـبراً عن عبده ورسوله وكليمه مـوسى عليه السلام، في جوابه لربه عـزّ وجلّ حين أمره بالذهـاب إلى عدوه الذى خـرج من ديار مـصر فـراراً من سطوته وظلمه، حين كان من أمره ما كان فى قتل ذلك القبطى ولهذا: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ أى اجعـله معى مـعيناً وردءاً ووزيراً يسـاعدنى، ويعـيننى على أداء رسـالتك إليـهم فإنـه أفصح منى لسـاناً وأبلغ بـياناً. قـال الله تعـالى مـجيـبـاً له إلى سؤاله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾

أي برهاناً ﴿فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾، أى فلا ينالـون منكما مكروهاً بسـبب قيـامكما بآياتنا، وقيل: ببركة آياتنا. ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾.

وقال فى سورة طه: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ [طه: ٢٤ ـ ٢٨] قيل: إنه أصابه فى لسانه لثغـة، بسبب تلك الجمرة التى وضعها على لسـانه، والتى كان فرعون أراد اختبار عقله، حين أخـذ بلحيته وهو صغير فهمّ بقتله، فخـافت عليه آسية وقالت: إنه طفل، فاختبره بوضع ثمرة وجمـرة بين يديه فهم بأخذ الثمرة فصرف الملك يده إلى الجمرة، فأخذها فوضعـها على لسانه فأصابه لثغة بسببها. فـسأل زوال بعضها بمقدار ما يفهمون قوله، ولم يسأل زوالها بالكلية.

قال الحسن البصرى: والرسل إنما يسألون بحسب الحاجة، ولهذا بقيت فى لسانه بقية.

ولهذا قـال فرعون، قـبحه الله، فـيما زعم أنه يعـيب به الكليم: ﴿وَلا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢]، أى يفصح عن مراده، ويعبر عما فى ضميره وفؤاده.



ثم قال موسى عـليه السلام: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي(٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا . قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٢٩ ـ ٣٦]. أي قد أجبناك إلى جـميع ما سألت، وأعطيناك الذى طلبت. وهذا من وجاهته عند ربه عز وجل، حين شفع أن يوحى الله إلى أخيـه فأوحى إليه. وهذا جاه عظيم، قـال الله تعالى: ﴿وكان عند الله وجـيها﴾ [الأحزاب: ٦٩] وقال تعالى: ﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً﴾ [مريم: ٥٣].

وقد سمعت أم المؤمنين عائشة رجلاً يقول لأناس وهم سائرون فى طريق الحج: أى أخ آمن على أخيه؟ فسكت القوم فقالت عائشة لمن حول هودجها: هو موسى بن عمران حين شفع في أخنيه هارون فأوحى إليه. قـال الله تعالى: ﴿ووهبنا له من رحمـتنا أخاه هارون نبياً﴾.

وقال تعالى فى سـورة الشعراء: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ . قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُون . وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ . وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُون . قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ . فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ . قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ . وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[الشعراء: ١٠ ـ ١٩].

تقدير الكلام: فـأتياه فقالا له ذلك، وبلغـاه ما أرسلا به من دعوته إلـى عبادة الله تعالى وحده لا شـريك له، وأن يفك أسارى بنى إسرائيل من قبضتـه وقهره وسطوته، ويتركهم يعبدون ربهم حيث شاءوا، ويتفرغون لتوحيده ودعائه والتضرع لديه.

فتكبر فرعون فى نفسه وعتا وطغي، ونظر إلى موسى بعين الازدراء والتنقص قائلاً له: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾، أى أمـا أنت الذى ربيناه فى منزلنا؟ وأحسنا إليه وأنعمنا عليه مدة من الدهر؟

وهذا يدل على أن فـرعون الذى بعث إليـه هو الذى فـرَّ منه، خلافـاً لما عند أهل الكتاب: من أن فـرعون الذى فر منه مات فـى مدة مقامـه بمدين، وأن الذى بعث إليه فرعون آخر.



وقوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩]، أى وقتلت الرجل القبطى، وفررت منا وجحدت نعمتنا. ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠]، أى قبل أن يوحى إلى وينزل على ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ٢١].

ثم قال مجيبا لفرعون عما امتن به من التربية والإحسان إليه: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢]، أى وهذه النعمة التى ذكرت، من أنك أحسنت إلى وأنا رجل واحد من بنى إسرائيل تقابل ما استخدمت هذا الشعب بكامله، واستعبدتهم فى أعمالك وخدمتك وأشغالك.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٣ ـ ٢٨].

يذكر تعالى ما كان بين فرعون وموسى من المقاولة والمحاجة والمناظرة، وما أقامه الكليم على فرعون اللئيم، من الحجة المعنوية ثم الحسية.

وذلك أن فرعون ـ قبحه الله ـ أظهر جحد الصانع تبارك وتعالى، وزعم: أنه الإله ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٣ ـ ٢٤]. ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

وهو فى هذه المقالة معاند، يعلم أنه عبد مربوب، وأن الله هو الخالق البارئ المصور، الإله الحق كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

ولهذا قال لموسى عليه السلام على سبيل الإنكار لرسالته، والإظهار أنه ما ثم رب أرسله. ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] لأنهما قالا له: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦] فكأنه يقول لهما: ومن رب العالمين الذى تزعمان أنه أرسلكما وابتعثكما؟.



فأجابه موسى قائلاً: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، يعنى رب العالمين خالق هذه السموات والأرض المشاهدة، ومـا بينهما من المخلوقات المتعددة، من السحاب والرياح والمطر والنبات والحيوانات التى يعلم كل موقن أنها لم تحدث بأنفسها، ولابد لها من موجد ومحدث وخالق. وهو الله الذى لا إله إلا هو رب العالمين.

﴿قَالَ﴾ أى فرعون ﴿لِمَنْ حَوْلَهُ﴾ من أمرائه ومرازبته ووزرائه، على سبيل التهكم والتنقص لما قرره موسى عليه السلام: ﴿أَلا تَسْتَمِعُونَ﴾ يعنى كلامه هذا. ﴿قَالَ﴾ موسى مخـاطباً له ولهم: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ﴾ [الشعراء:٢٦] أى هو الذى خلقكم والذين من قبلكم من الآباء والأجداد، والقرون السـالفة فى الآباد، فإن كل أحد يعلم أنه لم يخلق نفسه، ولا أبوه ولا أمه، ولا يحدث من غير محدث، وإنما أوجده وخلقه رب العالمين.

ومع هذا كله لم يستفق فـرعون من رقدته، ولا نزع عن ضلالته، بل اسـتمر على طغيانه وعناده وكفرانه: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[الشعراء:٢٧، ٢٨] أى هو المسـخر لهذه الكواكب الزاهرة المسير للأفلاك الدائرة، خالق الظلام والضياء، ورب الأرض والسماء، رب الأولين والآخريـن، خالق الشـمس والقمـر، والكواكب السائرة، والثـوابت الحائرة، خـالق الليل بظلامـه، والنهار بضـيائـه، والكل تحت قهـره وتسخـيـره وتسيـيره سـائرون، وفى فلك يسبحون، ويتعاقبون فى سـائر الأوقات ويدورون. فهو تعالى الخالق المالك المتصرف فى خلقه بما يشاء.

فلما قامت الحجج على فرعون وانقطعت شبهه، ولم يبق له قول سوى العناد، عدل إلى اسـتعـمـال سلطانه وجـاهه وسطوته: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩ ـ ٣٣].

وهذان هما البرهانان اللذان أيده الله بهما، وهما العصا واليد، وذلك مقام أظهر فيه الخارق العظيم الذى بهر به العقول والأبصار، حين ألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين، أى عظيم الشكل، و بديع فى الضخامة والهـول، والمنظر العظيم الفظيع الباهر، حتى قيل: إن فرعون لما شاهد ذلك وعاينه، أخذه رهب شديد وخوف عظيم.

وهكذا لما أدخل موسى عليه السلام يده فى جيبه واستـخرجها، أخرجها وهى كفلقة القمـر تتلألأ نوراً يبهر الأبـصار، فإذا أعادها إلى جـيبه واستـخرجهـا رجعت إلى صفتـها الأولى.

ومع هذا كله لم ينتفع فـرعون ـ لعنه الله ـ بشيء من ذلك بل استمـر على ما هو عليه، وأظهر أن هذا كله سحـر، وأراد معارضته بالسحرة، فأرسل يجـمعهم من سائر مملكته ومن هم فى رعيته وتحت قهره ودولته، كما سيأتى بسطه وبيانه فى موضعه، من إظهار الله الحق والحجـة الباهرة القاطعة على فرعون وملئـه، وأهل دولته وملئه.. ولله الحمد والمنة.

● ● ●

وقال تعالى فى سورة طه: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ. قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٠ ـ ٤٦].

يقول تعـالى مخـاطباً لموسى فيـما كلمه بـه ليلة أوحى إليه، وأنعم بالنبـوة عليه، وكلمه منه إليه: قد كنت مشـاهداً لك وأنت فى دار فرعون، وأنت تحت كنفى وحفظى ولطفى، ثم أخرجتك من أرض مصر إلى أرض مدين بمشيئتى وقدرتى وتدبيرى، فلبثت فيها سنين.

﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾، أى منى لذلك، فوافـق ذلك تقديرى وتسيـيرى ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾، أى اصطفيتك لنفـسى برسالتى وبكلامى. ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾[طه:٤٣] يعنى ولا تفترا فى ذكرى إذا قدمتما عليه وفدتما إليه، فإن ذلك عون لكما على مخاطبته ومجاوبته، وأداء النصيحة إليه وإقامة الحجج عليه.

ثم قال تعالى: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ وهذا من حلمه تعـالى وكرمه ورأفـته ورحمتـه بخلقه، مع علمـه بكفر فرعون وعـتوه وتجبره. وهو إذ ذاك أردى خلقه، وقد بعث إليه صفوته من خلقه فى ذلك الزمان، ومع هذا يقول لهمـا ويأمرهما أن يدعواه إليه بالتى هى أحـسن برفق ولين. ويعاملاه بلطف معاملة من يرجـو أن يتذكر أو يخشى. كمـا قاله لرسوله: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبـوت:٤٦]. قال الحـسن البصرى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ أعذرا إليه، قولا له: إن لك رباً ولنا معاداً، وإن بين يديك جنة وناراً. وقال وهب بن منبه: قولا له: إنى إلى العفو والمغفرة أقرب منى إلى الغضب



والعقوبة. قال يزيد الرقاشي عند هذه الآية: يا من يتحبب إلى من يعاديه، فكيف بمن يتولاه ويناديه؟.

﴿قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى﴾[طه:٤٥]، وذلك أن فرعون كان جبارا عنيداً وشيطاناً مريداً، له سلطان فى بلاد مصر طويل عريض، وجاه وجنود، وعساكر وسطوة، فهاباه من حيث البشرية، وخافا أن يسطو عليهما فى بادىء الأمر، فثبتهما تعالى وهو العلى الأعلى فقال: ﴿ قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦] ، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ١٥]. ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [طه: ٤٧ ـ ٤٨] يذكر تعالى أنه أمرهما أن يذهبا إلى فرعون فيدعواه إلى الله تعالى، أن يعبده وحده لا شريك له وأن يرسل معهما بنى إسرائيل ويطلقهم من أسره وقهره ولا يعذبهم. ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ وهو البرهان العظيم فى العصا واليد. ﴿وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ تقييد مفيد بليغ عظيم، ثم تهدداه وتوعداه على التكذيب فقالا: ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾، أى كذب بالحق بقلبه وتولى عن العمل بقالبه

وقال الله مخبراً عن فرعون: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٤٩ ـ ٥٥].

بقول تعالى مخبراً عن فرعون: إنه أنكر إثبات الصانع تعالى قائلا: ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾، أى هو الذى خلق الخلق وقدر لهم أعمالاً وأرزاقاً وآجالاً، وكتب ذلك عنده فى كتابه اللوح المحفوظ ثم هدى كل مخلوق إلى ما قدره له، فطابق عمله فيهم على الوجه الذى قدره وعلمه لكمال علمه وقدرته وقدره قال: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ﴾ [طه:٥١] يقول فرعون لموسى: فإذا كان ربك هو الخالق المقدر الهادى الخلائق لما قدره، وهو بهذه المثابة من أنه لا يستحق العبادة سواه، فلم عبد الأولون غيره؟ وأشركوا به من الكواكب والأنداد ما قد علمت؟ فهلا اهتدى إلى ما ذكرته القرون الأولى؟﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى﴾ [طه:٥٢] أى هم وإن عبدوا غيره فليس ذلك بحجة لك، ولا يدل على خلاف

ما أقول لأنهم جهلة مثلك، وكل شيء فعلوه مستطر عليهم في الزبر، من صغير وكبير وسيجزيهم على ذلك ربي عزّ وجلّ، ولا يظلم أحداً مثقال ذرة؛ لأن جميع أفعال العباد مكتوبة عنده في كتاب لا يضل عنه شيء ولا ينسى ربي شيئاً.

ثم ذكر له عظمة الرب وقدرته على خلق الأشياء، وجعله الأرض مهاداً والسماء سقفاً محفوظاً، وتسخيره السحاب والأمطار لرزق العباد ودوابهم وأنعامهم، كما قال: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ ،[طه: ٥٤] أي لذوي العقول الصحيحة المستقيمة، والفطر القويمة غير السقيمة، فهو تعالى الخالق الرازق، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١ ـ٢٢].

ولما ذكر إحياء الأرض بالمطر، واهتزازها بإخراج نباتها فيه نبه به على المعاد فقال: ﴿مِنْهَا﴾ أي من الأرض ﴿خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ .

كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[الأعراف: ٢٩] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٧]. ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٦ ـ ٥٩].

يخبر تعالى عن شقاء فرعون وكثرة جهله وقله عقله، في تكذيبه بآيات الله واستكباره عن اتباعها، وقوله لموسى: إن هذا الذي جئت به سحر، ونحن نعارضك بمثله. ثم طلب من موسى أن يواعده إلى وقت معلوم ومكان معلوم. وكان هذا من أكبر مقاصد موسى عليه السلام: أن يظهر آيات الله وحججه وبراهينه جهرة بحضرة الناس. ولهذا ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ وكان يوم عيد من أعيادهم ومجتمع لهم ﴿وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾، أي من أول النهار في وقت اشتداد ضياء الشمس، فيكون الحق أظهر وأجلى، ولم يطلب أن يكون ذلك ليلاً في ظلام، كيما يروج عليهم محالاً وباطلاً، بل طلب أن يكون نهاراً جهرة، لأنه على بصيرة من ربه، ويقين بأن الله سيظهر كلمته ودينه، وإن رغمت أنوف القبط.



قال الله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ (٦٠) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ (٦٢) قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾[طه: ٦٠ـ ٦٤]

يخبر تعالى عن فرعون: أنه ذهب فجمع من كان ببلاده من السحرة، وكانت بلاد مصر فى ذلك الزمان مملوءة سحرة ، فجمعوا له من كل بلد ومن كل مكان فاجتمع منهم خلق كثير وجم غفير.

وحضر فرعون وأمراؤه وأهل دولته وأهل بلده عن بكرة أبيهم، وذلك أن فرعون نادى فيهم أن يحضروا هذا الموقف العظيم، فخرجوا وهم يقولون: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٠]. وتقدم موسى عليه السلام إلى السحرة فوعظهم وزجرهم عن تعاطى السحر الباطل الذى فيه معارضة لآيات الله وحججه فقال: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾. [طه: ٦١ ـ٦٢] قيل: معناه أنهم اختلفوا فيما بينهم، فقائل يقول: هذا كلام نبى وليس بساحر.

وقائل منهم يقول: بل هو ساحر.. فالله أعلم. وأسروا التناجى بهذا وغيره.

﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا﴾[طه: ٦٣]

يقولون: إن هذا وأخاه هارون، ساحران متقنان لهذه الصناعة ومرادهما أن يجتمع الناس عليهما ويصولا على الملك وحاشيته، ويستأصلاكم عن آخركم ويستأمرا عليكم بهذه الصناعة. ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾وإنما قالوا: الكلام الأول ليتدبروا ويتواصوا، ويأتوا بجميع ما عندهم من المكيدة والمكر والخديعة. والسحر والبهتان

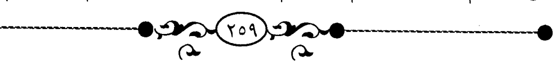
وهيهات! كذبت والله الظنون، وأخطأت الآراء، أنى يعارض البهتان، والسحر والهذيان خوارق العادات التى أجراها الديان. على يدى عبده الكليم، ورسوله الكريم المؤيد بالبرهان، الذى يبهر الأبصار وتحار فيه العقول والأذهان! وقولهم: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾، أى جميع ما عندكم ﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾، أى جملة واحدة، ثم حضوا بعضهم بعضاً على التقدم فى هذا المقام؛ لأن فرعون كان وعدهم ومناهم، وما يعدهم الشيطان إلا غروراً.

﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٥ ـ ٦٩]

لما اصطف السحرة ووقف موسى وهارون عليهما السلام تجاههم قالوا له: إما أن تلقى قبلنا، وإما أن نلقى قبلك ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ أنتم، وكانوا قد عمدوا إلى حبال وعصى، فأودعوها الزئبق وغيره، من الآلات التى تضطرب بسببها تلك الحبال والعصى اضطراباً يخيل للرائى أنها تسعى باختيارها، وإنما تتحرك بسبب ذلك، فعند ذلك سحروا أعين الناس واسترهبوهم، وألقوا حبالهم وعصيهم، وهم يقولون: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤].

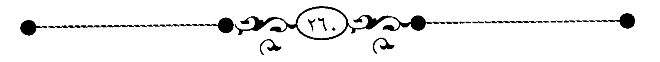
قال الله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]. وقال تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ فأوجس فى نفسه خيفة موسىٰ﴾، أى خاف على الناس أن يفتنوا بسحرهم ومحالهم، قبل أن يلقى ما فى يده، فإنه لا يصنع شيئاً قبل أن يؤمر فأوحى الله إليه فى الساعة الراهنة: ﴿لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ . وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٨ ـ ٦٩]. فعند ذلك ألقى موسى عصاه وقال: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٨١ ـ ٨٢]. وقال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧ ـ ١٢٢].

وذلك أن موسى عليه السلام لما ألقاها، صارت حية عظيمة ذات قوائم فيما ذكره غير واحد من علماء السلف، وعنق عظيم وشكل هائج مزعج، بحيث أن الناس انحازوا منها وهربوا سريعًا، وتأخروا عن مكانها وأقبلت هى على ما ألقوه من الحبال والعصى، فجعلت تلقفه واحدًا واحداً فى أسرع ما يكون من الحركة، والناس ينظرون إليها ويتعجبون منها، وأما السحرة فإنهم رأوا ما هالهم وحيرهم فى أمرهم، واطلعوا على أمر لم يكن فى خلدهم ولا بالهم ولا يدخل تحت صناعاتهم وأشغالهم، فعند



ذلك وهنالك تحققوا بما عندهم من العلم أن هذا ليس بسحر ولا شعوذة، ولا محال ولا خيال، ولا زور ولا بهتان ولا ضلال، بل حق لا يقدر عليه إلا الحق، الذى ابتعث هذا المؤيد به بالحق. وكشف الله عن قلوبهم غشاوة الغفلة، وأنارها بما خلق فيها من الهدى وأزاح عنها القسوة، وأنابوا إلى ربهم وخروا له ساجدين، وقالوا جهرة للحارضين ولم يخشوا عقوبة ولا بلوى: ﴿آمنا برب موسى ورب هارون﴾ كما قال تعالى: ﴿ **فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (٧٣) إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (٧٤) وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ**﴾[طه: ٧٠ ـ ٧٦].

قال سعيد بن جبير وعكرمة والقاسم بن أبى بردة والأوزاعى وغيرهم: لما سجد السحرة رأوا منازلهم وقصورهم فى الجنة تهيأ لهم، وتزخرف لقدومهم ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فرعون وتهديده ووعيده. وذلك لأن فرعون لما رأى هؤلاء السحرة قد أسلموا وأشهروا ذكر موسى وهارون فى الناس على هذه الصفة الجميلة، أفزعه ذلك، ورأى أمرًا بهره، وأعمى بصيرته وبصره، وكان فيه كيد ومكر وخداع، وصنعة بليغة فى الصد عن سبيل الله، فقال مخاطبًا للسحرة بحضرة الناس: ﴿**آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ**﴾، أى هلا شاورتمونى فيما صنعتم من الأمر الفظيع بحضرة رعيتى؟! ثم تهدد وتوعد وأبرق وأرعد، وكذب فأبعد قائلاً: ﴿**إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ**﴾وقال فى الآية الأخرى: ﴿**إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف: ١٢٣]. وهذا الذى قاله من البهتان الذى يعلم كل فرد عاقل ما فيه من الكفر والكذب والهذيان، بل لا يروج مثله على الصبيان، فإن الناس كلهم من أهل دولته وغيرهم يعلمون أن موسى لم يره هؤلاء يومًا من الدهر، فكيف يكون كبيرهم الذى علمهم السحر؟ ثم هو لم يجمعهم ولا علم باجتماعهم، حتى كان فرعون هو الذى استدعاهم، واجتباهم من كل فج عميق، وواد سحيق، ومن حواضر بلاد مصر



والأطراف، ومن المدن والأرياف.

وفرعـون كذب وافـترى وكفـر غاية الكفـر فى قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[الأعراف: ١٢٣].

وقوله: ﴿فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ﴾، يعنى يقطع اليـد اليمنى والرجل اليسرى وعكسه، ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أجمعين﴾، أى ليجعلنهم مثلة ونكالاً لئلا يقتدى بهم أحد من رعـيته وأهل مـلته. ولهـذا قال: ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾[طه: ٧١]أى على جذوع النخل، لأنهـا أعلى وأشهر ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾[طه: ٧١] يعنى فى الدنيا.

﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ [طه: ٧٢] أى لن نطيعك ونترك ما وقر فى قلوبنا من البينات والدلائل القاطعات ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ [طه: ٧٢]، قيل: معطوف، وقيل: قسم ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢] أى فافعل ما قدرت عليه ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾[طه: ٧٢] أى إنما حكمك علينا فى هذه الحياة الدنيا، فإذا انتقلنا منها إلى الدار الآخرة صرنا إلى حكم الذى أسلمنا له واتبعنا رسله ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧٣] أى ثوابه خير مما وعدتنا به من التقـريب والترغـيب ﴿وَأَبْقَىٰ﴾، أى وأدوم من هذه الدار الفانيـة، وفى الآية الأخرى: ﴿قالوا لا ضير، إنا إلى ربنا منقلبون إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا﴾[الشعراء: ٥٠ ـ ٥١] أى ما اجترمناه من المآثم والمحارم ﴿إنا كنا أول المؤمنين﴾، أى من القبط، بموسى وهارون عليهما السلام.

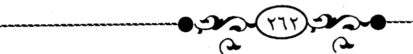
وقالوا له أيضًا: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾[الأعراف: ١٢٦]، أى ليس لنا عندك ذنب إلا إيماننا بما جـاء به رسولنا، واتباعنا آيـات ربنا لما جاءتنا ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾[الأعراف: ١٢٦] أى ثبـتنا على ما ابتليـتنا به من عقوبة هذا الجـبار العنيـــد، والسلطان الشـــديد، بل الشـيـطان المريد، ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعـراف: ١٢٦]. وقالوا أيضًا يعظونه ويخـوفونه بأس ربه العظيم: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ﴾[طه: ٧٤] يقولون له: فإياك أن تكون منهم. فكان منهم:

﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾[طه: ٧٥]، أى المنازل العالية: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾[طه: ٧٦] فاحرص أن تكون منهم، فحال بينه وبين ذلك الأقدار التى لا تغالب ولا تمانع، وحكم العلى العظيم بأن فرعون ـ لعنه الله ـ من أهل الجحيم، ليباشر العذاب الأليم، يصب من فوق رأسه الحيم، ويقال له على وجه التقريع والتوبيخ، وهو المقبوح المنبوح والذميم اللئيم: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩].

والظاهر من هذه السياقات أن فرعون ـ لعنه الله ـ صلبهم وعذبهم رضى الله عنهم قال عبد الله بن عباس وعبيد بن عمير: كانوا من أول النهار سحرة، فصاروا من آخره شهداء بررة، ويؤيد قولهم: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[الأعراف: ١٢٦].

أعوان الفرعون يحرضونه على إلحاق الأذى بموسى عليه السلام:

لما وقع ما وقع من الأمر العظيم، وهو الغلب الذى غُلبته القبط فى ذلك الموقف الهائل، وأسلم السحرة الذين استنصروا بهم، لم يزدهم ذلك إلا كفرًا وعنادًا وبعدًا عن الحق. قال الله تعالى بعد قصص ما تقدم فى سورة الأعراف: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[الأعراف: ١٢٧ـ ١٢٩].



يخبر تعالى عن الملأ من قوم فرعون، وهم الأمراء والكبراء، أنهم حرّضوا ملكهم فرعون على أذية نبى الله موسى عليه السلام، ومقابلته بدل التصديق بما جاء به، بالكفر والرد والأذى. قالوا: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ يعنون ـ قبحهم الله ـ أن دعوته إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والنهى عن عبادة ما سواه فساد بالنسبة إلى اعتقاد القبط، لعنهم الله. وقرأ بعضهم: ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾أى عبادتك. ويحتمل شيئين: أحدهما: ويذر دينك، وتقويه القراءة الأخرى. والثانى: ويذر أن يعبدك، فإنه كان يزعم أنه إله، لعنه الله. ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ أى لئلا يكثر مقاتلتهم ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ أى غالبون. ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] أى إذا هم هموا بأذيتكم والفتك بكم، فاستعينوا أنتم بربكم واصبروا على بليتكم ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أى فكونوا أنتم المتقين تكون لكم العاقبة،

كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[يونس: ٨٤ ـ ٨٦].

وقولهم: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾، أي قد كانت الأبناء تقتل قبل مجيئك وبعد مجيئك إلينا[1] ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾. وقال الله تعالى في سورة حم المؤمن: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾[غافر: ٢٣ ـ ٢٤]. وكان فرعون الملك، وهامان الوزير، وكان قارون إسرائيليًا من قوم موسى، إلا أنه كان على دين فرعون وملئه، وكان ذا مال جزيل جدًا، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ﴾[غافر: ٢٥] وهذا القتل للغلمان من بعد بعثة موسى، إنما كان على وجه الإهانة والإذلال، والتقليل لملأ بني إسرائيل لئلا يكون لهم شوكة يمتنعون بها، ويصولون على القبط بسببها وكانت القبط منهم يحذرون، فلم ينفعهم ذلك، ولم يرد عنهم قدر الذي يقول للشيء كن فيكون. ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]؛ ولهذا يقول الناس على سبيل التهكم «صار فرعون مذكرًا» وهذا منه، فإن فرعون في زعمه خاف على الناس أن يضلهم موسى عليه السلام! . ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾[غافر: ٢٧] أي عذت بالله ولجأت إليه واستجرت بجنابه، من أن يسطو فرعون وغيره عليَّ بسوء. وقوله: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ أي جبار عنيد لا يرعوى ولا ينتهي، ولا يخاف عذاب الله وعقابه؛ لأنه لا يعتقد معادًا ولا جزاء. ولهذا قال: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾.

●●●●●

(١) وقيل: إن الأذى قبل مجيء موسى عليه السلام كان قتل الأبناء واسترقاق النساء وقيل تسخير بني إسرائيل في الأعمال نصف النهار.

وقيل في الأذى بعد مجيئه: تسخيرهم جميع النهار كله وقال الحسن البصري: الأذى قبل وبعد: واحد هو الجزية. (القرطبي ٧/ ٢٦٣).

قصة مؤمن آل فرعون

قال تعالى ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٨ ـ ٢٩].

وهذا الرجل هو ابن عم فرعون، وكان يكتم إيمانه عن قومه خوفًا منهم على نفسه، وزعم بعض الناس أنه كان إسرائيليًا، وهو بعيد ومخالف لسياق الكلام لفظًا ومعنى . . والله أعلم.

قال ابن عباس: لم يؤمن من القبط بموسى إلا هذا والذى جاء من أقصى المدينة، وامرأة فرعون.

والمقصود أن هذا الرجل كان يكتم إيمانه، فلما همَّ فرعون ـ لعنه الله ـ بقتل موسى عليه السلام، وعزم على ذلك وشاور ملأه فيه خاف هذا المؤمن على موسى، فتلطف فى ردِّ فرعون بكلام جمع فيه الترغيب والترهيب، فقال على وجه المشورة والرأى.

وقد ثبت فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر**»[(١)] وهذا من أعلى مراتب هذا المقام، فإن فرعون لا أشد جورًا منه، وهذا الكلام لا أعدل منه؛ لأن فيه عصمة نبى ويحتمل أنه كاشفهم بإظهار إيمانه، وصرح لهم بما كان يكتمه، والأول أظهر . . . والله أعلم. قال: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ أى من أجل أنه قال ربى الله، فمثل هذا لا يقابل بهذا، بل بالإكرام ،والاحترام أو الموادعة وترك الانتقام.

يعنى لأنه ﴿وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨]، أى بالخوارق التى دلت على صدقه فيما جاء به عمن أرسله، فهذا إن وادعتموه كنتم فى سلامه، لأنه ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾[غافر: ٢٨] ولا يضركم ذلك ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا ﴾ وقد تعرضتم له ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾، أى وأنتم تشفقون أن

(١) حسن. رواه أبو داود (٤٣٤٤) والترمذى (٢١٧٤) وابن ماجه (٤٠١١) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه. وانظر «الصحيحة» (٤٩١).

ينالكم أيسر جزاء مما يتوعدكم به، فكيف بكم إن حل جميعه عليكم؟ وهذا الكلام فى هذا المقام، من أعلى مقامات التلطف والعقل التام. وقوله: ﴿ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ﴾ يحذرهم أن يسلبوا هذا الملك العزيز، فإنه ما تعرضت الدول للدين إلا سلبوا ملكهم وذلوا بعد عزهم!

وكذا وقع لآل فرعون، ما زالوا فى شك وريب، ومخالفة ومعاندة لما جاءهم موسى به حتى أخرجهم الله مما كانوا فيه من الملك والأملاك والدور والقصور، والنعمة والحبور، ثم حولوا إلى البحر مهانين، ونقلت أرواحهم بعد العلو والرفعة إلى أسفل السافلين.

ولهذا قال هذا الرجل المؤمن المصدق، البار الراشد، التابع للحق الناصح لقومه الكامل العقل: ﴿ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ﴾، أى عالين على الناس حاكمين عليهم. ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا ﴾، أى لو كنتم أضعاف ما أنتم فيه من العدد والعدة، والقوة والشدة لما نفعنا ذلك، ولا رد عنا بأس مالك الممالك.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ أى فى جوابه هذا كله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ ﴾، أى ما أقول لكم إلا ما عندى ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

وكذب فى كل من هذين القولين وهاتين المقدمتين، فإنه قد كان يتحقق فى باطنه وفى نفسه أن هذا الذى جاء به موسى من عند الله لا محالة.، وإنما كان يظهر خلافه بغيا وعدواناً، وعتواً وكفرانا. قال الله تعالى إخباراً عن موسى: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢) فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا (١٠٣) وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٢ ـ ١٠٤].

●●●●●



مؤمن آل فرعون يذكر قومه بعاقبة المكذبين للرسل

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٠ - ٣٥].

يحذرهم ولى الله إن كذبوا برسول الله موسى أن يحل بهم ما حل بالأمم من قبلهم، من النقمات والمثلات، مما تواتر عندهم وعند غيرهم، مما حل بقوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم إلى زمانهم ذلك، مما أقام به الحجج على أهل الأرض قاطبة. فى صدق ما جاءت به الأنبياء، لما أنزل من النقمة بمكذبيهم من الأعداء، وما أنجى الله من اتبعهم من الأولياء وخوفهم يوم القيامة، وهو يوم التناد، أى حين ينادى الناس بعضهم بعضا، حين يولون إن قدروا على ذلك، ولا إلى ذلك سبيلاً ﴿يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠) كَلاَّ لا وَزَرَ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١٠ - ١٢].

ثم أخبرهم عن نبوة يوسف فى بلاد مصر، وما كان منه من الإحسان إلى الخلق فى دنياهم وأخراهم، وهذا من سلالته وذريته، ويدعو الناس إلى توحيد الله وعبادته وأن لا يشركوا به أحداً من بريته، وأخبر عن أهل الديار المصرية فى ذلك الزمان، وأن من سجيتهم التكذيب بالحق ومخالفة الرسل. ولهذا قال: **﴿فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً﴾**، أى وكذبتم فى هذا.

ولهذا قال: **﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾**، أى: يردون حجج الله وبراهينه ودلائل توحيده، بلا حجة ولا دليل عندهم من الله، فإن هذا أمر يمقته الله غاية المقت، أى يبغض من تلبس به من الناس، ومن اتصف به من الخلق **﴿كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾**، أى هكذا إذا خالفت القلوب الحق - ولا تخالفه إلا بلا برهان - فإن الله يطبع عليها، أى يختم عليها بما فيها.



مؤمن آل فرعون يدعو قومه إلى اتباع نبى الله موسى لأن طريقه هو طريق الرشاد.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٣٨ ـ ٤٠].

يدعوهم رضى الله عنه إلى طريق الرشاد الحق، وهى متابعة نبى الله موسى وتصديقه فيما جاء به من عند ربه ثم زهدهم فى الدنيا الدنية الفانية المنقضية لا محالة، ورغبتهم فى طلب الثواب عند الله الذى لا يضيع عمل عامل لديه، القدير الذى ملكوت كل شىء بيديه الذى يعطى على القليل كثيراً، ومن عدله لا يجازى على السيئة إلا مثلها، وأخبرهم أن الآخرة دار القرار، التى من وافاها ـ مؤمنا قد عمل الصالحات ـ فله الدرجات العاليات، والغرف الآمنات، والخيرات الكثيرة الفائقات، والأرزاق الدائمة التى لا تبيد، والخير الذى كل ما لديهم منه فى مزيد.

ثم شرع فى إبطال ما هم عليه، وتخويفهم مما يصيرون إليه، فقال. ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤١ ـ ٤٦].

كان يدعوهم إلى عبادة رب السموات والأرض، الذى يقول للشىء: كن فيكون، وهم يدعونه إلى عبادة فرعون الجاهل الضال الملعون!

ولهذا قال لهم على سبيل الإنكار: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ [غافر: ٤١ ـ ٤٢].



ثم بين لهم بطلان ما هم عليه من عبادة ما سوى الله من الأنداد والأوثان، وأنها لا تملك من نفع ولا إضرار، فقال: ﴿لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾، أي لاتملك تصرفاً ولا حكماً فى هذه الدار، فكيف تملكه يوم القرار؟ وأما الله عز وجل فإنه الخالق الرازق للأبرار والفجار، وهو الذى أحيا العباد ويميتهم ويبعثهم، فيدخل طائعهم الجنة، وعاصيهم إلى النار.

ثم توعدهم إن هم استمروا على العناد بقوله: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

قال الله: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾، أى بإنكاره سلم مما أصابهم من العقوبة على كفرهم بالله، ومكرهم فى صدهم عن سبيل الله، مما أظهروا للعامة من الخيالات والمحالات، التى ألبسوا بها على عوامهم وطغامهم، ولهذا قال: ﴿وَحَاقَ﴾، أى أحاط ﴿بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ أى تعرض أرواحهم فى برزخهم صباحاً ومساءً على النار. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾

غضب الله تعالى على آل فرعون

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٠ - ١٣٣].

يخبر تعالى أنه ابتلى آل فرعون وهم قومه من القبط بالسنين وهى أعوام الجدب التى لا يستغل فيها زرع ولا ينتفع بضرع. وقوله: ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾، وهى قلة الثمار من الأشجار ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾، أى فلم ينتفعوا ولم يرتدعوا، بل تمردوا واستمروا على كفرهم وعنادهم ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ﴾ والخصب ونحوه ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾، أى هذا الذى نستحقه وهذا الذى يليق بنا ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ﴾، أى يقولون هذا بشؤمهم أصابنا هذا، ولا يقولون فى الأول أنه ببركتهم وحسن مجاورتهم لهم ولكن قلوبهم منكرة مستكبرة نافرة عن الحق، إذا جاء الشر أسندوه إليه،



وإن رأوا خيراً دعوه لأنفسهم. قال الله تعالى: ﴿أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾، أى الله يجزيهم على هذا أوفر الجزاء. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، أى مهما جئتنا من الآيات ـ وهى الخوارق للعادات ـ فلسنا نؤمن بك ولا نتبعك ولا نطيعك، ولو جئتنا بكل آية. وهكذا أخبر الله عنهم فى قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٩٦ ـ ٩٧].

قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾، الطوفان، : هو كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار. وأما الجراد فمعروف، والمقصود أنه استاق خضراءهم فلم يترك لهم زرعاً ولا ثماراً ولا سبداً ولا لبداً [١].

وأما الضفادع فمعروفة، لبستهم حتى كانت تسقط فى أطعمتهم وأوانيهم، حتى إن أحدهم إذا فتح فاه لطعام أو شراب سقطت فيه ضفدعة من تلك الضفادع.

وأما الدم فكان قد مزج ماؤهم كله به فلا يستقون من النيل شيئاً إلا وجدوه دماً عبيطاً[٢]، ولا من نهر ولا بئر ولا شىء إلا كان دماً فى الساعة الراهنة.

●●●●●

(١) يقاتل: ماله سبد ولا لبد، أى ماله قليل ولا كثير.
(٢) أى دماً طرياً.

آل فرعون يعاهدون موسى على الإيمان به إذا رفع الله عنهم العذاب! فلما رفعه الله عنهم استمروا على كفرهم !!

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (١٣٥) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٤ ـ ١٣٦].

يخبر تعالى عن كفرهم وعتوهم واستمرارهم على الضلال والجهل، والاستكبار عن اتباع آيات الله وتصديق رسوله، مع ما أيده به من الآيات العظيمة الباهرة، والحجج البليغة القاهرة، التى أراهم إياها عياناً، وجعلها عليهم دليلاً وبرهاناً.

وكلما شاهدوا آية وعاينوها، وجهدهم وأضنكهم، حلفوا وعاهدوا موسى لئن كشف عنهم هذه ليؤمنن به، وليرسلن معه من هو من حزبه، فكلما رفعت عنهم تلك الآية عادوا إلى شر مما كانوا عليه، وأعرضوا عما جاءهم به من الحق ولم يلتفتوا إليه فيرسل الله عليهم آية أخرى هى أشد مما كانت قبلها وأقوى، فيقولون ويكذبون، ويعدون ولا يفون: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، فيكشف عنهم ذلك العذاب الوبيل، ثم يعودون إلى جهلهم العريض الطويل.

هذا، والعظيم الحليم القدير، ينظرهم ولا يعجل عليهم، ويؤخرهم ويتقدم بالوعيد إليهم. ثم أخذهم بعد إقامة الحجة عليهم، والإعذار إليهم، أخذ عزيز مقتدر، فجعلهم عبرة ونكالاً وسلفاً لمن أشبههم من الكافرين، ومثلاً لمن اتعظ بهم من عباده المؤمنين.

كما قال تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين، فى سورة حم والكتاب المبين: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (٥٠) وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢)

فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٤٦ ـ ٥٦].

يذكر تعالى إرساله عبده الكليم الكريم إلى فرعون الخسيس اللئيم، وأنه تعالى أيد رسوله بآيات بينات واضحات، تستحق أن تقابل بالتعظيم والتصديق، وأن يرتدعوا عما هم فيه من الكفر ويرجعوا إلى الحق والصراط المستقيم، فإذا هم منها يضحكون وبها يستهزئون، وعن سبيل الله يصدون وعن الحق ينصرفون، فأرسل الله عليهم الآيات تترى يتبع بعضها بعضا، وكل آية أكبر من التى تتلوها، لأن التوكيد أبلغ مما قبله.

﴿**وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ**﴾ لم يكن لفظ الساحر فى زمنهم نقصاً ولا عيباً، لأن علماءهم فى ذلك الوقت هم السحرة، ولهذا خاطبوه به فى حال احتياجهم إليه، وضراعتهم لديه، قال الله تعالى: ﴿**فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ**﴾.

ثم أخبر تعالى عن تبجح فرعون بملكه، وعظمة بلده وحسنها، وتخرق الأنهار فيها، وهى الخلجانات التى يكسرونها أيام زيادة النيل ثم تبجح بنفسه وحليته، وأخذ يتنقص رسول الله موسى عليه السلام، ويزدريه بكونه ﴿**وَلا يَكَادُ يُبِينُ**﴾ يعنى كلامه بسبب ما كان فى لسانه من بقية تلك اللثغة، التى هى شرف له وكمال وجمال ولم تكن مانعة له أن كلمه الله تعالى وأوحى إليه، وأنزل بعد ذلك التوراة عليه.

وتنقصه فرعون ـ لعنه الله ـ بكونه لا أساور فى يديه، ولا زينة عليه ! وإنما ذلك من حلية النساء، لا يليق بشهامة الرجال، فكيف بالرسل الذين هم أكمل عقلاً، وأتم معرفة، وأعلى همة وأزهد فى الدنيا، وأعلم بما أعد الله لأوليائه فى الأخرى؟

وقوله: ﴿**أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ**﴾ لا يحتاج الأمر إلى ذلك، فإن كان المراد أن تعظمه الملائكة فالملائكة يعظمون ويتواضعون لمن هو دون موسى عليه السلام بكثير، كما جاء فى الحديث: «**إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع**»[1] فكيف يكون تواضعهم وتعظيمهم لموسى الكليم عليه الصلاة والتسليم والتكريم!؟

---

(١) **حسن**. رواه أحمد (٥/ ١٩٦) وأبو داود (٣٦٤١، ٣٦٤٢) وابن ماجة (٢٢٣) والدارمى (١/ ٩٨) وابن حبان (٨٨ ـ إحسان) وابن عبد البر فى «جامع بيان العلم». ص٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠) والطحاوى فى «مشكل الآثار» (١/ ٤٢٩) والبغوى فى «شرح السنة» (١٢٩) من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه.

وإن كان المراد شهادتهم له بالرسالة فقد أيد من المعجزات بما يدل قطعاً لذوى الألباب، ولمن قصد إلى الحق والصواب، ويعمى عما جاء به من البينات والحجج الواضحات من نظر إلى القشور، وترك لب الألباب، وطبع على قلبه رب الأرباب، وختم عليه بما فيه من الشك والارتياب، كما هو حال فرعون القبطى العميّ الكذاب.

الفرعون يستخف بعقول قومه

قال الله تعالى: ﴿**فاستخف قومه فأطاعوه**﴾، أى استخف عقولهم ودرجهم من حال إلى حال إلى أن صدقوه فى دعواه الربوبية، لعنه الله وقبحهم ﴿**إنهم كانوا قوماً فاسقين. فلما آسفونا**﴾ أى أغضبونا ﴿**انتقمنا منهم**﴾، أى بالغرق والإهانة وسلب العز والتبدل بالذل وبالعذاب بعد النعمة. والهوان بعد الرفاهية، والنار بعد طيب العيش عياذاً بالله وسلطانه القديم من ذلك.

﴿**فجعلناهم سلفاً**﴾، أى لمن اتبعهم فى الصفات ﴿**ومثلاً**﴾، أى لمن اتعظ بهم: خاف من وبيل مصرعهم، ممن بلغه جلية خبرهم وما كان من أمرهم كما قال الله تعالى: ﴿**فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ**﴾ [القصص: ٣٦ ـ ٤٢].

يخبر تعالى أنهم لما استكبروا عن اتباع الحق، وادعى ملكهم الباطل ووافقوه عليه وأطاعوه فيه، اشتد غضب الرب القدير العزيز، الذى لا يغالب ولا يمانع عليهم، فانتقم منهم أشد الانتقام، وأغرقه هو وجنوده فى صبيحة واحدة فلم يفلت منهم أحد، ولم يبق منهم ديار، بل كلٌّ قد غرق فدخل النار، وأتبعوا فى هذه الدار لعنة بين العالمين، ويوم القيامة بئس الرفد المرفود، ويوم القيامة من المقبوحين.



إهلاك الله تعالى لفرعون وجنوده

لما تمادى قبط مصر على كفرهم وعتوهم وعنادهم، متابعة لملكهم فرعون، ومخالفة لنبي الله ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام أقام الله على أهل مصر الحجج العظيمة القاهرة، وأراهم من خوارق العادات ما بهر الأبصار وحير العقول، وهم مع ذلك لا يرعوون ولا ينتهون، ولا ينزعون ولا يرجعون. ولم يؤمن منهم إلا القليل.

قال الله تعالى مخبراً عن فرعون وكفى بالله شهيداً: **﴿وإن فرعون لعال في الأرض﴾**، أي جبار عنيد مشتغل بغيّر الحق، **﴿وإنه لمن المسرفين﴾**، أي في جميع أموره وشئونه وأحواله ولكنه جرثومة قد حان إنجعافها [1] وثمرة خبيثة قد آن قطافها، ومنهجة ملعونة قد حتم إتلافها.

وعند ذلك قال موسى: **﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦)﴾** [يونس: ٨٤ ـ ٨٦] فأمرهم بالتوكل على الله والاستعانة به، والالتجاء إليه فائتمروا بذلك فجعل الله لهم مما كانوا فيه فرجاً ومخرجاً.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧].

أوحى الله تعالى إلى موسى وأخيه هارون عليهما السلام أن يتخذا لقومهما بيوتاً متميزة فيما بينهم عن بيوت القبط، ليكونوا على أهبة الرحيل إذا أمروا به ليعرف بعضهم بيوت بعض. وقوله: **﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾** قيل مساجد. وقيل معناه كثرة الصلاة فيها.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٨ ـ ٨٩].

هذه دعوة عظيمة دعا بها كليم الله موسى على عدو الله فرعون، غضباً لله عليه، لتكبره عن اتباع الحق، وصده عن سبيل الله ومعاندته وعتوه وتمرده، واستمراره على

---

(١) أي الاقتلاع والاستئصال.

الباطل، ومكابرته الحق الواضح الجلى الحسى والمعنوى، والبرهان القطعى، فقال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ﴾ يعنى قومه من القبط، ومن كان على ملته ودان بدينه ﴿زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾ أى وهذا يغتر به من يعظم أمر الدنيا، فيحسب الجاهل أنهم على شيء، لكن هذه الأموال وهذه الزينة من اللباس والمراكب الحسنة الهنية، والدور الأنيقة والقصور المبنية، والمآكل الشهية والمناظر البهية، والملك العزيز والتمكين، والجاه العريض فى الدنيا لا الدين.

﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾، أى أهلكها، وقوله: ﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ قال ابن عباس: أى اطبع عليها. وهذه دعوة غضب لله تعالى ولدينه ولبراهينه.

فاستجاب الله تعالى لها. وحققها وتقبلها، كما استجاب لنوح فى قومه حيث قال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦ ـ ٢٧]. ولهذا قال تعالى مخاطباص لموسى حين دعا على فرعون وملئه، وأمن أخوه هارون على دعائه فنزل ذلك منزلة الداعى أيضاً:

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾.

ساعة الهلاك وساعة الفرج

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ . فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ . إِنَّ هَٰؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ . وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ . وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ . فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ . كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ . فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ . فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ . قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ . فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ . وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ . وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٥٢ ـ ٦٨].

قال علماء التفسير: لما ركب فرعون فى جنوده طالباً بنى إسرائيل يقفو أثرهم كان فى جيش كثيف عرمرم لحقهم بالجنود، فأدركهم عند شروق الشمس وتراءى الجمعان ولم يبق ثمَّ ريب ولا لبس، وعاين كل من الفريقين صاحبه وتحققه ورآه، ولم يبق إلا المقاتلة والمجادلة والمحاماة. فعندها قال أصحاب موسى وهم خائفون: ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾

وذلك لأنهم اضطروا فى طريقهم إلى البحر فليس لهم طريق ولا محيد إلا سلوكه وخوضه، وهذا ما لا يستطيعه أحد ولا يقدر عليه، والجبال عن يسرتهم وعن أيمانهم وهى شاهقة منيفة، وفرعون قد غالقهم وواجبهم، وعاينوه فى جنوده وجيوشه وعدده وعدده [1]، وهم منه فى غاية الخوف والذعر، لما قاسموا فى سلطانه من الإهانة والمكر.

فشكوا إلى نبى الله ما هم فيه مما قد شاهدوه وعاينوه. فقال لهم الرسول الصادق المصدوق: ﴿كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، وكان فى الساقة، فتقدم إلى المقدمة، ونظر إلى البحر وهو يتلاطم بأمواجه، ويتزايد زيد أجاجه، وهو يقول: ها هنا أمرت. فلما تفاقم الأمر وضاق الحال واشتد الأمر، واقترب فرعون وجنوده فى جدهم وحدهم وحديدهم، وغضبهم وحنقهم، وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، عند ذلك أوحى الحليم العظيم القدير، رب العرش الكريم، إلى موسى الكليم: ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾.

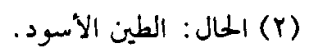
وهكذا كان ماء البحر قائماً مثل الجبال، مكفوفاً بالقدرة العظيمة الصادرة من الذى يقول للشىء كن فيكون، وأمر الله ريح الدبور فلفحت حال [2] البحر فأذهبته، حتى صار يابساً لا يعلق فى سنابك الخيول والدواب.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لاَّ تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَىٰ (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٧ ـ ٧٩].

والمقصود أنه لما آل أمر البحر إلى هذه الحال، بإذن الرب العظيم الشديد المحال، أمر موسى عليه السلام أن يجوزه ببنى إسرائيل، فانحدروا فيه مسرعين مستبشرين مبادرين، وقد شاهدوا من الأمر العظيم ما يحير الناظرين، ويهدى قلوب المؤمنين.

فلما جاوزه وجاوزوه وخرج آخرهم منه، وانفصلوا عنه، كان ذلك عند قدوم أول جيش فرعون إليه، ووفودهم عليه.

فأراد موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه ليرجع كما كان عليه، لئلا يكون لفرعون وجنوده وصول إليه، ولا سبيل عليه، فأمره القدير ذو الجلال أن يترك البحر



(١) عدده وعدده: الأولى بفتح العين والثانية بضمها.

(٢) الحال: الطين الأسود.



على هذه الحال. كما قـال وهو الصادق فى المقال: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ . أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . وَأَن لاَّ تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ . وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ . وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ . فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ . فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ . وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ . كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ . وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ . كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ . فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ . وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ . مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ . وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ . وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ بَلاءٌ مُّبِينٌ﴾ [الدخان : ١٧ ـ ٣٣].

فقوله تعالى: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾، **أى ساكناً على هيئته**، لا تغيره عن هذه الصفة فلما تركـه على هيئته وحـالته وانتهى فرعـون فرأى ما رأى وعاين مـا عاين، هاله هذا المنظر العظيم، وتحقق ما كان يتحققه قبل ذلك من أن هذا من فعل رب العرش الكريم، فأحجم ولم يتقدم، وندم فى نفسه على خـروجه فى طلبهم والحالة هذه حيث لا ينفعه الندم، لكنه أظهر لجنوده تجلداً وعاملهم معاملة العدا، وحـملته النفس الكافرة والسجية الفاجرة على أن قال لمن اسـتخفهم فأطاعوه، وعلى باطله تابعـوه: انظروا كيف انحسر البحر لى لأدرك عبيـدى الآبقين من يدى، الخارجين على طاعتى وبلدى؟ وجعل يورى فى نفسه أن يذهب خلفهم، ويرجو أن ينجو وهيهات، ويقدم تارة ويحجم تارات!

فذكروا أن جبريل عليه السـلام تبدى فى صورة فارس راكب على رمكة حائل [(١)] فمر بين يدى فحل فرعون لعنه الله، فحمحم إلـيها وأقبل عليها وأسرع جبريل بين يديه فاقتحم البحر، واستبق الجواد وقد أجـاد، فبادر مسرعاً، هذا وفرعون لا يملك من نفسه ضراً ولا نفـعاً، فلما رآته الجنود قد سلك البـحر اقتحـموا وراءه مسرعين، فـحصلوا فى البحر أجمعين حتى همَّ أولهم بالخروج منه، فعند ذلك أمـر الله تعالى كليمه فيما أوحاه إليه أن يضرب بعصاه البحر. فضربه فارتطم عليهم البحر كما كان، فلم ينج منها إنسان.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ٦٥ ـ ٦٨]، أى فى إنجائه أولياءه فلم يـغرق منهم أحد، وإغـراقه أعداءه فـلم يخلص منهم أحد، آية عظيـمة، وبرهان قـاطع على قدرته تعـالى العظيمـة، وصدق رسـوله فيـما جـاء به عن ربه من

(١) الفرس التى لم تلقح.

الشريعة الكريمة، والمناهج المستقيمة.

وقال تعالى: ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ [يونس: ٩٠ - ٩٢].

يخبر تعالى عن كيفية غرق فرعون زعيم كفرة القبط، وأنه لما جعلت الأمواج تخفضه تارة وترفعه أخرى، وبنو إسرائيل ينظرون إليه وإلى جنوده، ماذا أحل الله به وبهم من البأس العظيم والخطب الجسيم، ليكون أقر لأعين بني إسرائيل، وأشفى لنفوسهم. فلما عاين فرعون الهلكة وأحيط به، وباشر سكرات الموت أناب حينئذ وتاب، وآمن حين لا ينفع إيمانه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦ - ٩٧].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤ - ٨٥].

وهكذا دعا موسى على فرعون وَمَلَئِه، أن يطمس على أموالهم، ويشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، أي حين لا ينفعهم ذلك، ويكون حسرة عليهم. وقد قال تعالى لهما - أي لموسى وهارون - حين دعوا بهذا: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾[يونس: ٨٩]، فهذا من إجابة الله تعالى دعوة كليمه وأخيه هارون عليهما السلام.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قال فرعون: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ قال لي جبريل: يا محمد فلو رأيتني، وقد أخذت من حال البحر فأدسه في فيه، مخافة أن تدركه الرحمة»[1].

وقوله تعالى: ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ استفهام إنكار ونص على عدم قبوله تعالى منه ذلك؛ لأنه - والله أعلم - لو رد إلى الدنيا كما كان لعاد إلى ما كان عليه، كما أخبر تعالى عن الكفار إذا عاينوا النار وشاهدوها أنهم يقولون: ﴿ يَا

(١) حسن. رواه أحمد (١/ ٣٠٩) والترمذي (٣١٠٧) والطيالسي (ص٣٤١).



لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧)﴾ [الأنعام: ٢٧]

قال الله: ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨] وقوله: ﴿فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية﴾.

قال ابن عباس وغير واحد: شك بعض بنى إسرائيل فى موت فرعون، حتى قال بعضهم: إنه لا يموت، فأمر الله البحر فرفعه على مرتفع، قيل على وجه الماء، وقيل على نجوة من الأرض، وعليه درعه التى يعرفونها من ملابسه. ليتحققوا بذلك هلاكه ويعلموا قدرة الله عليه. لهذا قال: ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾، أى مصاحباً درعك المعروفة بك، ﴿لِتَكُونَ﴾ أى أنت آية ﴿لِمَنْ خَلْفَكَ﴾، أى من بنى إسرائيل، ودليلاً على قدرة الله الذى أهلكك، ولهذا قرأ بعض السلف: ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَفَكَ آيَةً﴾. ويحتمل أن يكون المراد: ننجيك بجسدك مصاحباً درعك، لتكون علامة لمن وراءك من بنى إسرائيل على معرفتك وأنك أهلكت. . والله أعلم. وقد كان هلاكه وجموده فى يوم عاشوراء.

كما قال الإمام البخارى فى صحيحه: عن ابن عباس قال: قدم النبى ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: « ما هذا اليوم الذى تصومونه»؟ فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون. قال النبى ﷺ لأصحابه: «**أنتم أحق بموسى منهم فصوموا**»[1]، [2].

●●●●●

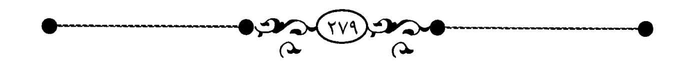
---

(١) رواه البخارى (٤٦٨٠) كتاب التفسير، باب ﴿وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدوا﴾.

(٢) «البداية والنهاية» (١/ ٢٧٣ ـ ٣١٧) باختصار.



قصة
موسى والخضر
عليهما السلام



قصة موسى والخضر عليهما السلام

قصة حياة الخضر من القصص التى راجت بين العوام واشتهرت عند الجماعات المتصوفة فأوقع الشيطان الكثير من جهلة هذه الأمة فى متاهات لا حدود لها وفى ضلالات سحيقة فى أمر الخضر ونسج الغلاة من أهل الضلال الحكايات الغريبة والخرافات البعيدة عن الحق والصواب، واعتبروا ذلك من باب الولاية لهم وكرامة لأمثالهم زاعمين بأن الله تعالى أكرمهم بها.

والحق إنما هى تخرصات وأوهام مبنية على إرهاصات خيالية وحكايات معتمدة على المكاشفات والمنامات والتى هى من وحى الشيطان لبسَّ بها على أوليائه وأتباعه فأضلهم بذلك سواء السبيل.

ولذا فقد تحدثت بشىء من التفصيل عن قصة موسى عليه السلام مع الخضر حتى يبين الحق من الباطل ويكون القارئ على نور وبصيرة من هذا الموضوع الذى روجته حكايات وأساطير المتصوفين.

قال الله تعالى: **﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ**

بلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا (٧٦) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٦٠ ـ٨٢].

هذه هى الآيات التى وردت فى سورة الكهف عن قصة موسى والخضر عليهما السلام.

وقد بينت أحاديث النبى ﷺ السبب الذى من أجله رحل موسى عليه السلام إلى الخضر.

فعن سعيد بْنُ جُبَيْر قالَ «قُلْتُ لابْنِ عَبَّاس إنَّ نَوفاً الْبَكَالِيَّ يَزعُمُ أنَّ مُوسَى صَاحِب الْخَضِرِ لَيْسَ هُوَ مُوسى بَنى إسْرائيل، إنَّمَا هُوَ مُوسَى آخَرَ [1]، فقال: كَذَبَ عَدُوُّ الله، حَدَّثَنَا أُبَىُّ بنُ كعب عن النَّبىِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ مُوسَى قَامَ خطيبا فى بنى إسْرَائيل فسُئل: أىُّ النَّاس أَعْلَمُ؟ فقال: أنا. ، فعتب الله عليه إذ لم يردَّ العلم إليه فَقَال لَهُ: بَلَى، لى عَبْدٌ بِمَجْمَعِ البَحْرَيْن هُوَ أعْلَمُ منْك. قال: أى رب ومَنْ لى به؟ - قال: تأخُذُ حُوتاً فَتَجْعلهُ فى مكتل، حيثما فقدت الحوت فهو ثمَّ وأخذَ حُوتاً فجعله فى مكتل ثم انطلق هوَ وفتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما، فرقد موسى، واضطرب الحوت فخرج فسقط فى البحر، فاتخذ سبيله فى البحر سربا، فأمسك الله عن الحُوت جِرْيَةَ الْماء فصار مثل الطاق فانطلقا يمشيان بقية ليلتهما ويومهما، حتى إذا كان من الغد قال لفتاه: إتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا.

(١) قال القرطبى: الجمهور من العلماء وأهل التاريخ أنه موسى بن عمران المذكور فى القرآن، وليس فيه موسى غيره. وقالت فرقة منها نوف البكالى: إنه ليس ابن عمران، وإنما هو موسى بن منشا بن يوسف بن يعقوب، وكان نبياً قبل موسى بن عمران. وقد رد هذا القول ابن عباس فى صحيح البخارى وغيره. وفتاه هو يوشع ابن نون. اهـ «تفسير القرطبى (١١/ ٩) ط دار الشام للتراث

ولم يجد مـوسى النصب حتى جاوز حـيث أمره الله، قال له فـتاه: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت، وما أنسانيـه إلا الشيطان أن أذكره، واتخذ سبيله فى البحر عجبا، فكان للحوت سربا ولهما عجبا. قال له موسى: ذلك ما كنا نبغى، فارتدا على آثارهما قصـصاً ـ رجعا يقُصَّان آثارهما ـ حـتى انتهيا إلى الصخرة، فـإذا رجل مسجى بثوب، فسلم موسى، فرد عليه: فـقال: وأنى بأرضك السلام: قال: أنا موسى، قال: موسى بنى إسرائيل؟. قال: نعم، أتيتك لتـعلمنى مما علمت رشدا، قال: يا موسى إنى على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه، وأنت على علم من علم الله علمكَهُ الله لا أعلمه. قال: هـل أتبعك؟ قال: إنك لن تستطيع مـعى صبرا، وكيف تصبْـر على مالَم تُحط به خبرا ـ إلى قوله ـ إمراً. فانطلقا يمشيان على سـاحل البحر، فمرت بهما سفينة كلموهم أن يحـملوهم، فعرفوا الخضـر فحملوه بغيـر نول. فلما ركبا فى السـفينة جاء عصفور فوقع عـلى حرف السفينة فنقر، فى البحر نقرة أو نقـرتين، قال له الخضر: يا موسى، ما نقص علمى وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر. إذ أخَـذَ الْفَأْسَ فَنَزَعَ لَوْحاً، قالَ فَلَمْ يَـفْجَأْ موسى إلا وَقَدْ قَلَع لَـوْحاً بالْقَدُّوم، فقال لهُ موسى: ما صَنَعْتَ؟ قَوْمٌ حَمَلُونا بغير نَول عَمَـدْتَ إلى سفينتهم فَخَرَقْتَهَا لتُغْرِقَ أهْلَهَا، لَقَـدْ جئت شيئـاً إمْراً. قال: ألَمْ أقُلْ لك إنَّك لَنْ تَسْـتَطيع معى صبـراً؟ قال لا تؤاخذنى بما نسـيتُ، ولا تُرهقْنى من أمرى عُـسْراً. فكانت الأُولى من موسى نسْـيَاناً. فلما خرَجا مـنَ البَحْر مَرُّوا بغلام يَلْعَبُ مَعَ الصِّبْـيَان، فأخذ الْخضِر برأسه فـقلعهُ بيده فقال لهُ موسى: أقتلت نفسا زكية بغـير نفس؟ لقد جئت شيئاً نكرا. قال: ألَمْ أقُل لَكَ إنَّكَ لَنْ تستطيع معى صبرا؟ قال: إن سـألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى، قد بلغت من لدنى عذرا. فـانطلقا حتى إذا أتيا أهل قـرية استطعما أهلهـا، فأبوا أن يضيفـوهما، فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض مائلا ـ أومأ بيده هكذا، وأشار سفيان كأنه يمسح شيئاً إلى فوق، ـ قال: قـوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضـيفونا، عمـدت إلى حائطهم، لو شئت لاتخذت عليـه أجرا، قال: هذا فراق بينى وبينك، سأنبئك بتـأويل ما لم تستطع عليه صبرا. قال النبى ﷺ وددنا أن موسى كان صبر فـقص الله علينا من خبرهما. قال سفيان: قال النبى ﷺ: يرحم الله موسى لو كان صبر يقص علينا من أمرهما» [1].

وعن ابن شهاب الزهرى، أن عبـيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسـعود أخبره عن

---

(١) رواه البخارى(٣٤٠١) كتاب الأنبياء، باب: حديث الخـضر مع موسى عليهما السلام. ومسلم (٦٠٤٧) كتاب الفضائل، باب: من فضائل الخضر عليه السلام. والترمذى (٣١٤٩) فى تفسير سورة الكهف.

ابن عباس أنه تمارى هو والحر بن قيس الفزارى فى صاحب موسى، قال ابن عباس: هو خضر، فمر بـهما أبى بن كعب، فدعاه ابن عباس فـقال: إنى تماريت أنا وصاحبى هذا فى صاحب موسى الذى سأل السبيل إلى لقيه، هل سمعت رسول الله ﷺ يذكر شأنه؟ قال: نعم، سـمعت رسول الله ﷺ يقول: بينما موسى فـى ملأ من بنى إسرائيل جاءه رجلٌ فقـال: هل تعلم أحداً أعلم منك؟ قـال: لا فأوحى الله إلى موسى: بلى عـبدنا خضر، فـسأل موسى السبيل إليـه، فجعل له الحوت آية، وقيل له: إذا فـقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه، فكان يتبع الحـوت فى البحر، فقال فتى موسى لموسى: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نـسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكـره. فقال موسى: ذلك ما كنا نبغى، فارتدا على آثارهما قصصـا، فوجدا خضراً، فكان من شأنهما الذى قص الله فى كتابه [١].

الشرح

قال الحـافظ ابن حجر ـ رحـمه الله ـ: «ونوف المذكور تابعى من أهل دمـشق فاضل عالم لا سيما بالإسرائيليات، وكان ابن امرأة كعب الأحبار وقيل غير ذلك.

قوله **﴿كذب عـدو الله﴾** قال ابن التين: لم يرد ابن عـباس اخراج نوف عن ولاية الله، ولكن قلوب العلماء تنفر إذا سمعت غيـر الحق، فيطلقون أمثال هذا الكلام لقصد الزجر والتحذير منه وحقيقته غير مرادة.

وأما تكذيبه فيسـتفاد منه أن العالم إذا كان عنده علم بشىء فسمع غـيره يذكر فيه شيـئاً بغير علم أن يكذبه، ونظيـره قوله « كذب أبو السنابل» أى أخـبر بما هو باطل فى نفس الأمر. . .

قوله: **﴿فـقـال أنا أعلم﴾** فى جـواب أى الناس أعلم، قال ابن المنيـر: ظن ابن بطال: أن ترك موسى الجواب عن هذه المسألة كان أولى. قال: وعندى أنه ليس كذلك، بل ردُّ العلم إلى الله تعالى متعين أجاب أو لم يجب، فلو قال موسى عليه السلام: «أنا والله أعلم» لم تحصل المعاتبة، وإنما عوتب على اقتصاره على ذلك؛ أى لأن الجزم يوهم أنه كذلك فى نفس الأمر، وإنما مراده الإخبار بما فى علمه [٢].

---

(١) رواه البخـارى(٧٨) كتاب العلم، باب: الخـروج فى طلب العلم. ورواه فى أحاديث الأنبـياء (٣٤٠٠) باب: حديث الخضر مع موسى عليهما السلام.

(٢) «فتح البارى» (١/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥). باختصار يسير.

من هو الخضر وما سبب تسميته بهذا الاسم؟

ثبت فى الصحيحين أن سبب تسمية الخضر بهذا الاسم، أنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هى تهتز تحته خضراء، والفروة هى الأرض اليابسة، وقيل هى الحشيش الأبيض.

وأما اسم الخضر عليه السلام، فلا يوجد دليل صحيح يعين اسمه، وقد وردت عدة أقوال فى اسمه ونسبه.

قال الحافظ ابن حجر: قيل: هو ابن آدم من صلبه.

[القول الثانى]: أنه ابن قابيل بن آدم.

[القول الثالث]: جاء عن وهب بن منبه أنه بليا بن ملكان بن قالع بن شالخ بن عابر ابن أرفخشذ بن سام بن نوح.

[القول الرابع]: جاء عن إسماعيل بن أبى أويس: أنه المعمر بن مالك بن عبد الله ابن نصر بن الأزد. وقيل اسمه عامر،

[القول الخامس]: هو ابن عمائيل بن النور بن العيص بن إسحاق .

[القول السادس] أنه من سبط هرون أخى موسى،، وهو بعيد

[القول السابع]: أنه ابن بنت فرعون، وقيل ابن فرعون لصلبه .

[القول الثامن]: أنه اليسع، حكى عن مقاتل وهو بعيد أيضاً.

[القول التاسع]: أنه من ولد فارس،

[القول العاشر]: أنه من ولد بعض من كان آمن بإبراهيم وهاجر معه من أرض بابل، حكاه ابن جرير الطبرى فى تاريخه. وقيل: كان أبوه فارسيا وأمه رومية [(١)].

وقال الشنقيطى ـ بعد أن ذكر هذه الأقوال ـ: والله أعلم بحقيقة الواقع [(٢)].

(١) رسالة النضر فى نبأ الخضر» الحافظ ابن حجر (ص ٤ ـ٥) باختصار وانظر «البداية والنهاية» لابن كثير (٣٢٦/١).

(٢) انظر «أضواء البيان» (١٩٢/٤ ـ ١٩٣).



هل الخضر نبيٌ أو ولي؟

ذهب بعض أهل العلم وجماعة من الصوفية إلى أن الخضر كان وليًا، وقال بنبوته جمهور أهل العلم و قال الحافظ ابن حجر: «قوله: (هو أعلم منك) ظاهر فى أن الخضر نبى، بل نبى مرسل [1]، إذ لو لم يكن كذلك للزم تفضيل العالى على الأعلى وهو باطل من القول، ولهذا أورد الزمخشرى سؤالاً وهو: دلت حاجة موسى إلى التعليم من غيره، أنه موسى بن ميشا كما قيل، إذ أن النبى يجب أن يكون أعلم أهل زمانه، وأجاب عنه بأنه لا نقص بالنبى فى أخذ العلم من نبى مثله، **قلت:**

وفى الجواب نظر؛ لأنه يستلزم نفى ما أوجب، والحق أن المراد بهذا الإطلاق تقييد الأعلمية بأمر مخصوص، لقوله بعد ذلك «إنى على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه» والمراد بكون النبى أعلم أهل زمانه أى ممن أرسل إليه، ولم يكن موسى مرسلاً إلى الخضر، وإذاً فلا نقص به إذا كان الخضر أعلم منه إن قلنا إنه نبى مرسل، أو أعلم منه فى أمر مخصوص إن قلنا إنه نبى أو ولى، وينحل بهذا التقرير اشكالات كثيرة، ومن أوضح ما يستدل به على نبوة الخضر قوله: ﴿**وما فعلته عن أمرى**﴾ وينبغى اعتقاد كونه نبيا لئلا يتذرع بذلك أهل الباطل فى دعواهم أن الولى أفضل من النبى حاشا وكلا» [2].

وقال أيضاً ـ رحمه الله ـ: «قال الله تعالى فى خبره عن موسى حكاية عنه: ﴿ **وما فعلته عن أمرى**» وهذا ظاهره أنه فعله بأمر من الله، والأصل عدم الواسطة، ويحتمل أن يكون بواسطة نبى آخر لم يذكر وهو بعيد ولا سبيل إلى القول بأنه إلهام؛ لأن ذلك لا يكون من غير النبى وحياً حتى يعمل به ما عمل من قتل النفس وتعريض الأنفس للغرق: فإن قلنا: إنه نبى فلا إنكار فى ذلك، وأيضاً كيف يكون غير النبى أعلم من النبى: وقد أخبر النبى ﷺ فى الحديث الصحيح أن الله تعالى قال لموسى: «**بلى عبدنا خضر**» وأيضاً فكيف يكون النبى تابعاً لغير نبى؟ وقال الثعلبى: هو نبى فى جميع الأقوال: وكان بعض أكابر العلماء يقول: أول عقدة تحل من الزندقة اعتقاد كون الخضر نبياً لأن الزنادقة يتذرعون بكونه غير نبى إلى أن الولى أفضل من النبى كما قال قائلهم.



وإنما قلت ذلك لأن غالب أخباره مع موسى هى الدالة على تصحيح قول من قال

(١) القول برسالة الخضر فيه خلاف بين أهل العلم كما سيأتى.
(٢) «فتح البارى» (١/ ٢٦٥).

إنه كان نبياً، ثم اختلف من قال إنه كان نبيًا، هل كان مرسلاً، فجاء عن ابن عباس ووهب بن منبه أنه كان نبيًا غير مرسل، وجاء عن اسماعيل بن أبى زياد ومحمد ابن إسحاق وبعض أهل الكتاب أنه أرسل إلى قومه فاستجابوا له، ونصر هذا القول أبو الحسن الرمانى ثم ابن الجوزى، وقال الثعلبى: هو نبى على جميع الأقوال مُعَمَّرٌ محجوب عن الأبصار [1]، وقال أبو حيان فى تفسيره: والجمهور على أنه نبى، وكان علمه معرفة بواطن أُوحيت إليه وعلم موسى الحكم بالظاهر. وذهب إلى أنه كان ولياً جماعة من الصوفية، وقال أبو القاسم القشيرى فى رسالته: لم يكن الخضر نبيًا وإنما كان وليًا وحكى الماوردى قولاً ثالثاً: أنه ملك من الملائكة [2] يتصور فى صور الآدميين مغيراً ذاتاً [3].

وقال القرطبي: «والخضر نبى عند الجمهور، وقيل هو عبد صالح غير نبى، والآية تشهد بنبوته لأن بواطن أفعاله لا تكون إلا بوحى، وأيضا فإن الإنسان لا يتعلم ولا يتبع إلا من فوقه، وليس يجوز أن يكون فوق النبى من ليس بنبى، وقيل: كان ملكا أمر الله موسى أن يأخذ عنه مما حمله من علم الباطن، والأول الصحيح والله أعلم [4].

وقال الحافظ ابن كثير: « وقد دل سياق القصة على نبوته من وجوه: **أحدها**: قوله تعالى **﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾** .

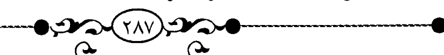
الثانى: قول موسى له: **﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾**، فلو كان وليًا وليس بنبى لم يخاطبه موسى بهذه المخاطبة، ولم يرد على موسى هذا الرد، بل موسى إنما سأل صحبته لينال ما عنده من العلم الذى اختصه الله به دونه، فلو كان غير نبى لم يكن معصوماً ولم تكن لموسى وهو نبى عظيم ورسول كريم واجب العصمة كبير رغبة ولا عظيم طلبة فى علم ولى غير واجب العصمة، ولما عزم على الرحيل إليه، والتفتيش عليه ولو أنه يمضى حقباً من الزمان قيل ثمانين سنة، ثم لما اجتمع به تواضع له وعظمه واتبعه فى صورة مستفيد منه، دل على أنه نبى مثله يوحى

(١) هذا القول غير صحيح، وسيأتى بيان ذلك.

(٢) قال النووى: وهذا قول غريب باطل، وقال ابن كثير: غريب جدا.

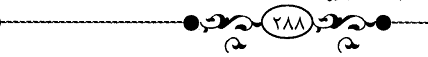
(٣) «الزهر النضر فى نبأ الخضر» (ص٥ ـ ٧).. باختصار يسير.

(٤) «تفسير القرطبى» (٦/ ٤٠٥٥) ط دار الريان للتراث.



إليه كما يوحى إليه، وقد خص من العلوم اللدنية والأسرار النبوية بما لم يطلع الله عليه موسى الكليم نبى بنى إسرائيل الكريم، وقد احتج بهذا المسلك بعينه الرمانى على نبوة الخضر عليه السلام.

الثالث: أن الخضر أقدم على قتل ذلك الغلام وما ذاك إلا للوحى إليه من الملك العلاّم. وهذا دليل مستقل على نبوته وبرهان ظاهر على عصمته؛ لأن الولى لا يجوز له الإقدام على قتل النفوس بمجرد ما يُلقى فى خلده؛ لأن خاطره ليس بواجب العصمة إذ يجوز عليه الخطأ بالاتفاق، ولما أقدم الخضر على قتل ذلك الغلام الذى لم يبلغ الحلم علماً منه بأنه إذا بلغ يكفر ويحمل أبويه على الكفر لشدة محبتهما له، فيتبعانه عليه، ففى قتله مصلحة عظيمة تربو على بقاء مهجته صيانة لأبويه عن الوقوع فى الكفر وعقوبته، دل ذلك على نبوته وأنه مؤيد من الله بعصمته.

الرابع: أنه لما فسر الخضر تأويل تلك الأفاعيل لموسى ووضح له عن حقيقة أمره وجلّى، قال بعد ذلك كله: 

، يعنى ما فعلته من تلقاء نفسى، بل أمرت به وأوحى إلى فيه، فدلت هذه الوجوه على نبوته.

ولا ينافى ذلك حصول ولايته بل ولا رسالته كما قاله آخرون. وأما كونه ملكاً من الملائكة فغريب جداً، وإذا ثبتت نبوته كما ذكرناه لم يبق لمن قال بولايته وأن الولى قد يطلع على حقيقة الأمور دون أرباب الشرع الظاهر مستند يستندون إليه ولا معتمد يعتمدون عليه»[1].

هل الخضر ما زال حيًا؟!

ذهب بعض أهل العلم إلى أن الخضر ما زال حيًا!، وذهب جمهور العلماء إلى أنه قد مات.

وقد استدل القائلون بحياة الخضر ببعض الأدلة، ولكن هذه الأدلة كلها ضعيفة باطلة، وسوف أذكر أهم ما استدلوا به علي حياته.

أولا: حديث على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: لما توفى النبى ﷺ وجاءت التعزية فجاءهم آت يسمعون حسه ولا يرون شخصه فقال: «السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته، كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة، إن فى الله عزاء من كل مصيبة وخلفاً من كل هالك ودركاً من كل ما فات، فبالله فثقوا وإياه فارجوا فإن المصاب من حُرم الثواب» فقال على بن أبى طالب: «تدرون من هذا هذا الخضر».

(١) «البداية والنهاية» (١/ ٣٢٨). باختصار يسير.

وهذا الحديث باطل موضوع. قال أبو الخطاب بن دحية: وأما الحديث الذى ذكره أبو عمر [1] فهو موضوع، رواه عبد الله بن المحرر، عن يزيد بن الأصم، عن على رضى الله عنه، وابن محرر متروك، وهو الذى قال ابن المبارك فى حقه كما أخرجه مسلم فى مقدمة صحيحه: لما رأيته كانت بعرة أحب إلى منه، ففضل رؤية النجاسة على رؤيته [2].

ثانياً: استدلوا بما رواه الدارقطنى فى «الأفراد» عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «نسىء للخضر فى أجله حتى يكذب الدجال» وهذه رواية باطلة، فقد رواها الدارقطنى من طريق رواد بن الجراح وهو ضعيف، عن مقاتل بن سليمان وهو متروك، عن الضحاك عن ابن عباس، والضحاك لم يلق ابن عباس.

ثالثاً: استدلوا بما رواه ابن أبى الدنيا من طريق مكحول عن أنس رضى الله عنه فى اجتماع إلياس بالنبى ﷺ! قالوا: وإذا جاز بقاء إلياس إلى العهد النبوى جاز بقاء الخضر !!

وحديث أنس هذا موضوع، قال أبو الخطاب ابن دحية: وأما حديث مكحول عن أنس رضى الله عنه فهو موضوع، ثم نقل تكذيبه عن أحمد ويحيى وإسحاق وأبى زرعة قال: وسياق المتن ظاهر النكارة وأنه من الخرافات [3].

وقد وردت كذلك بعض الأخبار التى تفيد أن الخضر عليه السلام كان موجوداً فى زمن النبى ﷺ ثم بعده إلى الآن!!وهذه الأخبار لم يصح منها شىء .

قال الحافظ ابن كثير: «روى ابن عساكر عن أبى داود الأعمى نفيع، وهو كذاب وضاع عن أنس بن مالك، ومن طريقه كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف وهو كذاب أيضاً عن أبيه عن جده أن الخضر جاء ليلة فسمع النبى ﷺ وهو يدعو ويقول: اللهم أعنى على ما ينجينى مما خوفتنى، وارزقنى شوق الصالحين إلى ما شوقتهم إليه، فبعث إليه رسول الله أنس بن مالك فسلم عليه فرد عليه السلام، وقال: قل له إن الله فضلك على الأنبياء كما فضل شهر رمضان على سائر الشهور، وفضل أمتك على الأمم كما فضل يوم الجمعة على غيره. الحديث، وهو مكذوب لا يصح سنداً ولا متناً، كيف لا يتمثل بين يدى رسول الله ﷺ ويجىء بنفسه مسلماً ومتعلماً، وهم يذكرون فى

(١) هو أبو عمر بن عبد البر.
(٢) «الزهر النضر» ص١١.
(٣) انظر «الزهر النضر» ص١١.

حكاياتهم و ما يسندونه عن بعض مشايخهم أن الخضر يأتى إليهم ويسلم عليهم ويعرف أسمـاءهم ومنازلهم ومحالهم وهو مـع هذا لا يعرف موسى بن عـمران كليم الله الذى اصطفاه الله فى ذلك الزمان على من سواه حتى يتعرف إليه بأنه موسى نبى إسرائيل.

فأما الحـديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البيهقى عن أنس بن مـالك قال: لما قبض رسول الله ﷺ أحدق به أصحابه فبكوا حوله واجتـمعوا، فدخل رجل أشهب اللحية جسيم صبيح فتخطى رقابهم فـبكى ثم التفت إلى أصحاب رسول الله ﷺ فقال: إن فى الله عزاء من كل مصيبة وعوضًا من كل فائت، وخلفًا من كل هالك فإلى الله فأنيبوا وإليه فـارغبوا، ونظر إليكم فى الـبلاء فانظروا فـإن المصائب من لم يجبـر، وانصرف، فقـال بعضهم لبـعض تعرفون الرجل، فـقال أبو بكر وعلى، نعم هو أخـو رسول الله ﷺ الخضر علـيه السلام. قال البيـهقى: عباد بن عـبدالصمد ضـعيف، وهذا منكر بمرة، قلت: عباد بـن عبد الصمد هذا هو ابن مـعمر البصـرى. روى عن أنس نسخة، قال ابن حـبان والعقـيلى أكثرها مـوضوع: وقال الـبخارى: منكر الحـديث. وقال أبو حاتم: ضعيف الحديث جدًا منكره.

وقال الشـافعى فى «مسنده»: أخبـرنا القاسم بن عبـد الله بن عمر عن جعـفر بن محمد عن أبيـه عن جده على بن الحسين قال: لما توفى رسول الله ﷺ جـاءته التعزية سمعوا قائلاً يقول: إن فى الله عزاء من كل مـصيبة وخلفًا من كل مالك ودركا من كل فائت، فبالله فثقوا وإياه فارجعوا، فإن المصائب من حرم الثواب. قال على بن الحسين: أتدرون من هذا. هذا الخضـر. شيخ الشافعى القاسم العـمرى متروك. قـال أحمد بن حنبل ويحيى بن معين يكذب. زاد أحمد ويضع الحديث. ثم هو مرسل ومثله لا يعتمد عليه ههنا والله أعلم.

وقد روى عـبد الله بن وهب عمن حـدثه عن محمد بن عـجلان عن محـمد بن المنكدري أن عمـر بن الخطاب بينما هو يصـلى على جنازة إذ سمع هاتفًـا وهو يقول لا تسبـقنا يرحمك الله، فانتظره حـتى لحق بالصف فذكر دعـاءه للميت إن تعذبه فكثـيرًا عصاك وإن تغفـر له ففقير إلى رحمتك. ولما دفن قـال: طوبى لك يا صاحب القبر إن لم تكن عريفًا أو جابيًا أو خازنًا أو كاتبًا أو شـرطيًا فقال عمر: خذوا الرجل نسأله عن صلاته وكلامه عمن هو. قال فتوارى عنهم فنظروا فإذا أثر قدمه ذراع، فقال عمر: هذا والله الخضر الذى حـدثنا عنه رسول الله ﷺ، وهذا الأثر فيه مبـهم وفيه انقطاع ولا يصح مثله.

روى الحافظ ابن عساكر عن الثورى عن عبد الله بن محرر عن يزيد بن الأصم عن

على بن أبى طالب قال: دخلت الطواف فى« بعض الليل فإذا أنا برجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول: «يا من لا يمنعه سمع من سمع، ويا من لا تغلطه المسائل، ويا من لا يبرمه إلحاح الملحين ولا مسألة السائلين ارزقنى برد عوفك وحلاوة رحمتك، قال: فقلت أعد علىّ ما قلت فقال لى أو سمعته؟ قلت: نعم، فقال لى والذى نفس الخضر بيده، قال: وكان هو الخضر، لا يقولها عبد خلف صلاة مكتوبة إلا غفر الله له ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر وورق الشجر وعدد النجوم لغفرها الله له. وهذا ضعيف من جهة عبد الله بن المحرر، فإنه متروك الحديث ويزيد بن الأصم لم يدرك عليًا ومثل هذا لا يصح. والله أعلم. وقد رواه أبو إسماعيل الترمذى، وهذ أيضًا منقطع وفى إسناده من لا يعرف والله أعلم.

عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال: ولا أعلمه إلا مرفوعًا إلى النبى ﷺ، قال: يلتقى الخضر وإلياس كل عام فى الموسم فيلحق كل واحد منهما رأس صاحبه ويتفرقان عن هؤلاء الكلمات «بسم الله ما شاء الله، لا يسوق الخير إلا الله، ما شاء الله لا يصرف الشر إلا الله ما شاء الله ما كان من نعمة فمن الله، ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله»

قال الدارقطنى فى «الأفراد»: هذا حديث غريب من حديث ابن جريج لم يحدث به غير هذا الشيخ عنه، يعنى الحسن بن زريعة قال: فيه الحافظ أبو أحمد بن عدى ليس بالمعروف. وقال الحافظ أبو جعفر العقيلى: مجهول وحديث غير محفوظ. وقال أبو الحسن بن المنادى: هو حديث واه بالحسن بن زريعة. وقد روى ابن عساكر نحوه عن على بن أبى طالب مرفوعًا، قال: ويجتمع كل يوم عرفة بعرفات جبريل وميكائيل وإسرافيل والخضر» وذكر حديثًا طويلاً موضوعًا، ، تركنا إيراده قصدًا ولله الحمد.

وروى ابن عساكر عن ابن أبى رواد قال: إلياس والخضر يصومان شهر رمضان ببيت المقدس ويحجان فى كل سنة ويشربان من ماء زمزم شربة واحدة تكفيهما إلى مثلها من قابل. وروى ابن عساكر أن الوليد بن عبد الملك بن مروان بانى جامع دمشق أحب أن يتعبد ليلة فى المسجد فأمر القوم أن يخلوه له ففعلوا، فلما كان من الليل جاء من باب الساعات فدخل الجامع فإذا رجل قائم يصلى فيما بينه وبين باب الخضراء فقال لقومه: ألم آمركم أن تخلوه، فقالوا يا أمير المؤمنين هذا الخضر يجىء كل ليلة يصلى ههنا. وقال ابن عساكر أيضًا: عن رباح بن عبيدة قال: رأيت رجلاً يماشى عمر بن عبد العزيز معتمدًا على يديه فقلت فى نفسى: إن هذا الرجل حافى، قال: فلما انصرف من الصلاة قلت من الرجل الذى كان معتمدًا على يدك آنفًا قال: وهل رأيته يا رباح قلت:

نعم، قال: مـا أحسبك إلا رجلاً صالحًـا ذاك أخى الخضر، بشرنى أنـى سألى وأعدل»
وهذه الروايات والحكايات هى عمدة من ذهب إلى حـياته إلى اليوم وكل من الأحاديث
المرفوعـة ضعيفـة جدًا لا يقوم بمثلهـا حجة فى الدين، والحكايات لا يخلو أكـثرها عن
ضـعف فى الإسناد. وقد تصـدى الشيـخ أبو الفرج بن الجـوزى رحمـه الله فى كتـابه
«عجالة المنتظر فى شـرح حالة الخضر» للأحاديث الواردة فى ذلك من المرفـوعات فبيّن
أنها موضوعـات، ومن الآثار عن الصحابة والتابعين فمن بعدهم فبـيّن ضعف أسانيدها
ببيان أحوالها وجهالة رجالها. وقد أجاد فى ذلك وأحسن الانتقاد»[1].

وقـال ابن الجـوزى فى «الموضوعـات» (١/ ١٩٥): «وقـد أغـرق خلق كثـيـر من
المهوسين بأن الخضـر حى إلى اليوم ورووا أنه التقى بعلى بن أبى طالب وبعمـر بن عبد
العزيز، وأن خلقًا كثيرًا من الصالحين رأوه، وصنف بعض من سمع الحديث ولم يعرف
علله كتابًا جمع فـيه ذلك، ولم يسأل عن أسانيد ما نقل، وانتشر الأمـر إلى أن جماعة
من المتصفين بالزهد يقولون: رأيناه وكلمناه، فواعجبًـا اللهم إن فيه علامة يعرفونه بها،
وهل يجوز لعاقل أن يلقى شخصًا: فيقول له الشخص: أنا الخضر فيصدقه؟



(١) «البداية والنهـاية» (١/ ٣٣١ ـ ٣٣٤) باختصار. وانظر «الزهر النضـر فى نبأ الخضر» للحـافظ ابن حجر.

الأدلة على موت الخضر

قال الحافظ ابن كثير: الأدلة على موت الخضر كثيرة متوفرة:

منها قوله تعالى: **﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد﴾**، فالخضر إن كان بشرًا فقد دخل فى هذا العموم لا محالة ولا يجوز تخصيصه منه إلا بدليل صحيح ولم يذكر دليل على التخصيص عن معصوم يجب قبوله.

ومنها أن الله تعالى قال: **﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾**، قال ابن عباس: ما بعث الله نبيًا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بُعث محمد وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به وينصرنه. ذكره البخارى عنه. فالخضر إن كان نبيًا أو وليًا فقد دخل فى هذا الميثاق، فلو كان حيًا فى زمن رسول الله ﷺ لكان أشرف أحواله أن يكون يؤمن بما أنزل الله عليه وينصره أن يصل أحدٌ من الأعداء إليه؛ لأنه إن كان وليًا فالصديق أفضل منه، وإن كان نبيًا فموسى أفضل منه، وقد روى الإمام أحمد .. عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: **«والذى نفسى بيده لو كان موسى حيًا ما وسعه إلا أن يتبعنى»**[(1)] وهذا الذى يقطع به ويعلم من الدين بالضرورة وقد دلت عليه هذه الآية الكريمة أن الأنبياء كلهم لو فرض أنهم أحياء مكلفون فى زمن رسول الله ﷺ لكانوا أتباعًا له وتحت أوامره وفى عموم شرعه، كما أنه صلوات الله وسلامه عليه لما اجتمع معهم ليلة الإسراء رُفع فوقهم كلهم، ولما هبطوا معه إلى بيت المقدس وحانت الصلاة أمره جبريل عن أمر الله أن يؤمهم فصلى بهم فى محل ولايتهم ودار إقامتهم فدل على أنه الإمام الأعظم والإمام الخاتم المبجل المقدم صلوات الله وسلامه عليه وعليه أجمعين. فإذا علم هذا وهو معلوم عند كل مؤمن عَلِمَ أنه لو كان الخضر حيًا لكان من جملة أمة محمد ﷺ وممن يقتدى بشرعه لا يسعه إلا ذلك والمعلوم أن الخضر لم ينقل بسند صحيح ولا حسن تسكن النفس إليه أنه اجتمع برسول الله ﷺ فى يوم واحد ولم يشهد معه قتالاً فى مشهد من المشاهد، وهذا يوم بدر يقول الصادق المصدوق فيما دعا به لربه عز وجل واستنصره

(1) حسن. رواه أحمد (٣/ ٣٨٧) والدارمى (١/ ١١٥) وانظر «الإرواء» (١٥٨٩).

واستفتحه على من كفره «اللهم إن تهلك هذه العاصبة لا تعبد بعدها فى الأرض» وتلك العصابة كان تحتها سادة المسلمين يومئذ

فلو كان الخضر حيًا لكان وقوفه تحت هذه الراية أشرف مقاماته وأعظم غزواته.

فإن قيل: فهل يقال: إنه كان حاضرًا فى هذه المواطن كلها ولكن لم يكن أحد يراه؟ فالجواب أن الأصل عدم هذا الاحتمال البعيد الذى يلزم منه تخصيص العمومات بمجرد التوهمات، ثم ما الحامل له على هذا الاختفاء وظهوره أعظم لأجره وأعلى فى مرتبته وأظهر لمعجزته، ثم لو كان باقيًا بعده لكان تبليغه عن رسول الله ﷺ الأحاديث النبوية والآيات القرآنية وإنكاره لما وقع من الأحاديث المكذوبة والروايات المقلوبة والآراء البدعية والأهواء العصبية وقتاله مع المسلمين فى غزواتهم وشهوده جمعهم وجماعاتهم ونفعه إياهم ودفعه الضرر عنهم ممن سواهم وتسديده العلماء والحكام وتقريره الأدلة و الأحكام أفضل ما يقال عنه من كنونه فى الأمصار وجوبه الفيافى والأقطار واجتماعه بعباد لا يعرف أحوال كثير منهم وجعله لهم كالنقيب المترجم عنهم. وهذا الذى ذكرناه لا يتوقف أحد فيه بعد التفهيم، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

ومن ذلك ما ثبت فى الصحيحين وغيرهما عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ صلى ليلة العشاء ثم قال: «**رأيتكم ليلتكم هذه فإنه إلى مائة سنة لا يبقى ممن هو على وجه الأرض اليوم أحد**»، وفى رواية «عين تطرف» قال ابن عمر: فَوَهِلَ الناس فى مقالة رسول الله ﷺ هذه وإنما أراد انخرام قرنه.

قال ابن الجوزى: فهذه الأحاديث الصحاح تقطع دابر دعوى حياة الخضر[1].



(١) البداية والنهاية» (١/ ٣٣٤ ـ ٣٣٦) باختصار وانظر «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢٧/ ١٠٠ ـ ١٠٢) و«أضواء البيان» للشنقيطى (٤/ ١٧٧ ـ ١٩٢).

هل يجوز الخروج عن شريعة النبى ﷺ؟

قال بعض المتصوفة: إن لله خواصًا لا يحتاجون إلى متابعة النبى محمد ﷺ ويجوز لهم أن يستغنوا عنه كما استغنى الخضر عن موسى!!!

وهذه الدعوى العجيبة تؤدى إلى الانسلاخ من الشرع بالكلية ومن خرج عن الشرع فقد دخل فى الكفر والزندقة والعياذ بالله.

قال القرطبى رحمه الله فى تفسيره ما نصه: قال شيخنا الإمام أبو العباس: ذهب قوم من زنادقة الباطنية إلى سلوك طريق لا تلزم منه هذه الأحكام الشرعية فقالوا: هذه الأحكام الشرعية العامة إنما يحكم بها على الأنبياء والعامة. وأما الأولياء وأهل الخصوص فلا يحتاجون إلى تلك النصوص، بل إنما يراد منهم ما يقع فى قلوبهم ويحكم عليهم بما يغلب من خواطرهم قالوا: وذلك لصفاء قلوبهم عن الأكدار، وخلوها عن الأغيار، فتتجلى لهم العلوم الإلهية، والحقائق الربانية، فيقفون على أسرار الكائنات، ويعلمون أحكام الجزئيات، فيستغنون بها عن أحكام الشراع الكليات، كما اتفق للخضر فإنه استغنى بما تجلى له من العلوم عما كان عند موسى من تلك الفهوم. وقد جاء فيما ينقلون: «**استفت قلبك وإن أفتاك المفتون**»(1).

قال شيخنا رضى الله عنه: وهذا القول زندقة وكفر، يقتل قائله ولا يستتاب لأنه إنكار ما علم من الشرائع، فإن الله تعالى قد أجرى سنته، وأنفذ حكمته بأن أحكامه لا تعلم إلا بواسطة رسله السفراء بينه وبين خلقه، وهم المبلغون عنه رسالاته وكلامه، والمبينون شرائعه وأحكامه، اختارهم لذلك وخصهم هنالك، كما قال تعالى: ﴿**الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس إن الله سميع بصير**﴾. وقال تعالى: ﴿**الله أعلم حيث يجعل رسالته**﴾ وقال تعالى: ﴿**كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين**﴾ إلى غير ذلك من الآيات. وعلى الجملة، فقد حصل العلم القطعى واليقين الضرورى، واجتماع السلف والخلف على أن لا طريق لمعرفة أحكام الله تعالى التى هى راجعة إلى أمره ونهيه، ولا يُعرف شىء منها إلا من جهة الرسل فمن قال: إن هناك طريقاً أخرى يعرف بها أمره ونهيه غير الرسل حيث يستغنى عن الرسل - فهو كافر يقتل ولا يستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال وجواب. ثم هو يقول بإثبات أنبياء بعد نبينا ﷺ الذى جعله الله خاتم أنبيائه ورسله، فلا نبى بعده ولا رسول(2).

---

(1) سيأتى فى كلام الشنقيطى الجواب على هذا الاستدلال.

(2) نقلاً عن «أضواء البيان» (٤/ ١٧٤ - ١٧٥).

وقال ابن القيم: «وأما قصة موسى مع الخضر عليـها السلام فالتعلق بها فى تجويز الاستـغناء عن الوحى بالعلم اللدنى إلحاد وكـفر فـخرج عن الإسلام؛ مـوجب لإراقة الدم.

والفرق: أن موسى لم يكن مبـعوثًا إلى الخضر، ولم يكن الخضر مأمـورًا بمتابعته. ولو كان مأمورًا بها لوجب عليه أن يهاجر إلى موسى ويكون معه، ولهذا قال له: «أنت موسى نبى بنى إسرائيل؟ قال نعم» ومحمد ﷺ مبـعوث إلى جميع الثقلين. فرسالته عامة للجن والإنس فى كل زمـان. ولو كان موسى وعيسى عليهمـا السلام حيين لكانا من أتباعه. وإذا نزل عيسى ابن مريم عليهما السلام، فإنما يحكم بشريعة محمد ﷺ، فمن ادّعى أنه مع مـحمد ﷺ كـالخضـر مع موسى، أو جوّز ذلك لأحـد من الأمة فليجدد إسلامه، وليشهد شهـادة الحق، فإنه بذلك مفارق لدين الإسلام بالكلية، فضلاً عن أن يكون من خاصة أولياء الله، وإنما هو من أولياء الشيطان وخلفائه ونوابه[1].

وقال شيخ الإسلام ابـن تيمية: وقد يحتج بعضهم بقـصة موسى والخضر، ويظنون أن الخضر خرج عن الشريعة، وهم فى هذا ضالون من وجهين: **«أحدهما»**: أن الخضر لم يخرج عن الشـريعة، بل الذى فعله كان جـائزا فى شريعة مـوسى، ولهذا لما بيّن له الأسبـاب أقره على ذلـك، ولو لم يكن جـائزًا لما أقـره، ولكن لم يكن مـوسى يعلم الأسباب التى بهـا أبيحت تلك فظن أن الخضر كالملك الظالم ـ فذكـر ذلك له الخضر. **«والثانى»**: أن الخضر لم يكن من أمة موسى، ولا كان يجب عليه متابعته، بل قال له: إنى على علم من علـم الله علمنيه الله لا تعـلمه وأنت على علـم من علم الله علمكه الله لا أعلمه؛ وذلك أن دعـوة موسى لم تكن عـامة. فإن النبى كـان يبعث إلى قـومه خـاصـة. ومحـمـد ﷺ بُعث إلى النـاس كافـة، بل بعث إلـى الإنس والجن باطنًا وظاهرًا. فليس لأحد أن يخرج عن طاعته ومـتابعته، لا فى الباطن ولا فى الظاهر، لا من الخواص ولا من العوام.

ومن هؤلاء من يفـضل بعض الأوليـاء على الأنبـياء، وقـد يجـعلون الخضـر من هؤلاء، وهذا خلاف مـا أجمع عليه مشـائخ الطريق المقتدى بهم، دع عنك سـائر أئمة الدين وعلماء المسـلمين، بل لما تكلم الحكيم الترمـذى فى كتاب «خـتم الأولياء» بكلام ذكر أنه يكون فى آخـر الأولياء من هو أفـضل من الصحابة، وربمـا لوح بشىء من ذكر الأنبياء ـ قام عليه المسلمـون، وأنكروا ذلك عليه ونفوه من البلد بسبب ذلك، ولا ريب أنه تكلم فى ذلك بكلام فاسد باطل لا ريب فيه.

ومن هناك ضل من اتبعه فى ذلك، حتى صار جماعات يدعى كل واحد أنه خاتم

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/٤٩٦) وانظر «شرح العقيدة الطحاوية» ص ٥١١.

الأولياء، كـابن عربى صاحب «الفصـوص» وسعد الدين بن حـمويه وغيرهمـا، وصار بعض الناس يدعى أن فى المتأخرين من يكون أفضل فى العلم بالله من أبى بكر وعمر، والمهـاجرين، والأنصـار، إلى أمـثال هذه المقـالات التى يطول وصـفهـا، مما هو باطل بالكتاب والسنة والإجماع، بل طوائف كثيرون آل الأمر بهم إلى مشاهدة الحقيقة الكونية القدرية، وظنوا أن من شهدها سقط عنه الأمر والنهى، والوعد والوعيد، وهذا هو دين المشركين الـذين قالوا: **﴿لو شاء الله مـا أشركنا ولا آباؤنا ولا حـرمنا من دونه من شىء﴾** وهؤلاء شرٌ من القدرية المعتزلة، الذين يقرون بالأمر والنهى، والوعد والوعيد، ويكذبون بالقـدر. فإن أولئك يشـبهون المجـوس، وهؤلاء يشبـهون المشـركين المكذبين بالأنبـياء والشرائع، فهم من شر الناس. وقد بُسط الكلام على هذه الأمور فى غير هذا الموضع.

و «المقصـود هنا» أن الظاهر لابد له من باطن يحققه ويـصدقه ويوافقه، فـمن قام بظاهر الدين من غير تصـديق بالباطن فهو منافق. ومن ادّعى باطنًا يخـالف ظاهرًا فهو كافر منافق بل باطن الدين يحقق ظاهره ويصدقه ويوافقه، وظاهره يوافق باطنه ويصدقه ويحقـقه، فكمـا أن الإنسان من ظاهر وباطن يتـفقان، فـالباطن للبـاطن من الإنسان، والظاهر للظاهر منه.

والقرآن مملوء من ذكر أحكام الباطن والظاهر، والبـاطن أصل الظاهر، كما قال أبو هريرة: «القلب ملك والأعـضـاء جنوده، فـإذا طاب القلب طابت جنوده، وإذا خـبث الملك خبثت جنوده» وقد قال النبى ﷺ: **«ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فـسد لها سائر الجسد، ألا وهى القلب»**[1] وفى المسند عن النبى ﷺ قال: **«الإسلام علانية والإيمان فى القلب»**[2].

وقد قال تعالى: **﴿أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه﴾** وقال تعالى: **﴿هو الذى أنزل السكـينة فى قلوب المؤمنين ليـزدادوا إيمـانًا مع إيمانهم﴾** وقال تعـالى: **﴿فمن يـرد الله أن يهديه يشـرح صدره للإسلام ومـن يرد أن يضله يجعل صـدره ضيـقًا حرجًـا كأنما يصعد فى السـماء﴾** وقال تعالى: **﴿الله نزل أحسن الحـديث كتابا متـشابهًا مـثـانى تقـشـعـر منه جلود الذين يخـشـون ربهم، ثم تلين جلـودهم وقلوبهم إلى ذكـر الله﴾** وقال تعالى: **﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكـر الله وجلت قلوبهم﴾** وقال: **﴿ختم الله**

(١) رواه البخارى (٥٢) وأحمـد (٤/ ٢٦٧، ٢٦٩ و ٢٧٠ و ٢٧١) وأبو داود (٣٣٢٩) والترمذى (١٢٠٥) والنسائى (٧/ ٢٤١ و ٨/ ٣٢٧) وابن ماجه (٣٩٨٤) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه.

(٢) حسن. رواه أحمـد (٣/ ١٣٤ ـ ١٣٥) والبزار (٢٠ ـ كـشف الأستاذ) وأبو يعلـى (٢٩٢٣) من حديث أنس ابن مالك رضى الله عنه.

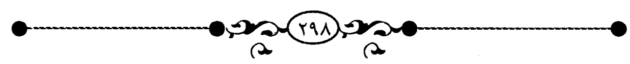
على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة﴾ وأمثال ذلك.

فنسأل الله العظيم أن يصلح بواطننا وظواهرنا، ويوفقنا لما يحبه ويرضاه من جميع أمورنا بمنه وكرمه.

وقال أيضًا ـ رحمه الله ـ: وقصة الخضر ليس فيها خروج عن الشريعة، ولهذا لما بين الخضر لموسى الأسباب التى فعل لأجلها ما فعل وافقه موسى، ولم يختلفا حينئذ. ولو كان ما فعله الخضر مخالفًا لشريعة موسى لما وافقه.

ومثل هذا وأمثاله يقع للمؤمنين بأن يختص أحد الشخصين بالعلم بسبب يبيح له الفعل فى الشريعة ، والآخر لا يعلم ذلك السبب، وإن كان قد يكون أفضل من الأول. مثل شخصين: دخلا إلى بيت شخص، وكان أحدهما يعلم طيب نفسه بالتصرف فى منزله، إما بإذن لفظى أو غيره، فيتصرف. وذلك مباح فى الشريعة، والآخر الذى لم يعلم هذا السبب لا يتصرف. وخرق السفينة كان من هذا الباب، فإن الخضر كان يعلم أن أمامهم ملك يأخذ كل سفينة غصبًا، وكان من المصلحة التى يختارها أصحاب السفينة إذا علموا ذلك لئلا يأخذها خير من انتزاعها منهم.

ونظير هذا حديث الشاة التى أصابها الموت فذبحتها امرأة بدون إذن أهلها، فسألوا النبى ﷺ عنها فأذن لهم فى أكلها ولم يُلزم التى ذبحت بضمان ما نقصت بالذبح، لأنه كان مأذونًا فيه عرفًا والإذن العرفى كالإذن اللفظى، ولهذا بايع النبى ﷺ عن عثمان فى غيبته بدون استئذانه لفظًا، ولهذا لما دعاه أبو طلحة ونفرًا قليلاً إلى بيته، قام الجميع أهل المسجد، لما علم من طيب نفس أبى طلحة، وذلك لما يجعله الله من البركة، وكذلك حديث جابر.



وقد ثبت أن لحامًا دعاه فاستأذنه فى شخص يستتبعه، لأنه لم يكن يعلم من طيب نفس اللحام ما علمه من طيب نفس أبى طلحة وجابر وغيرهما.

وكذلك قتل الغلام كان من باب دفع الصائل، لعلمه بأنه كان يفتنهما عن دينهما، وقتل الصبيان يجوز إذا قاتلوا المسلمين، بل يجوز قتلهم لدفع الصول عن الأموال، فلهذا ثبت فى صحيح البخارى أن نجدة الحرورى لما سأل ابن عباس عن قتل الغلمان قال: «إن كنت تعلم منهم ما علمه الخضر من الغلام فاقتلهم، وإلا فلا تقتلهم».

وكذلك فى الصحيحين «أن عمر لما استأذن النبى ﷺ فى قتل ابن صياد، وكان مراهقًا؛ لَمَّا ظنه الدجال، فقال: **«إن يكنه فلن تسلط عليه، وإن لم يكنه فلا خير لك فى قتله»** فلم يقل: إن يكنه فلا خير لك فى قتله، بل قال: «فلن تسلط عليه». وذلك يدل

على أنه لو أمكن إعدامه قبل بلوغه لقطع فساده لم يكن ذلك محذورًا، وإلا كان التعليل بالصغر كافيًا، فإن الأعم إذا كان مستقلاً بالحكم كان الأخص عديم التأثير، كما قال فى الهرة: «إنها ليست بنجس، إنها من الطوافين عليكم والطوافات» وأما بناء الجدار فإنما فيه ترك أخذ الجعل مع جوعهم، وقد بيّن الخضر: أن أهله فيهم من الشيم وصلاح الوالد ما يستحقون به التبرع، وإن كان جائعًا.

ومن ذلك أن من أسباب الوجوب والتحريم والإباحة ما قد يكون ظاهرًا، فيشترك فيها الناس، ومنه ما يكون خفيًا يعرف بطريق الكشف وقصة الخضر من هذا الباب. وذلك يقع كثيرًا فى أمتنا. مثل أن يقدم لبعضهم طعام فيكشف له أنه مغصوب فيحرم عليه أكله، وإن لم يحرم ذلك على من لم يعلم ذلك، أو يظفر بمال يعلم أن صاحبه أذن له فيه فيحل له أكله، فإنه لا يحل ذلك لمن لم يعلم الإذن وأمثال ذلك.

فمثل هذا إذا كان الشيخ من المعروفين بالصدق والإخلاص كان مثل هذا من مواقع الإجتهاد، الذى يصيب فيه تارة ويخطئ أخرى فإن المكاشفات يقع فيها من الصواب والخطأ نظير ما يقع فى الرؤيا وتأويلها، والرأى والرواية، وليس شىء معصومًا على الإطلاق إلا ما ثبت عن الرسول، ولهذا يجب رد جميع الأمور إلى ما بعث به، ولهذا كان الصديق المتلقى عن الرسول كل شىء، مثل أبى بكر أفضل من المحدَّث مثل عمر، وكان الصديق يبين للمحدث المواضع التى اشتبهت عليه، حتى يرده إلى الصواب. كما فعل أبو بكر يوم الحديبية، ويوم موت النبى ﷺ، وفى قتال مانعى الزكاة، وغير ذلك... والمقصود أنه ليس فى قصة الخضر ما يسوغ مخالفة شريعة رسول الله ﷺ لأحد من الخلق[1].

وقال الأستاذ عبد الرحمن دمشقية: ولو أن الأمة كلها أرادت الاقتداء بقصة موسى مع الخضر ـ على الوجه الذى يفهمه منها الصوفية ـ بطل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ولأصبحت هذه القصة ذريعة الزنادقة لتحليل الشرائع، كما تذرعت الباطنية بقاعدة الباطن والظاهر فى تحليل المحرمات وإسقاط التكاليف وإبطال الفرائض.

ولأصبح بإمكان الزنادقة أن يصرخوا فى وجه المنكرين ويسكتوهم بمجرد تذكيرهم إياهم بقصة موسى والخضر بحجة أن عليهم التزام الصمت وعدم التسرع فى الإنكار كما فعل ذلك موسى. وهذا قد حصل بالفعل إذ حجج ضلاّل الصوفية قائمة على هذه

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/٤٢٦ ـ ٤١٩).

القصة وكم ألبسوا بذلك على جهال المسلمين وأوقعوهم فى متاهات الضلال. أما القصة فهى حق وما ورد فيها حق، وأما استغلال الصوفية لها، فإنه استغلال لحق أريد به باطل. وذلك لوجوه تسعة:

(الوجه الأول): أن موسى كان يعلم منزلة الخضر فى العلم وبأنه أكثر علمًا منه، وهذا كاف لأخذ ما عند الخضر بلا إنكار ولا اعتراض، ومن ذلك فقد أنكر موسى عليه بينما لم يخبر الله العباد عن حقيقة صدق المشايخ أو كذبهم وما يسمون بالأولياء عند الصوفية، ولا أنزل فيهم ذكرًا يجعل الناس واثقين من أن ما يرونه منهم من الأعمال المنكرة قد يكون له تأويلات مشابهة لأعمال الخضر فإنه حين سئل موسى عليه السلام: أى الناس أعلم؟ قال: أنا فعتب الله عليه إذ لم يردّ العلم إليه فقال له: «بلى، لى عبد بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال: أى رب ومن لى به؟ قال: تأخذ حوتًا فتجعله فى مكتل، حيثما فقدت الحوت ثم»[1] أى يكون فى المكان الذى أضعت عنده الحوت.

إذن، فموسى على علم بمنزلته فى العلم، وبمكانه الذى يلقاه عنده، بل وهو مأمور بملاقاته كما يُستفاد ذلك من الحديث . . .

(الوجه الثانى): أن ما فعله الخضر عليه السلام كان مأمورًا به ولم يفعله من عنده لقوله تعالى: **﴿وما فعلته عن أمرى﴾** وقد ذهب المفسرون إلى أن الأمر ههنا هو الوحى ـ وفى مقدمتهم الرازى ـ بحجة استحالة قتل غلام ونحوه من غير حصول وحى قاطع يأمر بذلك، فهل مشايخ الصوفية مأمورون من الله بفعل المنكرات المخالفة لأوامره ونواهيه ودينه الذى أتمه وارتضاه لعباده؟ وهل يحصل لهم الوحى فى ذلك كما حصل للخضر عليه السلام؟ إن قالوا بحصول الوحى فإنهم حينئذ دجاجلة لا فرق بينهم وبين مسيلمة الكذاب.

وإن نفوا أن يكونوا قد فعلوا هذه المنكرات بمقتضى وحى ما، فإنه حينئذ يقال لهم: ما تفعلونه مخالف لما أوحاه الله على نبيه ﷺ، فلا وجه يصح فى استدلالكم بقصة الخضر وبأفعاله التى كانت وحيًا ولم يفعلها عن أمره؟!!!

(الوجه الثالث): أنهم باستدلالهم بقصة موسى والخضر ينتقصون من مكانه وقدر موسى عليه الصلاة والسلام، فإنهم ينزلونه منزلة العوام الذين يرون ظواهر الأعمال ولا يتفطنون إلى معرفة حقائقها.

---

(1) «فتح البارى» (٦/ـ٤٣ ـ ٤٣٢).

وهم - أى مشـايخ الصوفيـة - يدّعون أنهم يعـرفون ذلك، ويقدمـون بذلك درجة العارف (الصوفى) على رتبة النبى[1]، جاعلين موسى فى مصاف العوام الذين لم ينالوا درجة الصوفى العارف.

(الوجه الرابع): أنه لا يجوز الخروج على شـريعة النبى محمـد ﷺ إلى شريعة أخرى، وهذه القصة حدثت فى بنى إسرائيل لم نؤمر بالتعبد بفعلها. قال تعالى ﴿ **تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[البقرة: ١٣٤].

فقد أمر الله تعالى مريم وزكريا أن يمسكا عن الكلام ثلاثة أيام بقوله ﴿**فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا**﴾[مريم: ٢٦] وقوله لزكريا عليه السلام ﴿**قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا** ﴾[مريم: ١٠] فـهل يجوز أن يتـخذ أحـد من أمة محـمد ﷺ من هذا الصـيام عـبادة له فـيصوم عن الـكلام مستـدلاً بورود ذلك فى القرآن؟ ومـعلوم أن الخضـر وموسى - بل وسائر الأنبـياء عليهـم أفضل الصلوات وأتم التسليم، لو كانوا أحياء لما وسعهم إلا أن يتبعوا شريعة النبى محمد ﷺ، ولأن النبى كان يُرسل إلى قـومه خاصـة . ونبينا ﷺ أرسل إلى الناس عامـة - إنسهم وجنهم - وحين ينزل المسيح آخر الزمان، فإنه يحكم بـين الناس بشريعة القرآن، ولا يحكم بإنجيل ولا توراة.

والمسيـح عليه السـلام هو من الرسل الخمـسة أولى العـزم، وهو خاتم أنبيـاء بنى إسرائيل، ومع هذا فإنه يتبع ما أنزل إلى نبينا ﷺ، ويحكم بين الناس فيه.

(الوجه الخـامس): أن موسى والخـضر عليـهمـا السلام لم يخـرجا عن الشـريعة والنصوص فى شىء، وإنما كـان موقف موسى مع الخـضر كموقـف المجتهد المتـمسك بعموم الدليل مع صاحب النص الخاص المتـمسك بالدليل الخاص، وكلاهما على الدليل يعتمد، ومن الشريعة يستقى هذا مأمور وذاك مأمور.

فمثلاً قصة الغلام.

معلوم أن قتل النفس بغير نفس هو منكر ومحرّم.

وهذا مما يعلمه موسى والخـضر عليهما السلام ويؤمنان به. وهذا الـتحريم عام فى كل نفس، إلا ما نص الشرع على خصـوصيته واستحقاقه للقـتل فبقى موسى على هذا

(١) قال بذلك محى الدين ابن عربى، انظر «فصوص الحكم» (١/ ٦٢ و١٣٤) ط دار الكتاب العربى.

العموم حسب علمه. لكن الخضر عنده في هذا الغلام المعين دليل خاص فقتله إذ كان مأمورًا من الله بفعله حيث قال ﴿**وما فعلته عن أمري**﴾. فلولا هذا الأمر الخاص من الله لبقي الحكم على عمومه.

ولهذا ورد أن الله طبع هذا الغلام على الكفر[1] وظاهر الآية يدل عليه حيث قال تعالى: ﴿**فخشينا أن يرهقهما طغيانًا وكفرًا**﴾ بدليل أن الخضر لم يقتل أحدًا من المساكين ـ أصحاب السفينة ـ ولا أهل القرية الذين أبوا أن يضيفوهما، ألا ترى أنه لو كان القتل عند الخضر حلالاً ومخالفًا لشريعة موسى لكان أهل القرية أحرى بالقتل من الغلام، إذ قد منعوه اليسير من الطعام، بينما لم يكن قد أظهر الغلام شيئًا من الكفر! لكن الأمر غير ذلك، فقد قتل الخضر من جاءه أمر من الله بقتله. إذ الأمر وحي من الله ووقوف مع النص، فتحريم الله القتل عند موسى هو تشريع من الله بذلك، وإباحة الله للخضر بقتل الغلام تشريع من الله بذلك.

فهذا كله في واد، وما تزعمه الصوفية في واد آخر..

(**الوجه السادس**): أن الخضر لم ينكر على موسى إنكاره عليه مطلقًا. بل أنكر عليه تسرعه في الإنكار قبل أن يسأله عن مأخذه الشرعي، مع أنه حذره أنه لم يستطيع معه الصبر على ما لم يحط به خبرًا.

وثانيًا: أنه اشترط عليه أن لا يسأله عن شيء حتى يحدث منه ذكرًا، ولكن كان من شأن موسى عليه السلام ـ وطبعه أن يتسرع في الحق..

ولهذا قال النبي ﷺ: «**رحمة الله علينا وعلى موسى لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب**»[1].

فأين هذا من أوامر الصوفية الصريحة بعدم الإعتراض على الشيخ مهما ارتكب من المحرمات الظاهرة، فإن مجرد الاعتراض أو الاستدراك على الشيخ موجب عندهم للمقت والطرد من رحمة الله وسلب المال، والسقوط في امتحان الشيخ كما يلفقون. واسمع ما يقولونه في وجوب طاعة المريد للشيخ طاعة عمياء:

(فصل) في آداب المريد مع شيخه: وهي كثيرة جدًا ..

(منها) أن يكون مستسلماً منقاداً راضياً بتصرفات الشيخ يخدمه بالمال والبدن

---

(١) « تفسير الطبري» (١٦/٣).

(٢) « تفسير الطبري» (١٥/١٨٦). (فتح الباري(٨/ ٤٢٤).



وَكُنْ عِنْدَهُ كَالمَيِّت مُغَسَّلْ ... يُقَلِّبُهُ مَا شَاءَ وَهُوَ مُطَاوِعُ
وَلاَ تَعْتَرِضْ فِيمَا جَهِلْتَ مِنْ أَمْرِه ... عَلَيْهِ فَإِنَّ الاعْتِرَاضَ تَنَازُعُ
وَسَلِّمْ لَهُ فِيمَا تَرَاهُ وَلَوْ يَكُنْ ... عَلَى غَيْرِ مَشْرُوعٍ فَثَمَّ مُخَادِعُ(1)

(منها) أن لا يعترض عليه فيما فعله ولو كان ظاهره حرامًا، ولا يقول لشيخه: لم فعلت كذا، لأن من قال لشيخه: لم؟ لا يفلح أبدًا . . وفى هذا المعنى قال بعضهم:

فتبين بذلك حقيقة مرادهم من قصة موسى والخضر عليهما السلام، وهو ايتان المنكرات والمحرمات وإطلاق العنان لشهواتهم من غير إنكار يقضّ مضاجعهم ويؤرق جفونهم.

(الوجه السابع): أن إنكار موسى يُستدل منه على أن الفطر السليمة ـ الخالصة من شوب العبودية والتقديس لغير الحق الذى أنزله الله ـ لابد وأن تنكر المنكر . وكل الناس مأمورون بذلك عملاً بقوله تعالى **﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾**[آل عمران: ١١٠] ولم يُستثن من هذه الآية شيخ ولا ولى ولا صحابى أو تابعى، وقد كان الصحابة ينكر الواحد منهم على الآخر إن خالف فى شىء ما فإذا كان ذلك يقع بين الصحابة ـ وهم أفضل أولياء الله على الإطلاق ـ فما بالك بأولياء الصوفية إن كانوا أولياء لله حقًا؟!!! ثم إن الله أمرنا أن ننكر المنكر فى حين أنه لم يؤتنا علم الغيب الذى يمكن معه معرفة حقيقة مراد الشيخ الصوفى بالمنكر الذى يزعم أنه يبدو منكرًا فى ظاهره فترك المنكر بحجة ما حصل بين موسى والخضر لا حجة فيه، بل الحجة كل الحجة فى الإنكار على من خالف شرع الله فى شىء ما، لأن الوعيد الوارد فى ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كثير من الآيات والأحاديث، وقد لُعن بنو إسرائيل بسبب تركهم هذا الأصل العظيم من أصول الدين، والذى به يُحفظ الدين من فساد المفسدين وضلال المضلين وبدع المبتدعين الذى يأخذون ما تشابه من قصة موسى والخضر عليهما السلام ويتركون المحكم من الآيات والأحاديث الدالة على حلِّ الطيبات وتحريم الخبائث.

وعلامة ضلالهم أنهم لا يحثون الناس على العمل بهذا الأصل ولا يُذكرونهم بقوله تعالى: **﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾**.

وإنما يحذرونهم من الإنكار مستدلين بقصة موسى والخضر التى لا تشهد إلا ضدهم.

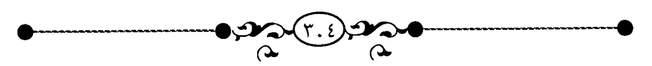
(١) تنوير القلوب فى معاملة علام الغيوب ٥٤٨ للشيخ محمد أمين الكردى النقشيدى.



وبالحديث القدسي: «**من عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب**» لكن الحديث لم يعنهم بذلك لأن الأولياء ليسوا مخرفة ولا مبتدعة، فلا يرقصون عند السماع، ولا يجعلون دعاءهم لله مكاءً وتصدية، ولا ينشرون الوثنية والدجل بين العوام.

(الوجه الثامن): أن فهم المتصوفة للقصة فهم شاذ، وتأسيسهم بها شاذ أيضًا فالصحابة والتابعون وتابعوا التابعين لم يفهموا منها هذا الفهم، ولم يبنوا عليها منهجًا يرتب على أساسها العلاقة بين المريد والشيخ ولا يعقل أن يكون المتصوفة قد انفتح عليهم من فهم هذه الآية وأخفى على أولئك الأفاضل الذين لم يقلد أحد منهم - ولا أفاضل الأئمة - فيما بنهم - ما حدث بين موسى والخضر، حتى جاء الصوفية وتذرعوا بتلك القصة تلبيسًا منهم على عوام الخلق.!

(الوجه التاسع): إذا كان الخضر عليه السلام قال لموسى عليه السلام: «يا موسى، إنى على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه» - وإذا كان هذا خروجًا من الخضر عن شريعة موسى فى هذا الباب - فإن ذلك لا يجوز قوله فى شريعة محمد ﷺ التى قال الله فيها: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم**﴾ فما خرج الخضر عن شريعة موسى فى هذا الباب إلا لشرع آخر من الله أمره به. أما شريعة سيدنا محمد ﷺ فإنها باقية إلى فيام الساعة، ولا يستبدل أو يستغنى عنها بشيء آخر البتة، ولا يجوز أن يقول قائل: أنا على علم من الله لم يؤتاه محمد ﷺ إذ ما نزل عليه ﷺ هو المصدر الوحيد الدى يجب أن يكون مشكاة للمسلمين كلهم لا يستثنى منهم أحد فى الخروج عنه. وقد قال تعالى: ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [آل عمران: ٨٥] فذلك تأكيد من الله على عدم حصول وحي منه على أحد غير النبى ﷺ، وهو فى الوقت نفسه يفيد تحريم أخذ شيء من الأمور التعبدية عن غير هذا الطريق(١).



(١) «أبو حامد الغزالى والتصوف» عبد الرحمن دمشقية. ص٢٨٩ - ٢٩٦.

تفسير الآيات

والفوائد المستفادة منها

١ ـ قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ ﴾[الكهف: ٦٠].

فتى موسى هو يوشع بن نون، وقد جاء ذلك صريحا فى حديث ابن عباس السابق ذكره.

قال القاسمى: و(الفتى) الشاب. قال الشهاب: العرب تسمى الخادم فتى؛ لأن الغالب استخدام من هو فى سن الفتوة. وكان يوشع خادم موسى عليه السلام ومحبًّا له، وذا غيرة على كرامته.. ولذلك اختصه موسى رفيقاً له وخادماً، وصار خليفة من بعده على بنى إسرائيل. وفتح عليه تعالى بيت المقدس ونصره على الجبارين [١] .

وقال القرطبى: قيل للخادم: فتى على جهة حسن الأدب، وندبت الشريعة إلى ذلك فى قول النبىﷺ: « **لا يقل أحدكم عبدى ولا أمتى وليقل فتاى وفتاتى** [٢]، فهذا ندب إلى التواضع.. والفتى فى الآية هو الخادم، وهو يوشع بن نون بن إفرائيم بن يوسف عليه السلام[٣] .

٢ ـ قوله تعالى﴿ لا أَبْرَحُ ﴾، أى لا أزال سائراً فى طلب العبد الذى أعلمنى ربى بفضله[٤] .

٣ ـ قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ ﴾ مجمع البحرين، أى ملتقاهما وموضع اختلاطهما[٥] .

قال ابن كثير: قال قتادة وغير واحد هما بحر فارس مما يلى المشرق وبحر الروم مما يلى المغرب، وقال محمد بن كعب القرظى: مجمع البحرين عند طنجة يعنى فى أقصى بلاد المغرب فالله أعلم [٦].

---

(١) « محاسن التأويل» القاسمى (١١/٤٠٧٦).

(٢) رواه البخارى (٢٥٥٢) ومسلم (٥٧٦٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٣) تفسير القرطبى » (١١/ ١١) ط دار الشام للتراث. بيروت

(٤) « نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور» البقاعى (٤/ ٤٨٦).

(٥) المصدر السابق (٤/ ٤٨٦).

(٦) تفسير ابن كثير (٣/ ٩٢)

قال الشنقيطى: ومعلوم أن تعيين «البحرين» من النوع الذى قدمنا أنه لا دليل عليه من كتاب ولا سنة، وليس فى معرفته فائدة، فالبحث عنه تعبٌ لا طائل تحته، وليس عليه دليل يجب الرجوع إليه[1].

(قول غريب فى تفسير البحرين):

قال القرطبى: قالت فرقة: إنما هما موسى والخضر، وهذا قول ضعيف، وحكى عن ابن عباس ولا يصح ، فإن الأمر بيِّن من الأحاديث أنه وسِمَ له بحر ماء[2].

قال عبد الله بن الصديق الغمارى: قال الزمخشرى: ومن بدع التفاسير أن البحرين هما: موسى والخضر؛ لأنهما كانا بحرين فى العلم، قلت: حكاه البيضاوى مصرحا بأن موسى بحر فى علم: (الظاهر). والخضر بحر فى علم: (الباطن)، وقد قدمنا أن ما يحكيه القرآن عن السابقين من الأنبياء وغيرهم يجب حمله على الحقيقة كما هنا. فإنا لا ندرى هل كان فى لغة موسى التى خاطب بها فتاة، إطلاق البحر على العالم مجازاً أو كناية كما فى لغة العرب؟ وعلى هذا فالمتيقن فى «مجمع البحرين» هو المعنى الحقيقى الذى ذكره المفسرون وما عداه من بدع التفاسير حتما [3].

٤ ـ قوله تعالى: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ قال البقاعى: إن لم أظفر بمجمع البحرين الذى جعله ربى موعداً لى فى لقائه، والحقب ـ قال فى القاموس ـ ثمانون سنة أو أكثر [4].

قال القرطبى: قال عبد الله بن عمرو: الحقب ثمانون سنة. مجاهد: سبعون خريفاً. قتادة: زمان. النحاس: الذى يعرفه أهل اللغة أن الحقب والحقبة زمان من الدهر مبهم غير محدد، كما أن رهطا مبهم غير محدود: وجمعه أحقاب[5] .

قال الرازى: وهذا إخبار من موسى بأنه وطَّن نفسه على تحمل التعب الشديد والعناء العظيم فى السفر لأجل طلب العلم؛ وذلك تنبيه على أن المتعلم لو سافر من المشرق إلى المغرب لطلب مسألة واحدة لحُق له ذلك[6] .

---

(١) «أضواء البيان» (٤/ ١٧١).

(٢) تفسير القرطبى (١١/ ٩)

(٣) «بدع التفاسير» عبد الله بن الصديق الغمارى ص ٩٠.

(٤) «نظم الدرر» (٤/ ٧٨٦)

(٥) تفسير القرطبى (١١/ ١١).

(٦) «التفسير الكبير» فخر الدين الرازى (١٠/ ٣٤٤) ط دار الغد.

قال القرطبى: وذلك كان دأب السلف الصـالح، وبسبب ذلك وصل المرتحلون إلى الحظ الراجح، وحـصلوا على السـعى الناجح، فـرسخت لهم فـى العلوم أقدام، قـال البخارى: ورحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس فى حديث [1].

٥ ـ قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا**﴾ قال البقـاعى: أى البحرين ، فلم يكن هناك بينٌ أصلاً لصيرورتهما شيئاً واحداً [2].

٦ ـ قوله تعالى: ﴿ **نَسِيَا حُوتَهُمَا**﴾، قال ابن كثـير: وذلك أنه كان قد أُمـر بحمل حوت مملوح معه، وقيل له: متى فقد الحوت؟فهـو ثَمَّةَ فسارا حتى بلغا مجمع البحرين، وهناك عين يقال لها: عين الحياة فنامـا هنالك وأصاب الحوت من رشاش ذلك فاضطرب وكان فى مكتل مع يوشع عليه السلام وطفر من المكتل [3] إلى البحر، فاستيقظ يوشع عليه السلام وسقط الحـوت فى البحر فجعل يسيـر فى الماء والماء له مثل الطاق لا يلتئم بعده[4].

قال القرطبى: وجمهور المفسرين أن الحـوت بقى موضع سلوكه فارغاً، وأن موسى مشى عليـه متبعاً للحـوت، حتى أفضى به الطريق إلى جـزيرة فى البحر، وفيـها وجد الخضر.

وظاهر الكتـاب والروايات: أنه إنما وجد الخـضر فى ضفـة البحـر وقوله: ﴿ **نَسِيَا حُوتَهُمَا**﴾ وإنما كان النسيـان من الفتى وحده، فقـيل: المعنى، نسى أن يُعلم موسى بما رأى من حالـه فنسب النسيـان إليهـما للصـحبـة، كقوله تـعالى: ﴿**يخرج منهـا اللؤلؤ والمرجـان**﴾ وإنما يخـرج من الملح، وقـوله: ﴿**يا مـعـشـر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم**﴾ وإنما الرسل من الإنس لا من الجن. وفى البخارى: فـقال لفتاه: لا أكلفك إلا أن تخبرنى بحيث يفارقك الحوت، قال: مـا كلفك كبيراً، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ**﴾يوشع بن نون[5] .

وقـال الشنقـيطى: ذكـر جلّ وعلا فى هذه الآية الكريمة: أن مـوسى وفتـاه نسيـا حوتهمـا لما بلغا مجمع البـحرين، ولكنه تعالى أوضح أن النسيـان واقع من فتى موسى لأنه هو الذى كان تحت يده الحوت، وهو الـذى نسيه، وإنما أسند النسيان إليـهما؛ لأن

(١) تفسير القرطبى (١١/١١)
(٢) « نظم الدرر» (٤/٤٨٦).
(٣) المكتل: وهو القرفة والزنبيل
(٤) « تفسير ابن كثير» (٣/٩٢).
(٥) « تفسير القرطبى» (١١/١٢).

إطلاق المجموع مراداً بعضه ـ أسلوب عربى كثير فى القرآن وفى كلام العرب. . والدليل على أن النسيان إنما وقع من فتى موسى دون موسى قوله تعالى عنهما: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ الآية؛ لأن قول موسى: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا﴾ يعنى به الحوت. فهو يظن أن فتاه لم ينسه، كما قال غير واحد.

وقد صرح فتاه: بأنه الذى نسيه بقوله: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ الآية [1].

٧ ـ قوله تعالى ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾.

قال البقاعى: ﴿فَاتَّخَذَ﴾، أى الحوت معجزة فى معجزة ﴿سَبِيلَهُ﴾، أى طريقه الواسع الواضح ﴿فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾، أى خرقاً فى الماء غير ملتئم، من السرب الذى هو حجر الوحشى، والحضير تحت الأرض والقناة يدخل منها الماء الحائط، وقد ورد فى حديثه فى الصحيح [2] أن الله تعالى أحياه وأمسك عن موضع جريه فى الماء، فصار طاقاً لا يلتئم. ويوشع عليه السلام ينظر ذلك، وكأن المجمع كان ممتداً، فظن موسى عليه السلام أن المطلوب أمامه أو ظن أن المراد مجمع آخر فسار[3].

٨ ـ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾.

قال البقاعى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ أى موسى وفتاه عليهما السلام ذلك الموضع من المجمع تعب، ولم يتعب حتى جاوز المكان الذى أمر به معجزة أخرى، فلما جاع وتعب ﴿قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا﴾ أى احضر لنا ﴿غَدَاءَنَا﴾ أى لنتقوى به على ما حصل لنا من الاعياء، ولذلك وصل به قوله تعالى: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا﴾، أى الذى سافرناه فى هذا اليوم خاصة، ولذلك أشار إليه بأداة القرب فقال تعالى: ﴿هَٰذَا نَصَبًا﴾ وكان الحوت زادهم فلم يكن معه[4].

قال القرطبى: قوله تعالى: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا﴾ فيه اتخاذ الزاد فى الأسفار، وهو ردّ على الصوفية الجهلة الأغمار [5]. الذين يقتحمون المهامة والقفار، زعماً منهم أن ذلك

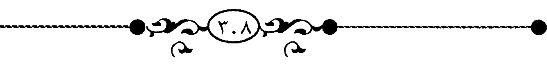
---

(١) «أضواء البيان» (٤/ ١٧٠). (٢) انظر حديث ابن عباس السابق ذكره..

(٣) «نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور» (٤/ ٤٨٦).

(٤) «نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور» (٤/ ٤٨٦).

(٥) الأغمار: جمع غمر «بالضم»: وهو الجاهل الغر الذى لم يجرب الأمور.



هو المتوكل على الله الواحد القهار، هذا موسى نبى الله وكليمه من أهل الأرض قد اتخذ الزاد مع معرفته بربه، وتوكله على رب العباد وفى صحيح البخارى: إن ناساً من أهل اليمن كانوا يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا سألوا الناس، فأنزل الله تعالى ﴿**وتزودوا**﴾

وقوله: ﴿ **نَصَبًا** ﴾ أى تعبا، والنصب: التعب والمشقة، وقيل: عُنى به هنا الجوع، وفى هذا دليل على جواز الإخبار بما يجده الإنسان من الألم والأمراض، وأن ذلك لا يقدح في الرضا، ولا فى التسليم للقضاء لكن إذا لم يصدر ذلك عن ضجر ولا سخط[1].

٩ ـ قوله تعالى: ﴿**إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا**﴾.

قوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ**﴾.

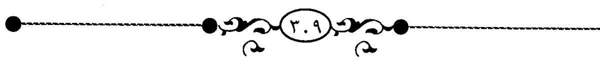
قال القرطبى: أى وما أنسانى ذكره إلا الشيطان.. وهذا إنا ذكره يوشع فى معرض الاعتذار لقول موسى: لا أكلفك إلا أن تخبرنى بحيث يفارقك الحوت، فقال ما كلَّفتَ كبيراً، فاعتذر بذلك القول.

قال الشنقيطى: وقوله فى هذه الآية الكريمة: ﴿**وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ**﴾ دليل على أن النسيان من الشيطان كما دلت عليه آيات أخر، كقوله تعالى: ﴿**وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين**﴾، وقوله تعالى: ﴿ **استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله** ﴾ الآية [2].

قوله تعالى: ﴿**وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا**﴾. قال النووى: قيل: إن لفظه (عجبا) يجوز أن تكون من تمام كلام يوشع، وقيل: من كلام موسى، أى قال موسى: عجبت من هذا عجباً، وقيل: من كلام الله تعالى، ومعناه: اتخذ موسى سبيل الحوت فى البحر عجبا[3].

قال القرطبى: قوله تعالى: ﴿**وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا**﴾، يحتمل أن يكون من

(١) « تفسير القرطبى (١١/ ١٤). باختصار.
(٢) تفسير القرطبى (١١/ ١٤)
(٣) « أضواء البيان» (٤/ ١٧٠ ـ ١٧١).



قول يوشع لموسى، أى اتخذ الحوت سبيله عجباً للناس. ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ تمام الخبر، ثم استأنف التعجب فقال من نفسه: ﴿عَجَبًا﴾ لهذا الأمر. وموضع العجب أن يكون حوت قد مات فأكل شقه الأيسر ثم حَيِيَ بعد ذلك... ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ﴾ إخباراً من الله تعالى، وذلك على وجهين: إما أن يخبر عن موسى أنه اتخذ سبيل الحوت من البحر عجباً، أى تعجب منه، وإما أن يخبر عن الحوت أنه اتخذ سبيله عجباً للناس.[1].

١٠ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾.

قال القرطبى: قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾، أى قال موسى لفتاه: أمر الحوت وفقده هو الذى لنا نطلب، فإن الرجل الذى جئنا له ثَمَّ، فرجعا يقصان آثارهما لئلا يخطئا طريقهما[2].

قال القرطبى: قوله تعالى: ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ الرحمة فى هذه الآية النبوة. ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾، أى علم الغيب[3].

قال البقاعى:

قال الشنقيطى: هذه الرحمة والعلم اللدنى اللذان ذكر الله امتنانه عليه بهما ـ لم يبين هنا هل هما رحمة النبوة وعلمها..، أو رحمة الولاية وعلمها.. ولكنه يفهم من بعض الآيات أن هذه الرحمة المذكورة هنا رحمة نبوة، وأن هذا العلم اللدنى علم وحى ومن أظهر الأدلة فى أن الرحمة والعلم اللدنى الذين امتن الله بهما على عبده الخضر عن طريق النبوة والوحى قوله تعالى: ﴿وما فعلته عن أمرى﴾ أى وإنما فعلته عن أمر الله جل وعلا. وأمر الله إنما يتحقق عن طريق الوحى، إذ لا طريق تعرف بها أوامر الله ونواهيه إلا الوحى من الله جل وعلا. ولاسيما قتل الأنفس البريئة فى ظاهر الأمر، وتعييب سفن الناس بخرقها؛ لأن العدوان على أنفس الناس وأموالهم لا يصح إلا عن طريق الوحى من الله تعالى. وقد حصر تعالى طرق الإنذار فى الوحى فى قوله تعالى: ﴿ قل إنما أنذركم بالوحى﴾و« إنما» صيغة حصر. فإن قيل: قد يكون ذلك عن

(١) « تفسير القرطبى» (١١/ ١٤ ـ ١٥).
(٢) تفسير القرطبى (١١/١٥).
(٣) تفسير القرطبى (١١/١٦).

طريق الإلهام؟ فالجواب ـ أن المقرر في الأصول أن الإلهام من الأولياء لا يجوز الاستدلال به على شيء، لعدم العصمة، وعدم الدليل على الاستدلال به. بل ولوجود الدليل على عدم جواز الاستدلال به، وما يزعمه بعض المتصوفة من جواز العمل بالإلهام فى حق الملهم دون غيره، وما يزعمه بعض الجبرية أيضا من الاحتجاج بالإلهام فى حق الملهم وغيره جاعلين الإلهام كالوحى المسموع مستدلين بظاهر قوله تعالى: **﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾** وبخبر « **اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله** »[1] كله باطل لا يعول عليه، لعدم اعتقاده بدليل.

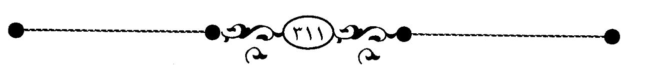
وغير المعصوم لا ثقة بخواطره؛ لأنه لا يأمن دسيسة الشيطان. وقد ضُمنت الهداية فى اتباع الشرع، ولم تضمن فى اتباع الخواطر والإلهامات.

والإلهام فى الاصطلاح: إيقاع شيء فى القلب يثلج له الصدر من غير استدلال بوحى ولا نظر فى حجة عقلية، يختص الله به من يشاء من خلقه ، أما ما يُلهمه الأنبياء مما يلقيه الله فى قلوبهم فليس كإلهام غيرهم؛ لأنهم معصومون بخلاف غيرهم.

وبالجملة، فلا يخفى على من له إلمام بمعرفة دين الإسلام أنه لا طريق تعرف بها أوامر الله ونواهيه، وما يتقرب إليه به من فعل وترك ـ إلا عن طريق الوحى، فمن ادّعى أنه غنى فى الوصول إلى ما يرضى ربه عن الرسل، وما جاءوا به ولو فى مسألة واحدة ـ فلا شك فى زندقته. والآيات والأحاديث الدالة على هذا لا تحصى ، قال تعالى: **﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾** ولم يقل حتى نلقى فى القلوب إلهاماً. وقال تعالى: **﴿رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾** ، وقال: **﴿ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع**

---

(١) ضعيف رواه الترمذى (٣١٢٧) والبخارى فى «التاريخ الكبير» (٧/ ٣٥٤) والطبرى فى «التفسير» (١٤/ ٣١ ـ ٣٢) وأبو نعيم فى «الحلية» (١٠/ ٢٨١) والعقيلى فى «الضعفاء» (٤/ ١٢٩) وأبو الشيخ فى «الأمثال» (ص٧٨) والخطيب فى «تاريخه» (٣/ ١٩١ و٧/ ٢٤٢) والقضاعى فى «مسند الشهاب» (١/ ٣٨٧) من حديث أبى سعيد الخدرى. ورواه الطبرانى فى « مسند الشاميين» (٢/ ٤٠٧) وفى «المعجم الكبير» (٨/ ١٢١ ٧٤٩٧) وأبو نعيم فى «الحلية» (٦/ ١١٨) والبيهقى فى «الزهد الكبير» (ص١٩٣) وابن عبد البر فى «جامع بيان العلم» (١/ ٢٤٠) والخطيب فى «تاريخه » (٥/ ٩٩) وابن عدى فى «الكامل» (٤/ ١٥٢٣و ٦/ ١/ ٢٤) من حديث أبى أمامة الباهلى. ورواه الطبرى فى «تفسيره» (١٤/ ٣٢) وأبو الشيخ فى «الأمثالية» (٤/ ٨١) من حديث ثوبان. ورواه الطبرى فى «تفسيره» (١٤/ ٣٢) وأبو نعيم فى «الحلية» (٤/ ٩٨٤) وابن الجوزى فى «الموضعات» (٣/ ١٤٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنهم وجميع هذه الطرق لا تخلوا من ضعف. وانظر «الضعيفة» (١٨٢١).



آياتك...﴾ الآية، والآيات والأحاديث بمثل هذا كثيرة جدًا. . وبذلك تعلم أن ما يدعيه كثير من الجهلة المدعين التصوف من أن لهم ولأشياخهم طريقاً باطنة توافق الحق عند الله ولو كانت مخالفة لظاهر الشرع، كمخالفة ما فعله الخضر لظاهر العلم الذى عند موسى ـ زندقة وذريعه إلى الانحلال بالكليـة من دين الإسلام، بدعوى أن الحق فى أمور باطنة تخالف ظاهره.

وما يستدل به بعض الجهلة ممن يدّعى التصوف على اعتبار الإلهام من ظواهر بعض النصوص كحديث « **استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك**» ـ لا دليل فيه البتة على اعتبار الإلهـام لأنه لم يقل أحد ممن يعتد به أن المفتى الذى تتلقى الأحكـام الشرعية من قلبه القـلب، بل معنى الحديث : الـتحذير من الشـبه؛ ولأن الحـرام بين والحلال بين، وبينهما أمور مشتبهة لا يعلمها كل الناس. فقد يفتيك بحلية شىء وأنت تعلم من طريق أخرى أنه يحـتمل أن يكون حـراماً، وذلك باسـتناد إلى الشرع ـ فـإن القلب المؤمن لا يطمـئن لما فيـه الشـبهـة، والحـديث كقـوله: «**دع مـا يريبك إلى مـا لا يريبك**» وقوله ﷺ :«**البـر حسب الخلق، والإثم مـا حاك فى نفسك وكرهت أن يطلع عليـه الناس**» رواه مسلم من حـديث النواس بن سمـعان رضى الله عنه، وحديـث وابصة بن معـبد رضى الله عنه المشار إليه قـال: أتيت رسول الله ﷺ فقال:« جـئت تسأل عن البر»؟ قلت: نعم. قال: «**اسـتفت قلبك.-البـر ما اطمـأنت إليـه النفس واطمأن إليـه القلب، والإثم ما حـاك فى النفس وتردد فى الصدر وإن أفـتاك الناس وأفـتوك**» قال النووى فى (رياض الصالحين): حـديث حسن ورواه أحمـد والدارمى فى مسنديهـما، ولا شك أن المراد بهذا الحديث ونحـوه ـ الحث على الورع وترك الشبهات، فلو الـتبست مثلاً مـيته بمذكاة، أو امرأة محرم بأجنبية، وأفتـاك بعض المفتين بحلِّيَّة إحداهما لاحتمال أن تكون هى المذكاة فى الأول، والأجنبية فى الثانى، فإنك إذا اسـتفتيت قلبك علمت أنه يحتمل أن تكون هى الميتة أو الأخت، وأن تـرك الحرام والاستبراء للدين والعـرض ـ لا يتحقق إلا بتجنب الجميع؛ لأن مـا لا يتم ترك الحرام إلا بتركه فتركـه واجب. فهذا يحيك فى النفس ولا تنشـرح له، لاحتمـال الوقوع فى الحـرام فيه كـما ترى. وكل ذلك مـستند لنصوص الشرع لا للإلهام.

ومما يدل على ما ذكرنا من كلام أهل الصوفية المشهود لهم بالخير والدين والصلاح ـ قول الشـيخ أبى القـاسم الجنيد بن مـحمـد بن الجنيد الخـزاز القواريرى رحـمه الله: «مذهبنا هذا مقـيد بالكتاب والسنة»، نقله عنه غـير واحد ممن ترجمه رحـمه الله، كابن

كثير وابن خلكان وغيرهما. بلاشك أن كلامه المذكور هو الحق، فلا أمر ولا نهى إلا على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام. وبهذا كله تعلم. أن قتل الخضر للغلام. وخرقه للسفينة، وقوله: ﴿ **وما فعلته عن أمرى**﴾ دليل ظاهر على نبوته[1].

١١ ـ قوله تعالى: ﴿**قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا**﴾ .

قال القرطبى: قوله تعالى: ﴿**قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا** ﴾ فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿**قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ**﴾ هذا سؤال الملاطف، والمخاطب المستنزل المبالغ فى حسن الأدب، المعنى: هل يتفق لك ويخف عليك؟

الثانية: فى هذه الآية دليل على أن المتعلم تبع للعالم وإن تفاوتت المراتب، ولا يُظن أن فى تعلّم موسى من الخضر ما يدلّ على أن الخضر كان أفضل منه، فقد يشذ عن الفاضل ما يعْلمه المفضول، والفضل لمن فضله الله، فالخضر إن كان ولياً فموسى أفضل منه لأنه نبى، والنبى أفضل من الولى، وإن كان نبيًا فموسى فضله بالرسالة . والله أعلم.

﴿**قَالَ**﴾ الخضر : ﴿**إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا** ﴾، أى: أنك يا موسى لا تطيق أن تصبر على ما تراه من علمى؛ لأن الظواهر التى هى علمك لا تُطيق، وكيف تصبر على ما تراه خطأ ولم تُخبر بوجه الحكمة فيه، ولا طريق الصواب، وهو معنى قوله: ﴿**وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا**﴾ والأنبياء لا يقرون على منكر، ولا يجوز لهم التقرير، أى لا يسعك السكوت جرياً على عادتك وحكمك.

قوله تعالى:﴿ **قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا** ﴾، أى: سأصبر بمشيئة الله. ﴿**وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا** ﴾، أى قد ألزمت نفسى طاعتك.

قوله تعالى: ﴿ **قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا**﴾ أى حتى

---

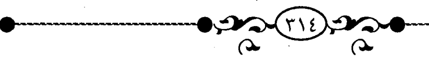
(١) «أضواء البيان» (٤/ ١٧٢ ـ ١٧٧) باختصار.

أكون أنا الذى أفسره لك، وهذا من الخضر تأديب، وإرشاد لما يقتضى دوام الصحبة، فلو صَبَرَ ودأَب لرأى العجب، لكنه أكثر من الاعتراض، فتعين الفراق والإعراض[(١)].

١٢ ـ قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ .

قال القرطبى: قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ فيه مسألتان:

الأولى: فى صحيح مسلم والبخارى: فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينة فكلّموهم أن يحملوهم ، فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول، فلما ركبا فى السفينة لم يفجأ موسى إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقَدُوم، فقال له موسى: قوم حملونا بغير نَوْل عَمَدْت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها، ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾. قال: وقال رسول الله ﷺ: « **وكانت الأولى من موسى نسياناً**» قال: وجاء عصفور فوقع على حَرْف السفينة فنقر نقرة فى البحر، فقال له الخضر: ما علمى وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر.



وهذا من الخضر تمثيل، أى معلوماتى ومعلوماتك لا أثر لها فى علم الله، كما أن ما أخذ هذا العصفور من هذا البحر لا أثر له بالنسبة إلى ماء البحر، وإنما مثّل له ذلك بالبحر؛ لأنه أكثر ما يشاهده مما بين أيدينا، وإطلاق لفظ النقص هنا تجوّز قُصِدَ به التمثيل والتفهيم، إذ لا نقص فى علم الله، ولا نهاية لمعلوماته[(٢)].

قال ابن كثير: فلما استقلت بهم السفينة فى البحر ولججت، أى دخلت اللجة قام الخضر فخرقها واستخرج لوحاً من ألواحها ثم رقعها فلم يملك موسى عليه السلام نفسه أن قال منكراً عليه: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ ، قال مجاهد: منكراً وقال قتادة : عجيباً، فعندها قال له الخضر مذكراً بما تقدم من الشرط: ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ يعنى وهذا الصنيع فعلته قصداً وهو من الأمور التى اشترطت معك أن لا تنكر علىّ فيها لأنك لم تحط بها خبراً ولها دخل هو مصلحة ولم تعلمه أنت

---

(١) تفسير القرطبى (١١/ ١٧ ـ ١٨)..

(٢) المصدر السابق (١١/ ١٨ ـ ١٩) باختصار يسير.

﴿**قال**﴾ أى: موسى: ﴿ **لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا**﴾، أى لا تضيق علىّ، وتشدد علىّ، ولهـذا تقدم فى الحديث عن رسـول الله ﷺ أنه قال: « **كانت الأولى من موسى نسياناً**» [1].

١٢ ـ قوله تعالى: ﴿ **فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا** ﴾.

قال القرطبى: قوله تعالى: ﴿ **فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَه**﴾ فى البخارى: قال سعيد: وجد غلماناً يلعبون فأخذ غلامـاً كافراً فأضجعه ثم ذبحه بالسكين، وقال أقتلت نفساً زكية [2] بغير نفس[3]، لم تعمل بالحنث. وفى الصحيحين: ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذا أبصر الخـضر غلاما يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقـتلعه بيده فقتله، قال له مـوسى: « أقتلت نفساً زكية بغـير نفس لقد جئت شيـئاً نكراً قال ألم أقـل لك إنك لن تستطيع معـى صبراً» قـال وهذه أشد من الأولى. «قـال إن سـألتك عن شئ بـعـدها فـلا تصـاحـبنى قـد بلغت مـن لدنى عـذراً» لفظ البخارى[4].

قال النووى: قال العلماء: وقوله: إذا غلام يلعب فقـتله، دليل على أنه كان صبيًا ليس ببالغ؛ لأنه حقيـقة الغلام، وهذا قول الجمهور: أنه لم يـكن بالغاً، وزعمت طائفة أنه كان بالغاً يعمل بالفساد، واحتجت بقوله: أقتلت نفساً زكية بغير نفس؟ فدل على أنه ممن يجب عليه القصاص، والصبى لا قصـاص عليه، وبقوله : كان كافراً فى قراءة ابن عباس، كما ذكر فى آخر الحديث. والجواب عن الأول من وجهين:

أحدهما: أن المراد التنبيه على أنه قتل بغير حق.

والثانى: أنه يحتـمل أن شرعهم كان إيجاب القصاص على الـصبى، كما أنه فى شرعنا يؤاخذ بغرامة المتلفات.

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٩٧).
(٢) قال النووى: معناه طاهرة من الذنوب.
(٣) قال النووى: أى بغير قصاص لك عليها.
(٤) تفسير القرطبى (١١/ ٢٠).

والجواب عن الثانى من وجهين.

أحدهما: أنه شاذ لا حجة فيه.

والثانى: أنه سمّاه بما يؤول إليه لو عاش كما جاء فى الرواية الثانية[1] .

قال القرطبى: قوله تعالى: ﴿ نُكْرًا ﴾ اختلف الناس أيهما أبلغ ﴿ إِمْرًا ﴾ أو قوله: ﴿نُكْرًا﴾ فقالت فرقة: هذا قتلٌ بينٌ، وهناك مُترقب و ﴿نُكْرًا ﴾ أبلغ.

وقالت فرقة: هذا قتلُ واحد وذاك قتلُ جماعة، فـ ﴿إِمْرًا ﴾ أبلغ. قال ابن عطيه: وعندى أنهما لمعنيين، وقوله: ﴿إِمْرًا ﴾أعظم وأعجب وأهول من حيث هو متوقع عظيم، و﴿نُكْرًا﴾ بين فى الفساد لأن مكروهه قد وقع، وهذا بيّن.

قوله: ﴿ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي ﴾ شرط وهو لازم، والمسلمون عند شروطهم، وأحق الشروط أن يوفى به ما التزمه الأنبياء والتزم للأنبياء.

وقوله: ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾ يدل على قيام الاعتذار بالمرة الواحدة مطلقاً، وقيام الحجة من المرة الثانية بالقطع [2] .

قال النووى: قوله: ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾ . . . معناه: قد بلغت إلى الغاية التى تُعذر بسببها فى فراقى[3].

قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ .

قال ابن كثير: يقول تعالى مخبراً عنهما: (انطلقا) بعد المرتين الأولتين ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾، روى ابن جرير عن ابن سيرين أنها الأيكة، وفى الحديث: « حتى إذا أتيا أهل قرية لئاماً»، أى بخلاء [4] وقال النووى: قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ قال الثعلبى: قال ابن عباس: هى أنطاكية، وقال ابن سيرين: هى الأيلة وهى أبعد الأرض من السماء [5] .

---

(١) «شرح النووى على صحيح مسلم» (٧/ ٣٣٧ ـ ٣٧٨).
(٢) تفسير القرطبى (١١/ ٢٢).
(٣) «شرح النووى على صحيح مسلم» (٧/ ٣٧٨).
(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٩٧ ـ ٩٨).
(٥) «شرح النووى على صحيح مسلم» (٧/ ٣٧٨).

قال القرطبي: فى هذه الآية دليل على سؤال القوت، وأن من جاع وجب عليه أن يطلب ما يرد جوعه خلافاً لجهال المتصوفة. والاستطعام سؤال الطعام، والمراد به هنا سؤال الضيافة بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ فاستحق أهل القرية لذلك أن يذموا، وينسبوا إلى اللؤم والبخل، كما وصفهم بذلك نبينا عليه الصلاة والسلام. قال قتادة فى هذه الآية: شر القرى التى لا تضيف الضيف ولا تعرف لابن السبيل حقه. ويظهر من ذلك أن الضيافة كانت عليهم واجبة، وأن الخضر وموسى إنما سألا ما وجب لهما من الضيافة، وهذا هو الأليق بحال الأنبياء، ومنصب الفضلاء والأولياء[1].

قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾.

قال النووى: هذا من المجاز؛ لأن الجدار لا يكون له حقيقة إرادة ومعناه قَرُب من الانقضاض، وهو السقوط، واستدل الأصوليون بهذا على وجود المجاز فى القرآن، وله نظائر معروفة[2].

وقال القرطبى: قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ أى قَرُبَ أن يسقط، وهذا مجاز وتوسع وقد فسره فى الحديث بقوله: «مائل»، فكان فيه دليل على وجود المجاز فى القرآن وهو مذهب الجمهور[3].

قلت: وما قاله النووى والقرطبى: رحمهما الله ـ عن إرادة انقضاض الجدار: بأنها من المجاز ليس بصواب. والصواب أن الجدار له إرادة حقيقية وأن القرآن الكريم ليس فيه مجاز بل كله على الحقيقة. وقد ردّ الشنقيطى ـ رحمه الله ـ على القائلين بالمجاز، فقال فى تفسيره لهذه الآية:

قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾.

هذه الآية الكريمة من أكبر الأدلة التى يستدل بها القائلون: بأن المجاز فى القرآن زاعمين: أن إرادة الجدار الانقضاض لا يمكن أن تكون حقيقة، وإنما هى مجاز. وقد دلت آيات من كتاب الله على أنه لا مانع من كون إرادة الجدار حقيقة؛ لأن الله تعالى يعلم للجمادات إرادات وأفعالاً وأقوالاً لا يدركها الخلق كما صرح تعالى بأنه. يعلم من

(١) تفسير القرطبى (١١/ ٢٤ ـ ٢٥).
(٢) «شرح النووي على صحيح مسلم» (٧/ ٣٧٨).
(٣) تفسير القرطبى (١١/ ٢٥).

ذلك ما لا يعلمه خلقه فى قوله جلّ وعلا: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] فصرح بأننا لا نفقه تسبيحهم وتسبيحهم واقع عن إرادة لهم يعلمها هو جل وعلا ونحن لا نعلمها. وأمثال ذلك كثيرة فى القرآن والسنة.

فمن الآيات الدالة على ذلك ـ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ...﴾ [البقرة: ٧٤] الآية. فصريحه تعالى بأن بعض الحجارة يهبط من خشية الله دليل واضح فى ذلك، بأن تلك الخشية بإدراك يعلمه الله ونحن لا نعلمه.

وقوله تعالى ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ﴾ [الأحزاب: ٧٢] الآية. فتصريحه جل وعلا بأن السماء والأرض والجبال أبت وأشفقن أى خافت ـ دليل على أن ذلك واقع. بإرادة وإدراك يعلمه هو جل وعلا ونحن لا نعلمه.

ومن الأحاديث الدالة على ذلك ما ثبت فى صحيح مسلم أن النبى ﷺ قال: «إنى لأعرف حجراً كان يسلم علىّ بمكة» وما ثبت فى صحيح البخارى من حنين الجذع الذى كان يخطب عليه ﷺ جزعاً لفراقه ـ فتلسيم ذلك الحجر، وحنين الجذع كلاهما بإرادة وإدراك يعلمه الله ونحن لا نعلمه كما صرح بمثله فى قوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، وزعم من لا علم عنده: أن هذه الأمور لا حقيقة لها، وإنما هى ضرب أمثال ـ زعم باطل، لأن نصوص الكتاب والسنة لا يجوز صرفها عن معناها الواضح المتبادر إلا بدليل يجب الرجوع إليه. وأمثال هذا كثيرة جداً. وبذلك تعلم أنه لا مانع من إبقاء إرادة الجدار على حقيقتها لإمكان أن يكون الله علم منه إرادة الانقضاض، وإن لم يعلم خلقه تلك الإرادة، وهذا واضح جداً كما ترى. مع أنه من الأساليب العربية إطلاق الإرادة على المقاربة والميل إلى الشىء كما فى قول الشاعر:

يُرِيدُ الرُّمْحُ صَدْرَ أَبِى بَرَاءٍ وَيَعْدِلُ عَنْ دِمَاءِ بَنِى عَقِيلِ

أى: يميل إلى صدر أبى براء. وكقول راعى نمير:

فِى مَهْمَهٍ قَلِقَتْ بِهِ هَامَاتُهَا قَلَقَ الْفُؤُوسِ إِذَا أَرَدْنَ نُصُولاَ

فقوله: «إذا أردن نضولا» أى قاربنه. وقول الآخر:

إِنَّ دَهْرًا يَلُفُّ شَمْلِى بِجُمْلٍ لَزَمَانٌ يَهُمُّ بِالإِحْسَانِ

فقوله: « لزمان يهم بالاحسان» أى يقع الإحسان فيه وقد بينا فى رسالتنا المسماة «منع المجاز فى المنزل للعبيد والإعجاز» أن جميع الآيات التى يزعمون أنها مجاز أن ذلك لا يتعين فى شىء منها. وبينا أدلة ذلك والعلم عند الله تعالى[1].

قال القرطبى: وذهب قوم إلى منع المجاز فى القرآن، منهم أبو إسحاق الإسفراينى وأبو بكر محمد بن داود الأصبهانى وغيرهما، فإن كلام الله عز وجل وكلام رسوله حملُه على الحقيقة أولى بذى الفضل والدِّين؛ لأنه يقصّ الحق كما أخبر الله تعالى فى كتابه، ومما احتجوا به أن قالوا: لو خاطبنا الله تعالى بالمجاز لزم وصفه بأنه متجوز أيضًا، فإن العدول عن الحقيقة إلى المجاز يقتضى العجز عن الحقيقة، وهو على الله تعالى محال، قال الله تعالى: ﴿**يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[النور: ٢٤] وقال تعالى: ﴿**وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ**﴾[ق: ٣٠] وقال تعالى: ﴿**إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا**﴾ [الفرقان: ١٢] وقال تعالى: ﴿**تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى**﴾ [المعارج: ١٧] و «**اشتكت النار إلى ربها**» و «**احتجت النار والجنة**» وما كان مثلها حقيقة، وأن خالقها الذى أنطق كل شىء أنطقها.

وففى صحيح مسلم حديث أنس عن النبى ﷺ «**فيختم على فيه ويقال لفخذه انطقى فتنطق فخذُه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليعذر من نفسه وذلك المنافق وذلك الذى يسخط الله عليه**» هذا فى الآخرة. وأما فى الدنيا، ففى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذى نفسى بيده لا تقوم الساعة حتى تكلم السباعُ الإنس وحتى تُكلِّم الرجل عَذَبَةُ سوطه وشراك نعله وتخبرُه فخذُه بما أحدث أهلُه من بعده**» قال أبو عيسى: وفى الباب عن أبى هريرة، وهنا حديث حسن غريب[2].

قال ابن كثير: قوله: ﴿**فَأَقَامَهُ**﴾، أى فردّه إلى حالة الاستقامة، وفى الحديث أنه ردّه بيده ودعمه حتى ﷺ ميله، وهذا خارق فعند ذلك قال له موسى: ﴿**لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا**﴾، أى لأجل أنهم لم يضيفونا كان ينبغى أن لا تعمل لهم مجانًا ﴿**قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ**﴾، أى لأنك شرطت عند قتل الغلام أنك إن سألتنى عن شىء بعدها فلا تصاحبنى، فهو فراق بينى وبينك؛ ﴿**سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ**﴾ أى بتفسير ﴿**مَا**

(١) «أضواء البيان» (٤/ ١٩٤ ـ ١٩٥).

(٢) تفسير القرطبى (١١/ ٦ ـ ٢٧).



لم تستطع عليه صبراً﴾[1].

١٤ ـ قوله تعالى: ﴿أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وركان وراءكم ملك يأخذ كل سفينة غصبًا﴾.

قال ابن كثير: هذا تفسير ما أشكل أمره على موسى عليه السلام وما كان أنكر ظاهره، وقد أظهر الله الخضر عليه السلام على حكمة باطنة، فقال: إن السفينة إنما خرقتها لأعيبها لأنهم كانوا يمرون بها على ملك من الظلمة ﴿يأخذ كل سفينة﴾ صالحة أى جيدة ﴿ غصبًا﴾ فأردت أن أعيبها لأرده عنها لعيبها فينتفع بها أصحابها المساكين الذين لم يكن لهم شيء يأكلون به غيرها[2].

قال البقاعى: وهو دليل للشافعى على أن الفقير أسوأ حالاً من المسكين؛ لأن هؤلاء يملكون سفينة . . ولما كان التعييب من فعله أسنده إليه خاصة تأدبًا مع الله تعالى فقال: ﴿فأردت أن أعيبها﴾ فإنَّ تَفْوِيتَ منفعتها بذلك ساعة من نهار وتكليف أهلها لوحًا يسدونها به أخف ضررًا من تفويتهم منفعتها أخذاً ورأساً بأخذ الملك لها، ولم أرد إغراق أهلها كما هو المتبادر إلى الفهم، ثم عطف على ذلك فعله فقال: ﴿وكان وراءهم﴾، أى أمامهم، ولعله عبَّرَ بلفظ «وراء» كناية عن الإحاطة بنفوذ الأمر فى كل جهة وارتهم وواروها[3].

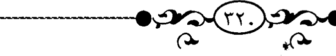
قال الشنقيطى: واسم ذلك الملك: هدد بن برد[4].

قال القرطبى: فى خرق السفينة دليل على أن للولى أن ينقص مال اليتيم إذا رآه صلاحًا، مثل أن يخاف على ريعه ظالمًا فيخرّب بعضه، وقال أبو يوسف: يجوز للولى أن يصانع السلطان ببعض مال اليتيم عن البعض[5].

١٥ ـ قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾[الكهف: ٨٠، ٨١].

قال القرطبى: قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ جاء فى صحيح

(١) تفسير ابن كثير (٣/٩٨).
(٢) تفسير ابن كثير (٣/٩٨).
(٣) «نظم الدرر» (٤/٤٩٢)
(٤) «أضواء البيان» (٤/١٦٩).
(٥) تفسير القرطبى (١١/١٩).



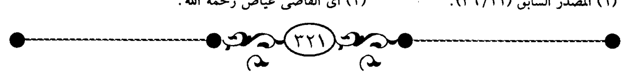
الحديث: «**أنه طبع يوم طُبع كـافرًا**» وهذا يؤيد ظاهره أنه غير بـالغ، ويحتمل أن يكون خبرًا عنه مع كونه بالغًا[1].

قال النووى: «**وأما الغلام فطبـع يوم طبع كافرًا**». قال القاضى[2]: فى هذا حجة بينة لأهل السنة لصـحة أصل مـذهبهـم فى الطبع والرين والأكنة والأغشـية والحـجب والسد، وأشـباه هذه الألفاظ الواردة فى الشـرع فى أفعال الله تعـالى بقلوب أهل الكفر والضلال، ومـعنى ذلك عندهم خلق الله تعالى فيـها ضد الإيمان وضـد الهدى، وهذا على أصل أهل السنة أن العبد لا قدرة له إلا مـا أراده الله تعالى ويسره له، وخلقه له، خلافًا للمـعتزلة والقدرية القائلين، بأن للعـبد فعلاً من قبل نفسـه، وقدرة على الهدى والضلال، والخـير والشـر، والإيمان والكفر، وأن مـعنى هذه الألفـاظ نسبة الله تـعالى وحكمـه عليهم بذلك وقـالت طائفة منهـم: معناها خلقـه علامـة لذلك فى قلوبهم، والحق الذى لا شك فيه أن الله تعالى يفعل ما يشاء من الخير والشر، لا يسأل عما يفعل وهم يسـألون، وكما قـال تعالى فى الـذر: «هؤلاء للجنة ولا أبالى، وهؤلاء للنار ولا أبالى» فـالذين قضى لهم بالنار طبـع على قلوبهم، وختم عليـها وغـشاها وأسكنـها، وجعل من بين أيديها سدًا ومن خلفها سدًا وحـجابًا مستورًا، وجعل من بين أيديها سدًا ومن خلفها سـدًا وحجاباً مسـتورًا، وجعل فى آذانهم وقرًا، وفى قلوبهم مـرضًا، لتتم سابقته فيهم، وتمضى كلمته لا راد لحكمه، ولا معقب لأمره وقضائه. وبالله التوفيق

وقد يحـتج بهذا الحـديث من يقول: أطفـال الكفار فى الـنار وقد سبق بـيان هذه المسألة، وأن فيهم ثلاثة مذاهب الصـحيح أنهم فى الجنة، والثانى: فى النار، والثالث: يتوقف عـن الكلام فيهم، فـلا يحكم لهم بشىء، وتقـدمت دلائل الجميع، وللـقائلين بالجنة أن يقولوا فى جواب هذا الحديث: معناه علم الله لو بلغ لكان كافرًا.

قوله: [أى فى الحـديث]: «وكان أبواه قد عطفا عليـه، فلو أدرك أرهقهما طغـيانًا وكفرًا» أى حملهمـا عليهما، وألحقهما بهمـا، والمراد بالطغيان هنا الزيادة فى الضلال، وهذا الحـديث من دلائل مذهب أهل الحق فى أن الله تـعالى أعلم بما كـان وبما يكون، وبما لا يكون لو كـان كـيف يكون، ومنه قـوله تعـالى: ﴿**وَلَوْ رُدُّوا لَعَـادُوا لِمَـا نُهُـوا عَنْهُ**﴾[الأنعام: ٢٨] وقوله: ﴿**ولو نزلنا عليك كـتابًا فى قـرطاس فلمسوه بأيديـهم لقال الذين كـفروا... الآية**﴾[الأنعام:٧] وقـوله تعالى: ﴿**ولو جـعلناه ملكًا لجـعلناه رجـلاً**

(١) المصدر السابق (١١/٣٦). (٢) أى القاضى عياض رحمه الله.



وللبسنا عليهم﴾ [الأنعام: ٩] وغير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿خيرًا منه زكاة وأقرب رحمًا﴾[الكهف: ٨١] قيل: المراد بالزكاة: الإسلام، وقيل: الصلاح.

وأما الرحم: فقيل معناه الرحمة لوالديه أبدلهما، وقيل: المراد يرحمانه، قيل: أبدلهما الله بنتًا صالحة، وقيل: ابنًا حكاه القاضى[(١)].

قال القرطبى: يستفاد من هذه الآية تهوين المصائب بفقد الأولاد وإن كانوا قطعًا من الأكباد، ومن سلَّم للقضاء أسفرت عاقبته عن اليد البيضاء. قال قتادة: لقد فرح به أبواه حين وُلد وحَزنا عليه حين قُتل، ولو بقى كان فيه هلاكهما، فالواجب على كل امرئ الرضا بقضاء الله تعالى، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه له فيما يحب[(٢)].

١٦ ـ قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

قال ابن كثير: فى هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة؛ لأنه قال أولاً ﴿حتى أتيا أهل قرية﴾[الكهف: ٧٧] وقال ههنا: ﴿فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد: ١٣] ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، يعنى مكة والطائف، ومعنى الآية أن هذا الجدار إنما أصلحته؛ لأنه كان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما، قال عكرمة وقتادة وغير واحد: كان تحته مال مدفون لهما وهو ظاهر السياق من الآية وهو اختيار ابن جرير رحمه الله. . .

وقوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾، فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ فى ذريته وتشمل بركة عبادته لهم فى الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم ورفع درجتهم إلى أعلى درجة فى الجنة لتقر عينه بهم كما جاء فى القرآن الكريم ووردت به السنة، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس حُفظًا بصلاح أبيهما ولم يذكر لهما صلاحًا . . .

---

(١) «شرح النووى على صحيح مسلم» (٧/ ٣٨٠ ـ ٣٨١).
(٢) «تفسير القرطبى» (١١/ ٣٧ ـ ٣٨).

وقوله: ﴿**فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما**﴾ ههنا أسند الإرادة إلى الله تعالى لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه إلا الله، وقال فى الغلام: ﴿**فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرًا منه زكاة**﴾وقال فى السفينة: ﴿**فأردت أن أعيبها**﴾ فالله أعلم[1].

وقوله تعالى: ﴿**رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى**﴾، أى هذا الذى فعلته فى هذه الأحوال الثلاثة إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة ووالدى الغلام وولدى الرجل الصالح، وما فعلته عن أمرى لكنى أمرت به ووقفت عليه، وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخضر عليه السلام مع ما تقدم من قوله: ﴿**فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما**﴾.

وقوله ﴿**ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرًا**﴾، أى هذا تفسير ما ضقت به ذرعًا ولم تصبر حتى أخبرك به ابتداء، ولما أن فسَّره له وبيَّنه ووضّحه وأزال المشكل قال: ﴿تسطع﴾ وقبل ذلك كان الإشكال قويًا ثقيلاً فقال: ﴿**سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرًا**﴾ فقابل الأثقل بالأثقل، والأخف بالأخف كما قال: ﴿**فما اسطاعوا أن يظهروه**﴾ وهو الصعود إلى أعلاه ﴿**وما استطاعوا له نقبًا**﴾ وهو أشق من ذلك فقابل كلاً بما يناسبة لفظًا ومعنى والله أعلم. فإن قيل: فما بال فتى موسى ذكر فى أول القصة ثم لم يذكر بعد ذلك؟ فالجواب أن المقصود بالسياق إنما هو فى قصة موسى مع الخضر وذكر ما كان بينهما، وفتى موسى معه تبع، وقد صرح فى الأحاديث المتقدمة فى الصحاح وغيرها أنه يوشع بن نون ،وهو الذى كان يلى بنى إسرائيل بعد موسى عليه

(١) قال القرطبى: إن الخضر أضاف عيب السفينة إلى نفسه رعاية للأدب؛ لأنها لفظة عيب، فتأدب بأن لم يسند الإرادة فيها إلا إلى نفسه، كما تأدب إبراهيم عليه السلام فى قوله: ﴿**وإذا مرضت فهو يشفين**﴾ فأسند الفعل قبل وبعد إلى الله تعالى، وأسند إلى نفسه المرض، إذ هو معنى نقص ومصيبة، فلا يضاف إليه سبحانه وتعالى من الألفاظ إلا ما يُستحسن منها دون ما يُستقبح، وهذا كما قال تعالى: ﴿**بيدك الخير**﴾ واقتصر عليه فلم ينسب الشر إليه، ،وإن كان بيده الخير والشر والضر والنفع، إذ هو على كل شىء قدير، وهو بكل شىء خبير. ولا اعتراض بما حكاه عليه السلام عن ربه عزّ وجلّ أنه يقول يوم القيامة: «يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى واستطعمتك فلم تطعمنى واستسقيتك فلم تسقنى» فإن ذلك تنزل فى الخطاب وتلطفٌ فى العتاب، مقتضاه التعريف بفضل ذى الجلال، وبمقادير ثواب هذه الأعمال. وقد تقدم هذا المعنى. والله أعلم. ولله تعالى أن يطلق على نفسه ما يشاء، ولا نطلق نحن إلا ما أذن لنا فيه من الأوصاف الجميلة، والأفعال الشريفة جلّ وتعالى عن النقائص والآفات علوًا كبيرًا. وقال فى الغلام: ﴿**فأردنا**﴾ فكأنه أضاف القتل إلى نفسه والتبديل إلى الله تعالى. والأشد كمال الخُلُقِ والعقل» اهـ «تفسير القرطبى» (١١/ ٣٩ ـ ٤٠).



السلام؟[1]

قال القرطبي: والأظهر أن موسى صرف فتاه لما لقى الخضر. وقال شيخنا الإمام أبو العباس: يحتمل أن يكون اكتُفى بذكر المتبوع عن التابع، والله أعلم[2].

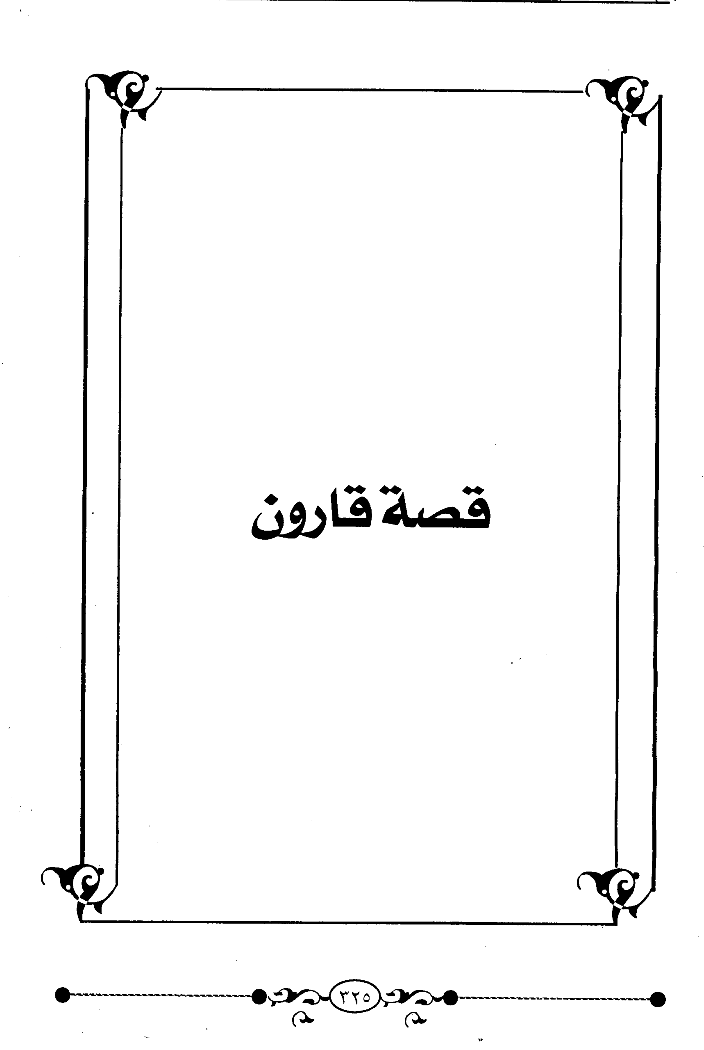
قال النووي: وفى هذه القصة أنواع من القواعد ،والأصول والفروع والآداب والنفائس المهمة، سبق التنبيه على معظمها سوى ما هو ظاهر منها، ومما لم يسبق أنه لا بأس على العالم والفاضل أن يخدمه المفضول، ويقضى له حاجته، ولا يكون هذا من أخذ العوض على تعليم العلم والآداب، بل من مرءوات الأصحاب، وحسن العشرة، ودليله من هذه القصة حمل فتاه غذاءهما، وحمل أصحاب السفينة موسى والخضر بغير أجرة لمعرفتهم الخضر بالصلاح، والله أعلم.

ومنها: الحث على التواضع فى علمه وغيره، وأنه لا يدعى أنه أعلم الناس، وأنه إذا سئل عن أعلم الناس يقول: الله أعلم.

ومنها بيان أصل عظيم من أصول الإسلام، وهو وجوب التسليم لكل ما جاء به الشرع وإن كان بعضه لا تظهر حكمته للعقول، ولا يفهمه أكثر الناس وقد لا يفهمونه كلهم كالقَدَر، موضع الدلالة قتل الغلام، وخرق السفينة، فإن صورتهما صورة المنكر، وكان صحيحًا فى نفس الأمر، له حِكَم بينة، لكنها لا تظهر للخلق، فإذا أعلمهم الله به علموها، ولهذا قال: ﴿**وما فعلته عن أمرى**﴾، يعنى بل بأمر الله تعالى[3].

●●●●●

(1) «تفسير ابن كثير» (٣/٩٨ ـ ١٠٠).
(2) «تفسير القرطبي» (١١/٣٩).
(3) «شرح النووي على صحيح مسلم» (٧/٣٨١ ـ ٣٨٢) ط دار الغد.



قصة قارون

قصة قارون

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٧٦، ٨٣].

عن ابن عباس قال: كان قارون ابن عم موسى، وكذا قال إبراهيم النخعي وعبدالله بن الحارث بن نوفل، وسماك بن حرب وقتاده ومالك بن دينار وابن جريج وزاد فقال: هو قارون بن يصهب ابن قاهث، وموسى بن عمران بن قاهث. قال ابن جرير: هذا قول أكثر أهل العلم: إنه كان ابن عم موسى، ورد قول ابن إسحاق أنه كان عم موسى. قال قتادة: وكان يسمى المنور لحسن صوته بالتوراة، ولكن عدو الله نافق، فأهلكه البغي لكثرة ماله. وقد ذكر الله تعالى كثرة كنوزه، حتى إن مفاتحه كان يثقل حملها على الفئام[1]. من الرجال الشداد، وقد قيل: إنها كانت من الجلود وإنها كانت تحمل على ستين بغلاً... فالله أعلم.

●●●●●

(١) أي جماعة من الناس.

أهل الصلاح يعظون قارون بعدم البغى

وقد وعظه النصحاء من قومه قائلين : «لا تفرح»، أى لا تبطر بما أعطيت وتفخر على غيرك ﴿ إن الله لايحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ﴾ يقولون : لتكن همتك مصروفة لتحصل ثواب الله فى الآخرة، فإنه خير وأبقى، ومع هذا ﴿ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ [القصص : ٧٧] أى وتناول منها بمالك ما أحل الله لك، فتمتع لنفسك بالملاذ الطيبة الحلال، ﴿ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾، أى أحسن إلى خلق الله كما أحسن الله خالقهم وبارئهم إليك، ﴿ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ ﴾، أى ولا تسىء إليهم ولا تفسد فيهم، فتقابلهم ضد ما أمرت فيهم فيعاقبك ويسلبك ما وهبك، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

فما كان جواب قومه لهذه النصيحة الصحيحة الفصيحة إلا أن ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ يعنى أنا لا أحتاج إلى سماع ما ذكرتم، ولا إلى ما إليه أشرتم، فإن الله أعطانى هذا لعلمه أنى أستحقه، وإنى أهلٌ له، ولولا أنى حبيب إليه وحظىٌ[1] عنده لما أعطانى ما أعطانى .

قال الله تعالى رداً عليه فيما ذهب إليه : ﴿ أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾، أى قد أهلكنا من الأمم الماضين بذنوبهم وخطاياهم من هو أشد من قارون قوة وأكثر أموالاً وأولاداً، فلو كان ما قال صحيحاً لم نعاقب أحداً ممن كان أكثر مالاً منه، ولم يكن ماله دليلاً على محبتنا له واعتنائنا به، كما قال : ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ [سبأ: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾ [(المؤمنون: ٥٥-٥٦]، وهذا الرد عليه يدل على صحة ما ذهبنا إليه من معنى قوله: ﴿ إنما أوتيته على علم عندى ﴾ .

وأما من زعم ان المراد من ذلك انه كان يعرف صنعة الكيمياء، أو أنه كان يحفظ الاسم الأعظم فاستعمله فى جمع الأموال ، فليس بصحيح؛ لأن الكيمياء تخييل

(١) حظى : بفتح الحاء وكسر الظاء وضم الياء مع التشديد



وصنعة، لا تحيل الحقائق، ولا تشابه صنعة الخالق والاسم الأعظم لايصعد الدعاء به من كافر به، وقارون كان كافراً فى الباطن منافقاً فى الظاهر، قال الله تعالى: **﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾** ذكر كثير من المفسرين أنه خرج فى تجمل عظيم، من ملابس ومراكب وخدم وحشم، فلما رآه من يعظم زهرة الحياة الدنيا تمنوا أن لو كانوا مثله، وغبطوه بما عليه وله، فلما سمع مقالتهم العلماء ،ذوو الفهم الصحيح الزهاد الألباء ، قالوا لهم : **﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾**، أى ثواب الله فى الآخرة خير وأبقى وأجل وأعلى .قال الله تعالى :**﴿ وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ ﴾**، أى وما يلقى هذه النصيحة وهذه الدنيا إلا من هدى الله قلبه وثبت فؤاده، وأيد لبه وحقق مراده.

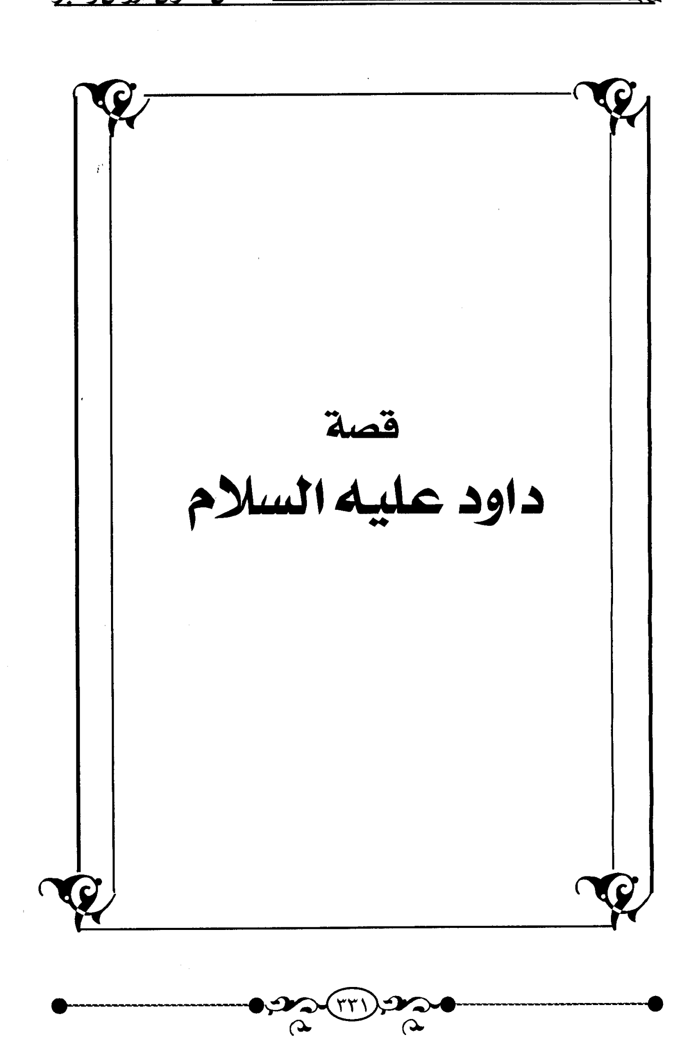
ما أحسن ما قال بعض السلف: إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات، والعقل الكامل عند حلول الشهوات.

قال الله تعالى :**﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾** .

لما ذكر تعالى خروجه فى زينته واختياله فيها، وفخره على قومه بها قال : **﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾** وقوله تعالى :**﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾** لم يكن ناصر له من نفسه ولا من غيره كما قال: **﴿ فما له من قوة ولا ناصر ﴾** (الطارق: ١٠).

ولما حلَّ به ما حلَّ من الخسف وذهاب الأموال وخراب الدار، وإهلاك النفس والأهل والعقار، ندم من كان يتمنى مثل ما أوتى، وشكروا الله تعالى، الذى يدبر عباده بما يشاء من حسن التدبير المخزون، ولهذا قالوا :**﴿ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾** قال قتادة: ويكأن بمعنى ألم تر أن . وهذا قول حسن من حيث المعنى . . .والله أعلم.

ثم أخبر تعالى: أن **﴿ الدَّارُ الآخِرَةُ ﴾** وهى دار القرار، وهى الدار التى يغبط من أعطيها ويعزى من حرمها إنما هى معدة **﴿ لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا﴾**.فالعلو هو التكبر والفخر والأشر والبطر. والفساد هو عمل المعاصى اللازمة والمتعدية، من أخذ أموال الناس وإفساد معايشهم، والإساءة إليهم وعدم النصح لهم . ثم قال تعالى :**﴿الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾** .



قصة
داود عليه السلام

قصة داود عليه السلام

هو داود بن ايشا بن عويد بن عابر بن سلمون بن نخشون بن عويناداب بن أرم بن حصرون بن فرص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل [1].

وكان داود عليه السلام قد آتاه الله النبوة والملك فى بنى إسرائيل معاً، وقد آل إليه الملك بعد طالوت هو أحد ملوك بنى إسرائيل.

قال الله تعالى فى كتابه العزيز: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (البقرة: ٢٤٦-٢٥١).

قال أكثر المفسرين :

كان نبى هؤلاء القوم المذكورين في هذه القصـة هو شمويل . والمقصود أن هؤلاء القوم لما أنهكتهم الحروب وقهرهم الأعداء سألوا نبى اللّه فى ذلك الزمان وطلبوا منه أن

(١) « البداية والنهاية »(٢/١٢) وفتح البارى (٦/٥٢٣).



ينصب لهم ملكاً يكونون تحت طاعـته ليقاتلوا من ورائه ومعـه بين يديه الأعداء .[1]

فقال لهم : ﴿ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ﴾، أى وقد أخـذت منا البلاد وسـبيت الأولاد قـال اللَّه تعالى: ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ أى ما وفوا بما وعدوا بل نكل عن الجهاد أكثرهم واللَّه عليم بهم . ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَاقَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾، أى لما طلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكا منهـم فـعين لهم طالوت وكـان رجـلا من أجنادهم ولم يكـن من أي بيت الملك فيهم؛ لأن الملك كان فى سبط يهـوذا ولم يكن هذا من ذلك السبط فلهذا قالوا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا ﴾، أى كيف يكون ملكا علينا ﴿ وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ﴾، أى ثم هو مع هذا فقيـر لا مال له يقوم بالملك وقد ذكر بعـضهم أنه كان سقّاء وقيل دباغاً وهذا اعترض مـنهم على نبيهم وتعنت وكان الأولى بهم طاعة وقول معروف ثم قد أجابهم النبى قائلا: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُم ﴾ أي اختاره لكم من بينكم واللَّه أعلم به منكم يقـول: لست أنا الذى عـينته من تلقـاء نفسى بل اللَّه أمـرنى به لما طلبتم منى ذلك ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾، أى وهو مع هذا أعلم منكم وأنبل وأشكل منكم وأشد قوة وصبراً فى الحرب ومعـرفة بها أى أتم علماً وقامة منكم، ومن ههنا ينبغى أن يكون الملك ذا علم وشكل حسن وقوة شـديدة فى بدنه ونفسه ثم قال: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ﴾، أى هو الحاكم الذى ما شاء فعل ولا يُسأل عما يفعل وهم يسألون لعلمـه وحكمته ورأفـته بخلقه ولهـذا قال: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾، أى هو واسع الفضل يختص برحـمته من يشاء، عليم بمن يستحق الملك ممن لا يسـتحقه: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِه أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ يقول لهم نبيـهم: إن علامة بركة ملك طالوت عليكم أن يرد اللَّه عليكم التابوت[2] الذى كان أخذ منكم ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ

---

(١) « البداية والنهاية »(٢/٧-٨) باختصار يسير.

(٢) ذكرت أقـول كثيرة فى مـاهية التابوت .وقال الألوسـى : أقرب الأقول التى رأيتهـا أنه صندوق التوراة تغلبت عليه العمالقة حتى رده الله تعالى « روح المعانى »(٢/١٦٨) دار الفكر.

مَن رَّبِّكُمْ﴾ قيل: معناه فيه وقار وجلالة، وقال ابن جريج : سألت عطاء عن قوله ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قال: مايعرفون من آيات اللَّه فيسكون إليه وقيل السكينة طست من ذهب كانت فيه قلوب الأنبياء أعطاها اللَّه موسى عليه السلام فوضع فيها الألوح وقوله، ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ عن ابن عباس قال عصاه ورضاض الألواح [1]وقوله: ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ﴾ قال ابن عباس: جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعته بين يدى طالوت والناس ينظرون، وقال السدى : أصبح التابوت فى دار طالوت فآمنوا بنبوة شمعون وأطاعوا طالوت . وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لَّكُمْ﴾، أي على صدقي فيما جئتكم به من النبوة وفيما أمرتكم به من طاعة طالوت ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أى باللَّه واليوم الآخر . ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]يقول تعالى مخبرا عن طالوت ملك بنى إسرائيل حين خرج فى جنوده ومن أطاعه من ملأ بنى إسرائيل أنه قال :﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم﴾، أى مختبركم بنهر قال ابن عباس وغيره: هو نهر بين الأردن وفلسطين يعنى نهر الشريعة المشهور ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾، أى فلا يصحبنى اليوم فى هذا الوجه ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾، أى فلا بأس عليه قال اللَّه تعالى ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾، قال ابن عباس : من اغترف منه بيده روى ومن شرب منه لم يرو، وعن البراء بن عازب قال : كنا نتحدث أن أصحاب محمد ﷺ الذين كانوا يوم بدر ثلاثمائة وبضعة عشر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزا معه النهر وما جازه معه إلا مؤمن رواه البخارى بنحوه.

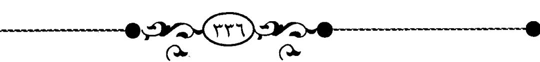
ولهذا قال تعالى ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ أى استقلوا أنفسهم عن لقاء عدّوهم لكثرتهم فشجعهم علماؤهم العالمون بأن وعد اللَّه حق فإنّ النصر من عند اللَّه ليس عن كثرة عَدد ولا عُدد .ولهذا قالوا: ﴿كَم

(١) أى فتاتها.

مَن فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾ . ﴿ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾[البقرة: ٢٤٩ ـ ٢٥١] أى لما واجه حزب الإيمان وهم قليل من أصحاب طالوت لعدوهم أصحاب جالوت وهم عدد كثير ﴿ قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً ﴾ أى: أنزل علينا صبراً من عندك﴿ وثبت أقدامنا ﴾ أي في لقاء الأعداء وجنبنا الفرار والعجز ﴿وانصرنا على القوم الكافرين﴾. قال اللَّه تعالى: ﴿فهزموهم بإذن الله﴾ أى غلبوهم وقهروهم بنصر اللَّه لهم ﴿ وقتل داود جالوت﴾ وكان طالوت قد وعده إن قتل جالوت أن يزوجه ابنته ويشاطره نعمته ويشركه في أمره فوفّى له ثم آل الملك إلى داود عليه السلام مع ما منحه اللَّه به من النبوة العظيمة ولهذا قال تعالى ﴿وآتاه الله الملك﴾ الذى كان بيد طالوت ﴿والحكمة ﴾، أى النبوة بعد شمويل ﴿ وعلمه مما يشاء﴾، أى مما يشاء اللَّه من العلم الذى اختصه به ﷺ ثم قال تعالى: ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾، أى لولا أن اللَّه يدفع عن قوم بآخرين كما دفع عن بنى إسرائيل بمقاتلة طالوت وشجاعة داود لهلكوا [1].

●●●●●

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٣٠٠-٣٠٣)



براءة النبى داود من افتراءات اليهود

زعم اليهود زورًا وبهتانًا أن النبى داود عليه السلام نظر إلى امرأة وهى تستحم ؛ وكانت جميلة جداً، فأعجبته، فسأل عنها فأخبروه أنها زوجة أوريا الحثى،فبعث داود أوريا إلى الحرب حتى يقتل فيها ، فلما قتل تزوج داود من امرأته؛ وكان تحت داود تسع وتسعون امرأة فلم يكتفى بهن بل طمع فى امرأة أوريا.

وقد وردت هذه الفرية فى سفر صموئيل الثانى الإصحاح الحادى عشر، ومما يؤسف له أن هذه الفرية، قد تسربت إلى بعض كتب التفسير، وقد ذكرها من ذكرها عند تفسير قول الله تعالى: ﴿ **وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ** ﴾ [سورة ص: ٢١-٢٥]، وقد نبّه بعض أهل العلم على أن قصة داود عليه السلام مع زوجة أوريا من الإسرائيليات وممن أشار إلى ذلك : الحافظ ابن كثير فى تفسيره. والسيوطى فى كتابه «الإكليل». وفخر الدين الرازى فى كتابه «عصمة الأنبياء» والآلوسى فى تفسيره والقاسمى فى تفسيره. وابن حزم فى كتابه «الفصل» وأبوحيان الأندلسى فى تفسيره. والقاضى عياص فى كتابه «الشفا» وأبو بكر بن العربى فى« أحكام القرآن». وأبوبكر الجصاص فى «أحكام القرآن» والزمخشرى فى تفسيره. والخازن فى تفسيره. والبيضاوى فى تفسيره، والسمرقندى فى تفسيره وغيرهم. ومن المعاصرين الذين نبهوا على بطلان هذه الرواية: الدكتور الشيخ محمد حسين الذهبى فى كتابه «الإسرائيليات فى التفسير والحديث» والشيخ الألبانى فى«السلسة الضعيفة» (١/ ٣٢٥). والشنقيطى فى تفسيره . والشيخ أبو بكر الجزائرى فى تفسيره . والدكتور الشيخ وهبه الزحيلى فى تفسيره وغيرهم .

وقد ذكرت أقوال هؤلاء العلماء فى كتابى «جرائم اليهود مع الأنبياء والرسل»



التفسير الصحيح للآيات

قال عبد الله بن الصديق الغماري: قوله تعالى: ﴿**وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ**﴾ خبرهم ﴿**إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ**﴾محراب داود عليه السلام، وهو مسجده الذى أعده للصلاة فى بيته . وكان قد رتب أيام الأسبوع فجعل يوما للقضاء بين الناس، ويوما لأهله ،ويوما ينظر فى شئون معايشه ، لأنه كان يأكل من عمل يده ، كما جاء فى الحديث الصحيح(١) وجاء الخصوم فى العبادة ، فمنعهم الحرس من الدخول ،وهم مستعجلون يريدون الفصل فى قضيتهم فتسوروا المحراب ﴿ **إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ**﴾، حيث نزلوا من جهة السقف ،وظن أنهم يريدون به شرًا، إذ الملك لا يخلو فى العادة ممن يقصده بشر من رعاياه ﴿**قَالُوا لَا تَخَفْ** ﴾ لا نقصدك بشر .نحن ﴿**خَصْمَانِ**﴾ فريقان، أو شخصان،وكانت بيننا مشاركة فى نعاج، واختلفنا فيها بحيث ﴿ **بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ**﴾ لا تجر ، وهذا تعبير فيه جفاء لا يليق بمقام النبوة،و هو يدل على ما كان يتمتع به الشعب الإسرائيلى فى حكم داود من حرية فى التعبير ﴿**وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ** ﴾ أرشدنا إلى وسط الطريق الصواب . فاطمأن وسألهم عن قضيتهم،فقال أحدهم: ﴿ **إِنَّ هَٰذَا أَخِي**﴾، أى إسرائيلى مثلى﴿ **لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً**﴾ حقيقة، لا كناية عن النساء كما قيل ﴿**وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا**﴾ اجعلنى كافلها بأن أضمها إلى نعاجى ﴿**وَعَزَّنِي**﴾ غلبنى ﴿ **فِي الْخِطَابِ** ﴾، أى الجدال بقوة منطقه ﴿ **قَالَ**﴾ داود مصدرا الحكمة بعد موافقة الخصم واعترافه ،أو ثبوت الحجة عليه ﴿ **لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ**﴾ليضمها ﴿ **إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ**﴾الشركاء ﴿**لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ**﴾ فلا يبغون ، والبغى الظلم، ﴿**وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ**﴾ فالتأكيد القلة ﴿**وَظَنَّ**﴾ أيقن ﴿ **دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ**﴾ ابتليناه بالفزع الذى جعل منه حين تسور الخصوم عليه المحراب .وما كان ينبغى له الفزع من المخلوق وهو حضرة الخالق وعبادته ﴿**فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ**﴾ من فزعه الذى لا يليق به ﴿**وَخَرَّ رَاكِعًا** ﴾ ساجدا ﴿**وَأَنَابَ**﴾ رجع إلى الله تعالى . فتبين من سياق القصة أنه كانت خصومة بين شركاء فى نعاج حقيقة،وأنه لم يحصل من داود - قبلها -

---

(١) فى صحيح البخارى عن المقدام بن معد يكرب عن النبى ﷺ قال: «ما أكل أحدٌ طعامًا قط خير من أن يأكل من عمل يده وإن نبى الله داود عليه الصلاة والسلام كان يأكل من عمل يده » وكان عمله صنعة الدروع التى تلبس فى الحروب. وقال تعالى: ﴿ **وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم** ﴾..

ما يستوجب لومه أو عتابه .وكل ما حصل منه خوفه من الخصوم الذين تسوروا عليه المحراب ، والخوف غريزة بشرية فقد قال موسى وهارون من قبله - وهما أفضل ﴿ **قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ** ﴾ وما من رسول إلا وقد خاف إذاية قومه. غير أنه اعتبر فزعه من المخلوق وهو بين يدى الخالق لايليق بمنصبه الكريم، وعدّه ابتلاء وامتحانًا، فاستغفر الله منه .

ومن التفاسير: ما ذكره كثير من المفسرين أنه نظر من طاق فى بيته، فرأى إمرأة عريانة تغتسل، فأعجبته، فسأل عنها ؟ فقيل له : إنها امرأة شخص يقال له: أوريا فبعثه إلى حرب،و أمر بأن يحمل التابوت ـ وكان حامل التابوت لا يحل له أن يرجع حتى ينتصر الجيش أو يقتل- فانتصر الجيش، وعاد أوريا.فبعثه مرة ثانيه وثالثة، فقتل ،فتزوج امرأته، وكان له تسع وتسعون امرأة، وقيل: بل كانت خطيبة أوريا، فبعث داود يخطبها- ولم يعلم بخطبتها فآثره أهلها على خطيبها الأول، فزوجوها له، وهى أم سليمان، فبعث الله إليه ملكين فى صورة رجلين يختصمان فى نعاج، كنيا بها عن الزوجات، فلما قضى صعدا إلى السماء وهما يقولان : قضى الرجل على نفسه، فأدرك خطأه وتاب. وهذه القصة مأخوذة عن الإسرائيليات وفيها مساس بمقام النبوة، وخدش للعصمة الواجبة للأنبياء.وقال بعضهم فى خطأ داود : إنه قضى للخصم قبل أن يسمع كلام خصمه، وبعد الحكم أدرك خطأه وتاب وهذا أيضا باطل؛ لأن من البدهيات فى القضاء : ألا يحكم القاضى إلا عند سماع الخصمين وإبداء حججهما، والموازنة بينهما .فكيف يخفى هذا على نبى آتاه الله الملك والحكمة وفصل الخطاب؟.

« **تنبيه** » قوله تعالى عقب هذه القصة: ﴿**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ** ﴾ يدل على أن الله رضى حكمه فى القضية ، وإنه وفق فيها إلى إصابة الصواب ولهذا قال: احكم بالحق أى دم على الحكم الحق أما قوله تعالى .﴿**وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ فلا يدل على أن داوود اتبع الهوى، وإنما المراد به الأمر بمداومة اجتناب الهوى، أى دم على اجتناب الهوى فى أحكامك . ولما تقرر فى الأصول : أن النهى عن الشىء يستلزم الأمر بضده .ونظير هذا قوله تعالى: ﴿**ولا تكون من المشركين**﴾ فإن معناه: دم على توحيدك، واجتناب الشرك؛ لأن النبى معصوم من الشرك ومن المعاصى .[1]

(١) بدع التفاسير » عبد الله الصديق الغمارى (ص١١٩-١٢١)

الكتاب الذى أنزله الله على داود عليه السلام

أنزل الله سبحانه على نبيه داود ـ عليه السلام ـ كتاب الزبور.

قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [سورة النساء: ١٦٣].

قال ابن كثير: الزبور اسم الكتاب الذى أوحاه الله إلى داود عليه السلام (١) والزبر الكتب واحدها زبور، قال أبو عبيدة فى قوله تعالى: ﴿ فى زبر الأولين﴾أى كتب الأولين واحدها زبور، وقال الكسائى : زبور بمعنى مزبور، تقول: زبرته، فهو زبور مثل كتبته فهو مكتوب(٢)، قال قتاده: كنا نتحدث أن الزبور مائة وخمسون سورة كلها مواعظ وثناء، وليس فيها حلال ولا حرام ولا فرائض ولا حدود، بل كان اعتماده على التوراة أخرجه ابن أبى حاتم وغيره (٣).

عبادة داود عليه السلام

كان داود عليه السلام كثير الصوم والصلاة. قال الله تعالى:

﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّاب﴾ [سورة ص: ١٧]

والأواب هو الرجاع إلى الله عزّ وجلّ فى جميع أموره وشؤونه (٤)، وعن عبد الله ابن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله ﷺ : « **أحب الصيام إلى الله صيام داود، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه**» (٥).

وعنه رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال له : « **صم فى كل شهر ثلاثة أيام، قال قلت : إنى أقوى من ذلك، فلم يزل يرفعنى حتى قال : صم يوماً وأفطر يوماً، فإنه أفضل الصيام وهو صوم أخى داود عليه السلام** »(٦).

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٥٨٥) . (٢) « فتح البارى » (٦/ ٥٢٣) ط الريان.

(٣) « فتح البارى » (٦/ ٥٢٤) .

(٤) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٩).

(٥) رواه البخارى (٣٤٢٠) كتاب الأنبياء،باب : أحب الصلاة إلى الله صلاة داود وأحب الصيام صيام داود.

(٦) رواه البخارى (١٩٧٦) ومسلم (٢٦٨٤) وأبو داود (٢٤٢٧) والنسائى (٤/ ١١).

قوة داود عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ﴾ [ص: ١٧]

قال ابن كثير: يذكر تعالى عن عبده ورسوله داود عليه الصلاة والسلام أنه كان ذا أيد والأيدى القوة فى العلم والعمل .قال ابن عباس رضى الله عنهما والسدى وابن زيد: الأيدى القوة، وقرأ ابن زيد ﴿**والسماء بينيها بأيد ،وإنا لموسعون**﴾وقال مجاهد : الأيدى: القوة فى الطاعة (١) .

وكان تعالى قد رزق داود عليه السلام قوة جسمية « وقد ظهر أثر هذه القوة لداود عليه السلام ـ حين كان جندياً من جنود طالوت،وحين وجههما للدفاع عن الدين الحق ضد الكفر، فهى نعمة يجب أن توجه إلى طاعة من وهبها سبحانه، فقد استطاع داود -دون غيره - أن يتجه إلى رأس الكفر جالوت القائد العام للعدو، ويقتله على الرغم من أن المؤمنين كانوا قلة، والكافرين كثرة (٢) .

أكل داود من عمل يده

عن أبى هريره رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال : «**خُفِّفَ على داود عليه السلام القرآن (القراءة) فكان يأمر بدوابه، فتُسْرَجُ، فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه، ولا يأكل إلا من عمل يده**» (٣) .

كانت صنعة داود عليه السلام . التى يكتسب منها حمى نسج الدروع وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ۝ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سبأ: ١٠ ـ ١١]

قال ابن كثير: ﴿ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ ﴾ وهى الدروع . . . ﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ هذا إرشاد من الله تعالى لنبيه داود عليه السلام فى تعليمه صنعة الدروع، قال مجاهد فى قوله تعالى ﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ لا تدق المسمار فيقلقل فى الحلقة ولا تغلظه فيقضم ولا تدقه فيقلقل، وقال ابن عباس : السرد هو: الحلق الحديد (٤) .

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٩٢)

(٢) « فى موكب النبيين » سيد الكيلانى (٢/ ٥٧١)

(٣) رواه البخارى (٣٤١١٧) كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وآتينا داود زبوراً ﴾

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٢٧) وانظر « فتح البارى »(٦/ ٥٢٤)

« وبلغ داود - عليه السلام - من المهارة فى تلك الصناعة أن قَدَّر كل شىء فيها من مسمار وغيره، حتى تفوقت على ما سبقها من دروع »[1].

صنعة داود عله السلام

قال الله تعالى: ﴿ **وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٧٩ ـ ٨٠]

قال ابن كثير : قوله ﴿ **وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ** ﴾ يعنى صنعة الدروع، قال قتادة : إنما كانت الدروع قبله صفائح وهو أول من سردها حلقاً.... ﴿ **لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ** ﴾ يعنى القتال ﴿ **فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ** ﴾، أى نعم الله عليكم لما ألهم به عبده داود فعلمه ذلك من أجلكم [2] وقال : أعانه الله على عمله الدروع من الحديد ليحصن المقاتلة من الأعداء [3]...

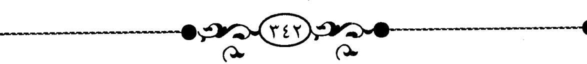
نعم الله على داود عليه السلام

أنعم الله تعالى على داود ـ عليه السلام - نعماً عظيمة .فمن ذلك :

١- إن الله سبحانه سخَّر له الجبال والطير يسبحان معه . وقال تعالى ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ** ﴾ [سبأ: ١٠].

قال ابن كثير : يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود عليه الصلاة والسلام مما آتاه من الفضل المبين والملك المتمكن، والجنود ذوى العَدَدَ و العُددَ ، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم الذى كان إذا سبح به تسبح معه الجبال الراسيات،والصم الشامخات، وتقف له الطيور السارحات، والغاديات والرائحات، وتجاوز به بأنواع اللغات . وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه يقرأ من الليل فوقف فاستمع لقراءته ثم قال ﷺ « **لقد أوتى هذا مزمار من مزامير آل داود** » [4] ، ومعنى قوله تعالى ﴿ **أَوِّبِي** ﴾، أى سبحى قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد [5] وقال تعالى ﴿ **وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا** ﴾

(١) « فى موكب النبيين » (٢/ ٥٧٧)
(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ١٨٧)
(٣) «قصص الأنبياء» ابن كثيرص٤٢١
(٤) متفق عليه
(٥) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٢٦-٥٢٧) باختصار يسير.



مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ [سورة ص: ١٧ ـ ١٩]

قال ابن كثير : قوله تعالى﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ﴾ أى أنه تعالى سخَّر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار كما قال عز وجل ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه وتُرَجِّع نترجيعه إذا امرَّ به الطير وهو سابح فى الهواء فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور لا يستطيع الذهاب بل يقف فى الهواء ويسبح معه وتجيبه الجبال الشامخات ترجِّع معه وتسبح تبعاً له [١].

ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ أى محبوسة فى الهواء .

٢- إلانة الحديد له. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠].

قال ابن كثير قوله تعالى: ﴿وألنا له الحديد﴾ قال الحسن البصرى وقتادة والأعمش وغيرهم : كان لا يحتاج أن يدخله ناراً ولا يضربه بمطرقة، بل كان يفتله بيده مثل الخيوط [٢].

٣ ـ تشديد ملكه .قال تعالى: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ [سورة ص: ٢٠]

قال ابن كثير: قوله تعالى ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾، أى جعلنا له ملكاً كاملاًمن جميع ما تحتاج إليه الملوك ،قال السدى : كان يحرسه كل يوم أربعة آلاف [٣].

٤ـ آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب. قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾

قال ابن كثير : قوله جل وعلا: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ قال مجاهد يعنى الفهم والعقل .وقال مرة: الحكمة والعدل، وقال مرة : الصواب، قتادة كتاب الله واتباع ما فيه، وقال السدى ﴿الْحِكْمَةَ﴾ النبوة. وقول جل جلاله: ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ قال شريح القاضى والشعبى : فصل الخطاب، الشهود والأيمان قال قتادة : شاهدان على المدعى أو يمين المدعى عليه هو فصل الخطاب الذى فصل به الأنبياء والرسل، أو قال المؤمنون والصالحون وهو قضاء الأمة إلى يوم القيامة . . . وقال مجاهد والسدى : هو إصابة القضاء وفهم ذلك، وقال مجاهد أيضاً: هو الفصل فى الكلام وفى الحكم وهذا يشمل

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٩)
(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٢٧)
(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٠).

هذا كله وهو المراد [1].

٥ - اقتداء النبى ﷺ بداود - عليه السلام فى السجود . قال تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [سورة ص: ٢٤]

قال ابن كثير: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾، أى ساجداً ﴿وَأَنَابَ﴾ ويحتمل أنه ركع أولاً ثم سجد بعد ذلك [2].

وقال السيوطى فى «الإكليل» : استُدل بقوله تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ من أجاز التعويض عن سجود التلاوة بركوع ، والأكثرون على أن الركوع هنا مجاز مرسل، عن السجود لأنه لإفضائه إليه، جُعِلَ كالسبب، ثم تجوز به عنه .أو هو استعارة له لمشابهته له فى الانحناء والخضوع، وقد سجد النبى ﷺ عند تلاوته لهذه الآية . قال مجاهد : قلت لابن عباس أنسجد فى (ص) ؟ فقرأ ﴿ومن ذريته داود وسليمان﴾ حتى آتى ﴿فبهداهم اقتده﴾ فقال ابن عباس رضى الله عنهما : بينكم ﷺ ممن أمر أن يقتدى بهم[3]. وفى رواية « فسجدها داود، فسجدها رسول الله ﷺ » [4] .وفى رواية قال مجاهد : وكان ابن عباس يسجد فيها[5].وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: إن النبى ﷺ سجد فى (ص) وقال : سجدها داود عليه السلام توبة ونسجدها شكراً [6]. وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر (ص) فلما بلغ السجدة تشرف [7] . الناس للسجود فقال ﷺ: «إنما هى توبة نبى ولكنى رأيتكم تشرفتم» فنزل وسجد.[8]

وقد اختلف أهل العلم فى سجدة (ص) هل هى من عزائم السجود أم لا؟

فمذهب الشافعى رضى الله عنه ليست من عزائم السجود بل هى سجدة شكر ، فلا توجب سجدة التلاوة، واستدل الشافعى على ذلك بما رواه البخارى عن ابن عباس

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٠). (٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٣١).

(٣) نقلاً عن « محاسن التأويل» للقاسمى (١٤/ ٥٠٩٣-٥٠٩٤)

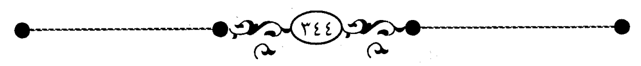
(٤)رواه البخارى (٣٤٢١) كتاب الأنبياء، باب﴿ واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب﴾

(٥) رواه البخارى (٤٨٠٧) كتاب التفسير، باب :تفسير سورة ص.

(٦) صحيح. رواه النسائى وصححه ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٣١).

(٧) أى تهيأوا

(٨) صحيح . رواه أبو داود(١٤١٠) وقال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٣٢) إسناده على شرط الصحيحين.



رضى الله عنهـما قال: « ص ليـست من عزائم السـجود [١]، وقد رأيت النبى ﷺ يسجد فيها » [٢].

واستدل أيضا بحديث ابن عباس أن النبى ﷺ قال: «**سجدها داود توبة ونحن نسجدها شكراً**»[٣]. قال الحافظ ابن حجر: استدل الشافعى بقوله: « شكراً على أنه لا يسجـد فيها فى الصـلاة؛ لأن سجود الشـاكر لا يشرع داخل الصلاة، ثم سـاق الحافظ حديث أبى سعـيد الخدرى الذى سبق ذكره، ثم قـال: فهذا السياق يشعـر بأن السجود فيها لم يؤكد كما أكد فى غيرها[٤].



(١) معنى أنها ليست من عزائم السجود، أى ليست مما ورد فى السجود فيها أمر ولا تحريض ولا حث، وإنما ورد بصيغة الاخبار عن داود عليه السلام بأنه فعلها وسجد نبينا ﷺ اقتداء به.

(٢) رواه البخارى (١٠٦٩) كتاب سجود القرآن، باب: سجدة ص. والترمذى (٥٧٧) كتاب الصلاة، باب ما جاء فى سجدة ص.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) « فتح البارى » (٢/ ٦٤٣).

عمر داود عليه السلام

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لمَّا خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عينى كل إنسان منهم وبيصا** [١] **من نور، ثم عرضهم على آدم فقال: أى رب من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فرأى رجلاً فأعجبه وميض ما بين عينيه، فقال: أى رب من هذا؟. قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود، قال: أى رب وكم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة، قال: أى رب زده من عمرى أربعين سنة، فما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت، قال: أو لم يبق من عمرى أربعون سنة؟ قال: أو لم تعطها ابنك داود؟ قال: فجحد فجحدت ذريته ونسى آدم فنسيت ذريته، وخطئ آدم فخطئت ذريته**» [٢].

وفاة داود عليه السلام

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: كان داود عليه السلام فيه غيره شديدة، فكان إذا خرج أغلق الأبواب فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع. قال: فخرج ذات يوم وغلقت الدار فأقبلت امرأته تطلع إلى دار فإذا رجل قائم وسط الدار فقالت لمن فى البيت: من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة، والله لنفضحن بداود، فجاء داود فإذا الرجل قائم فى وسط الدار فقال له داود: من أنت؟ فقال أنا الذى لا أهاب الملوك ولا أمنع من الحجّاب. فقال داود: أنت والله ملك الموت، مرحباً بأمر الله، ثم مكث حتى قبضت روحه فلما غسل وكفن وفُرِغ من شأنه طلعت عليه الشمس، فقال سليمان للطير: اقبضى جناحاً. قال أبو هريرة: فطفق رسول الله ﷺ يرينا كيف فعلت الطير، وقَبضَ رسول الله ﷺ بيده، وغَلبت عليه يومئذ المضرحية [٣]» [٤].

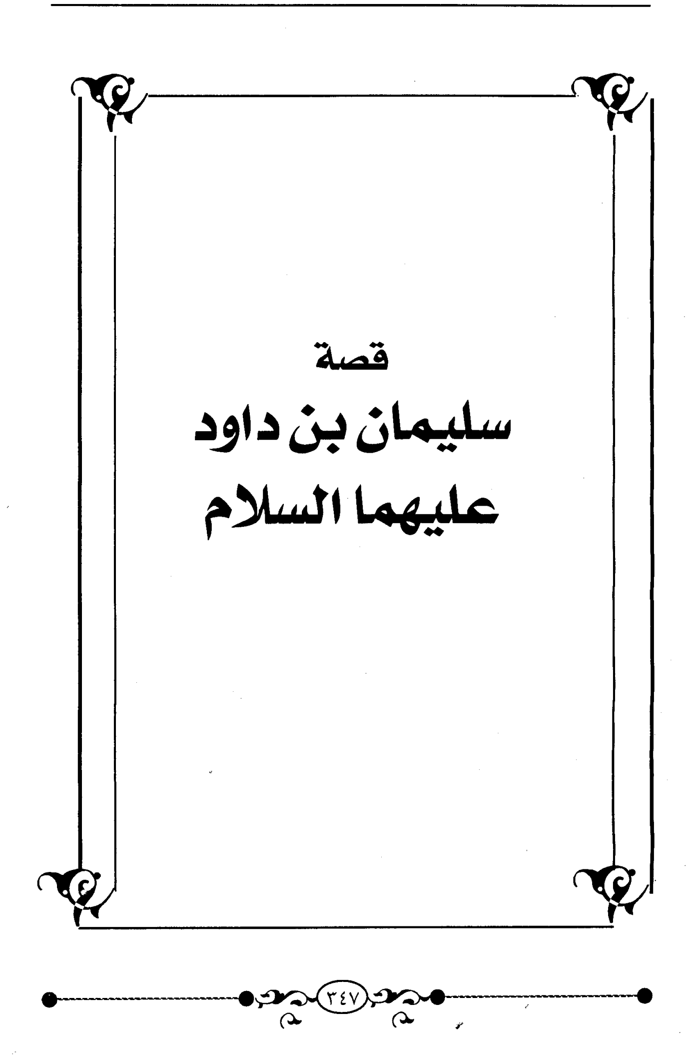
---

(١) الوبيص: البريق

(٢) صحيح. رواه الترمذى(٣٠٧٦) والحاكم(٢/ ٣٢٥) وقال الترمذى: حسن صحيح. وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم.

(٣) قال ابن كثير: أى وغلبت على التظليل عليه المضرحية وهى الصقور الطوال الأجنحة واحدها مضرحىٌّ، قال الجوهرى: هو الصقر الطويل الجناح «البداية والنهاية» (٢/ ٢١).

(٤) حسن. رواه أحمد وقال ابن كثير: إسناده جيد قوى ورجاله ثقات.



قصة
سليمان بن داود
عليهما السلام

قصة سليمان بن داود عليهما السلام

قال الله تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ [النمل:١٦]، أى ورثه فى النبـوة والملك، وليس المراد ورثه فى المال وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يعنى أنه عليه السـلام كان يعـرف ما يتخـاطب به الطيور بلغـاتها ويعبـر للناس عن مقـاصدها وإرادتها.

﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾، أى من كل ما يحتاج الملك إليه من العدد والآلات والجنود والجيوش والجماعات من الجن والانس والطيور والوحوش والشياطين السارحات والعلوم والفهوم والتعبير عن ضمـائر المخلوقات من الناطقات والصامتات ثم قال: ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ أى من بارئ البريات وخالق الأرض والسموات.

سليمان عليه السلام والنملة

قال تعالى: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النمل: ١٧-١٩].

يخبر تعالى عن عـبده ونبيه وابن نبيه سليمان بن داود عليـهما الصلاة والسلام أنه ركب يومًا فى جـيشه جـميعـه من الجن والإنس والطير، فـالجن والإنس يسيرون مـعه والطير سائر معه تظله بأجنحتها من الحر وغيره وعلى كل من هذه الجيوش الثلاثة وزعة - أى نقبـاء - يردون أوله على آخره. فلا يتـقدم أحد عن موضـعه الذى يسير فـيه ولا يتأخـر عنه قال الله تـعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ فأمرت وحذرت واعتذرت عن سليمان وجنوده بعدم الشعور.

والمقصود أن سليمـان عليه السلام فهم ما خاطبت به تلك النـملة لأمتها من الرأى السديد والأمر الحمـيد وتبسم من ذلك على وجه الاستبشـار والفرح والسرور بما أطلعه



الله عليه دون غيره.

ولهذا قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾، أى ألهمنى وأرشدنى ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ فطلب من الله أن يقبضه للشكر على ما أنعم به عليه وعلى ما خصه به من المزية على غيره وأن ييسر عليه العمل الصالح وأن يحشره إذا توفاه مع عباده الصالحين وقد استجاب الله تعالى له.

والمراد بوالديه داود عليه السلام وأمه، وكانت من العابدات الصالحات.

قصة سليمان عليه السلام مع الهدهد وعرش بلقيس

قال الله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ . لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ . فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ. إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ . وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ . أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ . اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ . قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ . اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ . قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ . إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ . قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ . قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ . قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ . وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [النمل: ٢٠ ـ ٣٧].

يذكر تعالى ما كان من أمر سليمان والهدهد؛ وذلك أن الطيور كان على كل صنف منها مقدمون يقدمون بما طلب منهم ويحضرون عنده بالنوبة كما هى عادة الجنود مع الملوك، وكانت وظيفة الهدهد على ما ذكره ابن عباس وغيره أنهم كانوا إذا أعوزوا الماء فى القفار فى حال الأسفار يجيء فينظر لهم هل بهذه البقاع من ماء ،وفيه من القوة



التى أودعها الله تعالى فيه أن ينظر إلى الماء تحت تخوم الأرض، فإذا دلهم، عليه حفروا عنه واستنبطوه وأخرجوه واستعلموه لحاجتهم. فلما تطلبه سليمان عليه السلام ذات يوم فقـده ولم يجده فى موضـعه من محل خدمـته ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾، أى ماله مفقود من ها هنا أو قد غاب عن بصرى فلا أراه يحضرنى ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ توعده بنوع من العذاب اختلف المفسرون فيه.

والمقصود حاصل على تقدير﴿ أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾، أى بحجة تنجيه من هذا الورطة.

قال الله تعالى: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾، أى فغاب الهدهد غيبة ليست بطويلة ثم قدم منها فـقال لسليـمان: ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾، أى اطلعت على ما لـم تطلع عليه ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾، أى بخبر صادق ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ يذكر ما كان عليه ملوك سـبأ فى بلاد اليمن من المملكة العظيمة والتبـابعة المتوجين، وكـان الملك قد آل فى ذلك الزمان إلى امـرأة منهم ابنة ملكهم لم يخلف غيرها فـملكوها عليهم.، وقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾، أى مما من شأنه أن تؤتاه الملوك﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ يعنى سرير مملكتها كـان مزخرفاً بأنواع الجواهر واللآلئ والذهب والحلى الباهر.

ثم ذكركـفرهم بالله وعبـادتهم الشمس من دون الله وإضلال الشـيطان لهم وصده إياهم عن عـبادة الله تـعالى وحـده لا شـريك له، الذى يخرج الخـبء فى السمـوات والأرض ويعلم مـا يخفون ومـا يعلنون، أى يعلم السـرائر والظواهر من المحسـوسات والمعنويات: ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ أى له العرش العظيم الذى لا أعظم منه فى المخلوقات.

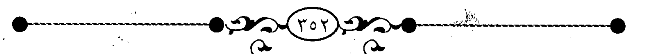
فعند ذلك بعث سليمان عليه السلام كتابه يتضمن دعوته لهم إلى طاعة الله وطاعة رسوله والإنابة والإذعـان إلى الدخول فى الخضوع لملكه وسلطانه ولهـذا قال لهم: ﴿أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ﴾، أى لا تستكبروا عن طاعتى وامتثال أوامرى﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾، أى وأقدموا على سامـعين مطيعين بلا مـعاودة ولا مراودة فلمـا جاءها الكتاب مـع الطير، ومن ثم اتخذ الناس البطـائق، ولكن أين الثريا من الثرى، تلك الـبطاقة كانت مع سـائر سامع مطيع فاهم عالم بما يقول ويقـال له، فذكر غير واحد من المفسـرين وغيرهم أن الهدهد

حمل الكتاب وجاء إلى قصرها فألقاه إليها وهى فى خلوة لها ثم وقف ناحية ينتظر ما يكون من جوابها عن كتابها، فجمعت أمراءها ووزراءها وأكابر دولتها إلى مشورتها ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ ثم قرأت عليهم عنوانه أولا ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ﴾ ثم قرأته ﴿ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ثم شاورتهم فى أمرها وما قد حلّ بها وتأدبت معهم وخاطبتهم وهم يسمعون﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ تعنى ما كنت لأبت أمرا إلا وأنتم حاضرون: ﴿ قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ يعنون لنا قوة وقدرة على الجلاد والقتال ومقاومة الأبطال، فإن أردت منا ذلك فإنا عليه من القادرين ﴿ و ﴾ مع هذا ﴿الأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ فبذلوا لها السمع والطاعة وأخبروها بما عندهم من الاستطاعة، وفوضوا إليها فى ذلك الأمر لترى فيه ما هو الأرشد لها ولهم.

فكان رأيها أتم وأسد من رأيهم، وعلمت أن صاحب هذا الكتاب لا يغالب ولا يمانع ولا يخالف ولا يخادع ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ تقول برأيها السديد: إن هذا الملك لو قد غلب على هذه المملكة لم يخلص الأمر من بينكم إلا إلىّ ولم تكن الحدة والشدة والسطو البليغة إلا علىّ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ أرادت أن تمنع عن نفسها وأهل مملكتها بهدية ترسلها وتحف تبعثها ولم تعلم أن سليمان عليه السلام لا يقبل منهم والحالة هذه صرفاً ولا عدلاً؛ لأنهم كافرون، وهو وجنوده عليهم قادرون.

ولهذا ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: ٣٦].

ثم قال لرُسولها إليه وواقدها الذى قدم عليه والناس حاضرون يسمعون:﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ يقول ارجع بهديتك التى قدمت بها إلى من قد منّ بها فإن عندى مما قد أنعم الله على وأسداه إلى من الأموال والتحف والرجال ما هو أضعاف هذا وخير من هذا الذى أنتم تفرحون به وتفخرون على أبناء جنسكم بسببه ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم ﴾، أى فلأبعثن إليهم بجنود لا يستطيعون دفاعهم ولا نزالهم ولا ممانعتهم ولا قتالهم ولأخرجنهم من بلدهم وحوزتهم ومعاملتهم ودولتهم أذلة ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ عليهم الصغار والعار والدمار.



فلما بلغهم ذلك عن نبى الله لم يكن لهم بُدٌّ من السمع والطاعة، فبادروا إلى إجابته فى تلك الساعة وأقبلوا صحبة الملكة أجمعين سامعين مطيعين خاضعين. فلما سمع بقدومهم عليه ووفودهم إليه قال لمن بين يديه ممن هو مسخر له من الجان ما قصه الله عنه فى القرآن: ﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٣٨ ـ ٤٤].

لما طلب سليمان من الجان أن يحضروا له عرش بلقيس، وهو سرير مملكتها التى تجلس عليه وقت حكمها، قبل قدومها عليه: ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾، يعنى قبل أن ينقضى مجلس حكمك وكان فيما يقال من أول النهار إلى قريب الزوال يتصدى لمهمات بنى إسرائيل وما لهم من الأشغال: ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ أى وإنى لذو قدرة على إحضاره إليك وأمانة على ما فيه من الجواهر النفسية لديك﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ المشهور إنه أصف بن برخيا وهو ابن خالة سليمان. وقيل هو رجلٌ من مؤمنى الجان، كان فيما يقال يحفظ الاسم الأعظم. وقيل رجل من بنى إسرائيل من علمائهم ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ قبل أن يرجع إليك طرفك إذا نظرت به إلى أبعد غاية منك ثم أغمضته.

﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ﴾، أى فلما رأى عرش بلقيس مستقراً عنده فى هذه المدة القريبة من بلاد اليمن إلى بيت المقدس فى طرفة عين ﴿ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾، أى هذا من فضل الله على وفضله على عبيده ليختبرهم على الشكر أو خلافه ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾، أى إنما يعود نفع ذلك عليه﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾، أى غنى عن شكر الشاكرين ولا يتضرر بكفر الكافرين.



ثم أمر سليمـان عليه السلام أن يغيـر حلى هذا العرش ويُنَكِّر لها ليختـبر فهـمها وعقلها ولهذا قال: ﴿ نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ وهذا من فطنتها وغزارة فهمها؛ لأنها استبعدت أن يكون عرشها لأنهـا خلفـته وراءهـا بأرض اليمـن، ولم تكن تعلم أن أحـداً يقـدر على هذا الصنع العجيب الغـريب، قال الله تعالى: إخباراً عن سليمـان وقومه: ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾، أى ومنعها عـبادة الشـمس التى كانت تسـجد لهـا هى وقـومهـا من دون الله اتباعـاً لدين آبائهم وأسلافهم لا لدليل قادهم إلى ذلك ولا حداهم على ذلك.

وكان سليمان قـد أمر ببناء صرح [1]من زجاج وعمل فى ممره مـاء، وجعل عليه سقفاً من زجاج، وجعل فيه من السمك وغيرها من دواب الماء، وأمرت بدخول الصرح وسليمان جالس عـلى سريره فيه[2] وكان « سليمان عليـه الصلاة والسلام . أراد ببنائه الصرح أن يريها عظمة ملكه وسلطانه، وأن الله سبحانه وتعالى ـ أعطاه من الملك، ومن أسباب العـمران والحَضارة مـا لم يعطها، فضلاً عـن البنوة التى هى فوق الملك، والتى دونها أى نعمة »[3].

﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾، أى فلما رأت الصـرح بين يديها حسبت أنه لجة، واللجـة: معظم الماء، فلذلك كشفت عن ساقيهـا لتخوض الماء، فلما فعلت ذلك ﴿ قَالَ﴾ سليمان: ﴿ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ الممّرد: المحكول الأملس، فلما سمعت بلقـيس ذلك أذعنت واستسلمت ، قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ أى بما كنت عليه من عبادة غيرك. ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ﴾ متابعة له داخلة فى دينه﴿ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ التفـت من الخطاب إلى الغيبـة، قيل: لإظهار مـعرفتهـا بالله، والأولى أنها التـفتت لما فى هـذا الاسم الشريف من الدلالة عـلى جمـيع الأسمـاء، ولكونه علمـاً للذات[4].

•••••

---

(١) الصرح: القصر   (٢) « البداية والنهاية» (٢/ ٢٢ ـ ٢٩) باختصار

(٣) « الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير» الدكتور الشيخ محمد أبو شهبة. ص ٢٥٠.

(٤) « فتح القدير» للشوكانى (٤/ ١٣٧) باختصار يسير.

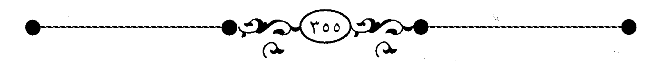


فتنة سليمان عليه السلام وقصته مع الخيل

قال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [سورة ص: ٣ ـ ٤].

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ﴾، أى أنعمنا على داود بسليمان عليهما السلام ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ سليمان لصلاحية استعداده لمقام النبوة والخلافة ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ رجّاع إلى الله بإخلاص العبودية، أو رجّاع إلى الله فى جميع الأحوال فى النعمة بالشكر، وفى المحنة بالصبر ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾ أى اذكر ما صدر عنه إذا عُرض عليه ﴿ بِالْعَشِيِّ﴾ هو من الظهر إلى اخر النهار ﴿الصَّافِنَاتُ﴾ الخيل الواقفة على ثلاث رافعة الرابعة ﴿ الْجِيَادُ﴾ السريعة فى جريها، روى أن سليمان قعد يوماً بعد أن صلى الظهر على كرسيه، وكان يريد جهاداً، فاستعرض تلك الأفراس فلم تزل تعرض عليه، وهو ينظر إليها، ويتعجب من حسنها حتى غربت الشمس، وغفل عن ورد كان له من الذكر وقتئذ، وتهيبه قومه فلم يعلموه، فاغتمّ لما فاته بسبب السهو والنسيان فاستردها فعقرها تقرباً إلى الله وطلباً لمرضاته، أراد بذلك الاستهانة بمال الدنيا لمكان فريضة الله، ﴿ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾[1] قال: جعلتُ حب الخيل نائباً عن ذكر ربى، ووضعته موضعه، وكان يجب لمثلى أن يشتغل بذكر ربه وطاعته، قاله عليه السلام عند غروب الشمس، اعترافاً بما صدر عنه من الاشتغال بها منه وندماً عليه وتمهيداً لما يعقبه من الأمر بردها وعقرها ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ أى حتى غربت الشمس ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ﴾ ،أى اعيدوا تلك الخيل على ﴿مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ فردوها عليه فأخذ يقطع

(١) قال الزجاج: الخير هنا: الخيل. وقال الفراء: الخير والخيل فى كلام العرب واحد. وقال النحاس: وفى الحديث« الخيل معقود فى نواصيها الخير» (متفق عليه) فكأنها سميت خيراً لهذا، وقيل: إنها سميت خيراً لما فيها من المنافع.



أعناقها ويعرقب أرجلها، ليوزعها على الفقراء والمساكين ، كفارة لما حدث منه[1].

[فتنة سليمان عليه السلام]

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ ، أى ولقد ابتلينا سليمان واختبرناه ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ وذلك حين قال عليه السلام يوماً« لأطوفن الليل على سبعين امرأة ـ أى أجامعهن ـ أو مائة تأتى كل واحدة بفارس يجاهد فى سبيل الله، ولم يقل: إن شاء الله، فطاف عليهن تلك الليلة، فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق ولد ـ فألقته القابلة على كرسيه وهو الجسد المذكور ـ قال نبينا عليه السلام: « لو قال إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرساناً أجمعون»[2]. لم يقل سليمان إن شاء الله وأنه نسى أن يقولها لينفذ مراد الله، فمعنى ابتلائه قوله لأطوفهن إلخ وتركه الاستثناء، ومعنى القاء الجسد على كرسيه القاء الشق المذكور عليه، ومعنى انابته رجوعه إلى الله تعالى عن زلته. وهو تركه الاستثناء فى مثل ذلك الأمر الخطير [3].

(تنبيه) **قال الشنقيطى** ـ بعد أن ذكر حديث سليمان عليه السلام: لأطوفن الليلة» ـ اعلم أن هذا الحديث الصحيح بيّن معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ....﴾ الآية، وأن فتنة سليمان كانت بسبب تركه قول: « إن شاء الله» وأنه لم يلد من تلك النساء إلا واحدة نصف إنسان، وأن ذلك الجسد الذى هو نصف إنسان هو الذى ألقى على كرسيه بعد موته فى قوله تعالى﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ...﴾ الآية، فما يذكره المفسرون فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ....﴾ الآية من قصة الشيطان الذى أخذ الخاتم وجلس على كرسى سليمان وطرد سليمان عن ملكه حتى وجد الخاتم فى بطن السمكة التى أعطاها له من كان يعمل عنده بأجر مطروداً عن

---

(١) وردت رواية عن ابن عباس : أن سليمان عليه السلام لما أمر برد الخيل جعل يمسح أعرافها وعراقيبها حباً لها. وهذا القول اختاره ابن جرير، قال: لأنه لم يكن ليعذب حيواناً بالعرقبة ويهلك مالاً من ماله بلا سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ولا ذنب لها. قال ابن كثير: وهذا الذى قال فيه نظر لأنه قد يكون هذا سائغاً فى ملتهم وقد ذهب بعض علمائنا إلى: أنه إذا خاف المسلمون أن يظفر الكفار على شئ من الحيوانات من أغنام ونحوها جاز ذبحها وإهلاكها لئلا يتقووا بها. وعليه حمل صنيع جعفر بن أبى طالب يوم عقر فرسه بمؤتة. « البداية والنهاية » (٢/ ٣٠).

(٢) رواه البخارى (٣٤٢٤) كتاب احاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿ووهبنا لداود سليمان﴾. ومسلم (٤٢١٠) كتاب الإيمان والنذور، باب الاستثناء فى اليمين وغيرها.

(٣) « تنوير الأذهان من تفسير روح البيان» للبروسرى (٣/ ٣٦٦ ـ ٣٦٧) باختصار يسير.

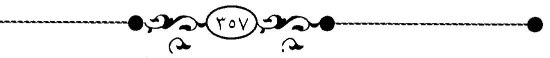
ملكه، إلى آخر القصة، لا يخفى أنه باطـل لا أصل له، وأنه لا يليق بمقام النبوة، فهو من الإسرائيليات التى لا يخفى أنها باطـلة. والظاهر فى معنى الآية هو ما ذكرنا، وقد دلت السنة الصـحيـحة عليـه فى الجمـلة، واختـاره بعض المحقـقين. والعلم عند الله تعالى(١).

وقال أبو حيان الأندلسى: نقل المفسرون فـى هذه الفتنة وإلقاء الجسد أقوالاً يجب براءة الأنبياء منها وهى مما لا يحل نقلها. وإما هى من أوضاع اليهود والزنادقة ولم يبين الله الفتنة ما هى؟ ولا الجسد الذى ألقاه على كرسـيى سليمان، وأقرب ما قيل فيه: إن المراد بالفتنة كونه لم يستثن فى الحديث الذى قال « لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كل واحدة تأتـى بفارس يجاهـد فى سبيل الله» ولم يـقل إن شاء الله. . .» فالمراد بـقوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ هو هذا. والجسد الملقى: هو المولود شق رجل(٢).

وقال الشـيخ محمد أبو شـهبة: بعد أن ذكر بطلان قصـة الشيطان والخاتم من عدة أوجه ـ الصحيح المتعين فى تفسير الفتنة هو: ما جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: « قال سليمان بن داود: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة. . .» فهذا هو المتعين فى تفسيـر الآية، وخير ما يفسر به كـلام الله هو ما صح عن رسول الله ، وقد بينت بعض الروايات أن الترك كان نسياناً(٣).

●●●●●

(١) « أضواء البيان» (٣/ ٢٥٤) ط دار الفكر، لبنان.
(٢) « تفسير البحر المحيط» (٧/ ٣٨١) ط دار الكتب العلمية. لبنان.
(٣) « الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير» للشيخ أبى شهبة ص ٢٧٥.



تسخير الجن والريح لسليمان عليه السلام

سخّر الله لسليمان عليه السلام الجن والريح وجعلهما يأتمران بأمره متى شاء وكيف شاء و﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾ [المائدة: ٥٤].

قال تعالى ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً ﴾ [الأنبياء: ٨١] ،وأى وسخرنا لسليمان الريح عاصفة ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (٨١) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ [الأنبياء ٨١ ـ ٨٢].

وقال فـي سورة ص: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ [سورة ص: ٣٦ ـ ٤٠].

لما ترك الخيل ابتـغاء وجه الله عوضـه الله عنها الريح التى هى أسرع سـيراً وأقوى وأعظم ولا كلفة عليـه لها ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ ،أى حيث أراد من أى البلاد، كان له بساط مركب من أخشاب بحـيث أنه يسع جميع ما يحتاج إليه من الدور المبنية والقصور والخيام والأمتعـة والخيول والجمال والأثقال والرجال من الإنس والجان، غير ذلك من الحيوانات والطيور فإذا أراد سفراً أو مستنزهاً أو قتال ملك أو أعداء من أى بلاد الله شاء، فـإذا حمل هذه الأمـور المذكورة على البـساط أمـر الريح فدخلت تحـته فرفعتـه فإذا استقل بين السماء والأرض أمر الرخاء فـسارت به فإن أراد أسرع من ذلك أمر العاصفة فـحملته أسرع ما يكون فوضعتـه فى أي مكان شاء. بحيث أنه كان يرتحل فى أول النهار من بيت المقدس فتغدو به الريح فتضعه بإصطخر مسيرة شهر فيقيم هناك إلى آخر النهار. ثم يروح من آخره فترده إلى بيت المقدس.

كما قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٢ ـ ١٣].

القطر: هو النحاس. قال قتادة: وكانت باليمن أتبعها الله له.

وقوله : ﴿ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾، أى وسخر الله له من الجن عمالاً يعملون له ما يشاء لا يفترون ولا يخرجون

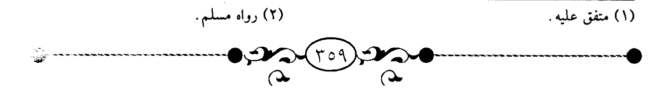
عن طاعته ومن خرج منهم عن الأمر عذبه ونكَّلَ به ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ﴾ وهى الأماكن الحسنة وصدور المجالس ﴿وتماثيل﴾ وهى الصور فى الجدران، وكان هذا سائغاً فى شريعتهم وملتهم ﴿جفان كالجواب﴾، قال ابن عباس: الجفنة كالجوبة من الأرض، عنه كالحياض.

وأما القدور الراسيات فقال عكرمة: أثافيها منها، يعنى أنهن ثوابت لا يزلن عن أماكنهن، وهكذا قال مجاهد وغير واحد.

ولما كان هذا بصدد إطعام الطعام والإحسان إلى الخلق من إنسان وحيوان قال تعالى: ﴿اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور﴾ .

وقال تعالى: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ﴾ [سورة ص: ٣٧ ـ ٣٨]. يعنى أن منهم قد سخره فى البناء، ومنهم من يأمره بالغوص فى الماء لاستخراج ما هنالك من الجواهر واللآلئ وغير ذلك مما لا يوجد إلا هنالك. وقوله: ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ﴾، أى قد عصوا فقيدوا مقرنين اثنين اثنين فى الأصفاد وهى القيود، وهذا كله من جملة ما هيأه الله وسخر له من أشياء التى هى من تمام الملك الذى لا ينبغى لأحد من بعده ولم يكن أيضاً لمن كان قبله.

عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «**إن عفريتاً من الجن تفلت على البارحة ليقطع على صلاتى فأمكننى الله منه فأخذته فأردت أن أربطه إلى سارية من سوارى المسجد حتى تنظروا إليه كلكم فذكرت دعوة أخى سليمان: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾** [سورة ص: ٣٥] . **فرددته خاسئاً**»[1] .



وعن أبى الدرداء قال: قام رسول الله ﷺ يصلى فسمعناه يقول: «**أعوذ بالله منك.. ألعنك بلعنة الله ثلاثاً، وبسط يده كأنه يتناول شيئاً، فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا رسول الله.. قد سمعناك تقول فى الصلاة شيئا لم نسمعك تقوله قبل ذلك. ورأيناك بسطت يدك قال: « إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله فى وجهى فقلت: أعوذ بالله منك ثلاث مرات، ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة. فلم يستأخر ثلاث مرات. ثم أردت أخذه، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً يلعب به ولدان أهل المدينة**»[2] .

وقد كان له عليه السلام من أمور الملك واتساع الدولة وكثرة الجنود وتنوعها ما لم

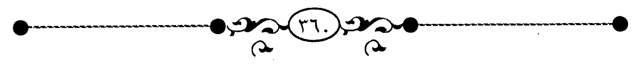
(١) متفق عليه.
(٢) رواه مسلم.

يكن لأحد قبله ولا يعطيه الله أحداً كما قال: ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ١٦] و﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [سورة ص: ٣٥]، وقد أعطاه الله ذلك بنص الصادق المصدوق.

ولما ذكر تعالى ما أنعم به عليه وأسداه من النعم الكاملة العظيمة إليه قال: ﴿**هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب**﴾، أى أعط من شئت وأحرم من شئت، فلا حساب عليك، أى تصرف فى المال كيف شئت فإن الله قد سوغ لك ما تفعله من ذلك ولا يحاسبك على ذلك، وهذا شأن النبى الملك بخلاف العبد الرسول، فإن من شأنه أن لا يعطى أحداً إلا بإذن الله له فى ذلك.

وقد خير نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه بين هذين المقامين فاختار أن يكون عبداً رسولاً، وفى بعض الروايات إنه استشار جبريل فى ذلك فأشار إليه أن تواضع، فاختار أن يكون عبداً رسولاً صلوات الله وسلامه عليه وقد جعل الله الخلافة والملك من بعده فى أمته إلى يوم القيامة فلا تزال طائفة من أمته ظاهرين حتى تقوم الساعة.. فلله الحمد والمنة.

ولما ذكر تعالى ما وهبه لنبيه سليمان عليه السلام من خير الدنيا نبّه على ما أعده له فى الآخرة من الثواب الجزيل والأجر الجميل والقربة التى تغريه إليه والفوز العظيم والإكرام بين يديه، وذلك يوم المعاد والحساب حيث يقول تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [سورة ص: ٢٥].



(١) «البداية والنهاية» (٢/ ٣٢ - ٣٧) باختصار.

سليمان عليه السلام والسحر

قال تعالى: ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

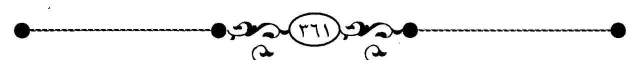
ذكر المفسـرون فى سبب نزول هذه الآية نصوصًا كثيـرة، وحاصل هذه النصوص: أن الشياطين فى عهد ملك سليمان عليه السلام قد كتبوا أصنافـاً من السحر ووضعوها تحت الكرسى الذى كان يـجلس عليه النبى سليمـان عليه السـلام، فلما مات سليـمان أخرج الشياطين هذه الكتب التى دونوا فيها السحر وأظهروها للناس وزعموا أن سليمان كان يحكم الناس بهذا السـحر، فرماه اليهـود بالكفر وسبوه، لزعمـهم أنه كان يعمل بالسحر، فأنزل الله تعـالى هذه الآية يبرأ فيها سليمان عليه السـلام من السحر والكفر، وبين تعالى أن هذا السـحر إنما هو من عمل الشـياطين وأن الشيـاطين قد كفـروا بسبب تعليمهم السحر للناس.

من هما هاروت وماروت؟

هاروت وماروت هـما ملكان أنزلهـما الله من السـماء إلى الأرض وأذن لهـما فى تعليم السحر اختباراً لعباده وامـتحاناً بعد أن يبينا لعباده أن ذلك مما يُنهى عنه على ألسنة الرسل وقد امـتثل هاروت وماروت لأمـر الله لهما فكان الرجل إذا أتى إليـهما ليـتعلم منهما السحر نهـياه أشد النهى وقالا له: ﴿**إنما نحن فتنة فلا تكفر**﴾، وأقاما عليه الحجة بذلك، حتى إذا أصرَّ على تعلم السحر منهما علماه فيكون قد هلك عن بينة.

وهذا الذى ذكرته هو ما ذهب إليه الإمام الطبرى فى تفسيره.

وقد استغرب الحـافظ ابن كثير ما ذهب إليه الطبرى وقـال: ذهب كثير من السلف إلى أنهما كانا ملكين من السماء وأنهما أنزلا إلى الأرض فكان من أمرهما ما كان، وقد ورد فى ذلك حديث رواه الإمام أحمد فى مسنده رحمه الله.. وعلى هذا فيكون الجمع بين هذا وبين ما ورد من الدلائل على عصمة الملائكة، أن هذين سبق فى علم الله لهما هذا فيكون تخصـيصاً لهما فلا تعـارض حينئذ، كما سبق فى علمـه من أمر إبليس ما



سبق، وفى قول إنه كان من الملائكة[1].

ولنا على كلام الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ ملاحظتان.

الأولى: أن القول بأن إبليس كان من الملائكة قول ضعيف لا يصح لقول الله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ** ﴾ [الكهف: ٥٠] ولما ورته عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ أنه قال: «**خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من نار وخلق آدم مما وصف لكم**» [2].

وقال الحسن البصرى: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط وإنه لأصل الجن كما أن آدم عليه السلام أصل البشر.

الثانية: أن الحديث الذى أشار إليه الحافظ ابن كثير هو ما رواه الإمام أحمد فى مسنده [3] عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه سمع نبى الله ﷺ يقول: « إن آدم عليه السلام لما أهبطه الله إلى الأرض قالت الملائكة أى رب﴿ **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ قالوا: ربنا نحن أطوع لك من بنى آدم، قال الله تعالى للملائكة: هلموا ملكين من الملائكة حتى نهبطهما إلى الأرض فننظر كيف يعملان قالوا: ربنا هاروت وماروت فأهبطا إلى الأرض ومثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر فجاءتهما فسألاها نفسها فقالت! لا والله حتى تتكلما بهذه الكلمة من الإشراك فقالا: لا والله لا نشرك بالله شيئا أبداً، فذهبت عنهما ثم رجعت بصبى تحمله فسألاها نفسها فقالت: لا والله حتى تقتلا هذا الصبى فقالا: لا والله لا تقتله أبداً، فذهبت ثم رجعت بقدح خمر تحمله فسألاها نفسها فقالت: لا والله حتى تشربا هذا الخمر فشربا فسكرا فوقعا عليها وقتلا الصبى فلما أفاقا قالت المرأة. والله ما تركتما شيئا أبيتماه علىّ إلا قد فعلتماه حين سكرتما، فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا».

وهذا الحديث ضعيف لا يصح وقد بين ذلك الشيخ الألبانى حفظه الله فى «السلسلة الضعيفة» (١٧٠).

وأشار الحافظ ابن كثير نفسه إلى ضعفه بقوله: هذا حديث غريب من هذا الوجه[4].

---

(١) « تفسير ابن كثير» (١/١٣٧).
(٢) رواه مسلم (٧٣٥١) كتاب: الزهد والرقائق.
(٣) (٢/١٣٤).
(٤) تفسير ابن كثير (١/١٣٨).

وقال أبو حيان الأندلسي ـ بعد إيراده لهذا الحديث وغيره مما في معناه ـ : وهذا كله لا يصح منه شئ والملائكة معصومون ﴿ **لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ [التحريم:٦] ﴿**لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ ⑲ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ**﴾ [الأنبياء: ١٩: ٢٠][١].

وقد روى عن ابن عمر أنه كان إذا رأى الزهرة سبها، وقال: كانت صاحبة هاروت وماروت[٢].

قال القرطبي: «وهذا كله ضعيف وبعيد عن ابن عمر وغيره لا يصح منه شئ فإنه قول تدفعه الأصول والملائكة الذين هم أمناء الله على وحيه وسفراؤه إلى رسله: ﴿ **لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ ﴿ **بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعلمون**﴾ ﴿ **يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ**﴾، وأما العقل فلا ينكر وقوع المعصية من الملائكة، ويوجد منهم خلاف ما كلفوه ويخلق فيهم الشهوات، إذ فى قدرة الله تعالى كل موهوم، ومن هذا خوف الأنبياء والأولياء الفضلاء العلماء، لكن وقوع هذا الجائز لا يدرك إلا بالسمع ولم يصح »[٣].

وقال الألباني: «وقد روى فى قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين كمجاهد والسدي والحسن وقتاده وأبو العالية الزهرى والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وغيرهم، وقصَّها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين وحاصلها راجع فى تفصيلها إلى أخبار بنى إسرائيل إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى، وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فيها فنحن نؤمن بما ورد فى القرآن على ما أراده الله تعالى والله أعلم بحقيقة الحال».

قلت: « وقد زعمت امرأة من أهل دومة الجندل أنها رأتهما معلقين بأرجلهما ببابل وأنها تعلمت منهما السحر وهما فى هذه الحال، فى قصة طويلة حكتها لعائشة ولكن المرأة مجهولة فلا يوثق بخبرها»[٤].

---

(١) « تفسير البحر المحيط» لأبى حيان الأندلسى (٢/٤٩٨).

(٢) وقد روى هذا المعنى « مرفوعاً عن النبى ﷺ أنه قال: « لعن الله الزهرة فإنها هى التى فتنت الملكين هاروت وماروت» وضعفه الحافظ ابن كثير وقال: منكر جداً« التفسير» (١/١٣٩).

(٣) « تفسير القرطبى» (١/٤٤٢) ط الريان.

(٤) « السلسلة الضعيفة» (٢/٣١٤ ـ ٣١٥).

وقال الألوسى ـرحمـه الله ـ :« والإقدام على تكذيب مـثل هذه المرأة الدوجندية أولى من اتهـام العقل فى قبـول هذه الحكاية التى لم يصح فـيهـا شئ عن رسول رب البرية ﷺ»[1].

الحكمة من إنزال الله لهاروت وماروت

قال الطبـرى ـ رحمه لله :« فإن التبس على ذى غباء مـا قلنا، فقال: وكيف يجوز لملائكة الله أن تعلم الناس التفريق بين المرء وزوجه؟

أم كيف يجوز أن يضاف إلى الله تبـارك وتعالى إنزال ذلك على الملائكة؟ قيل له: إن الله جل ثناؤه عرَّف عـباده جمـيع ما أمرهم به، وجـميع ما نهـاهم عنه، ثم أمرهم ونهاهم بعد العلم منهم بما يؤمرون به وينهون عنه، ولو كان الأمر على غير ذلك لما كان للأمر والنهى معنى مفـهوم، فالسحر مما قد نهى عبـاده من بنى آدم عنه، فغير منكر أن يكون جل ثناوه علّمه الملكين الذين سماهما فى تنزيله وجـعلهما فتنة لعباده من نبى آدم كما أخبر عنهما ؛لأنهما يقولان لمن يتعلم ذلك منهما: ﴿**إنما نحن فتنة فلا تكفر**﴾ ليختبر بهمـا عباده الذين نهاهـم عن التفريق بين المرء وزوجه وعـن السحر، فيـمحص المؤمن بتركـه التعلم منهمـا، ويخزى الكافر بتـعلمه السحـر والكفر منهـما ويكون الملكان فى تعليمهما من علما ذلك لله مطيـعين، إذ كانا عن إذن الله لهما بتعليم ذلك من علماه، وقد عـبد من دون الله جمـاعة من أولياء الله، فلم يكن ذلك لـهم ضائراً؛ إذ لم يكن ذلك بأمرهم إياهم به، بل عبد بعضهم والمعـبود عنه ناه، فكذلك الملكان غير ضائرهما سحْر من سَحَـرَ ممن تعلم ذلك منهما بعد نهيـهما إياه عنه وعظتهما له بـقولهما: ﴿**إنما نحن فتنة فلا تكفر**﴾، إذ كانا قد أديا ما أمر به بقيلهما ذلك»[2].

وقال الرازى: السبب فى إنزالهما (أى هاروت وماروت) وجوه.

أحدها: أن السحرة كثرت فى ذلك الزمان واستنبطت أبواباً غريبة من السحر وكانوا يدّعـون النبوة ويتـحدون الناس بهـا، فبـعث الله تعالى هذين الملكين لأجل أن يُعلـما الناس، أبواب السحر حتى يتمكنوا من معـارضة أولئك الذين كانوا يدعون النبوة كذباً، ولاشك أن هذا من أحسن الأغراض ، والمقاصد.

وثانيهما: أن العلم بكون المعجزة مخالفة للسحر متوقف على العلم بماهية المعجزة

(١) « تفسير روح المعانى» للألوسى (١/ ٣٤٣).
(٢) « تفسير الطبرى» (١/ ٤٥٥).

وماهية السحر والنـاس كانوا جاهلين بماهية السحر فلا جَرَمَ هذا تعـذرت عليهم معرفة حقيقة المعجزة فبعث الله هذين الملكين لتعريف ماهية السحر لأجل هذا الغرض»[1].

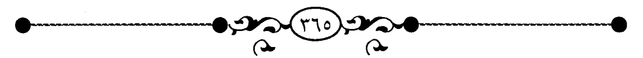
قلت: وأما بابل المذكورة فـي الآية فهى بابل العراق، وهذا ما رجـحه الحافظ ابن كثير فى تفسيره، واستـدل على ذلك بما رواه أبو داود أن عليا مر ببابل وهو يسير فجاءه المؤذن يؤذنه بصلاة العصر، فلما برز منها أمـر المؤذن فأقام الصلاة، فلما فرغ قال: «إن حبيبى ﷺ نهانى أن أصلى فى المقبرة ونهانى أن أصـلى بأرض بابل فإنها ملعونة». قال ابن كثـير: «وهذا الحديث حسن عند الإمـام أبى داود لأنه رواه وسكت عليه ففـيه من الفقه كراهية الصلاة بأرض بابل كما تكره بديار، ثمود الذين نهى رسول الله ﷺ عن الدخول إلى منازلهم إلا أن يكونوا باكين»[2].

●●●●●

---

(١) «التفسـير الكبير» لفخر الدين الرازى (٢/ ٣٠٠) ط دار الغـد - وانظر «تفسير البحر المحـيط» لأبى حيان (٤٩٨/١)

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ١٤٣).



السحر حقيقة لا خرافة

ذهب جمهور أهل العلم إلى: أن السحر له حقيقة لقول الله تعالى: ﴿**واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان . . .**﴾ الآية .

قال ابن قدامة المقدسى فى تعريف السحر: « وهو عُقَدٌ ورقى وكلام يتكلم به أو يكتبه، أو يعمل شيئاً يؤثر فى بدن المسحور أو قلبه أو عقله من غير مباشرة له، وله حقيقة فمنه ما يقتل وما يمرض أو ما يأخذ الرجل عن امرأته فيمنعه وطأها، ومنه ما يفرق بين المرأ وزوجه وما يبغِّض أحدهما إلى الآخر أو يحبب بين اثنين وهذا قول الشافعى، وذهب بعض أصحابه إلى أنه لا حقيقة له وإنما هو تخييل لأن الله تعالى قال: ﴿ **يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى**﴾ وقال أصحاب أبى حنيفة: إن كان شيئاً يصل إلى بدن المسحور كدخان ونحوه جاز أن يحصل منه ذلك فأما أن يحصل المرض والموت من غير أن يصل إلى بدنه شيء فلا يجوز ذلك لأنه لو جاز لبطلت معجزات الأنبياء عليهم السلام لأن ذلك يخرق العادات، فإذا جاز من غير الأنبياء بطلت معجزاتهم وأدلتهم .

ولنا قول الله تعالى: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ① مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ② وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ**﴾ يعنى السواحر اللاتى يعقدن فى سحرهن وينفثن عليه، ولولا أن السحر له حقيقة لما أمر الله تعالى بالاستعاذة منه، وقال الله تعالى: ﴿**يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت** ﴾ إلى قوله: ﴿**فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه**﴾ وروت عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ سحر حتى أنه ليخيل إليه أنه يفعل الشئ وما يفعله، وأنه قال لها ذات يوم: « أشعرت أن الله أفتانى فيما استفتيته؟ **إنه أتانى ملكان فجلس أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلى فقال: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب قال: من طبه؟ قال لبيد بن الأعصم فى مشط ومشاطة فى جف طلعة ذكر فى بئر ذى أروان**»، ذكره البخارى وغيره: « جف الطلعة: وعائها، والمشاطة: الشعر الذى يخرج من اسفل الرأس أو غيره إذا مشُط فقد أثبت لهم سحراً».

وقد اشتهر بين الناس وجود عقد الرجل عن امرأته حين يتزوجها فلا يقدر على إيتانها، وحل عقده فيقدر عليها بعد عجزه عنها حتى صار متوتراً لا يمكن جحده.



وروى من أخبار السحرة: مالا يكاد يمكن التواطؤ على الكذب فيه، وأما إبطال المعجزات فلا يلزم من هذا؛ لأنه لا يبلغ ما يأتى به الأنبياء عليهم السلام وليس يلزم أن ينتهى إلى أن تسعى الحبال»[(١)].

وقال القرطبى: «ذهب أهل السنة إلى أن السحر ثابت وله حقيقة وذهب عامة المعتزلة وأبو إسحاق الاستراباذى من أصحاب الشافعى إلى أن السحر لا حقيقة له، وإنما هو تمويه وتخيل وإيهام لكون الشئ على ما هو به، وأنه ضرب من الخفة والشعوذة كما قال تعالى: ﴿ **يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى**﴾ ولم يقل تسعى على الحقيقة، ولكن قال يخيل إليه.

وقال أيضاً: ﴿**سحروا أعين الناس**﴾ وهذا لاصحة فيه؛ لأننا لا ننكر أن يكون التخييل وغيره من جملة السحر، لكن ثبت وراء ذلك أمور جوزها العقل وورد بها السمع، فمن ذلك ما جاء فى هذه الآية [(٢)] من ذكر السحر وتعليمه، ولو لم يكن له حقيقة لم يمكن تعليمه ولا أخبر تعالى أنهم يعلمونه الناس، فدل على أن له حقيقة، وقوله تعالى فى قصة سحرة فرعون: ﴿ **وجاءوا بسحر عظيم**﴾، وسورة الفلق مع اتفاق المفسرين على أن سبب نزولها ما كان من سحر لبيد بن الأعصم وهو مما أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة رضى الله عنها قالت: سحر رسول الله ﷺ يهودى من يهود بنى زريق يقال له: لبيد بن الأعصم: الحديث ـ وفيه أن النبى ﷺ قال لما حل السحر «**إن الله شفانى**». والشفاء إنما يكون برفع العلة وزوال المرض، فدل على أن له حقاً وحقيقة، فهو مقطوع به بإخبار الله تعالى ورسوله على وجوده ووقوعه؛ وعلى هذا أهلُ الحل والعقد الذين ينعقد بهم الإجماع، ولا عبرة مع اتفاقهم بحثالة المعتزلة ومخالفتهم أهل الحق وقد شاع السحر وذاع فى سابق الزمان وتكلم الناس فيه ولم يبد من الصحابة ولا من التابعين إنكار أصله، روى سفيان عن أبى الأعور عن عكرمة عن ابن عباس قال: « علم السحر فى قربه من قرى مصر يقال لها(الفرما) فمن كذب به فهو كافر مكذب لله ورسله، منكر لما علم مشاهدة وعيانا[(٣)].

وقال ابن كثير: «حكى أبو عبد الله الرازى فى تفسيره عن المعتزلة: أنهم أنكروا

---

(١) « المغنى» لابن قدامة (٨/ ١٥٠ ـ ١٥١).

(٢) يعنى آية: ﴿**واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان**﴾ إلخ الآية.

(٣) « تفسير القرطبى» (١/ ٤٣٦)ط الريان.



وجود السحر، قال: وربما كفروا من اعتقد وجوده قال: وأما أهل السنة فقد جوزا أن يقدر الساحر أن يطير فى الهواء ويقلب الإنسان حماراً والحمار إنساناً إلا أنهم قالوا: إن الله يخلق الأشياء عندما يقول الساحر تلك الرقى والكلمات المعينة، وإما أن يكون المؤثر فى ذلك هو الفلك والنجوم فلا خلافاً للفلاسفة والمنجمين والصائبة، ثم استدل على وقوع السحر وأنه بخلق الله تعالى بقوله تعالى: ﴿ **وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ ومن الأخبار بأن رسول الله ﷺ سحر وأن السحر عمل فيه[1].

وقال ابن حجر الهيتمى: « اختلف العلماء فى أن السحر له حقيقة أم لا؟ فقال بعض العلماء: إنه تخييل لا حقيقة له لقوله تعالى: ﴿ **يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى** ﴾، وقال الأكثرون وهو الأصح الذى دلت عليه السنة أن له حقيقة؛ لأن اللعين لبيد بن الأعصم اليهودى الساحر سحر رسول الله ﷺ وأمر ﷺ بإخراج سحره من بئر ذى أروان بدلالة الوحى له على ذلك فأخرج منها فكان ذا عقد فحلت عقده فكان كلما حلت منه عقدة خف عنه ﷺ إلى أن فرغت فصار ﷺ كأنما نشط من عقال وذهب ابن عمر رضى الله عنهما إلى خيبر ليخرص ثمرها فسحره اليهود فانكتفت يده فأجلاهم عمر: وجاءت امرأة إلى عائشة رضى الله عنها فقالت: يا أم المؤمنين، ما على المرأة إذا عقلت بعيرها؟ فقالت عائشة ولم تفهم مرادها: ليس عليها شئ فقالت: إنى عقلت زوجى عن النساء فقالت عائشة رضى الله عنها: أخرجوا عنى هذه الساحرة. والجواب عن الآية أنا لانمنع أن من السحر ماهو تخييل، بل منه ذلك وما له حقيقة»[2].

وقال ابن القيم ـ رحمه الله: « وقد دل قول: ﴿ **وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ** ﴾ وحديث عائشة المذكور على تأثير السحر وأن له حقيقة وقد أنكر ذلك طائفة من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم، وقالوا: إنه لا تأثير للسحر البتة لا فى مرض ولا قتل ولا حل عقد. قالوا: وإنما ذلك تخييل لأعين الناظرن لاحقيقة له سوى ذلك وهذا خلاف ما تواترت به الآثار عن الصحابة والسلف، واتفق عليه الفقهاء وأهل التفسير والحديث.. وما يعرفه عامة العقلاء.

والسحر الذى يُؤثر مرضاً وثقلاً وحلاً وعقداً وحباً وبغضاً ونزيفاً وغير ذلك من الآثار موجود تعرفه عامة الناس وكثير منهم قد علمه ذوقاً بما أصيب به منه وقوله

(١) تفسير ابن كثير (١/ ١٤٤).
(٢) الزواجر عن اقتراف الكبائر (٢/ ١٠٠).

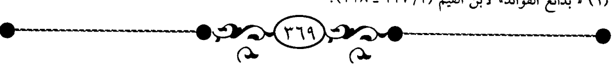


تعالى: ﴿ **وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ** ﴾ دليل على أن هذا النفث يفر بالمسحور فى حال غيبته عنه، ولو كان الضرر لا يحصل إلا بمباشرة البدن ظاهراً كما يقول هؤلاء لم يكن للنفث ولا للنفاثات شر يُستعاذ منه، وأيضاً فإذا جاز على الساحر أن يسحر جميع أعين الناظرين مع كثرتهم حتى يروا الشئ بخلاف ما هو به مع أن هذا تغيير فى إحساسهم فما الذى يحيل تأثيره من تغيير بعض أعراضهم وقواهم وطباعهم، وما الفرق بين التغيير الواقع فى الرؤية والتغيير فى صفة أخرى من صفات النفس والبدن، فإذا غير إحساسه حتى صار يرى الساكن متحركًا والمتصل منفصلاً والميت حياً فما المحيل لأن يغير صفات نفسه حتى يجعل المحبوب إليه بغيضاً والبغيض محبوباً وغير ذلك من التأثيرات وقد قال تعالى عن سحرة فرعون إنهم: ﴿ **سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم** ﴾ فبين سبحانه أن أعينهم سُحرت وذلك إما أن يكون لتغير حصل فى المرئى وهو الحبال والعصى مثل أن يكون السحرة استعانت بأرواح حركتها وهى الشياطين فظنوا أنها تحركت بأنفسها وهذا كما إذا جر من لا يراه حصيراً أو بساطاً فترى الحصير والبساط ينجر ولا ترى الجار له مع أنه هو الذى يجره فهكذا حال الحبال والعصى التبستها الشياطين فقلبتها تقلب الحية فظن الرائى أنها تقلبت بأنفسها والشياطين هم الذين يقلبونها، وإما أن يكون التغيير حدث فى الرائى حتى رأى الحبال والعصى تتحرك وهى ساكنة فى أنفسها ولا ريب أن الساحر يفعل هذا وهذا، فتارة يتصرف فى نفس الرائى وإحساسه حتى يرى الشئ بخلاف ما هو به أو تارة يتصرف فى المرئى باستعانته بالأرواح الشيطانية حتى يتصرف فيها. وأما ما يقوله المنكرون من أنهم جعلوا فى الحبال والعصى ما أوجب حركتها ومشيها مثل الزيبق وغيره حتى سعت فهذا باطل من وجوه كثيرة فإنه لو كان كذلك لم يكن هذا خيالاً بل حركة حقيقة ولم يكن ذلك سحراً لأعين الناس ولا يسمى ذلك سحراً بل صناعة من الصناعات المشتركة وقد قال تعالى: ﴿ **فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى** ﴾، ولو كانت تحركت بنوع حيلة كما يقوله المنكرون لم يكن هذا من السحر فى شئ ومثل هذا لا يخفى.

وأيضا لو كان ذلك بحيلة كما قال هؤلاء لكان طريق إبطالها إخراج ما فيها من الزيبق وبيان ذلك المحال ولم يحتج إلى إلقاء العصا لابتلاعها، وأيضا فمثل هذه الحيلة لا يُحتاج فيها إلى الاستعانة بالسحر بل يكفى فيها حذاق الصناع ولا يُحتاج فى ذلك إلى تعظيم فرعون للسحرة وخضوعه لهم ووعدهم بالتقرب والجزاء، وأيضاً فإنه لا يقال فى ذلك: ﴿ **إنه لكبيركم الذى علمكم السحر** ﴾، فإن الصناعات يشترك فيها الناس فى تعلمها وتعليمها»[1].

---

(١) « بدائع الفوائد» لابن القيم (٢/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨).



السحر لا يؤثر بذاته

قال الشيخ حافظ الحكمي: إن السحر ليس بمؤثر لذاته نفعا ولا ضراً وإنما يؤثر بقضاء الله تعالى وقدره، وخلقه وتكوينه، لأنه تعالى خالق الخير والشر، والسحر من الشر، ولهذا قال تعال: ﴿ **فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله** ﴾ وهو القضاء الكونى القدرى فإن الله تعالى لم يأذن بذلك شرعا[1].

و « اعتبار السحر حقيقة ثابتة لا يعنى كونه مؤثرا بذاته بل هو كقولنا: السمَ له مفعول حقيقى ثابت والدواء له مفعول حقيقى ثابت، فهذا كلام صحيح لا يُنكر غير أن التأثير فى هذه الأمور الثابتة إنما هو لله تعالى وقد قال الله تعالى عن السحر: ﴿**وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾ [البقرة: ١٠٢] فقد نفى الله عزّ وجلّ عن السحر التأثير الذاتى ولكنه أثبت له فى نفس الوقت مفعولاً ونتيجة منوطة بإذن الله تعالى[2].

وقال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدى: فى تفسير آية ﴿**فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه**﴾ وفى هذا دليل على أن السحر له حقيقة، وأنه يضر بإذن الله أى بإرادة الله والإذن نوعان: إذن قدرى، وهو المتعلق بمشيئة الله كما فى هذه الآية، وإذن شرعى كما فى قوله فى الآية السابقة: ﴿ **فإنه نزله على قلبك بإذن الله** ﴾ وفى هذه الآية وما أشبهها أن الأسباب مهما بلغت فى قوة التأثير فهى تابعة للقضاء والقدر ليست مستقلة فى التأثير»[3].

●●●●●

(١) «معارج القبول» (١/ ٣٦٤).
(٢) «فقه السيرة» للدكتور البوطى (ص ٣٥٧).
(٣) تفسير «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ٥٧).



وفاة سليمان عليه السلام

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾[سبأ: ١٤].

قال ابن كثير: يذكر تعالى كيفية موت سليمان عليه السلام وكيف عمّى الله موته على الجان المسخرين له فى الأعمال الشاقة فإنه مكث متوكئاً على عصاه وهى منسأته[١] كما قال ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد مدة طويلة نحواً من سنة فلما أكلتها دابة الأرض وهى الأرضة ضعفت وسقط إلى الأرض وعُلِمَ أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة، تبينت الجن والأنس أيضاً أن الجن لا يعلمون الغيب كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك [٢].

قال الواحدى: قال المفسرون: كانت الناس فى زمان سليمان يقولون: إن الجن تعلم الغيب، فلما مكث سليمان قائماً على عصاه حولاً ميتاً، والجن تعمل تلك الأعمال الشاقة التى كانت تعمل فى حياة سليمان لا يشعرون بموته حتى أكلت الأرضة عصاه فخرّ ميتاً فعلموا بموته، وعلم الناس أن الجن لا تعلم الغيب [٣] إذ لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين.

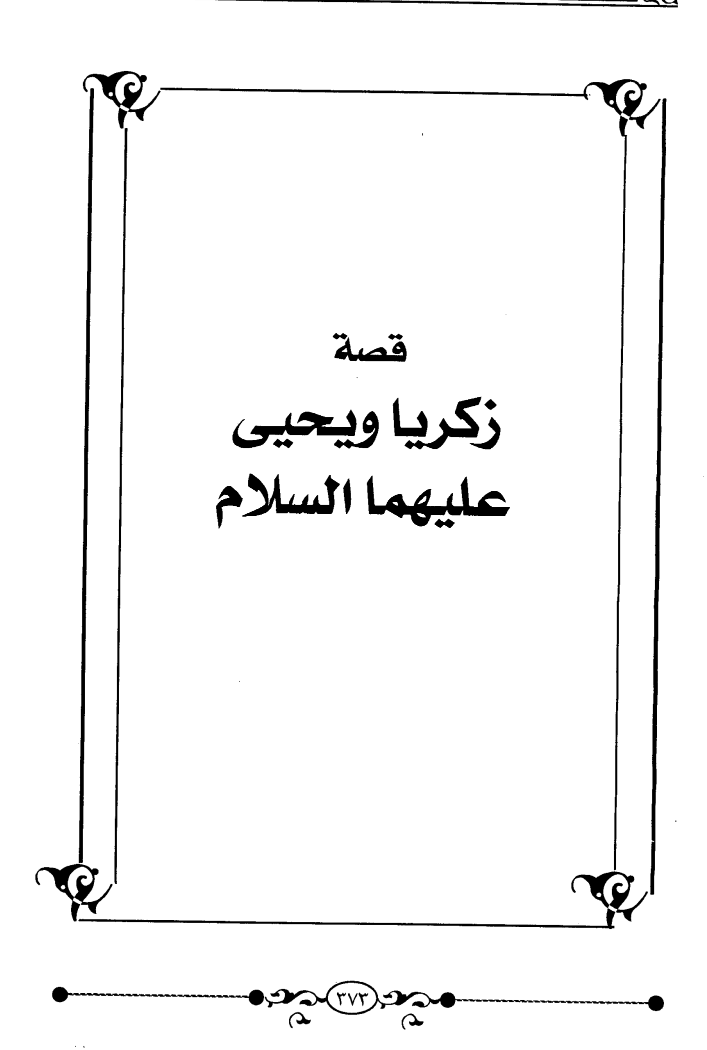
●●●●●

(١) سميت العصا منسأة من النسئ وهو التأخير فى الوقت؛ لأن العصا يؤخربها الشىء ويزجر ويطرد..

(٢) تفسير ابن كثير (٣/٥٤٦).

(٣) « فتح القدير» الشوكانى (٤/٣٠٨).





قصة
زكريا ويحيى
عليهما السلام

قصة زكريا ويحيى عليهما السلام

قال تعالى فى كتابه العزيز: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿كهيعص ① ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ② إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ③ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ④ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ⑤ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ⑥ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ⑦ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ⑧ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ⑨ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ⑩ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ⑪ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ⑫ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ⑬ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ⑭ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١ ـ ١٥].

وقال تعالى: ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ㊲ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ㊳ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ㊴ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ㊵ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [آل عمران: ٣٧ ـ ٤١].

وقال تعالى فى سورة الأنبياء: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ㊉ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩ ـ ٩٠].

---

(١) يحى عليه السلام يعرف بـ « يوحنا المعمدان» ويوحنا فى العبرانى: (يوحانان) أو (يهوحنان) ويهو تترجم الله وحانان معناها: التحنن. ومعنى الاسم: الله تحنن وأصل التركيب (يوحنا المعمد) أى الذى غسل جسد من يريد التوبة. ولكن حسب اللغة الأرامية (السريانية» يضاف الألف والنون فى آخر الاسم للنسب فيقال: (المعمدان) ويقال فيمن ينتسب إلى يعقوب: يعقوبان، وهكذا . نقلاً عن «يوحنا المعمدان» الدكتور أحمد حجازى.

وقال تعالى: ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنعام: ٨٥].

قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر فى كتابه «التاريخ» زكريا ابن برخيا ويقال ابن دان، ويقال زكريا بن لدن بن مسلم بن صدوق بن حشبان بن داود بن سليمان بن مسلم ابن صديقة بن برخيا بن بلعطة بن ناحور بن شلوم بن بهفاشاط ابن أينامن بن رحبعام بن سليمان بن داود، أبو يحيى النبى عليه السلام من بنى إسرائيل.

دخل البثنة من أعمال دمشق فى طلب ابنه يحيى. وقيل: إنه كان بدمشق حين قتل ابناء يحيى.. والله أعلم.

والمقصود أن الله تعالى أمر رسوله ﷺ ان يقص على الناس خبر زكريا عليه السلام وما كان من أمره حين وهبه الله ولداً على الكبر وكانت امرأته مع ذلك عاقراً فى حال شبيبتها، وقد أسنت أيضا حتى لا ييأس أحد من فضل الله ورحمته ولا يقنط من فضله تعالى: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ قال قتادة عند تفسيرها: إن الله يعلم القلب النقى ويسمع الصوت الخفى. وقال بعض السلف: قام من الليل فنادى ربه مناداة أسرها عمن كان حاضراً عنده مخافته فقال: يارب يارب يارب.. فقال الله: لبيك لبيك لبيك. ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ ، أى ضعف وخار من الكبر ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ استعارة من اشتعال النار فى الحطب أى غلب على سواد الشعر شيبه.

وقوله: ﴿ وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾، أى ما عودتنى فيما أسألك إلا الإجابة وكان الباعث له على هذه المسألة أنه لما كفل مريم بنت عمران بن ماثان، وكان كلما دخل عليها محرابها وجد عندها فاكهة فى غير إبَّانها ولا فى أوانها وهذه من كرامات الأولياء، فعلم أن الرزاق للشئ فى غير أوانه قادر على أن يرزقه ولدًا وإن كان قد طعن فى سنه ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[آل عمران: ٣٨] وقوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ قيل المراد بالموالى العصبة وكأنه خاف من تصرفهم بعده فى بنى إسرائيل بما لا يوافق شرع الله وطاعته فسأل وجود ولد من صلبه يكون برًا تقيًا مرضيًا ولهذا قال: ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ﴾ أى من عندك بحولك وقوتك ﴿وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي﴾، أى فى النبوة والحكم فى بنى

إسرائيل ﴿ وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾، يعنى كما كان آباؤه وأسلافه من ذرية يعقوب أنبياء فاجعله مثلهم فى الكرامة التى أكرمتهم بها من النبوة والوحى.

وقوله : ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ (١) وهذا مفسر قوله : ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٩].

فلما بشر بالولد وتحققت البشارة شرع يستعلم على وجه التعجب وجود الولد له والحالة هذه ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ أى كيف يوجد ولد من شيخ كبير، قيل كان عمره إذ ذاك سبعا وسبعين سنة، والأشبه والله أعلم أنه كان أسن من ذلك ﴿ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا ﴾، يعنى وقد كانت امرأتى فى حال شبيبتها عاقراً لا تلد... والله أعلم.

كما قال الخليل: ﴿ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ [الحجر: ٥٤] وقالت سارة : ﴿ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود: ٧٢ - ٧٣].

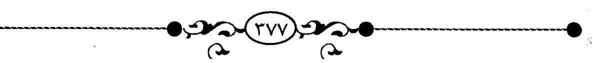
وهكذا أجيب زكريا عليه السلام قال له الملك الذى يوحى إليه بأمر ربه: ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾، أى هذا سهل يسير عليه ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾، أى أوجدتك بعد أن لم تكن شيئا مذكورا أفلا يوجد منك ولدا وإن كنت شيخاً؟!.

وقال تعالى: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠] ،ومعنى إصلاح زوجته أنها كانت لا تحيض فحاضت.

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً﴾، أى علامة على وقت تعلق منى المرأة بهذا الولد المبشر به ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ يقول علامة ذلك أن يعتريك سكت لا تنطق معه ثلاثة أيام إلا رمزًا وأنت فى ذلك سوى الخلق صحيح المزاج معتدل البنية.

---

(١) قال مجاهد: ﴿لم نجعل له من قبل سميا﴾ أى شبيها: وقال ابن عباس لم يسم يحيى قبله غيره.



وأمر بكثرة الذكر فى هذه الحال بالقلب واستحضار ذلك بفؤاده بالعشى والإبكار، فلما بُشِّرَ بهذه البشارة خرج مسروراً بها على قومه من محرابه ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾، والوحى ها هنا هو الأمر الخفى إما بكتابة، أو إشارة، قال مجاهد وعكرمة ووهب والسدى وقتادة: اعتقل لسانه من غير مرض، وقال ابن زيد: كان يقرأ ويسبح ولكن لا يستطيع كلام أحد.

وقوله تعالى: ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ يخبر تعالى عن وجود الولد وفق البشارة الإلهية لأبيه زكريا عليه السلام وأن الله علمه الكتاب والحكمة وهو صغير فى حال صباه.

قال معمر: قال الصبيان ليحيى بن زكريا : اذهب بنا نلعب. فقال: ما للعب خلقنا. قال: وذلك قوله: ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ .

وأما قوله: ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ ، أى رحمة من عندنا رحمنا بها زكريا فوهبنا له هذا الولد. وعن عكرمة :﴿ وَحَنَانًا﴾، أى محبة عليه. ويحتمل أن يكون ذلك صفة لتحنن يحى على الناس ولاسيما على أبويه. وهو محبتهما والشفقة عليهما وبره بهما.

وأما الزكاة فهو طهارة الخلق وسلامته من النقائص والرذائل، والتقوى طاعة الله بامتثال أوامره وترك زواجره.

ثم ذكر بره بوالديه وطاعته لهما أمرا ونهياً وترك عقوقهما قولا وفعلا فقال: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ ثم قال: ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ هذه الأوقات الثلاثة أشد ما تكون على الإنسان، فإنه ينتقل فى كل منها من عالم إلى عالم آخر فيفقد الأول بعدما كان ألفه وعَرَفَهُ ويصير إلى الآخر ولا يدرى ما بين يديه، ولهذا يستهل صارخاً إذا خرج من بين الأحشاء وفارق لينها وضمها وينتقل إلى هذه الدار ليكابد همومها وغمَّها!

وكذلك إذا فارق هذه الدار وانتقل إلى عالم البرزخ بينها وبين دار القرار، وصار بعد الدور، والقصور إلى عرصة الأموات سكان القبور، وانتظر هناك النفخة فى الصور ليوم البعث والنشور، فمن مسرور ومحبور ومن محزون ومثبور، وما بين جبير وكسير وفريق فى الجنة وفريق فى السعير! ولقد أحسن بعض الشعراء حيث يقول:

ولدتك أمك باكيـا مـستصـرخـًا والناس حـولك يضحكون سـرورًا
فأحـرص لنفسك أن تكون إذا بكوا فى يوم مـوتك ضـاحكًا مـسـرورًا

ولما كانت هذه المواطن الثلاثة أشق مـا تكون على ابن آدم سلم الله على يحيى فى كل موطن منها فقال: ﴿ وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًا﴾ .

عن الحسن قال: إن يحيى وعيسى التـقيا ، فقال له عيسى: استغـفر لى أنت خير منى. فقال له الآخر: أستغفر لى أنت خـير منى فقال له عيسى: أنت خير منى سَلَّمتُ على نفسى وسلم الله عليك. فعرف والله فضلهما.

وأما قوله فى الآية الأخرى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩] . فقبل المراد بالحصور الذى لا يأتى النساء، وقـيل غير ذلك، وهو أشبه لقوله: ﴿هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨] (١).

قال القاضى عياض فى كتابه «الشفاء»: اعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى أنه كان ﴿حَصُورًا﴾ ليس كمـا قاله بعضهم: إنه كـان مجبوبا أو لا ذَكَـرَ له، بل قد أنكر هذا حذاق المفـسرين ونقاد العـلماء وقالوا : هذه نقـيصة وعـيب ولا يليق بالأنبيـاء عليهم السلام. وإنما معـناه أنه معصوم من الذنوب، أى لا يأتيـها كأنه حصور عـنها. وقيل: مانعاً نفـسه من الشهوات، وقـيل: ليست له شهوة فى النسـاء وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص، وإنما الفـضل فى كونها موجودة ثم يمنعهـا إما بمجاهدة كعيسى أو بكفاية من الله عزّ وجلّ كيـحيى عليه السلام، ثم هى فى حق من قدر عليها وقام بالواجب فـيها ولم تشـغله عند ربه: درجة عليا وهى درجـة نبينا ﷺ الذى لم يشغله كثرتهن عن عبادة ربه بل زاده ذلك عبادة بتـحصينهنّ وقيامه عليهن وإكسابه لهنّ وهدايته اياهنّ بل قد صرح أنها ليـست من خظوظ دنياه هو وإن كانت من حظوظ دنيا غيره فقال: «حبب إلى دنياكم» هذا لفظه. والمقصود أنه مدحّ ليحيى بأنه حصور ليس أنه لا يأتى النسـاء، بل معناه أنه حصـور من الفواحش والقـاذورات. اهـ عن تفسـير ابن كثير(١/ ٣٦١).



(١) «البداية والنهاية» (٢/ ٥٥ ـ ٦٠) باختصار.

سبب مقتل يحيى عليه السلام

كـان يحيى علـيه السـلام من أنبـياء بنى إسـرائيل، وكـان قد طـلب من اليهـود «الاستـغفـار حتى لاتتم مـعاقـبتـهم يوم القيـامة، وكان التطـهر بالماء هو عـلامة هذا الاستغفار، فكان يعـمدهم بالماء. ويقول يوسيفوس إن جماهير كـثيرة من اليهود آمنت بالمعمدان وتبعت دعوته، حتى إن الملك «انتيباس» ابن هيرودوس خَشى من شعبيته التى قد تجعله يقـوم بثورة سياسية، فأمـر بالقبض عليه ووضعه فى سجن فـى بلدة اسمها «ماخيروس» شرقى البحر الميت، ثم تم قتله هناك، وتقول قصة الأناجيل إن انتيباس قتل المعمدان بسبب اعـتراضه على زواجه من «هيروديا» التى كانت زوجة أخـيه، وكان لها ابنة هى سـالومى من هذا الزواج، وكانـت التقـاليد تمنع الزواج فى هذه الحـال لذاك ـ حسب مـا جاء فى الأناجيل ـ طلبت سـالومى من الملك أن يعطيها رأس المعـمدان ثمناً لموافقتها على أن ترقص أمامه» [1] « فوهبه لها فبعـثت إليه من قتله وجاء برأسه ودمه فى طست إلى عندها فيقال: إنها هلكت من فورها وساعتها[2].

ويقال: إن هيروديا كـانت ابنة أخ هيرودس ، وكانت بارعـة الجمال، فـأراد منها هيردوس أن يتـزوجها منها، وكـانت البنت وأمها تريدان هذا الزواج، فلمـا علم يحيى عليه السـلام بذلك أعلت معارضتـه لهذا الزواج وبيَّن تحريم زواج العم بابنة أخـيه فى الشريعة.

فحـقدت أم الفتـاة على يحيى، وبيـتت له مكيدة قتل، فـزينت ابنتهـاا (هيروديا) بأحسن زينتها وأدخـلتها على عمها، فرقـصت أمامه حتى ملكت مشاعـره، فقال لها: تمنّى علىَّ، فقـالت له: أريد رأس يحيى بن زكـريا فى هذا الطبق كما علمـتها أمـها، فاستجاب لطلبها، وأمر برأس يحيى فقتل عليه السلام، وقُدِّم له رأسه فى طبق، والدم ينزف منه[3].

●●●●●

(١) « تاريخ اليهود» أحمد عثمان (٢/ ٨١) ط دار الشروق.
(٢) « البداية والنهاية» (٢/ ٦٤).
(٣) انظر « مكايد يهودية عبر التاريخ» عبد الرحمن حنبكة . ص ٣٠ .ط دار القلم دمشق.



قتل اليهود لزكريا عليه السلام

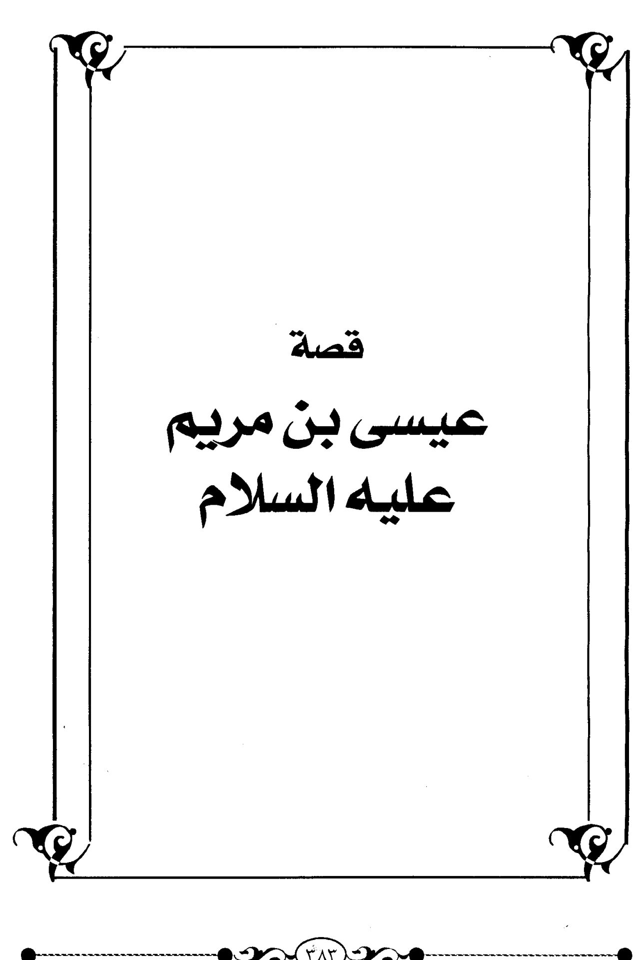
قتل هيرودس زكريا عليه السلام؛ لأنه دافع عن ابنه يحيى عليهما السلام، وعارض فى صحة الزواج لمانع القرابة القريبة. وجاء فى سفر« أخبار الأيام الثانى» إصحاح (٢٤) أن اليهود قد رجموا زكريا عليه السلام بالحجارة فى دارد بنت الرب.

وجاء فى إنجيل برنابا أن المسيح قال لـليهود: ستـأتى عليكم دماء الأنبـياء الذين قتلتموهم إلى دم زكريا بن برخيا الذى قتلتموه بين الهيكل والمذبح(١).

●●●●●

(١)« قصص الأنبياء» عبد الوهاب النجار. ص ٣٦٨ ط دار الفكر بيروت.





قصة
عيسى بن مريم
عليه السلام

قصة عيسى ابن مريم عليه السلام

قال الله تعالى فى سورة آل عمـران التى أنزل صدرها وهو ثلاث وثمانون آية منها فى الرد على النصـارى عليهم لعـائن الله، الذين زعمـوا أن لله ولداً، تعالى الله عـما يقولون علوا كبيرا.

وكان قد قدم وفد نجران منهم على رسول الله ﷺ فجعلوا يذكرون ما هم عليه من الباطل مـن التثليث فى الأقانيـم ويدعون بزعمـهم أن الله ثالث ثلاثة، وهم الذات المقدسة وعيسى ومريم، على اختلاف فرقهم، فأنزل الله عزّ وجلّ صدر هذه السورة بين فيها أن عيسى عبد من عبـاد الله خلقه وصوره فى الرحم كما صور غيره من المخلوقات وأنه خلقه من غيـر أب كما خلق آدم من غير أب ولا أم، وقال له كن فيـكون سبحانه وتعالى وبين أصل ميـلاد أمه مريم وكيف كان من أمرها وكيف حـملت بولدها عيسى، وكذلك بسط ذلك فى سورة مريم.

فقـال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [آل عمران: ٣٣ ـ ٣٧].

يذكر تعالى أنه اصطفى آدم عليه السلام والخُلَّصُ من ذريتـه المتبعين شرعه الملازمين طاعته، ثم خصص فقال: ﴿ **وَآلَ إِبْرَاهِيمَ** ﴾ فدخل فيهم بنو إسماعيل ثم ذكر فضل هذا البيت الطاهر الطيب وهم آل عمران، والمراد بعمران هذا والد مريم عليها السلام.

وكان أبوها عمـران صاحب صلاة بنى إسرائيل فى زمانه، وكـانت أمها وهى حنة بنت فاقود بن قبيل من العابدات، وكان زكريا نبى ذلك الزمان زوج أخت مريم «أشياع» فى قول الجمهور وقيل زوج خالتها « أشياع» . . فالله أعلم.

وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره أن أم مريم كانت لا تحبل فرأت يوماً طائراً يزق فرخاً له فاشتهت الولد فنذرت لله إن حملت لتجعلن ولدها محرراً، أى حبيساً فى بيت المقدس.

قالوا: فحاضت من فورها فلما طهرت واقعها بعلها فحملت بمريم عليها السلام ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ﴾ أى فى خدمة بيت المقدس، وكانوا فى ذلك الزمان ينذرون لبيت المقدس خداماً من أولادهم.

وقولها: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ قد استجيب لها فى هذا كما تقبل منها نذرها.

فعن أبى هريرة، أن النبى ﷺ قال: **«ما من مولود إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان إلا مريم وأبنها»** ثم يقول أبو هريرة: واقرأوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (1).

وعن عجلان عن النبى ﷺ قال: **«كل مولود من بنى آدم يمسه الشيطان بإصبعه إلا مريم بنت عمران وابنها عيسى»** (2).

وعن أبى هريرة، أن النبى ﷺ قال: **«كل إنسان تلده أمه يلكزه الشيطان فى حضنيه إلا ما كان من مريم وابنها، ألم تر إلى الصبى حين يسقط كيف يصرخ»**؟ قالوا: بلى يا رسول. قال: **«ذلك حين يلكزه الشيطان بحضنيه»** (3).

وعن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: **«كل بنى آدم يطعن الشيطان فى جنبه حين يولد إلا عيسى بن مريم ذهب يطعن فطعن فى الحجاب»** (4).

وقوله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ ذكر كثير من المفسرين أن أمها حين وضعتها لفتها فى خروقها ثم خرجت بها إلى المسجد فسلمتها إلى العباد الذين هم مقيمون به، وكانت ابنة إمامهم وصاحب صلاتهم فتنازعوا فيها،

---

(1) رواه البخارى فى تفسير سورة آل عمران (٤٥٤٨) باب ﴿وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾. ومسلم (٦٠١٨) كتاب الفضائل ،باب فضائل عيسى عليه السلام.

(2) رواه مسلم(٦٠٢٠) كتاب الفضائل ، باب فضل عيسى عليه السلام.

(3) صحيح. رواه أحمد (٢/٣٦٨) ومعنى حضنية: جنبيه.

(4) صحيح رواه أحمد (٢/٥٢٣).

والظاهر أنها إنما سلمتها إليهم بعد رضاعها وكفالة مثلها فى صغرها.

ثم لما دفعتها إليهم تنازعوا فى أيهم يكفلها. وكان زكريا نبيهم فى ذلك الزمان، وقد أراد أن يستبد بها دونهم من أجل زوجته أختها أو خالتها على القولين. فشاحوه فى ذلك وطلبوا أن يقترع معهم، فساعدته المقادير فخرجت قرعته غالبة لهم وذلك أن الخالة بمنزلة الأم.

قال الله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾، أى بسبب غلبه لهم فى القرعة كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤] قالوا: وذلك أن كلاً منهم ألقى قلمه معروفاً به. ثم حملوها ووضعوها فى موضع وأمروا غلاماً لم يبلغ الحنث فأخرج واحداً منها وظهر قلم زكريا عليه السلام. فطلبوا أن يقترعوا مرة ثانية وأن يكون ذلك بأن يلقوا أقلامهم فى النهر فأيهم جرى قلمه على خلاف جرية الماء فهو الغالب ففعلوا فكان قلم زكريا هو الذى جرى على خلاف جرية الماء وسارت أقلامهم مع الماء ثم طلبوا منه أن يقترعوا ثالثة فأيهم جرى قلمه مع الماء ويكون بقية الأقلام قد انعكس سيرها فهو الغالب ففعلوا فكان زكريا هو الغالب لهم فكفلها، إذ كان أحق بها شرعًا وقدرًا لوجوه عديدة.

قال الله تعالى: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قال المفسرون: اتخذ لها زكريا مكاناً شريفاً من المسجد لا يدخله سواها، فكانت تعبد الله فيه وتقوم بما يجب عليها من سدانة البيت إذا جاءت نوبتها وتقوم بالعبادة ليلها ونهارها، حتى صارت يضرب بها المثل بعبادتها فى بنى إسرائيل، واشتهرت بما ظهر عليها من الأحوال الكريمة والصفات الشريفة حتى أنه كان نبى الله زكريا كلما دخل عليها موضع عبادتها يجد عندها رزقاً غريبا فى غير أوانه .فكان يجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء وفاكهة الشتاء فى الصيف فسألها: ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَذَا﴾ فتقول: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾، أى رزق رزقنيه الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ .

فعند ذلك وهنالك طمع زكريا فى وجود ولد من صلبه وإن كان قد أسن وكبر: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [آل عمران: ٣٨].

قال بعضهم: قال: يا من يرزق مريم الثمر فى غير أوانه هب لى ولدًا وإن كان فى غير أوانه. فكان من خبره ما قدمنا ذكره فى قصته.



بشارة الله لمريم بعيسى عليه السلام

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤) إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٤٨) وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٥١)﴾ (آل عمران: ٤٢-٥١).

يذكر تعالى أن الملائكة بشرت مريم باصطفاء الله لها من بين سائر نساء عالمى زمانها، بأن اختارها لإيجاد ولد منها من غير أب وبشرت بأن يكون نبياً شريفاً. ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾، أى فى صغره يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وكذلك فى حال كهوليته، فدل على أنه يبلغ الكهولة ويدعو إلى الله فيها، وامرت بكثرة العبادة والقنوت والسجود والركوع لتكون أهلاً لهذه الكرامة ولتقوم بشكر هذه النعمة، فيقال: إنها كانت تقوم فى الصلاة حتى تفطرت قدماها رضى اللّه عنها ورحمها ورحم أمها وأباها.

فقول الملائكة: ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ أي اختارك واجتباك ﴿وَطَهَّرَكِ﴾، أى من الأخلاق الرذيلة وأعطاك الصفات الجميلة ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ يحتمل أن يكون المراد عالمى زمانها كقوله لموسى ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٤٤)وكقوله عن بنى إسرائيل: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (الدخان: ٣٢) ومعلوم أن إبراهيم عليه السلام أفضل من موسى، وأن محمداً ﷺ أفضل منهما، وكذلك هذه الأمة من سائر الأمم قبلها وأكثر عدداً وأفضل علماً وأزكى من بنى

إسرائيل وغيرهم .

ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ **وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ** ﴾ محفوظ العموم فتكون أفضل نساء الدنيا ممن كان قبلها أوجدًّ بعدها لأنها إن كانت نبية على قول من يقول بنبوتها ونبوة سارة أم إسحاق ونبوة أم موسى محتجاً بكلام الملائكة والوحى إلى موسى، كما يزعم ذلك ابن حزم وغيره، فلا يمتنع على هذا أن تكون مريم أفضل من سارة وأم موسى لعموم قوله : ﴿ **وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ** ﴾ إذا لم يعارضه غيره. . . . والله أعلم.

وأما قول الجمهور كما قد حكاه أبو الحسن الأشعرى وغيره عن أهل السنة والجماعة من أن النبوة مختصة بالرجال، وليس فى النساء نبية فيكون أعلى مقامات مريم كما قال الله تعالى : ﴿ **مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ** ﴾ (المائدة: ٧٥) فعلى هذا لا يمتنع أن تكون أفضل الصديقات المشهورات ممن كان قبلها وممن يكون بعدها. . . والله أعلم . . . وقد جاء ذكرها مقروناً مع آسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ﷺ ورضى الله عنهن وأرضاهن.

عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد**»[1].

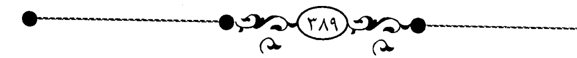
عن أنس، قال : قال رسول الله ﷺ: «**حسبك من نساء العالمين بأربع : مريم بنت عمران، وآسية إمرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد**»[2].

عن ابن عباس، قال خط رسول الله ﷺ فى الأرض أربع خطوط فقال : «**أتدرون ما هذا**» ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله ﷺ: «**أفضل نساء الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم إمرأة فرعون**»[3].

(١) رواه البخارى (٣٨١٥) كتاب مناقب الأنصار، باب تزويج النبى ﷺ خديجة رضى الله عنها . ومسلم (١١٥٤) كتاب الفضائل، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها .والترمذى فى « المناقب» (٣٨٧٧) باب فضل خديجة رضى الله عنها

(٢) صحيح.رواه الترمذى فى «المناقب» (٣٨٧٨) باب فضل خديجة رضى الله عنهاوقال: هذا حديث صحيح.

(٣) صحيح. رواه أحمد (١/ ٢٩٣)وأبو يعلى (٢٧٢٢) والحاكم(٣/ ١٨٥) وصححه ووافقه الذهبى.



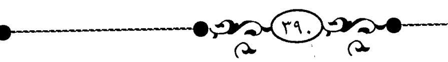
والمقصود أن هذا يدل على أن مريم وفاطمة أفضل هذه الأربع، فأما الحديث الذى رواه الجماعة إلا أبا داود عن أبى موسى الأشعرى، قال : قال رسول الله ﷺ : **«كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية إمرأة فرعون ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»**.

فإنه حديث صحيح اتفق الشيخان على إخراجه، ولفظه يقتضى حصر الكمال فى النساء فى مريم وآسية، ولعل المراد بذلك فى زمانهما فإنَّ كلاً منهما كفلت نبيًا فى حال صغره، فآسية كفلت موسى الكليم، ومريم كفلت ولدها عبد الله ورسوله، فلا ينفى كمال غيرها فى هذه الأمة كخديجة وفاطمة.

ذكر ميلاد العبد الرسول

عيسى بن مريم العذراء البتول

قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١) فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣) فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٣٦) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾



[مريم : ١٦-٣٧]، ذكر تعالى هذه القصة بعد قصة زكريا التى هى كالمقدمة لها والتوطئة قبلها كما ذكر فى سورة آل عمران، قرن بينهما فى سياق واحد وكما قال فى سورة الأنبياء : ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠) وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء : ٨٩-٩١]

وقد تقدم أن مريم لما جعلتها أمها محررة تخدم بيت المقدس وأنه كفلها زوج أختها أو خالتها نبى ذلك الزمان زكريا عليه السلام، وأنه اتخذ لها محراباً وهو المكان الشريف من المسجد لا يدخله أحد عليها سواه، وإنها لما بلغت اجتهدت فى العبادة فلم يكن فى ذلك الزمان نظيرها فى فنون العبادات، وظهر عليها من الأحوال ما غبطها به زكريا عليه السلام وأنها خاطبتها الملائكة بالبشارة لها باصطفاء الله لها وبأنه سيهب لها ولداً، زكيا يكون نبيًا كريمًا طاهرًا مكرمًا مؤيدًا بالمعجزات، فتعجبت من وجود ولد من غير والد، لأنها لا زوج لها، ولا هى ممن تتزوج فأخبرتها الملائكة بأن الله قادر على ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون، فاستكانت لذلك وأنابت وسلمت لأمر الله، وعلمت أن هذا فيه محنة عظيمة لها فإنَّ الناس يتكلمون فيها بسببه، لأنهم لا يعلمون حقيقة الأمر، وإنما ينظرون إلى ظاهر الحال من غير تدبر ولا تعقل.

وكانت إنما تخرج من المسجد فى زمن حيضها أو لحاجة ضرورية لابد منها من استقاء ماء أو تحصيل غذاء، فبينما هى يوما قد خرجت لبعض شؤنها و﴿ فانتَبَذَتْ﴾، أى انفردت وحدها شرقى المسجد الأقصى إذ بعث الله إليها الروح الأمين جبريل عليه السلام ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ فلما رأته﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ قال أبو العالية : علمت أن التقى ذو نهية.

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ ﴾، أى: خاطبها الملك ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾، أى لست ببشر ولكنى ملك بعثنى الله إليك ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ أى ولداً زكيا.

﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ ﴾، أى: كيف يكون لى غلام أو يوجد لى ولد ﴿وَلَمْ

يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾، أي: ولست ذات زوج وما أنا ممن يفعل الفاحشة ﴿قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، أي: فأجابها الملك عن تعجبها من وجود ولد منها، والحالة هذه قائلاً: ﴿كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾أي وعد أنه سيخلق منك غلاماً ولست بذات بعل ولا تكونين ممن تبغين ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، أى وهذا سهل عليه ويسير لديه، فإنه على ما يشاء قديرٌ .

وقوله :﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾، أى: ولنجعل خلقه والحالة هذه دليلا على كمال قدرتنا على أنواع الخلق، فإنَّه تعالى خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية الخلق من ذكر وأنثى .وقوله :﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ أى نرحم به العباد بأن يدعوهم إلى الله فى صغره وكبره فى طفولته وكهولته. بأن يفردوا اللَّه بالعبادة وحده لا شريك له وينزهوه عن اتخاذ الصاحبة والأولاد والشركاء والنظراء والأضداد والأنداد .

وقوله :﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾، يعنى أن هذا أمر قضاه اللَّه وحتَّمه وقدره وقرره. ولهذا قال تعالى :﴿ فَحَمَلَتْهُ ﴾، أى فحملت ولدها ﴿ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾، وذلك لأن مريم عليها السلام لما حملت ضاقت به ذرعاً، وعلمت أن كثيرًا من الناس سيكون منهم كلام فى حقها .

قال محمد بن إسحاق : شاع واشتهر أنها حامل، فما دخل على أهل بيت ما دخل على آل بيت زكريا .

قال: واتهمها بعض الزنادقة بيوسف الذى كان يتعبد معها فى المسجد، وتوارت عنهم مريم واعتزلتهم وانتبذت مكانا قصيًا .وقوله :﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾، أى فألجأها واضطرها الطلق إلى جذع النخلة ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ فيه دليل على جواز تمنى الموت عند الفتن، وذلك أنها علمت أن الناس يتهمونها ولا يصدقونها بل يكذبوها حين تأتيهم بغلام على يدها، مع أنها قد كانت عندهم من العابدات الناسكات المجاورات فى المسجد المنقطعات إليه المعتكفات فيه، ومن بيت النبوة والديانة فحملت بسبب ذلك من الهم ما تمنيت إن لو كانت ماتت قبل هذا الحال أو كانت ﴿ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾، أى لم تخلق بالكلية.



وقوله : ﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا ﴾، وفى المضمر قولان: أحدهمـا أنه جبريل، قاله ابن عباس قال: ولم يتكلم عيسى إلا بحضرة القوم .وقال مجاهد والحسن وابن زيد وسعيد ابن جبير فى رواية: هو ابنها عيسى. واختاره ابن جرير .

وقوله : ﴿ أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ قيل: النهر وإليـه ذهب الجمهور وهو الصحـيح وعن الحسن والربيع بن أنس وابن أسلم وغـيرهم أنه ابنها . والصـحيح الأول لقوله : ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ فذكر الطعام والشراب ولهذا قال : ﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾. قال عـمرو بن ميمـون : ليس شىء أجود للنفساء من التمر والرطب ثم تلا هذه الآية وقوله: ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ .وهذا من تمام كلام الذى ناداها من تحتها قال : ﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ أى فإن رأيت أحدا من الناس ﴿فَقُولِي﴾ له أى بلسان الحال والإشارة : ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا ﴾، أى صمتا، وكان من صومهـم فى شريعتهم ترك الكلام والطعـام ويدل على ذلك قوله : ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾.

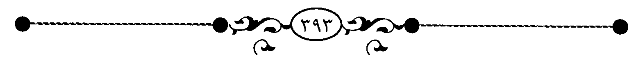
وقوله تعالى: ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ [مريم :٢٧-٢٨]، لما رأوها تحمل معها ولدها ﴿ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾، والفرية هى: الفعلة المـنكرة العظيمة من الفعال والمقال.

ثم قالوا لها : ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ قيل شبهوها بعابد من عـباد زمانهم كانت تساميه فى العـبادة، وكان اسـمه هارون .وقـيل: أرادوا بهارون أخـا موسى شـبهـوها به فى العبادة.

وعن المغيرة بن شعبة قال : بعـثنى رسول اللَّه ﷺ إلى نجران فقالوا : أرأيت ما تقرأون : ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكـذا؟ قال: فرحت فذكرت ذلك لرسـول اللَّه ﷺ فقـال : «**ألا أخبـرتكم أنهم كـانوا يسـمون بالأنبيـاء والصـالحين قبلهم**»[1] .

قالوا: ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ أى لست من بيت هذا شيمتهم

(١) رواه مسلم (٥٤٩٤) كتاب الاستئذان، باب النهى عن التكنى بأبى القاسم وبيان ما ستحب من الأسماء.



ولا سجيتهم لا أخوك ولا أمك ولا أبوك، فاتهموها بالفاحشة العظمى ورموها بالداهية الدهياء .

فلما ضـاق الحال وانحصر المجـال وامتنع المقال، وعظم التـوكل على ذى الجلال، ولم يبق إلا الإخلاص والاتكال ﴿ **فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ** ﴾ أى خاطبوه وكلموه فإنَّ جوابكم عليه وما تبغون من الكلام لديه، فعندها ﴿ **قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا** ﴾أى كيف تحيلينا فى الجـواب على صبى صغيـر لا يعقل الخطاب، وهو مع ذلك رضيع فى مـهده وما هذا منك إلا علـى سبيل التـهكم بنا والإستهـزاء والنقص لنا والإزدراء إذ لا تردين علينا قولا نطقيًا، بل تحيلين فى الجواب على من كان فى المهد صبيا.

فعندها ﴿ **قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا** ﴾ [مريم : ٣٠-٣٣)

هذا أول كلام تفوه به عيسى ابن مريم، فكان أول ما تكلم به أن ﴿ **قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا** ﴾ اعترف لربه تعالـى بالعبودية، وأن اللَّه ربه فنزه جناب اللَّه عن قول الظالمين فى زعمهم أنه ابن اللَّه ، بل هو عبـده ورسوله وابن أمته، ثم برأ أمه مما نسبها إليه الجاهلون وقذفوها به ورموها بسببه بقوله :﴿**آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا**﴾ فإن الله لا يعطى النبوة من هو كما زعموا لعنهم الله وقـبحهم، كما قال تعالى :﴿**وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: ١٥٦]وذلك أن طائفة من اليهود فى ذلك الزمان قالوا : إنها حملت به من الزنا فى زمن المحيض، لعنهم اللَّه فبرأها اللَّه من ذلك وأخبر عنها أنهـا صديقـة واتخذ ولدها نبيـاً مرسلاً أحـد أولى العزم الخـمسة الكبـار. ولهذا قال:﴿**وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ**﴾ وذلك أنه حيث كـان دعا إلى عبـادة اللَّه وحده لا شريـك له ونزّه جنابه عن النقص والعـيب من اتخاذ الولد والصـاحبـة تعالى وتقـدس ﴿**وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا**﴾ وهذه وظيفة العبيد فى القيام بحق العزيز الحميد بالصلاة، والإحسان إلى الخليقة بالزكـاة، وهى تشتمل على طهارة النفوس من الأخلاق الرذيلة وتطهير الأموال الجزيلة بالعطية للمحاويج على اختلاف الأصناف .



ثم قال : ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ ، أى جعلنى براً بوالدتى وذلك أنه تأكد حقها عليه لتمحّض جهتـها إذ لا والد له سواها ، فسبحان من خلق الخليقة وبرأها وأعطى كا نفس هداها . ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ ، أى لست بفظ ولا غليظ ولا يصدر منى قول ولا فعل ينافى أمر اللَّه وطاعته .

﴿ وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ ، وهذه المواطن الثلاثة التى تقدم الكلام عليها فى قصة يحيى بن زكريا عليهما السلام .

ثم لما ذكر تعالى قصته على الجليـة وبين أمره ووضحه وشرحه قال : ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم : ٣٤-٣٥] كما قال تعالى بعـد ذكر قصته وما كان من أمره فى آل عمران : ﴿ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨) إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢) فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٨-٦٣].

ولهذا لما قدم وفـد نجران وكانوا ستين راكـبا يرجع أمرهم إلى أربعة عـشر منهم، ويؤول أمر الجمـيع إلى ثلاثة هم أشرفهم وسادتهم وهم العاقب والسـيد وأبو حارثة بن علقمة، فجعلوا يناظرون فى أمر المسـيح فأنزل اللَّه صدر سورة آل عمران فى ذلك وبين أمر المسيح وابتداء خلقه وخلق أمه من قبله، وأمر رسوله بأن يباهلهم إن لم يستجيبوا له ويتبـعوه، فلمـا رأوا عينيهـا وأذنيها نكصـوا وامتنعـوا عن المباهلة وعدلـوا إلى المسالمة والموادعة وقال قائلهم وهو العاقب عبد المسـيح : يا معشر النصارى . . . لقد علمتم أن محـمدًا لنبى مرسل، ولقد جـاءكم بالفصل من خبـر صاحبكم، ولقد علمـتم، أنه ما لاعن قوم نبيًـا قط فبقى كبيرهم ولا نبت صـغيرهم ،وإنها للاستئـصال منكم إن فعلتم فإن كنتم قـد أبيتم إلا الف دينكم والإقـامة على ما أنتم عليـه من القول فى صـاحبكم فودعـوا الرجل وانصرفـوا إلى بلادكم. فطلبوا ذلك من رسـول اللَّه ﷺ وسألوه أن



يضرب عليهم جزية وأن يبعث معهم رجلاً أمينًا، فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح.

والمقصود أن اللَّه تعالى بيَّن أمر المسيح فقال لرسوله : ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾، يعنى من أنه عبد مخلوق من إمرأة من عباد اللَّه، ولهذا قال : ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ أى لا يعجزه شىء بل هو القدير الفعال لما يشاء ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] وقوله : ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [مريم: ٣٦]هو من تمام كلام عيسى لهم فى المهد، أخبرهم أن اللَّه ربه وربهم وإلهه وإلههم، وأن هذا هو الصراط المستقيم .

قال تعالى: ﴿ فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [مريم :٣٧] ،أى اختلف أهل ذلك الزمان ومن بعدهم فيه.

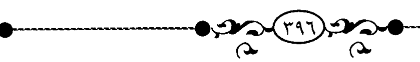
فمن قائل من اليهود :إنه ولد زانية، واستمروا على كفرهم وعنادهم.

وقابلهم آخرون فى الكفر فقالوا : هو اللَّه. وقال آخرون :هو ابن اللَّه.

وقال المؤمنون : هو عبد اللَّه ورسوله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، هؤلاء هم الناجون المثابرون والمؤيدون المنصورون،ومن خالفهم فى شىء من هذه القيود فهم الكافرون الضالون الجاهلون، وقد توعدهم العلى العظيم الحكيم العليم بقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

ما أنعم الله به على عيسى
ابن مريم عليهما السلام

قال تعالى وهو أصدق القائلين : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (١١٠) وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا



بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة: ١١٠-١١١].

يذكره تعالى بنعـمته عليه وإحسانه إليه فى خلقـه إياه من غير أب، بل من أم بلا ذكـر، وجعل له آية للناس ودلالة على كـمال قـدرته تعـالى ثم إرساله بعـد هذا كله ﴿وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ﴾ فى اصطفائهـا واختيارهـا لهذه النعمة العظـيمة وإقامـة البرهان على براءتها مما نسبها إليه الجاهلون ولهذا قال: ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وهو جبريل بإلقاء روحه إلى أمـه وقرنه معه فى حـال رسالته ومـدافعته عنه لمن كـفر به ﴿ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾، أى تدعوا الناس إلى الله فى حال صـغرك فى مهدك وفى كـهولتك ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ أى الخط والفهم نص عليه بعض السلف ﴿ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾ وقوله :﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ أى تصوره وتـشكله من الطين على هيئـة الطيرعلى أمـر الله له بذلك ﴿ فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ أى بأمرى يؤكـد تعالى بذكـر الإذن له فى ذلك لرفع التوهم.

وقوله :﴿وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ﴾، قال بعض السـلف: هو الذى يولد أعمى ولا سـبيل لأحد من الحكماء إلى مداواته ﴿ وَالأَبْرَصَ﴾ هو الذى لا طب فيه بل قد مرض بالبرص وصار داؤه عضالا ﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ ﴾ أى من قبورهم أحياء بإذنى .

وقوله :﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وذلك حين أرادوا صلبه فرفعه الله إليه وأنقذه من بين أظهرهم صيانة لجنابه الكريم عن الأذى وسلامة له من الردى .

وقوله :﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ قيل المراد بهذا الوحى وحى إلهام أى أرشدهم الله إليـه ودلهم عليه كما قال :﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل:٦٨]﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ [القصص:٧] .وقيل: المراد وحى بواسطة الـرسول وتوفيق فى قلوبهم لقبول الحق ولهذا استجابوا قائلين:﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾.

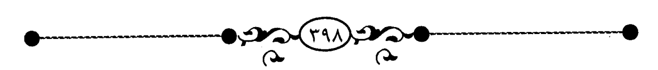


وهذا من جملة نعم اللـه على عبده ورسوله عـيسى ابن مريم أن جـعل له أنصارا وأعوانـا ينصرونه ويدعـون معـه إلى عبـادة الله وحده لا شـريك له . وقال تعـالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٤٨) وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٥١) فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣) وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران:٤٨-٥٤] ،كانت معجزة كل نبى فى زمانه بما يـناسب أهل ذلك الزمان فـذكروا أن موسى عليـه السلام كـانت معـجزته مما يناسب أهل زمانه وكانوا سحرة أذكياء، فبـعث بآيات وما بهرت الأبصار وخضعت لها الرقاب، ولما كان السحـرة خبيرين بفنون السحر ينتهى إليه وعـاينوا ما عاينوا من الأمر الباهر الهائل الذى لا يمكن صدوره إلا عمن أيده الله وأجرى الخارق على يديه تصديقاً له، أسلموا سراعاً ولم يتلعثموا.

وهكذا عـيسى ابن مريم بـعث فى زمن الطبائعـية الحكمـاء،فأرسل بمعـجزات لا يستـطيعونـها ولا يهتـدون إليهـا ، وأنى لحكيم إبراء الأكـمه الذى هو أسـوأ حالاً من الأعمى ،والأبرص والمجذوم ومن به مرض مـزمن، وكيف يتوصل أحد من الخلق إلى أن يقيم الميت من قـبره ؟ هذا مما يعلم كل أحد مـعجزة دالة على صـدق من قامت به وعلى قدرة من أرسله.

وهكذا محمد ﷺ وعليهم أجمـعين بعث فى زمن الفصحاء البلغاء، فأنزل الله عليه القـرآن العظيم الذى لا يأتيـه الباطل من بين يديه ولا من خلفـه تنزيل من حكيم حميـد، فلفظه معجـزة تحدى به الإنس والجن أن يأتوا بمثله أو بعشر سـور من مثله أو بسورة، وقطع عليهم بأنهم لا يـقدرون لا فى الحال ولا فى الاستقبـال، فإن لم يفعلوا ولن يفعلوا وما ذاك لا أنه كلام الخالق عز وجل، والله تعالى لا يشبهه شىء لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله..





والمقصود أن عيسى عليه السلام لما أقام عليهم الحجج والبراهين استمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم وطغيانهم. . فانتدب له من بينهم طائفة صالحة فكانوا له أنصارًا وأعوانًا قاموا بمتابعته ونصرته ومناصحته، وذلك حين هَمَّ به بنو إسرائيل ووشوا به إلى بعض ملوك ذلك الزمان، فعزموا على قتله وصلبه فأنقذه الله منهم ورفعه إليه من بين أظهرهم وألقى شبهه على أحد أصحابه فأخذوه فقتلوه وصلبوه وهم يعتقدونه عيسى وهم في ذلك غالطون وللحق مكابرون، وسلم لهم كثير من النصارى ما ادعوه، وكلا الفريقين فى ذلك مخطئون.

ذكر خبر المائدة

قال الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة :١١٢-١١٥]

مضمون ذلك :أن عيسى عليه السلام أمر الحوارين بصيام ثلاثين يوماً، فلما أتموا سألوا من عيسى إنزال مائدة من السماء عليهم ليأكلوا منها وتطمئن بذلك قلوبهم أن الله قد تقبل صياهم وأجابهم إلى طلبتهم، وتكون لهم عيداً يفطرون عليها يوم فطرهم وتكون كافية لأولهم وآخرهم لغنيهم وفقيرهم. فوعظهم عيسى عليه السلام فى ذلك وخاف عليهم ألَّا يقوموا بشكرها ولا يؤدوا حق شروطها فأبوا عليه إلا أن يسأل لهم ذلك من ربه عز وجل.

فلما لم يقلعوا عن ذلك قام إلى مصلاه ولبس مسحاً من شعر وصف بين قدميه وأطرق رأسه وأسبل عينيه بالبكاء وتضرع إلى الله فى الدعاء والسؤال أن يجابوا إلى ما طلبوا .

فأنزل الله تعلي المائدة من السماء والناس ينظرون إليها تنحدر بين غمامتين، وجعلت تدنو قليلا قليلا، كلما دنت سأل عيسى ربه عز وجل أن يجعلها رحمة لا نقمة وأن يجعلها بركة وسلامة. فلم تزل تدنو حتى استقرت بين يدى عيسى عليه السلام

وهى مغطاه بمنديل فقـام عيسى يكشف عنها وهو يقول :«بسم الله خـير الرازقين» فإذا عليها سبعة من الحيتان وسبعة أرغفة. .ويقال : وخل،ويقال ورمان وثمار، ولها رائحة عظيمة جداً،قال الله كونى فكانت.

ثم أمرهم بالأكل منها، فقالوا : لا نأكـل حتى تأكل. فقال : إنكم الذين ابتدأتم السؤال لها .فأبوا أن يأكلوا منها إبتداء ،فأمر الفقراء والمحاويج والمرضى والزمنى وكانوا قريباً من ألف وثلاثمـائة فأكلوا منها فبرأ كل من به عاهة أو آفـة أو مرض مزمن، فندم الناس على ترك الأكل منها لما رأوا من إصلاح حال أولئك.ثم قيل إنها كانت تنزل كل يوم مرة فيأكل منها نحو سبعة آلاف.

ثم كانت تنزل يوما بعد يوم، كما كانت ناقة صالح يشربون لبنها يوماً بعد يوم.ثم أمر الله عيسى أن يقصرها على الفقـراء أو المحاويج دون الأغنياء .فشق ذلك على كثير من الناس وتكلم منافـقوهم فى ذلك، فرفـعت بالكلية ومسخ الذيـن تكلموا فى ذلك خنازير(١).

تآمر اليهود على قتل عيسى عليه السلام

أرسل الله عـيسى عليـه السلام رسـولاً إلى بنى إسـرائيل وأمره أن يدعـوهم إلى توحيـد الله تعالى وإلى الطهر والعفـاف والأخلاق الحسنة وأيده بالمعـجزات الدالة على صدقه . كى يؤمنوا به ويتبعوه،قال الله تعالى ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٤٨) وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [آل عمران :٤٥-٥٠] ولكن اليهود كان لهم موقف آخر من عيسى

(١)« البداية والنهاية» (٢/ ٦٦ ـ ١٠٣) باختصار.



عليه السـلام فبدلاً من أن يهتـدوا بهداه اجتمـعوا وتآمروا على قـتله والتخلص منه لأن الأخلاق النبيلة التى دعاهم إليها عيسى عليه السلام لا تتوافق مع طباعهم الخبيثة.

وعقد اليهود العزم على قتل عيسى عليه السلام، وخططوا لهذه المؤامرة الدنيئة، إلا أن الله أنقذ عيسى عليه السلام من أياديهم النجسة الملطخة بدماء كثير من الأنبياء وذلك أن الله تعالى قدألقى شبه عيسى عليـه السلام على رجل آخر،فأخذه اليهود وهم يظنون أنه عيسى عليه السلام، فقتلوه وصلبـوه ، ثم قالوا بعد ذلك فى بجاحة ووقاحة: نحن الذين قتلنا عيسى بن مريم وهم ما قتلوا إلا الشبية !!

وقد فـضّح الله اليهود فى كـتابه بأن سجّل عليـهم هذه المؤامرة الدنيئـة . .وكيف انقذه الله من بين أيديهم ورفعه إليه حياً.

قال تعالى : ﴿ **وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا** ﴾ [النساء :١٥٧-١٥٨].

ويروى ابن عباس رضى اللّه عنه كيفية رفع عيسى عليه السلام فيقول: لما أراد اللّه أن يرفع عيسى إلى السـماء خرج إلى أصحابه وفى البيت اثنا عـشر رجلاً من الحوارين فخرج عليهم من عَيْنٍ فى البيت ورأسـه يَقْطُرَ ماءً، فقال : إنَّ منكم من يكفر بى اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن بى .ثم قال : أيكم يلقى عليـه شبهى فيقتل مكانى ويكون معى فى درجتى ؟ فقام شاب من أحدثهم سنّاً، فقـال له اجلس ثم أعاد فقام الشاب فقال : أنا،فقال : أنت ذاك، فألقى عليه شبه عيسى ورفع عيسى من رَوْزَنة [(١)]. فى البيت إلى السماء وجاء الطَّلَب من اليهود ، فأخذوا الشَّبـيه فقتلوه ثم صلبوه، وكفر بعضهم اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن به وافترقوا ثلاث فرق.

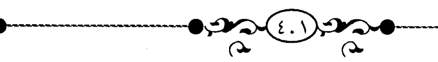
فقالت فرقة : كان اللّه فينا ما شاء ثم صعد ألى السماء، فهؤلاء اليعقوبية

وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء ثم رفعه اللّه إليه ، وهؤلاء النسطورية

وقالت فرقة: كان فينا عبد اللّه ورسوله، وهؤلاء المسلمون.

فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقـتلوها، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث اللّه

(١) هى الخرق فى أعلى السقف.



محمداً ﷺ، فأنزل اللَّه: ﴿فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الصف: ١٤]

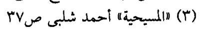
يعنى الطائفة التى آمنت فى زمـن عيسى ﴿وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ﴾ يعنى التى كفرت فى زمن عيـسى، ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فى زمن عـيسى بإظهـار محمـد دينهم على دين الكافرين»[١].

ويذكر الإنجيل لوقا. أن اليـهود قد دفعوا رشوة لأحد تلاميـذ المسيح عليه السلام، وهذا التلميذ كان رجلاً منافقاً لم يؤمن بعيسى عليه السلام وبرسالته ولم يسلم وإنما كان لا يزال على يهودتيه المادية الخـبيثة وأظهر أنه من المؤمنـين، ذلك الرجل اليهودى المنافق هو يهوذا الأسخريوطى «.. وكان رؤساء الكهنة و الكتـبة يطلبون كيف يقتلونه .لأنهم خافـوا الشعب. فـدخل الشيطان فى يهـوذا الذي يدعى الأسخريوطى وهـو من جملة الإثنى عشـر فمضى وتكلم مع رؤسـاء الكهنة وقُوَّاد الجند كيف يُسَلِّـمُه إليهم ففـرحوا وعـاهدوا أن يعطوه فضـة. فواعـدهم. وكـان يطلب فرصـة ليسـلمه إليـهم خلواً من جمع»[٢].

ولما دخل هذا المنافق ليريهم عيسى عليه السلام (ألقى الـلَّه عليه شبه عيسى وصوته أما المسيح فقد كتب اللَّه له النجاة من هذه المؤامرة)[٣].

فـقتلوا ذلك الشـبيـه وصلبـوه ظناً منهم أنه هو المسـيح عيـسى بن مريم وتجـمع الأناجيل على أن عيـسى عليه السلام قتل وصلب وهذا من أوهام كـاتبيها وما سـمعوه رواية عن راوٍ قيل له المصلـوب هو عيسى باسـتثناء إنجيل برنابه الذى يقـول : إن يهوذا الاسخريوطى ألقى عليه شبه سيـدنا عيسى فقتل بدلاً منه. وقول برنابه هذا يتوافق مع ما قاله القرآن فى هذا الشأن فقد ورد فيه قول كاتبه:(.. ودخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التى أصعد منها يسوع وكـان التلاميذ كلهم نياماً وأتى اللّه العجيب بأمر عـجيب فتغير يهوذا فى النطق وفى الوجه فصار شـبيهًا بيسوع حتى إننا اعتقدنا أنه يـسوع أما هو فبعد أن أيقظنا أخذ يفتش لينظر أين كان المعلم لذلك تعجـبا وأجبنا :أنت يا سيد هو معلمنا أنيستنا الآن، أما هو فقال مبتسمـاً: هل أنتم أغبياء حتى لا تعرفون يهوذا الأسخريوطى وبينما كان يقول هـذا دخل الجنود وألقوا أيديهم على يهوذا لأنه كان شبيـهاً بيسوع من

(١) رواه عبـد بن حميـد والنسائى وابن أبى حاتم وابن مـردويه كما فى « الدر المنثـور» (٢/ ٢٣٨) وقال ابن كثير: هذا اسناد صحيح إلى ابن عباس ورواه النسائى بنحوه. « تفسر ابن كثير» (١/ ٥٧٤).
(٢) «إنجيل لوقا» الاصحاح الثانى والعشرون ٣-٦
(٣) «المسيحية» أحمد شلبى ص٣٧



كل وجه أما نحن فلما سمعنا قول يهوذا ورأينا جمهور الجنود هربنا كالمجانين ويوحنا الذى كان ملتفاً بملحفة كتان ترك ملحفة الكتان وهرب عرياناً لأن اللّه سمع دعاء يسوع وخلص الأحد عشر من الشر) [(١)] أما يسوع فقد (جاءت الملائكة وانقذته من وسط القوم) [(٢)] و[(٣)].

وقد أطلع اللّه عيسى على مكائد اليهود به وأوحى إليه أنه سوف ينقذه منهم ويطهرهم من أيديهم النجسة وأنه سوف يرفعه إليه حياً.

قال تعالى : **﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾** [آل عمران :٥٥].

وقد فهم بعض الناس من قوله تعالى : **﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾** فهمْوا أن التوفى هنا معناه الموت[(٤)] وهذا خطأ جسيم وضلال مبين.

قال الطبرى: « اختلف أهل التأويل فى معنى الوفاة التى ذكرها اللّه عزّ وجلّ فى هذه الآية، فقال بعضهم :هى وفاة نوم، وكان معنى الكلام على مذهبهم : إنى مميتك ورافعك فى نومك ثم ذكر الطبرى من قال بذلك.

ثم قال :وقال آخرون : معنى ذلك: إنى قابضك من الأرض، فرافعك إلىّ ، قالوا ومعنى الوفاة :القبض لما يقال : توفيت من فلان مالى عليه، بمعنى قبضته واستوفيته، قالوا: فمعنى قوله :**﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ﴾** أى: قابضك من الأرض حياً إلى جوارى ، وآخذك إلى ما عندى بغير موت، ورافعك من بين المشركين وأهل الكفر بك ثم ذكر الطبرى من قال بذلك ثم قال :

وقال آخرون معنى ذلك إنى متوفيك وفاة موت. ثم ساق بسنده إلى ابن عباس

(١) «فلسطين العربية بين التيئيس والتأميل» عز الدين منصور ص١٦٨-١٦٩.ط دار اقرأ للطباعة والنشر طرابلس ليبيا .نقلاً عن « إنجيل برنابة» ترجمة خليل سعادة وانظر كتاب: « إسرائيل فتنة الأجيال» لإبراهيم خليل أحمد.

(٢) «فلسطين العربية بين التيئيس والتأمل» عز الدين منصور .ص١٦٨

(٣) «البحث عن الحقيقة فى أفكار ومعتقدات اليهود محمد أبو القاسم الحاج ص١٣١-١٣٢.باختصار يسير

(٤) وممن قال بهذا القول: الشيخ محمد عبده ، ومحمود شلتوت وقد تصدى لهما العلماء بالرد عليهما وتبيين ما وقعا فيه من خلط وتخليط انظر رسالة: « فضل المقال فى رفع عيسى عليه السلام» للشيخ خليل هراس.



قوله ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ يقول :إنى مميتك [١] ثم ساق بسنده أيضـاً إلى وهب بن منبه أنه قال: توفى اللّه عيسى بن مريم ثلاث ساعات من النهار حتى رفعه إليه [٢] .

ثم قال الطبرى: وقال آخرون : معنى ذلك، إذ قال اللّه: يا عيسى إنى رافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا ومتوفـيك بعد إنزالى إياك إلى الدنيا، وقال : هذا من المُقَدَّمُ الذى معناه التأخير والمؤخر الذى معناه التقديم.

ثم قال الطبرى :« وأولى هذه الأقوال بالصحة عندنا قول من قال : معنى ذلك إنى قابضك من الأرض ورافعك إلىّ»[٣] .

وقال ابن كثير – بعد أن ذكر ملخـص ما قاله الطبرى – قال الأكثرون : المراد بالوفاة هنا النوم كما قال تعالى :﴿**هو الذى يتوفاكم بالليل**﴾ الآية .وقال تعالى :﴿**الله يتوفى الأنفس حين مـوتها والتى لم تمت فى منامـها**﴾ الآية. وكان رسـول اللّه ﷺ يقول إذا قام من النوم :«**الحمد للّه الذى أحيانا بعد ما أماتنا**» الحديث [٤] .

ورجح القـرطبى ما رجحـه الطبرى فـقال – بعـد أن ذكر ما قـيل فى معنى الـتوفى ـ والصحيح: أن اللّه تعالى رفعـه إلى السماء من غير وفاة ولا نوم كـما قال الحسن وابن زيد، وهو اختيار الطبرى وهو الصحيح عن ابن عباس وقاله الضحاك»[٥] .

وقال الآلوسى:« والصحيح كـما قاله القرطبى ـ أن اللّه تعالى رفعـه من غير وفاة ولا نوم – وهو اختيار الطبرى والرواية الصحيحة عن ابن عباس» [٦] .

●●●●●

---

(١) هذه الرواية لا تصح عن ابن عباس لأن الراوى عنه هو على بن أبى طلحة وهو لم يسمع من ابن عباس
(٢) هذه الرواية ضعيفة لجهالة الراوى عن ابن إسحاق
(٣) تفسير الطبرى (٣/ ٢٨٩-٢٩١).
(٤) تفسير ابن كثير (١/ ٣٦٦).
(٥) تفسير القرطبى (٢/ ١٣٤٢)ط الريان
(٦) تفسير روح المعانى للآلوسى (٢/ ١٧٩).

عيسى عليه السلام ينزل إلى الأرض فى آخر الزمان

ونزوله من علامات الساعة الكبرى

أشار اللَّه فى كتابه إلى نزول عيسى عليه السلام فى آخر الزمان فى أكثر من اية فمن ذلك قوله : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء :١٥٩]

قال الطبرى :«اختلف أهل التأويل فى معنى ذلك فقال بعضهم :معنى ذلك :﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾ يعنى بعيسى ﴿ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ يعنى قبل موت عيسى، يوجه ذلك إلى أن جميعهم يصدقون به إذا نزل لقتل الدجال، فتصير الملل كلها واحدة وهى ملة الرسلام الحنيفية، دين إبراهيم ﷺ.

ثم ذكر الطبرى بأسانيده من قال بذلك: وهم ابن عباس وأبى مالك والحسن البصرى وقتاده وابن زيد ومجاهد والضحاك.

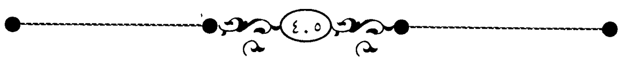
ثم قال الطبرى :وقال آخرون: معنى ذلك :إن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بمحمد ﷺ قبل موت الكتابى ثم ذكر بإسناده إلى عكرمة أنه يقول بهذا القول .

ثم قال الطبرى : وأولى الأقوال بالصحة والصواب، قول من قال : تأويل ذلك إن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى . وقد استبعد الطبرى قول من أعاد الضمير على محمد ﷺ بقوله :إنه لم يجر لمحمد عليه الصلاة واالسلام فى الآيات التى قبل ذلك ذكر، فيجوز صرف الهاء التى فى قوله: ﴿ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾ إلى أنها من ذكره، وإنما قوله: ﴿ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾ فى سياق ذكر عيسى وأمه واليهود، فغير جائز صرف الكلام عما هو فى سياقه إلى غيره إلا بحجة يجب التسليم لها من دلالة ظاهر التنزيل أو خبر عن الرسول تقوم به الحجة، فأما الدعاوى فلا تتعذر على أحد .فتأويل الآية إذ كان على ما وصفت : وما من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى»(١) .

وقال ابن كثير : ولاشك أن هذا الذى قاله ابن جرير هو الصحيح لأنه المقصود من سياق الآى فى تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه وتسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة ذلك، فأخبر اللَّه أنه لك يكن الأمر كذلك وإنما شبه لهم فقتلوا الشبه وهم لا يتبينون ذلك، ثم إنه رفعه إليه وإنه باق حى وإنه سينزل قبل يوم القيامة

---

(١) تفسير الطبرى (٦/١٨-٢٣).



كمـا دلت الأحاديث المتواترة. . فـيقتل مسـيح الضلالة ويكسر الصـليب ويقتل الخنزير ويضع الجـزية يعنى لا يقـبلهـا من أحـد من أهل الأديان بل لا يقـبل إلا الإسـلام أو السيف، فأخبرت هذه الآية الكريمة: أنه يؤمن به جـميع أهل الكتاب حينئذ ولا يتخلف عن التصديق به واحـد منهم ولهذا قال ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ أى قبل مـوت عيـسى عليه السـلام الذى زعم اليهـود ومن وافقـهم من النصارى أنـه قتل وصلب»[1].

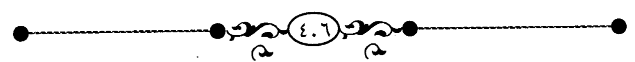
ومن الآيات الدالة أيضاً على نزول عـيسى عليه السلام قـوله تعالى :﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ وهذه الآية تتحدث عن عيسى عليه السلام وأن نزوله علامة كبرى للساعة وسياق الآيات يدل على هذا، قال تعالى :﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [الزخرف :٥٧-٦١].

روى ابن حبان فى «صـحيحه» عن ابن عبـاس عن النبى ﷺ فى قوله :﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ قال: نزول عيسى بن مريم من قبل يوم القيامة[2].

وروى الأمام أحمد عن أبي يحيى مولى ابن عقيل الأنصارى قال : قال ابن عباس : لقد علمت آية من القرآن ما سألنى عنهـا رجل قط، فما أدرى أعلمَها الناسُ فلم يسألوا عنها، أم لم يفطنوا لهـا فيسـألوا عنها؟ ثم طفق يحدثنا، فلمـا قام تلاومنا أن لا نكون سألناه عنهـا فقلت: أنا لهـا إذا راح غداً، فلما راح الغـدَ قلتُ : يا ابن عبَـاس ذكرت أمس آية من القرآن لم يسألك عنها رجل قط فلا تدرى أعلمها الناس فلم يسألوا عنها أم لم يفطنوا لها ؟ فقلت : أخبرنى عنها وعن اللاتى قرأت قبلها ؟قال: نعم إن رسول الله ﷺ قال لقريش :« يا معشر قريش، إنه ليس أحـدٌ يُعبَدُ من دون الله فيه خير، وقد علمت قريش، أن النـصارى تعبـد عيسى ابن مـريم وما نقول فى مـحمد»، فـقالوا يا محمد، ألست تزعم أن عـيسى كان نبياً وعبداً من عباد الله صـالحاً، فلئن كنت صادقاً

(١) تفسير ابن كثير (١/٥٧٦-٥٧٧).

(٢) حسن . رواه ابن حبان (٦٨١٧- الإحسان) .



فإن آلهتـهم لكما تقولون، قال : فـأنزل الله عز وجل :﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ قال : قلت : ما يصـدون ؟ قال : يضجون ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ قال: هو خروج عيسى ابم مريم عليه السلام قبل يوم القيامة»[1].

قال الطبرى : اختلف أهل التأويل فـى الهاء التى فى قوله ﴿ وَإِنَّهُ﴾ وما المعنى بها ومن ذكر مـا هى، فقـال بعضــهم هى من ذكر عـيسى وهى عائـدة عليه وقالوا مـعني الكلام: أن عيسى ظهـوره علم يعلم به مجيء الساعة لأن ظهـوره من أشراطها ونزوله إلى الأرض دليل على فناء الدنيا وإقبال الآخرة .ثم ساق من قال بذلك وهم ابن عباس وعوف والحسن ومـجاهد وقتاده والسـدى والضحاك وابن زيد ثم قـال: وقال آخرون : الهاء التى فى قوله:﴿ وَإِنَّهُ﴾ من ذكر القرآن، وقالوا معنى الكلام : وإن هذا القرآن لعلم للساعة يعلمكم بقيامها ويخبركم عنها وعن أحوالها ثم رجح الطبرى القول الأول[2].

وقال ابن كثير: قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ تقدم تفسير ابن إسحاق أن المراد من ذلك ما بُعث به عيسى عليه الصـلاة والسلام من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغيـر ذلك من الأسقام وفى هذا نظر، وأبعـد منه ما حكاه قتـاده عن الحسن البصرى وسعيد بن جبير أن الضمير فى ﴿وَإِنَّهُ﴾ عائد على القرآن، بل الصحيح أنه عائد على عيسى عليـه الصلاة والسلام، فإن السيـاق فى ذكره ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامـة كما قال تبـارك وتعالى :﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ أى قبل موت عيسى علـيه الصلاة والسلام ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ ويويد هذا المعنى القراءة الآخرى ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أى آية للساعة خروج عيـسى ابن مريم عليه السلام قـبل يوم القيـامة، وهـكذا روى عن أبى هريرة وابن عبـاس وأبى العـالية وأبى مـالك وعكرمة والحسن وقـتاده والضحاك وغيرهم وقـد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيـامة إماماً عادالاً مقسطاً»[3]. **قلت**: وإليك بعض هذه الأحاديث التى أشار إليها الحافظ بن كثير رحمه الله.

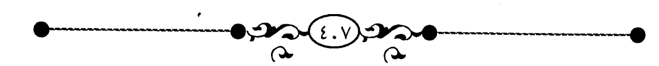
●●●●●

---

(١) حسن. رواه أحمـد (١/٣١٧-٣١٨) والطبرانى فى «الكبيـر» (١٢/ ١٥٤) (ح.١٢٧٤) وهو صـدوق حسن الحديث.

(٢) انظرتفسير الطبرى (٢٥/ ٩٠-٩١)

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ١٣٢-١٣٣)



الأحاديث المصرحة بنزول عيسى عليه السلام

عن أبى هريرة رضى اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**والذى نفسى بيده ليوشكن**[1] **أن ينزل فيكم ابن مريم حَكَماً عَدْلاً**[2] **فيكسر الصليب**[3] **ويقتل الخنزير**[4] **ويضع الحرب**[5] **ويفيض المال**[6] **حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدةُ خيراً من الدنيا وما فيها**»[7]. ثم يقول أبو هريرة: واقرأوا إن شئتم: ﴿**وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً**﴾[8] وفى رواية مسلم: «**ولتذهبن**

---

(١) أى لَيَقْرُبَنُ. وتوكيد الفعل بالنون يؤكد حتمية نزوله عليه السلام

(٢) أى حاكما عادلاً، قال الحافظ ابن حجر فى «الفتح»(٦/ ٣٥٦) والمعنى: أنه عليه السلام ينزل حاكماً بهذه الشريعة، فإن هذه الشريعة باقية لا تنسخ، بل يكون عيسى عليه السلام ينزل حاكماً من هذه الأمة»

وقال القرطبى فى «التذكرة»: ذهب قوم إلى أن بنزول عيسى عليه السلام ترتفع التكاليف لئلا يكون رسول إلى أهل ذلك الزمان يأمرهم عن اللّه وينهاهم. وهذا مردود لقوله تعالى: ﴿ وخاتم النبيين﴾ وقوله ﷺ «لا نبى بعدى» وغير ذلك من الأخبار. وإذاكان ذلك فلا يجوز أن يتوهم، أن عيسى عليه السلام ينزل بشريعة جديدة غير شريعة نبينا ﷺ، بل إذا نزل عيسى عليه السلام فإنه يكون يومئذ من أتباع محمد ﷺ كما أخبر ﷺ حيث قال لعمر: «لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعى» فعيسى عليه السلام إنما ينزل مقرراً لهذه الشريعة، ومجددا لها، إذهى آخر الشرائع ومحمد ﷺ آخر الرسل»

(٣) قال الحافظ ابن حجر: أى يبطل دين النصرانية، بأن يكسر الصليب حقيقة، ويبطل ما تزعمه النصارى من تعظيمه.

(٤) قال الحافظ: « أي يأمر بإعدام الخنزير، ومبالغة فى تحريم أكله. وفيه توبيخ عظيم للنصارى الذين يَدَّعون أنهم على طريقة عيسى عليه السلام، ثم يستحلون أكل الخنزير، ويبالغون فى محبته»اه من «الفتح» (٤/ ٣٤٣).

(٥) أى الشيوع الإسلام وانقراض الكفر وفي رواية: «ويضع الجزية»أي عن أهل الكتاب ويحملهم على الإسلام ولا يقبل منهم غير الإسلام أو القتل، فيصير الدين واحداً فلا يبقى أحد من أهل الذمة ليؤدى الجزية. قال الحافظ فى «الفتح» (٦/ ٣٥٦): ويؤيده أن عند الإمام أحمد من وجه آخر عن أبى هريرة: «وتكون الدعوى -أى الملة- واحدة».

(٦) أى: يكثر المال جداً وسبب كثرته: نزول البركات وتوالى الخيرات بسبب العدل وعدم الظلم وحينئذ تخرج الأرض كنوزها وتقل الرغبات فى اقتناء المال لعلم الناس بقرب الساعة

(٧) وذلك أنهم حينئذ لا يتقربون إلى اللّه إلا بالعبادة، ويرغب الناس فى أمر اللّه يزهدون فى الدنيا، حتى تكون السجدة الواحدة أحب إليهم من الدنيا وما فيها، قال الحافظ فى «الفتح»: «فإنه يشير إلى صلاح الناس وشدة إيمانهم وإقبالهم على الخير، فهم لذلك يؤثرون الركعة الواحدة على جميع الدنيا. والسجدة تطلق ويراد بها الركعة».

(٨) رواه البخارى (٤/ ٤١٤) كتاب البيوع، باب: قتل الخنزير. ومسلم (٣٨٢, ٣٨٣)كتاب الإيمان، باب: نزول عيسى بن مريم حاكماً بشريعة نبينا محمد ﷺ والترمذى (٢٢٣٣) كتاب الفتن، باب: ما جاء فى نزول عيسى بن مريم عليه السلام

الشحناء والتباغض والتحاسد[١]»[٢].

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**الأنبياء إخوةٌ لعَـلاَّت أمُهَّاتُهم ودينهم واحـد[٣] وأنا أولى الناس بعيـسـى بن مـريم، ولأنه لن يكَن بينىَ وبيـنه نبى، وإنه نازل،فإذا رأيتموه رجلاً مربوعاً إلى الحمرة والبياض[٤] عليه ثوبان مُمَصَّران[٥] كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل[٦] فيدق الصليب [٧] ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويدعو الناس إلى الإسلام، فيهلك الله فى زمانه الملل كلَّها إلا الإسلام، ويهلك الله فى زمانه المسيح الدجال وتقع الأمنة[٨] على الأرض،حتى ترتع [٩] الأسود مع الإبل والـنّمارُ مع البقـر، والذئاب مع الغنم ويلعب الصبيان بالحيَّـات لا تضرهم، فيمكـثَ فى الأرضَ أربعين سنة، ثم يُتوفَّى ويُصلىَ عليه المسلمون ويدفنوه**»[١٠].

وعن أبى هريرة رضى الله عـنه أن رسول الله ﷺ قـال: «**والذى نفسى بيـده لَيَهِلَّنَّ[١١] ابن مريم بفخ الروحاء [١٢] حاجاً أو معتمراً أو لَيَثْنِيَنَّهُمَا**[١٣]»[١٤].

---

(١) إنما تزول هذه الأمراض من القلوب والنفوس لأول حُبَّ الدنيا الذى هو سبب العداوات

(٢) رواه مسلم (٣٨٤) كتاب الريمان، باب نزول عيسى ابن مريم

(٣) العلاَّت : الضرائر والأخـوة من أب واحد،وأمهاتهم متعـددة أى الأنبياء كالأخوة الذين أمهاتـهم متعددة وأبوهم واحد ومعنى الحديث أن أصل دينهم واحد وهو التوحيد وإن اختلفت فروع الشرائع فشبه ﷺ ما هو المقصود من بعثة جملة الأنبياء من التوحيد وغيره من أصول الدين الأب وشبه فروع الدين المختلفة بالأمهات ،فهم بعثوا متفقين فى أصول الدين وإن اختلفوا فى فروع الشريعة والأحكام

(٤) أى هو معتدل القامة وهو إلى الطول أقرب ولونه أقرب إلى الحمرة والبياض

(٥) أى فيهما صُفْرَةٌ خفيفة

(٦) هذا كناية عن النظافة والنضارة.

(٧) أى يكسره

(٨) أى الأمان والسلام

(٩) أى تلعب وتأتلف.

(١٠) صـحيـح رواه أحمـد (٢/ ٤٠٦)،٤٣٧) وأبوداود (٤/ ٤٣) وابن حـبـان(٦٨٢١-الإحسـان) والحـاكم (٢/ ٥٩٥) وصححه ووافقه الذهبى

(١١)ليهلن: أى يرفع صوته بالتلبية يقول: لبيك اللهم لبيك

(١٢) فج الروحاء : الفج الطريق بين الجبلين والروحاء طريق يبعد عن المدينة ستة أميال

(١٣) ليثنينهما: أى يحرم بالحج والعمرة معاً.

(١٤) رواه مسلم (٢٩٧٨) كتـاب الحج، باب : إهلال النبى ﷺ وهديه، وأحمد (٢/ ٢٤٠, ٢٧٢, ٥٤٠) وابن منده فى «الإيمان» (١١/ ٥١٧).

قال الشنقيطى :«فأى دليل أصرح فى نزوله وكونه لا زال حياً من إقسام النبى عليه الصلاة والسلام على أنه سيهل حاجاً أومعتمراً مرة أو مرتين»[١].

مدة مكث عيسى عليه السلام فى الأرض

يمكث عيسي عليه السلام فى الأرض مدة أربعين عاماً ثم يُتوفى ويصلى عليه المسلمون . وقد صرحت الأحاديث الصحيحة بذلك.

فعن عائشة رضى الله عنها قالت : دخل عليّ رسول اللّه ﷺ وأنا أبكي فقال لى: «**ما يبكيك**» قلت : يا رسول اللّه ذكرتُ الدجالَ فبكيت، فقال رسول اللّه ﷺ: «**إن يخرج وأنا حى كفيتكموه،وإن يخرج الدجال بعدى فإن ربكم عز وجل ليس بأعور، إنه يخرج فى يهوديه أصبهان، حتى يأتى المدينة فينزل ناصيتها ولها يومئذ سبعة أبواب على كل نَقْبٍ منها ملكان، فيخرج إليه شرار أهلها حتى يأتى الشام فينزل عيسى عليه السلام فيقتله ثم يَمكث عيسى عليه السلام فى الأرض أربعين سنة إماماً عدلاً وحكماً مقسطاً**»[٢].

وفى حديث أبى هريرةُ عن رسول اللّه ﷺ :«..**فيمكث فى الأرض أربعين سنة ثم يُتوفى ويصلى عليه المسلمونه ويدفنونه**» [٣].

(**فائدة**) ورد فى حديث أن عيسى عليه السلام سوف يدفن بجوار قبر النبى ﷺ ولكن هذا الحديث لم يصح عن النبى ﷺ، قال الحافظ فى «الفتح» روى عن عائشة فى حديث لا يثبت أنها استأذنت النبىﷺ إن عاشت بعده أن تدفن إلى جانبه، فقال لها : وأنى لك بذلك؟ وليس فى ذلك الموضع إلا قبرى وقبر أبى بكر وعمر وعيسى بن مريم[٤].

●●●●●

---

(١) زاد المسلم (٤/ ٧٥).

(٢) حسن. رواه ابن حبان(١٩٠٥-موارد) .

(٤) «فتح البارى» (٧/ ٥٤) قلت: وقال عبد الله بن سلام رضى الله عنه : يدفن عيسى بن مريم مع رسول الله ﷺوصاحبيه، فيكون قبره رابعاً» رواه البخارى فى «التاريخ الكبير» (١/ ٢٦٣) وقال: هذا لا يصح عندى» قلت :وقد جاء هذا الخبر أيضاً عن سعيد بن المسيب رحمه الله من وجه ضعيف كما قال الحافظ فى «الفتح» (٧/ ٥٤).



قصة
ذى القرنين



قصة ذى القرنين

قال الله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ [الكهف : ٨٣-٩٨]



من هم الذين سألوا الرسول ﷺ عن ذى القرنين ؟

ذهب أهل العلم إلى أن الذين سألوا الرسول ﷺ عن ذى القرنين هم اليهود وقد استدل من قال بهذا القول بحديث ضعيف لا يصح ، قال الشوكانى : أخرج ابن عبد الحكم فى فتوح مصر، وابن جرير، وابن أبى حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقى فى الدلائل. عن عقبة بن عامر الجهنى حديثاً يتضمن أن نفراً من اليهود سألوا النبي ﷺ عن ذى القرنين . فأخبرهم بما جاؤوا له ابتداء وكان فيما أخبرهم به :« أنه كان شاباً من الروم، وأنه بنى الإسكندرية ، وأنه علا به ملك فى السماء، وذهب به إلى السد » إسناده ضعيف وفى متنة نكارة، وأكثر ما فيه أنه من أخبار بنى إسرائيل [1] ، قال الآلوسى : والسائلون فى المشهور قريش بتلقين اليهود[2] .

(١) «فتح القدير» الشوكانى (٣/٣١٤) وتفسير ابن كثير (٣/٩١٠٦)

(٢) «روح المعانى » الآلوسى (١٦/٢٤) ط دار الفكر بيروت

من هو ذي القرنين ؟

ذو القرنين هو ملك صالح عادل وأنه قد بلغ أقصى المشرق والمغرب والشمال والجنوب وهذا القدر المعمور من الأرض .

ويرى كثير من العلماء والمؤرخين أن ذى القرنين هو الإسكندر الكبير المقدونى ، وقد كان قبل الميلاد بنحو ٣٣٠ سنة وكان من أهل مقدونيا وحارب الفرس واستولى على ملك دارا وتزوج ابنته، ثم سافر إلى الهند وحارب هناك، ثم حكم مصر وبنى الإسكندرية ولكن هذا القول فيه إشكال لأن الإسكندر المقدونى كان تلميذا لأرسطاطاليس الفيلسوف المسمى بالمعلم الأول . وكان على مذهبه فتعظيم الله إياه يوجب الحكم بأن مذهب أرسطاليس حق وصدق وذلك مما لا سبيل إليه[1] . وهذا مما يدل على أن ذا القرنين ليس هو الإسكندر المقدونى كما قيل. وهذا ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية [2] والحافظ بن حجر [3] وابن كثير تفسيره[4] وقال ابن القيم فى « **إغاثة اللهفان**»فى الكلام على الفلاسفة : ومن ملوكهم الإسكندر المقدونى وهو ابن فيلبس وليس بالإسكندر ذى القرنين الذي قص الله تعالى نبأه فى القرآن .بل بينهما قرون كثيرة وبينهما فى الدين أعظم تباين، فذو القرنين كان رجلاً صالحاً موحداً لله تعالى يؤمن بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وكان يغزو عبّاد الأصنام وبلغ مشارق الأرض ومغاربها، وبنى السد بين الناس وبين يأجوج ومأجوج، وأما هذا المقدونى، فكان مشركاً يعبد الأصنام هو وأهل مملكته وكان بينه وبين المسيح نحو ألف وستمائة سنة، والنصارى تؤرخ له، وكان أرسطاطاليس وزيره وكان مشركاً يعبد الأصنام ومن المعاصرين الذين ذهبوا إلى هذا القول سيد قطب فى تفسيره «**الظلال**» حيث قال : والتاريخ المدون يعرف ملكاً اسمه الإسكندر ذو القرنين ومن المقطوع به أنه ليس ذا القرنين المذكور فى القرآن، فالإسكندر الإغريقى كان وثنياً ،وهذا الذي يتحدث عنه القرآن مؤمن بالله موحد معتقد بالبعث والآخرة [5] .

---

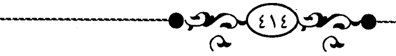
(١) انظر «فتح القدير»(٣/ ٣١١)

(٢) انظر «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٣٣٢).

(٣) انظر «فتح البارى» (٦/ ٣٨٢)

(٤) (٣/ ١٠٣).

(٥) «فى ظلال القرآن» (٤/ ٢٢٨٩)



هل ذو القرنين ملك من ملوك حِمْيَر ؟

قال أبو الريحان البيرونى المنجم فى كتابه :«الآثار الباقية عن القرون الخالية» إن ذا القرنين المذكور فى القرآن كان من حمير مستدلا بإسمه . فملوك حمير كانوا يلقبون بذى كذى نواس وذى يزن، وكان اسمه أبو بكر بن إفريقش، ،وأنه رحل بجيوشه إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط، فمر بتونس ومراكش وغيرهما، وبنى مدينة إفريقية فسميت القارة كلها باسمه، وسمى ذا القرنين لأنه بلغ قرنى الشمس .

وهذا الذى قاله البيرونى لا نستطيع الجزم به فالله أعلم بصحته وانظر مناقشة الآلوسى لهذا القول واستبعاده له فى تفسيره «روح المعانى» .

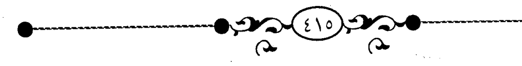
هل ذو القرنين هو قورش ملك الفرس؟

تزعم اليهود أن ذا القرنين هو قورش ملك الفرس الشهير، وقد قالوا ذلك لأنه هو الذى خلصهم من الأسر البابلى عندما استولى بنوخذ نصر على مملكتهم سنة ٥٧٩ ق.م وسبى منهم عدة آلاف وأرسلهم إلى بابل عاصمة ملكه .

وهذا القول هو أبعد الأقوال عن الصحة للاختلاف الواضح بين سيرة ذى القرنين الملك الصالح العادل الذى ملك المعمورة، وبين سيرة قورش الملك الفارسى الذى لم يكن على الإيمان ولم يبلغ ملكه ما بلغ ملك ذى القرنين

والخلاصة أننا لا نستطيع الجزم بشخصية ذى القرنين إلا بدليل من الكتاب أو السنة الصحيحة، وحيث لا يوجد هذا الدليل فلا يسعنا إلا أن نكل علمه إلى اللّه تعالى علام الغيوب .

●●●●●



سبب تسميته بذى القرنين

قال ابن الجوزى : وفى علة تسميته بذى القرنين عشرة أقوال .

أحدها: أنه دعا قومه إلى عبادة الله تعالى، فضربوه على قرنه فهلك، فغبر زمانا، ثم بعثه الله، فدعاهم إلى الله فضربوه على قرنه الآخر، فذانك قرناه، قاله عليه السلام.

الثانى : أنه سمىَ بذى القرنين؛ لأنه سار إلى مغرب الشمس وإلى مطلعها، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

والثالث: لأن صفحتى رأسه كانتا من نحاس.

واالرابع : لأنه رأى فى المنام كأنه امتد من السماء إلى الأرض، وأخذ بقرنى الشمس، فقصَّ ذلك على قومه، فسمى بذى القرنين .

والخامس : لأنه ملك الروم وفارس.

والسادس : لأنه كان فى رأسه شبه القرنين ،رويت هذه الأقوال الأربعة عن وهب ابن منبهّ.

والسابع: لأنه كانت له غديرتان من شعر، قاله الحسن. قال ابن الأنبارى : العرب تسمى الضفيرتين من الشعر غديرتين ،وجميرتين، وقرنين ، قال : ومن قال: سمى بذلك؛ لأنه ملك فارس والروم، قال لأنهما عاليان على جانبين من الأرض يقال لهما قرنان.

والثامن : لأنه كان كريم الطرفين من أهل بيت ذو شرف.

والتاسع: لأنه انقرض فى زمانه قرنان من الناس وهو حىّ.

والعاشر: لأنه سلك الظلمة والنور، ذكر هذه الأقوال الثلاثة أبو إسحاق الثعلبى(١).

وقد اختلف فى اسمه فروى الزبير بن بكار عن ابن عباس : كان اسمه عبد الله ابن الضحاك بن معد، وقيل: مصعب بن عبد الله بن قنان بن منصور بن عبد الله بن الأزد بت عون بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن قحطان. وقيل :كان

(١) «زاد المسير فى علم التفسير» ابن الجوزى (٥/ ١٨٣-١٨٤) والمكتب الإسلامى .



اسمه مرزبان بن مرزبة، ذكره ابن هشام، وذكـر في مواضع آخر: أن اسمه المصعب بن مرائد وهو أول التبابعة. وقيل: إنه إفريـدون بن إسفيان، وذكر الدارقطنى وابن ماكولا أن اسـمـه هرمس ويقـال: هرويس بن قـيطون بن كـشلوخين بن يـونان بن يافث بن نوح[١]. وجميع هذه الأقوال قيلت: بالاجتهاد والله أعلم بالصواب منها.

هل كان ذو القرنين نبياً ؟

ذهب بعض أهل العلم أن ذى القرنين كان نبياً **قال الرازى** : قوله تعالى :﴿ **قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا** ﴾، يدل على أنه تعالى تكلم معه من غير واسطة وذلك يدل على أنه كـان نبيـاً وحَمْلُ هذا الـلفظ على أن المراد أنه خاطبـه على ألسنة بعض الأنبياء فـهو عدول عن الظاهر [٢] ،**وقال أبو حيان** : ظاهر قوله ﴿ **قُلْنَا**﴾ أنه أوحى الله إليـه على لسان مَلَك، وقيـل : كلمه كفـاحاً من غيـر رسول كـما كلم موسى عليه السلام، وعلي هذين القولين يكون نبيـاً، ويبعد ما قاله بعض المتأولين: أنه إلهام وإلقـاء فى روعه؛ لأن مثل هذا التـخييـر لا يكون إلا بوحى إذ التكاليف وإزهاق النفوس لا تتحقق بالإلهام إلا بالإعلام [٣]،وقد روى أبو الشيخ فى كتابه «العظمة» عن على بن أى طالب أنه كـان يقول بنبوته، وإلى ذلك ذهب مـقاتل والضـحاك . وهناك قول آخر عن على بن أبى طالب بعده نبوته ابن عـبد الحكم فى «فتوح مصر» وابن أبى عاصم فى «السنة» .

قال الألوسى : وإلى أنه ليس بنبى ذهب الجمهور، وتوقف بعضهم لما أخرجه عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والحاكم وصـححه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :«**ما أدرى أتبعٌ كان لعيناً أم لا، وماأدرى أذو القرنين كان نبياً أم لا، ومـا أدرى الحـدود كفـارات لأهلهـا أم لا**» [٤] ،وأنت تعلم أن هذا النفي لم يكن ليستمر لرسول الله ﷺ فيمكن أن يكون درى عليه الصلاة والسلام فيما بعد على أنه لم يكن نبياً كمـا يدل عليه ما روى عن على كرم الله تعالى وجهـه فإنه لم يكن يقول ذلك إلا عن سماع [٥].

(١) « البداية والنهاية» (٢/ ١٢٤-١٢٥) باختصار يسير.
(٢) «التفسير الكبير» فخر الدين الرازى(١٠/ ٣٧٦) ط دار الغد العربى
(٣) «تفسير البحر المحيط»لأبى حيان الأندلسى (٦/ ١٥١-١٥٢) ط دار الكتب العلمية بيروت.
(٤) صحيح رواه الحاكم (١/ ٣٦) وعنه البيهقى (٨/ ٣٢٩)وابن عبد البر فى «جامع بيان العلم» (٢/ ٥٠) وصححه الحاكم ووافقه الذهبى.
(٥) «روح المعانى» الآلوسى (١٦/ ٣٠-٣١).

قلت : وأولى الأقوال فى هذه المسألة هو التوقف فيها وعدم القطع بأحد الأمرين لتعارض الأدلة .

وأما ما استدل به القائلون بنبوة ذى القرنين، فقد علّق القاسمى على هذا القول بقوله: ولا يخفى ضعف الاستدلال بهذه الأدلة على نبوته؛ لأن مقام إثباتها يحتاج إلى تنصيص وتخصيص، وأما التعلق والجرى وراء العموميات، لاستفادة مثل ذلك، فغير مقنع(١).

وقال النسفى: إن كان نبياً فقد أوحى الله إليه بهذا [أى بقوله: ﴿ **قلنا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ** ...﴾ الآية] وإلا فقد أوحى إلى نبى فأمره النبى به(٢).



تمكين الله لذى القرنين فى الأرض

قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ** ﴾، أى ملكه الله تعالى ومكنه من النفوذ أقطار الأرض وانقيادهم له ﴿**وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا** ﴾، أى أعطاه الله من الأسباب الموصلة لما وصل إليه ما به يستعين على قهر البلدان وسهولة الوصول إلى أقاصى العمران، وعمل بتلك الأسباب التى أعطاه الله إياها، أى استعلها على وجهها، فليس كل من عنده شىء من الأسباب يسلكه ولا كل أحد يكون قادراً على السبب، فإذا اجتمع القدرة على السبب الحقيقى والعمل به حصل المقصود، وإن عُدما أو أحدهما لا يحصل. وهذه الأسباب التى أعطاه الله إياها لم يخبرنا الله ولا رسوله بها ولم تتناقلها الأخبار على وجه يفيد العلم، فلهذا لا يسعنا غير السكوت عنها وعدم الالتفات لما يذكره النقلة للإسرائيليات ونحوها، ولكننا نعلم بالجملة أنها أسباب قوية كثيرة داخلية وخارجية بها صار له جند عظيم ذو عدد ونظام، وبه تمكن من قهر الأعداء ومن تسهيل الوصول إلى مشارق الأرض ومغاربها وأنحائها، فأعطاه الله ما بلغ به مغرب الشمس حتى رأى فى مرأى كأنها تغرب فى عين حمئة أى سوداء، وهذا المعتاد لمن كان بينه وبين أفق الشمس الغربى ماء رآها تغرب فى نفس الماء وإن كانت فى غاية الارتفاع، ووجد عندها أى عند مغربها قوما ﴿**قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا** ﴾، أى إما أن تعذبهم بقتل أو ضرب أو أسر ونحوه، وإما أن تحسن إليهم، فخير بين الأمرين؛ لأن الظاهر أنهم كفار أو فساق أو فيهم شىء من ذلك؛ لأنهم لو

(١) «محاسن التأويل» القاسمى (١١/ ٤١١٠)
(٢) تفسير النسفى (٣/ ٢١٠) على هامش تفسير الخازن.

كانوا مؤمنين غير فساق لم يرخص له فى تعـذيبهم، فكان عند ذى القرنين من السياسة الشرعية ما استحق به المدح والثناء لتوفـيق الله له لذلك فقال سأجعلهم قسمين ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ بالكفر ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا﴾، أى تحصل له العقوبتان عقوبة الدنيـا، وعقوبة الآخرة :﴿وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى﴾ أى فله الجنة والحـالة الحـسنة عند الله جـزاء يوم القـيامـة ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾، أى وسنحـسن إليه ونلطف له بالقـول ونيسـر له المعاملة، وهذا يدل على كـونه من الملوك الصالحين الأولياء العـادلين العالمين حيث وافق مرضاة الله فى مـعاملة كل أحد بما يليق بحاله.

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾، أى لما وصل إلى مغرب الشمس كرّ راجعاً قاصـداً مطلعها، متبعا للأسـباب التى أعطاه الله، فوصل إلى مطلع الشمس فوجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا، أى وجدها تطلع على أناس ليس لهم سـتر من الشـمس إما لعـدم استـمدادهم فى المسـاكن؛ وذلك لزيادة همـجيتـهم وتوحشهم، وإما لكون الشمس دائمة عندهم لا تغـرب غروبا يذكر كما يوجد ذلك فى شـرق افريقـيا الجنوبى، فـوصل إلى موضع انـقطع عنه علم أهل الأرض، فضـلا عن وصولهم إليه بأبدانهم، ومع هذا فكل هذا بتقـدير الله له ،وعلمه به، ولهذا قال كذلك وقد أحطنا بما عنده من الخير والأسباب العظيمة وعلمنا معه حيثما توجه وسار ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ قال المفـسرون: ذهب متوجـهاً من المشرق قـاصداً الشمال فوصل إلى ما بين السدين وهما سدان كانا معروفين فى ذلك الزمان، سدان من سلاسل الجبال المتصلة يمنة ويسرة حتى تتصل بالبحار بين يأجوج ومأجوج وبين الناس، وجد من دون السدين قوما لا يكادون يفقهون قولا لعـجمة ألسنتهم واستعجام أذهانهم وقلوبهم، وقد أعطى الله ذا القرنين من الأسـباب العلمية ما فـقه به ألسنة أولئك القوم وفقههم وراجعهم وراجعوه فاشتكوا إليه ضرر يأجوج ومأجوج وهما أمتان عظيمتان من

بنى آدم فقالوا: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالقتل وأخذ الأنوال وغير ذلك ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا ﴾، أى جُعْلاً ﴿عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ ودل ذلك على عدم اقتدارهم بأنفسهم على بنيان السد، وعرفوا اقتدار ذى القرنين عليه فبذلوا له أجرة ليفعل ذلك وذكروا له السبب الداعى وهو إفسادهم فى الأرض، فلم يكن ذو القرنين ذا طمع ولا رغبة فى الدنيا ولا تاركا لإصلاح حال الرعية، بل قصده الإصلاح، فلذلك أجاب طلبتهم لما فيها من المصلحة ولم يأخذ منهم أجرة وشكر ربه على تمكينه واقتداره فقال لهم ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾، أى مما تبذلون لى وتعطونى، وإنما أطلب منكم أن تعينونى بقوة منكم بأيدكم ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ أى مَنعًا من عبورهم عليكم ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ أى: الحديد، فأعطوه ذلك ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ ،أى الجبلين اللذين بنى بينهما السد ﴿قَالَ انفُخُوا﴾ النار أى أوقدوها إيقادا عظيماً واستعملوا لها المنافيخ لتشتد فتذيب النحاس، فلما ذاب النحاس الذى أريد أن يلصقه بين زبر الحديد ﴿قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ أى نحاساً مذاباً، فأفرغ عليه القطر فاستحكم السد استحكاما هائلا وامتنع به من وراءه من الناس من ضرر يأجوج ومأجوج ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾، أى فما لهم استطاعة ولا قدرة على الصعود عليه لارتفاعه ولا على نقخ لإحكامه وقوته، فلما فعل هذا الفعل الجميل والأثر الجليل أضاف النعمة إلى موليها وقال: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ أى من فضله وإحسانه علىّ، وهذه حال الخلفاء والصالحين إذا منّ الله عليهم بالنعم الجليلة ازداد شكرهم وإقرارهم واعترافهم بنعمة الله كما قال سليمان عليه السلام لما حضر عنده عرش ملكة سبأ مع البعد العظيم قال: ﴿هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر﴾ بخلاف أهل التجبر واليكبر والعلو فى الأرض فإن النهم الكبار تزيدهم أشراً وبطراً كما قال قارون لما آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة قال: ﴿إنما أوتيته على علم عندى﴾ وقوله :﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي ﴾ لخروج يأجوج ومأجوج ﴿جَعَلَهُ﴾ ذلك السد المحكم المتقن ﴿ دَكَّاءَ ﴾، دكه فانهدم واستوى هو والأرض[1] ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ كائنًا لا محالة[2].

(١) «تيسير الكريم الرحمن» عبد الرحمن بن ناصر السعدى (٥/٣٦ ـ ٣٩).
(٢) تفسير ابن كثير (٣/١٠٨).

قصة
يأجوج وماجوج



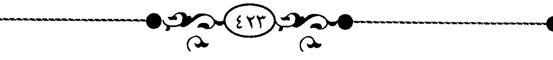
قصة يأجوج ومأجوج

يأجوج ومأجوج قبيلتان من بنى آدم، ثم من بنى يافث بن نوح. ذكر ابن عبد البر الإجماع عليه. وقيل: من الترك وقيل: من الديلم. وقال الحافظ: والأول هو المعتمد وقال: هما اسمان أعجميان عند الأكثر .. واختلف فى اشتقاقهما فقيل: من أجيج النار وهو إلتهابها وقيل: من الأجّة بالتشديد وهى الاختلاط أو شدة الحر وقيل: من الأج وهو سرعة العدو وقيل: من الأجاجة وهو الماء الشديد الملوحة وقيل: يأجوج من ماء إذا اضطرب .. وجميع ما ذكر من الاشتقاق مناسب لحالهم، ويؤيد الاشتقاق وقول من جعله من ماج إذا اضطرب قوله تعالى: ﴿**وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ**﴾ وذلك حين يخرجون من السد»[1] ومسكنهم فى أقصى الشرق، وقد ذكر الناس فى أوصافهم وأشكالهم أقوالاً عديدة مما يخيل إلى السامع أنهم ليسوا من طبيعة البشر، وهذا كله لا أصل له، **قال الحافظ بن كثير**: ومن زعم أن يأجوج ومأجوج خلقوا من نطفة آدم حين احتلم فاختلطت بتراب فخلقوا من ذلك وأنهم ليسوا من حواء فهو قول حكاه الشيخ أبو زكريا النواوى فى شرح مسلم وغيره وضعفوه، وهو جدير بذلك، إذ لا دليل عليه بل هو مخالف لما ذكرناه من أن جميع الناس اليوم من ذرية نوح بنص القرآن وهكذا من زعم أنهم على أشكال مختلفة وأطوال متباينة جدًا فمنهم من هو كالنخلة السحوق ومنهم من هو غاية فى القصر، ومنهم من يفترش أذنًا من أذنيه ويتغطى بالأخرى فكل هذه أقوال بلا دليل ورجم بالغيب بغير برهان، والصحيح أنهم من بنى آدم وعلى أشكالهم وصفاتهم، وقد قال النبى ﷺ: «إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعًا». ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن[2]، وهذا فيصل فى هذا الباب وغيره[3].

«وما يذكر فى الأثر عن وهب بن منبه فى أشكالهم وصفاتهم وآذانهم وطولهم وقصر بعضهم، ففيه غرابة ونكارة، وروى ابن أبى حاتم عن أبيه فى ذلك أحاديث غريبة لا تصح أسانيدها»[4].

وقد جعل الله سبحانه وتعالى من علامات القيامة الكبرى خروج يأجوج ومأجوج

(1) انظر «فتح البارى» (١٣/ ١٠٦).
(2) رواه مسلم.
(3) «البداية والنهاية» (٢/ ١٣٠).
(4) انظر تفسير ابن كثير (٣/ ١٠١).



من خلف هذا السد، فيعيشون فى الأرض فسادًا وتمتلئ بهم الأرض ولا يمرون على شيء فى طريقهم إلا أتوا عليه وتركوا الأرض من خلفهم خرابًا.

وقد أشار الله إلى خروجهم بقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾[الأنبياء: ٩٦، ٩٧].

يأجوج ومأجوج شَرٌّ قد اقترَبَ

عن أم حبيبة بنت أبى سفيان عن زينب ابنة جحش أن رسول الله ﷺ دخل عليها يومًا فزعًا يقول: «**لا إله إلا الله، ويل العرب من شر قد اقترب. فُتح اليوم من ردْم يأجوج ومأجوج مثل هذه**» ـ وحلق بأصبعيه الإبهام والتى تليها ـ قالت ابنة جحش: فقلت: يا رسول الله أفنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم إذا كثر الخبث**»(١).

قال الحافظ: خص العرب بذلك؛ لأنهم كانوا حينئذ معظم من أسلم.

والمراد بالردم: السد الذى بناه ذو القرنين(٢).

قال ابن العربى: فيه البيان بأن الخيِّر يهلك بهلاك الشرير إذا لم يغير عليه خبثه، وكذلك إذا غير عليه لكن حيث لا يجدى ذلك ويصر الشرير على عمله السيئ، ويفشو ذلك ويكثر حتى يعم الفساد فيهلك حينئذ القليل والكثير، ثم يحشر كل أحد على نيته. وكأنها فهمت من فتح القدر المذكور من الردم أن الأمر إن تمادى على ذلك اتسع الخرق بحيث يخرجون وكان عندها علم أن فى خروجهم على الناس إهلاكًا عامًا لهم».

• • • •

(١) رواه البخارى (٦/ ٣٧١) كتاب الأنبياء، باب «قصة يأجوج ومأجوج» ومسلم (٧٠٩٥، ٧٠٩٧) كتاب الفتن، باب اقتراب الفتن ردم يأجوج ومأجوج. والترمذى (٢١٨٧) كتاب الفتن، باب: ما جاء فى خروج يأجوج ومأجوج، وابن ماجه من «الفتن» (٣٩٥٣) باب: ما يكون من الفتن.
(٢) فتح البارى (١٣/ ١١٧).

كيفية خروج يأجوج ومأجوج

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن يأجوج ومأجوج يحفرون كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم: ارجعوا فسنحفره غداً، فيعيده الله أشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم، وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، وقال الذى عليهم: ارجعوا فستحفره غداً إن شاء الله تعالى، واستثنوا، فيعودون إليه، وهو كهيئة يوم تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناس، فينشفون الماء ويتحصن الناس منهم فى حصونهم، فيرمون بسهامهم إلى السماء فترجع عليها الدم الذى احفظ**[1]**، فيقولون: قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء، فيبعث الله عليهم نغفاً فى أقفائهم فيقتلون بها**»، **قال رسول الله ﷺ**: «**والذى نفسى بيده أن دواب الأرض لتسمن وتشكر شكراً من لحومهم**» [2].

قال الحافظ فى «الفتح»: قال ابن العربى: «فى هذا الحديث ثلاث آيات: الأولى: أن الله منعهم أن يوالوا الحفر ليلاً ونهاراً، الثانية: منعهم أن يحاولوا الرقى على السد بسلم أو آلة فلم يلهمهم ذلك ولا علمهم إياه، ويحتمل أن تكون أرضهم لا خشب فيها ولا آلات تصلح لذلك قلت: وهو مردود، فإن فى خبرهم عند وهب فى المبتدأ أن لهم أشجاراً وزروعاً وغير ذلك من الآلات فالأول أولى. . .

الثالثة: أنه صدهم عن أن يقولوا إن شاء الله حتى يجىء الوقت المحدود. قلت: وفيه أن فيهم أهل صناعة وأهل ولاية وسلاطة ورعية تطيع من فوقها، وأن فيهم من يعرف الله ويقر بقدرته ومشيئته، ويحتمل أن يكون تلك الكلمة تجرى على لسان ذلك الوالى من غير أن يعرف معناها فيحصل المقصود ببركتها» [3].

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يفتح يأجوج ومأجوج، يخرجون على الناس كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿من كل حدب ينسلون﴾ فيفشون فى الأرض وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم،**

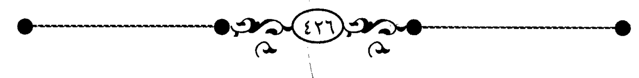
(1) احفظ أى امتلأ، أى ترجع ممتلئة دماً.

(2) صحيح: رواه أحمد (٢/ ٥١٠ ـ ٥١١) والترمذى (٢١٥٣) وابن ماجه (٤٠٨٠) وابن حبان (١٩٠٨ ـ موارد) والحاكم (٤/٤٨٨) وقال صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبى.

(3) «فتح البارى (١٣/١١٦ ـ ١١٧).



ويضمون إليهم مواشيهم، ويشربون مياه الأرض حتى أن بعضهم ليمر بالنهر، فيشربون ما فيه حتى يتركوه يبساً، حتى أن من بعدهم ليمر بذلك النهر، فيقول: قد كان هنا مرة ماء، حتى إذا لم يبق من الناس إلا أحد فى حصن أو مدينة، قال قائلهم: هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم، بقى أهل السماء، قال: ثم يهز أحدهم حربته ثم يرمى بها إلى السماء، فترجع مخضبة دماً للبلاء والفتنة فبينما هم على ذلك إذ بعث الله دوداً فى أعناقهم كنغف الجراد الذى يخرج فى أعناقهم، فيصبحون موتى لا يسمع لهم حس، فيقول المسلمون: ألا رجل يشرى نفسه، فينظر ما فعل هذا العدو، قال: فيتجرد منهم محتسباً لنفسه قد أظنها على أنه مقتول، فينزل فيجدهم موتى بعضهم على بعض فينادى: يا معشر المسلمين: ألا أبشروا، فإن الله قد كفاكم عدوكم، فيخرجون من مدائنهم وحصونهم، ويسرحون مواشيهم، فما يكون لا رعى إلا لحومهم، فتشكر عنه كأحسن ما تشكر عن شر من النبات أصابته قط»[1].



(١) حسن رواه أحمد (٣/ ٧٧) وابن ماجه (٤٠٧٩) وابن حبان (١٩٠٩ ـ موارد) والحاكم (٢/ ٤٥) وحسنه الألبانى فى «الصحيحة» (١٧٩٣).

يأجوج ومأجوج وعيسى بن مريم عليه السلام

يكون خروج يأجوج ومأجوج بعد نزول عيسى عليه السلام، ويتوجه عيسى عليه السلام إلى الله تعالى بأن يهلكهم ويستجيب الله لدعائه، ففى حديث النواس بن سمعان رضى الله عنه. عن النبى ﷺ: «. . . **ثم يأتى عيسى قوم قد عصمهم الله منه (أى من الدجال) فيمسح عن وجوههم (١) ويحدثهم بدرجاتهم فى الجنة، فبينما هو كذلك أن أوحى الله إلى عيسى عليه السلام أنى قد أخرجت عباداً لى لا يدان لأحد بقتالهم (٢) فحرز عبادى إلى الطور (٣)**.

ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون (٤) فيَمُرُّ أوائلهم على بحيرة طبرية (٥) فيشربون ما فيها ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرةً ماءٌ، ويُحْصر نبى الله عيسى عليه السلام وأصحابه (٦) ،حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم (٧) فيرغب نبى الله عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الله تعالى (٨) فيرسل الله عليهم النغف فى رقابهم (٩) فيصبحون فَرْسى (١٠) كموت نفس واحدة. ثم يهبط نبى الله عيسى عليه السلام إلى الأرض فلا يجدون فى الأرض (١١) موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم (١٢) فيرغب نبى الله عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيراً كأعناق البخت(١٣) فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله.

---

(١) قال على القارى رحمه الله: أى يزيل عن وجوههم ما أصابها من غبار سفر الغزو مبالغة فى إكرامهم، أو المعنى: يكشف ما نزل بهم من آثار الكآبة والحزن على وجوههم بما يسرهم من خبره لهم بقتل الدجال.

(٢) أى: لا قدرة ولاطاقة لأحد بمقاتلتهم.

(٣) أى: ضمهم إلى الطور واجعله لهم حرزاً. والطور هو الجبل الذى ناجى عليه موسى ربه وهو بالقرب من مصر عند موضع يسمى مدين. كما قال ياقوت فى «معجم البلدان».

(٤) الحدب المرتفع من الأرض وينسلون: يسرعون. يعنى أنهم يتفرقون فى الأرض فلا ترى مرتفعاً من الأرض إلا وقوم منهم يهبطون منه مسرعين في المشى إلى الفساد.

(٥) هى بحيرة فى طرف جبل. وجبل الطور مطلٌ عليها.

(٦) أى يحاصرون ويحبسون فى جبل الطور.

(٧) أى أنهم تبلغ بهم الطاقة إلى حد نفاد مؤنهم وهم محاصرون بيأجوج ومأجوج.

(٨) أى يدعو الله ويرغبون إليه فى إهلاك يأجوج ومأجوج وإنجائهم من بلائهم وشرهم.

(٩) أى فيستجيب الله لدعائهم ويرسل عليهم النغف فى رقابهم وهو دود يكون فى أنوف الإبل والغنم.

(١٠) أى يصبحون موتى ويفرسهم الله فرس السبع فريسته.

(١١) أى ينزلون من جبل الطور. (١٢) أى رائحتهم الكريهة.

(١٣) البخت نوع من الجمال طوال الأعناق. أى يرسل الله طيراً كبيرة طويلة قوية.



ثم يرسل الله مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا وبر [1] فيغل الأرض حتى يتركها كالزَّلَفَة [2] ثم يقال للأرض: انبتى ثمرتك وردى بركتك فيومئذ تأكل العصابة [3] من الرُمَّانة، ويستظلون بقحفها [4] ويبارك فى الرسل [5] حتى إن اللقحة من الإبل لتكفى الفئام من الناس[6] واللقحة من البقر لتكفى القبيلة من الناس واللقحة من الغنم لتكفى الفخذ [7] من الناس.

فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر [8] فعليهم تقوم الساعة [9].

●●●●●

يأجوج ومأجوج هم أكثر أهل النار

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى يوم القيامة: يا آدم فيقول: لبيك وسعديك والخير فى يديك، فيقول: أخرج بعث النار من ذريتك، فيقول: يارب وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ويبقى واحد، فعند ذلك يشيب الصغير ﴿وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾ فشق ذلك على الناس فقالوا: يا رسول الله من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ويبقى واحد؟! من ذلك الواحد؟ فقال ﷺ «أبشروا فإن منكم رجلاً ومن يأجوج ومأجوج ألف ثم قال: والذى نفسى بيده إنى أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة. فكبَّرنا، فقال: أرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة

---

(١) أى لا يحفظ منه بيت تراب أو حجر أو صوف أو شعر.

(٢) أى كالمرآة فى صفائها ونظافتها.

(٣) أى الجماعة.

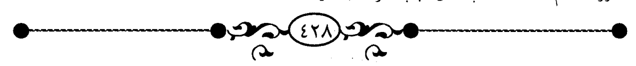
(٤) أى بقشرها لشدة كبرها. (٥) أى اللبن الحليب.

(٦) اللقحة: الناقة الحلوبة. والفئام الجماعة الكثيرة.

(٧) أى الجماعة أقل من القبيلة.

(٨) أى يجامع الرجال علانية النساء بحضرة الناس كما يفعل الحمير.، وهذا نموذج لشيوع الفساد والفواحش حينذاك.

(٩) رواه مسلم (٧٢٣٠) كتاب الفتن، باب ذكر الدجال وصفته



فكبرنا. فقال: أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة. فكبرنا، فقال: ما أنتم فى الناس إلا كالشعرة السوداء فى الثور الأبيض أو كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود» [1].

أين يقع السد الذى بناه ذو القرنين؟

اختلفت الآراء فى تحديد السد الذى بناه ذو القرنين، ومن هذه الآراء: أنه سور الصين العظيم، وهذا الرأى ليس بصواب؛ لأن من المعلوم أن الذى بنى سور الصين العظيم هو إمبراطور الصين شى هنج فى الفترة ما بين (٢٣٣ ـ ٢٢١ ق. م) ثم إن الصفات الخُلقية التى عُرفت عن شى هونج تختلف تماما مع الصفات الخُلُقية لذى القرنين.

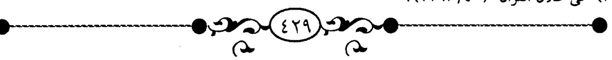
ومن أوضح الأدلة على أن سد ذى القرنين ليس هو سور الصين العظيم. هو أن سور الصين قد بنى من الحجر، أما سد ذى القرنين فقد بنى من الحديد الممسوك بالنحاس المصهور لقوله تعالى: **﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾**، والقطر هو النحاس المذاب ويزعم كثير من اليهود أن ذا القرنين هو قورش ملك الفرس، وأن سر باب الأبواب فى أرمينية الذى بناه قورش لحماية ملكه من قبائل الهون الهمجية هو السد المذكور فى القصة! وهذا القول باطل لما ذكرنا سابقاً أن ذا القرنين ليس هو قورش ملك الفرس، ولأن سد باب الأبواب فى أرمينية قد بنى بالحجارة ،بينما سد ذى القرنين بنى بالحديد كما ذكر القرآن.

ويرى البعض: أن سد ذى القرنين هو سد باب الحديد الذى يوجد فى قرية ترمنذ من أعمال مدينة بلخ الواقعة فى بلاد ما وراء النهر[2]، قال سيد قطب: وقد مر به فى أوائل القرن الخامس عشر الميلادى العالم الألمانى (سليد برجر) وسجله فى كتابه. وكذلك ذكره المؤرخ الأسبانى (كلافيجو) فى رحلته سنة ١٤٠٣ وقال: **إن سد مدينة باب الحديد على الطريق ـ سمرقند والهند.. وقد يكون هو السد الذى بناه ذو القرنين** [3]

والقول بأن سد ذى القرنين هو سد باب الحديد قولٌ باطل، وذلك لأن سد باب الحديد

---

(١) متفق عليه.
(٢) متفق عليه
(٣) «فى ظلال القرآن» (٤٠/ ٢٢٩٣).



قد دمر وانتهى أمره، بينما السد الذى بناه ذو القرنين ما زال موجوداً حتى الآن وسيظل موجوداً حتى قرب قيـام الساعة لقوله تعالى: ﴿ **فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا** ﴾.

وقد جزم الأستاذ مجدى الشهاوى بموقع السد فى مكان آخر فقال:

إن السد موجـود فى مكان جبلى شاهق الارتفـاع شديد التضرس قائـم كجدارين شامخين على جانبيه فى المضيق الجبلى المعروف باسم «داريال»، وهو مرسوم فى جميع الخرائط الإسلامية والروسية فى جمهورية «جـورجيا»، وقد استخدمت فى تشييده قطع الحديد الكبيرة وأفرغ عليه النحاس المنصهـر كما وصفه القرآن تماماً، وهو كتل هائلة من الحديد المخلوط بالنحـاس موجودة فى جبـال القوقاز فى منطقة «داريال» الجـبلية، وهى حقيـقة قائمة لكل من أراد أن يراها. . جبال شـاهقة تمتد من البحر الأسـود حتى بحر قزوين التى تمتد لتصل بين البحرين طوال ١٢٠٠ كيلو مـتر، وهى جبال التوائية حديثة التكوين شـامخة مـتجـانسة التـركيب إلا من كـتل هائلة من الحديد الصـافى المخلوط بالنحاس الصافى فى سد «داريال» [١].

و الذى قاله الأستاذ الشـهاوى لا نستطيع الجزم به، فإن أمراً مـثل هذا يحتاج من الدلائل والمؤيدات أكـثر مما ذكـر، ولا ضـير علينا إذا قلـنا: إن مكان السد على وجـه التحديد غير معلوم لنا.

وقد يقول قـائل: لو كان يأجوج ومأجوج وراء هذا السد الآن لاطلع عليـه لتقدم وسائل المواصـلات من طائرات أسرع من الـصوت وأقمـار صناعيـة لا تترك بقـعة من الأرض دون تصوير وبالرغم من كل هذا لم يثبت للسد وجود.

وجواب على هذا التساؤل نقول: إن الله سبـحانه وتعالى قد أخفى وجودهم رغم هذا التطور العلمى الهائل وليس هذا بمستبعد.

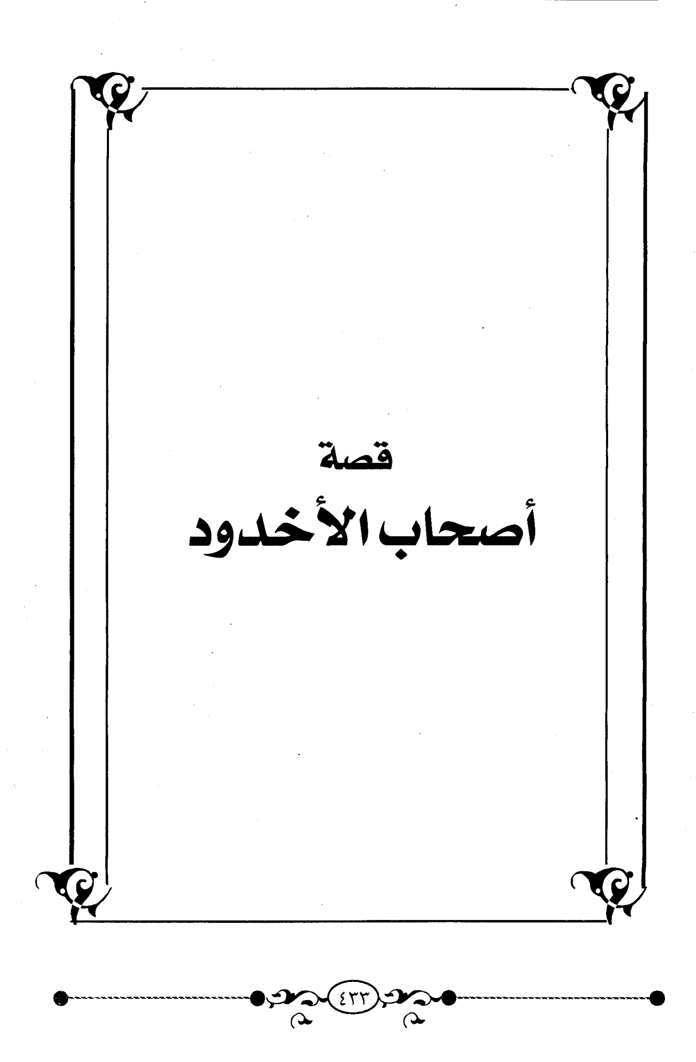
يقول الـعلامة الشنقـيطى مخـاطبا من يستـدلون بهذه الحـجة: «فقـولكم لو كانوا مـوجودين وراء السـد إلى الآن لاطلع عليهم الـناس غيـر صحـيح لإمكان أن يكونوا

(١) «المسيح الدجال ويأجوج ومأجوج» مجدى الشهاوى ص٧٠، ط مكتبة الإيمان بالمنصورة.

موجـودين والله يخفى مكانهم على عامـة الناس حتى يأتى الوقت المحدود لإخـراجهم ومما يؤيد إمكان هذا مـا ذكـره الله تعالى فى سـورة المائدة من أنه جـعل بنى إسـرائيل يتيهون فى الأرض أربعين سنة وكما فى قوله تعالى: **﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾** [المائدة: ٢٦]، وهم فى فراسخ قليلة من الأرض يمشون ليلهم ونهارهم ولم يطلع عليـهم الناس حتى انتـهى أمدُ التـيه، لأنهم لو اجـتمـعوا بالناس لبـينوا لهم الطريق»[١].

●●●●●

(١) أضواء البيان» (/ ٢٠٢ - ٢٠٣).



قصة
أصحاب الأخدود

قصة أصحاب الأخدود

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٦) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩) وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (٢٢)﴾.

فى هذه السورة الكريمة يقسم الله تعالى بالسماء وبروجها، والبروج هى الكواكب والنجوم العظام. شبهت بالبروج، وهى القصور لعلوها. أو البروج منازل عالية فى السماء.

وقال أبو عبيدة ويحيى بن عبد السلام وغيرهما: هى المنازل للكواكب وهى اثنا عشر برجاً لاثنى عشر كوكباً، وهى الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدى، والدلو، والحوت [(١)].

﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ هو: يوم القيامة الذى وعد الله الخلق أن يجمعهم فيه ويضم فيه أولهم وآخرهم وقاصيهم ودانيهم الذى لا يمكن أن يتغير ولا يخلف الله الميعاد، وقد أقسم الله به تنبيهاً على قدره وعظمه أيضا، من حيث كونه يوم الفصل والجزاء، ويوماً تفرد الله بالملك والحكم فيه.

﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾، أى: ومن يشهد فى ذلك اليوم من الأولين والآخرين، والأنس والجن، والملائكة والأنبياء، وما يحضر فيه من العجائب، فالشاهد بمعنى الحاضر من الشهود، ويقال: المشهود يوم الجمعة والشاهد من يحضره من المسلمين

(١) انظر «فتح القدير» (٥/٤٠٧).



للصلاة، وما طلعت شمس ولا غربت على يوم أفضل من يـوم الجمعة ويقال: المشهود يوم عرفـة والشاهد من يحـضره من الحاج، ويقـال الشاهد كل يوم، والمشـهود أهله، فيكون المشهود بمعنى المشهود عليه، والشاهد من الشهادة [1].

والمقسم عليه مـا تضمنه هذا القسم من آيات الله الباهرة وحكمه الظاهرة ورحـمته الواسعة. وقيل: إن المقسم قوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ﴾ وهذا دعاء عليهم بالهلاك، والأخدود الحـفر التى تحفـر فى الأرض، وكان أصحاب الأخـدود هؤلاء قوما كـافرين ولديهم قوم مؤمنون، فراودوهم على الدخـول فى دينهم فامتنع المؤمنون من ذلك فشق الكافرون أخدودا فى الأرض وقذفوا فيها النار وقـعدوا حولها وفتنوا المؤمنين وعرضوهم عليها فمن اسـتجاب لهم أطلقوه، ومن استمر علـى الإيمان قذفوه فى النار، وهذا غاية المحاربة لله ولحزبه المؤمنين، ولهذا لعنـهم الله وأهلكهم وتوعدهم فقال ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ﴾، ثم فسر الأخدود بقوله: ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ وهذا من أعظم ما يكون من التجـبر وقساوة القلب؛ لأنهم جمـعوا بين الكفر بآيات الله ومـعاندتهم ومحاربة أهلـها وتعذيبهم بهـذا العذاب الذى تنفطر منه القلوب وحضورهــم إياهم عند إلقائهم فيها، والحال أنهم مـا نقموا من المؤمنين إلا حالـة يمدحون عليهـا وبها سعـادتهم، وهى أنهم كانوا يؤمنـون بالله العزيز الحميد، أى الذى له العزة التى قهر بها كل شىء وهو حميد فى أقواله وأفعاله وأوصافه ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ خلقاً وعبيداً يتـصرف فيهم بما يشاء، ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ علماً وسمعاً وبصراً، فهـلا خاف هؤلاء المتمردون عليه أن يأخذهم العزيز المقتـدر، أو ما علمـوا كلهم أنهم مماليك لله ليس لأحد على أحـد سلطة من دون إذن المالك، أو خفى عليـهم أن الله محيط بأعـمالهم مجـازيهم عليها، كـلا إن الكافر فى غرور، والجـاهل فى عمى وضـلال عن سواء السبـيل. ثم أوعدهم ووعـدهم وعرض عليهم التوبة فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ أى العذاب الشـديد المحرق. قال الحسن رحـمه الله: انظروا إلى هذا الكرم والجـود، قتلوا أوليـاءه وأهل طاعته وهـو يدعوهم إلى التـوبة، ولما ذكر عـقوبة الظالمين ذكـر ثواب المؤمنين فقـال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بقلوبهم ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾

---

(1) «تنوير الأذهان من تفسير روح البيان» (٤/٥٢١).

بجوارحهم ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ الذى حصل لهم الفوز برضى الله ودار كرامته ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ أى إن عقوبته لأهل الجرائم والذنوب العظام لقوية شديدة، وهو للظالمين بالمرصاد، قال الله تعالى: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾ ، ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ أى هو المتفرد بإبداء الخلق وإعادته فلا يشاركه فى ذلك مشارك ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ الذى يغفر الذنوب جميعها لمن تاب ويعفو عن السيئات لمن استغفره وأناب ﴿الْوَدُودُ﴾ الذى يحبه أحبابه محبة لا يشبهها شىء، فكما أنه لا يشابهه شىء فى صفات الجلال والجمال والمعانى والأفعال، فمحبته فى قلوب خواص خلقه التابعة لذلك لا يشبهها شىء من أنواع المحاب، ولهذا كانت محبته أصل العبودية، وهى المحبة التى تتقدم جميع المحاب وتغلبها، وإن لم يكن غيرها تبعا لها كانت عذابا على أهلها، وهو تعالى الودود الواد لأحبابه كما قال تعالى: ﴿يحبهم ويحبونه﴾ والمودة هى المحبة الصافية. وفى هذا سر لطيف، حيث قرن الودود بالغفور ليدل ذلك على أن أهل الذنوب إذا تابوا إلى الله وأنابوا غفر لهم ذنوبهم وأحبهم فلا يقال: تغفر ذنوبهم ولا يرجع اليهم الود كما قال بعض الظالمين، بل الله أفرح بتوبة عبده حين يتوب من رجل على راحلته عليها طعامه وشرابه وما يصلحه فأضلها فى أرض فلاة مهلكة فأيس منها فاضطجع فى ظل شجرة ينتظر الموت، فبينما هو على تلك الحال إذا راحلته على رأسه فأخذ بخطامها، فالله أعظم فرحا بتوبة العبد من هذا براحلته، وهذا أعظم فرح يقدر، فلله الحمد والثناء وصفو الوداد ما أعظم بره وأكثر خيره وأغزر إحسانه وأوسع امتنانه ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾، أى صاحب العرش العظيم الذى من عظمته أنه وسع السموات والأرض والكرسى، فهى بالنسبة إلى العرش كحلقة ملقاة فى فلاة بالنسبة لسائر الأرض، وخص الله العرش بالذكر لعظمته؛ ولأنه أخص المخلوقات بالقرب منه، وهذا على قراءة الجر يكون المجيد نعتا للعرش، وأما على قراءة الرفع فانه يكون نعتا لله، والمجد سعة الأوصاف وعظمتها ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، أى مهما أراد شيئاً فعله، إذا أراد شيئا قال له كن فيكون، وليس أحد فعالا لما يريد إلا الله، فان المخلوقات ولو أرادت شيئا فإنه لابد لإرادتها من معاون وممانع، والله لا معاون لإرادته ولا ممانع له مما أراد. ثم ذكر من أفعاله الدالة على صدق ما جاءت به رسله فقال﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (17) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ وكيف كذبوا المرسلين فجعلهم من المهلكين ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ أى

لا يزالون مستمرين على التكذيب والعناد لا تنفع فيهم الآيات ولا تجدى لديهم العظات ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾ قد أحاط بهم علما وقدرة كقوله ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ ففيه الوعيد الشديد للكافرين من عقوبة من هم فى قبضته وتحت تدبيره ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ أى وسيع المعانى عظيمها كثير الخير والعلم ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ من التغيير والزيادة والنقص، ومحفوظ من الشياطين، وهو اللوح المحفوظ الذى قد ثبت الله فيه كل شىء، وهذا يدل على جلالة القرآن وجزالته ورفعة قدره عند الله تعالى، والله أعلم(١).

من هم أصحاب الأخدود

ورد ذكر أصحاب الأخدود فى الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه عن صُهَيْب؛ أنَّ رسُول الله ﷺ قال: «**كان ملك فيمن كان قبلكم. وكان له ساحر. فلما كبر قال للملك: إنى قد كبرت. فابعث إلى غُلاماً أُعلمْه السِّحْرَ. فبعث إليه غُلاَماً يُعلِّمُهُ. فكان فى طريقه، إذا سلك، راهب فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه. فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه. فإذا أتى الساحر ضربه. فشكا ذلك إلى الراهب. فقال: إذا خشيت الساحر فقل: حبسنى أهلى. وإذا خشيت أهلك فقل: حبسنى الساحر. فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قدْ حبست الناس. فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الرَّاهب أفضلُ؟ فأخذ حجراً فقال: اللهم إنْ كان أمرُ الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة. حتى يمضى الناسُ. فرماها فقتلها. ومضى الناسُ. فأتى الرَّاهب فأخبره. فقال لهُ الراهب: أى بُنى! أنت اليوم أفضل منى قد بلغ من أمرك ما أرى وأنك ستبتلى فإن ابتليت فلا تدل علىَّ. وكان الْغُلاَمُ يُبْرِىءُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ ويُدَاوى النَّاسَ منْ سَائر الأدْوَاء. فسمع جَليسٌ للملك كان عَمِىَ. فأتاه بهدايا كثيرة. فقال: ما ههنا لكَ أجْمَعُ، إنْ أنتَ شفيتنى. فقال: إنِّى لاَ أَشْفى أَحَداً. إنَّماَ يَشْفِى الله. فإن أنْتَ آمنْتَ بالله دعوتُ الله فشفاك. فآمَنَ بالله. فشفَاهُ الله. فأتى المَلك فجَلَسَ إليْه كما كان يجْلس. فقال لهُ المَلكُ: منْ ردَّ عليك بصرك؟ قال: ربى. قالَ: أولك ربٌّ غَيْرِى؟ قال: ربِّى وربك الله. فأخذه فلم يزل يُعذبه حتى دل على الغُلام. فجىء بالغُلام. فقال لهُ المَلكُ: أىْ بُنى قدْ بلغ منْ سحْرك ما تُبرئْ الأكمه والأبرص وتفعلُ وتفعل. فقال: إنِّى لا أَشفى أحدا. إنما يشفى الله. فأخذه فلم يزل يُعذبه حتى دل على الراهب. فجىء بالراهب. فقيل له: ارجع**

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٨/ ٢٣٠ ـ ٣٢٣).

عن دينك. فأبى. فدعا بالمنشـار. فوضع المنشار فى مفرق رأسه. فشقه حتى وقع شقاه. ثم جيء بجليس الملك فقـيل له: ارجع عن دينك. فأبى. فوضع المشارَ فى مـفرق رأسه. فشقه به حتى وقع شقاه. ثمَّ جيء بالغُلام فقيل لهُ: ارْجع عن دينك. فأبى. فدفعه إلى نفر منْ أصحابه فقـال: اذْهبوا به إلى جبل كذا وكذا. فاصعـدوا به الجبل. فإذا بلغتم ذروته، فإن رجع عنْ دينه، وإلاَّ فاطرحوه. فذهبوا به فصعدوا به الجبل.

فـقال: اللَّهُم! اكـفنيهم بما شـئت. فرجـف بهم الْجبلُ فـسقطوا. وجـاء يمشى إلى الملك. فقال لهُ الْمَلكُ: ما فعل أصحابك؟ قال: كـفانيهم الله. فدفعه إلى نفر منْ أصحابه فقال: اذْهبُوا به فاحَملوه فى قرقُور، فتوسطوا به البحر. فإن رجع عنْ دينه وإلاَّ فاقْذفُوهُ. فذهبوا به. فقَالَ: الـلهُم ! اكْفينهمَ بما شئت. فانْكفأتْ بهمُ السَّفينَـةُ فغرقُوا. وجاء يمشى إلى الملك. فقـال لهُ الْمَلكُ: ما فـعل أصْحابـك؟ قال: كَفَـانيهمَ الله. فقـال للملك: إنك لسْت بقاتلى حتَّى تفعلَ ما آمرك به. قال: وما هو؟

قال: تجمع الناس فى صعيد واحـد. وتصلُبُنى على جذع. ثُم خُذْ سَهْما منْ كنَانتى. ثُم ضع السهم فى كبد القـوس. ثُم قُلْ: باسم الله رب الغُلام. ثُم ارمنى. فإنك إذا فعلت ذلك قـتلتنى. فجـمع النَّاس فى صعـيد واحـد. وصلبه على جـذع. ثُمَّ أخـذَ سَهْمـا منْ كنانته. ثُمَّ وضع السَّهْمَ فى صدغه. فوضَع يده فى صدغه فى موضع السهم. فمات.

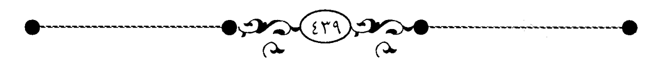
فقال النَّاسُ: آمنَّا برَبِّ الغُلاَم. آمنا برَبِّ الغُلاَم. آمنا برَبِّ الغُلاَم.

فـأتى الْملكُ فـقيل له: أرأيت مـا كنت تحـذرُ؟ قد، والله نـزل بك حذرك. قـد آمن الناس فأمر بالأخدود فى أفواه السكك فخدت وأضرم النيران.

وقال: منْ لمْ يرجع عن دينه فأقـحموه فيها فـفعلوا حتى جاءت امرأة ومعـها صبىٌّ لها. فتقاعست أنْ تقع فيها. فقال لها الغُلاَمُ: يا أُمَّه ! اصْبرى. فإنك على الْحَقِّ» (١).

●●●●●

(١) رواه مسلم (٧٣٦٧) كتاب الزهد والرقائق، باب قصة أصحاب الأخدود والترمذى فى تفسير سورة البروج (٣٣٤٠).



ما يستفاد من قصة أصحاب الأخدود

قال القرطبي: قال علماؤنا: أَعْلَمَ اللهُ عز وجل المؤمنين من هذه الأمة ما كان يلقاه من وحّد قبلهم من الشدائد، يؤنسهم بذلك، وذكر لهم النبى ﷺ قصة الغلام ليصبروا على ما يلقون من الأذى والآلام والمشقات التى كانوا عليها ليتأسوا بمثل هذا الغلام فى صبره وتصلبه فى الحق وتمسكه به، وبذْله نفسه فى إظهار دعوته ودخول الناس فى الدين مع صغر سنه وعظم صبره، وكذلك الراهب صبر على التمسك بالحق حتى نُشر بالمنشار، وكذلك كثير من الناس لما آمنوا بالله تعالى ورسخ الإيمان فى قلوبهم صبروا على الطرح فى النار ولم يرْجعوا فى دينهم.

ولقد امتحن كثير من أصحاب النبى ﷺ بالقتل والصلب والتعذيب الشديد فصبروا[1].



(١) تفسير القرطب(١٠/ ٧٠٨٤) باختصار.



قصة
أصحاب الكهف

قصة أصحاب الكهف

قال الله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا (١٦) وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا (١٧) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (١٨) وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (٢٠) وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا (٢١) سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (٢٤) وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦) وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ [الكهف: ٩ ـ ٢٦].

كان سبب نزول قصة أصحاب الكهف أن قريشا بعثوا إلى اليهود يسألونهم عن أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ ويسألونه عنها ليختبروا ما يجيب به فيها فقالوا: سلوه عن أقوام ذهبوا فى الدهر فلا يدرى ما صنعوا، فأنزل الله تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا**﴾، أى ليسوا بعجب عظيم بالنسبة إلى ما أطلعناك عليه من الأخبار العظيمة والآيات الباهرة والعجائب الغريبة. والكهف: هو الغار فى الجبل وأما الرقيم، فعن ابن عباس أنه قال: لا أدرى ما المراد به. وقيل: هو الكتاب المرقوم فيه أسماؤهم وما جرى لهم كتب من بعدهم اختاره ابن جرير وغيره. وقيل هو اسم الجبل الذى فيه كهفهم.

واعتناء اليهود بأمرهم ومعرفة خبرهم، يدل على أن زمانهم متقدم على ما ذكره بعض المفسرين أنهم كانوا بعد المسيح، وأنهم كانوا نصارى والظاهر من السياق أن قومهم كانوا مشركين يعبدون الأصنام، قال كثير من المفسرين والمؤرخين وغيرهم: كانوا فى زمن ملك يقال له دقيانوس وكانوا من أبناء الأكابر. وقيل من أبناء الملوك واتفق اجتماعهم فى يوم عيد لقومهم فرأوا ما يتعاطاه قومهم من السجود للأصنام والتعظيم للأوثان فنظروا بعين البصيرة وكشف الله عن قلوبهم حجاب الغفلة، وألهمهم رشدهم فعلموا أن قومهم ليسوا على شىء، فخرجوا عن دينهم وانتموا إلى عبادة الله وحده لا شريك له. ويقال: إن كل واحد منهم لما أوقع الله فى نفسه ما هداه إليه من التوحيد انحاز عن الناس واتفق اجتماع هؤلاء الفتية فى مكان واحد كما فى البخارى: «**الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف**» فكل منهم سأل الآخر عن أمره، وعن شأنه، فأخبره ما هو عليه واتفقوا على الانحياز عن قومهم والتبرى منهم والخروج من بين أظهرهم والفرار بدينهم منهم وهو المشروع حال الفتن وظهور الشرور. قال الله تعالى: ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13) وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (14) هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ**﴾ [الكهف: ١٣ ـ ١٥]، أى بدليل ظاهر على ما ذهبوا إليه وصاروا من الأمر عليه ﴿**فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (15) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ**﴾ [الكهف: ١٥ ـ ١٦] أى وإذ

فارقتموهم فى دينهم، وتبرأتم مما يعبدون من دون الله، وذلك لأنهم كانوا يشركون مع الله كما قال الخليل: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٧] وهكذا هؤلاء الفتية قال بعضهم إذ قد فارقتم قومكم فى دينهم، فاعتزلوهم بأبدانكم لتسلموا منهم أن يوصلوا إليكم شراً ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾، أى يسل عليكم ستره وتكونوا تحت حفظه وكنفه ويجعل عاقبة أمركم إلى خير ثم ذكر تعالى صفة الغار الذى آووا إليه وأن بابه موجه إلى نحو الشمال وأعماقه إلى جهة القبلة وذلك أنفع الأماكن أن يكون المكان قبليا وبابه نحو الشمال فقال: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ فأخبر أن الشمس يعنى فى زمن الصيف وأشباهه تشرق أول طلوعها فى الغار فى جانبه الغربى ثم تشرع فى الخروج منه قليلاً وهو ازورارها [(١)] ذات اليمين فترتفع فى جو السماء وتتقلص عن باب الغار ثم إذا تضيفت للغروب تشرع فى الدخول فيه من جهته الشرقية قليلاً قليلاً إلى حين الغروب كما هو المشاهد بمثل هذا المكان والحكمة فى دخول الشمس إليه فى بعض الأحيان أن لا يفسد هواؤه[(٢)] ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ أى بقاؤهم على هذه الصفة دهراً طويلاً من السنين لا يأكلون ولا يشربون ولا تتغذى أجسادهم فى هذه المدة الطويلة من آيات الله وبرهان قدرته العظيمة. ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا (١٧) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ [الكهف: ١٦ ـ ١٨] قال بعضهم: لأن أعينهم مفتوحة لئلا تفسد بطول الغمض ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ قيل فى كل عام يتحولون مرة من جنب إلى جنب ويحتمل أكثر من ذلك فالله أعلم. ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ المراد أن كلبهم، الذى كان معهم وصحبهم حال انفرادهم من قومهم، لزمهم ولم يدخل معهم فى الكهف بل رفض على بابه ووضع يديه على الوصيد [(٣)] وهذا من جملة أدبه ومن جملة ما أكرموا به فإن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب، ولما كانت

---

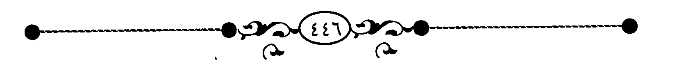
(١) الزور: الميل.

(٢) قال الزجاج: كان إزورار الشمس عن الكهف فعلاً خارقاً للعادة وكرامة عظيمة خص الله بها أصحاب الكهف. قال: ولو كان الأمر عادياً مألوفاً فلم يكن ذلك من آيات الله، علماً أن أخبر الله تعالى: أنهم كانوا فى متسع من الكهف ينالهم فيه برد الريح ونسيم الهواء، فالمعنى أنه بقدرته منع وصول الشمس؛ وهو ذلك التزاور والميل. (انظر القرطبى ـ تفسير الرازى).

(٣) الوصيد: الباب: والمعنى أن الكلب ربض على الباب يحرسهم.

التبعية مؤثرة حتى كان فى كلب هؤلاء صار باقياً معهم ببقائهم؛ لأن من أحب قوماً سعد بهم فإذا كان هذا فى حق كلب فما ظنك بمن تبع أهل الخير وهو أهل للإكرام. وقد ذكر كثير من القصاص والمفسرين لهذا الكلب نبأ وخبراً طويلاً أكثره متلقى من الإسرائيليات وكثير منها كذب ومما لا فائدة فيه كاختلافهم فى اسمه ولونه.

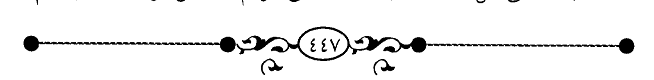
وأما اختلاف العلماء فى محلة هذا الكهف فقال كثيرون هو بأرض أيلة. وقيل: بأرض نينوى. وقيل: بالبلقاء. وقيل: ببلاد الروم وهو أشبه. والله أعلم. ولما ذكر الله تعالى ما هو الأنفع من خبرهم والأهم من أمرهم ووصف حالهم حتى كأن السامع راء والمخبر مشاهد لصفة كهفهم وكيفيتهم فى ذلك الكهف وتقلبهم من جنب إلى جنب وأن كلبهم باسط ذراعيه بالوصيد. قال: ﴿**لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا**﴾ أى لما عليهم من المهابة والجلالة فى أمرهم الذى صاروا إليه ولعل الخطاب ههنا لجنس الإنسان المخاطب لا بخصوصية الرسول ﷺ كقوله: ﴿**فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ**﴾ [التين:٧]، أى أيها الإنسان وذلك لأن طبيعة البشرية تفر من رؤية الأشياء المهيبة غالباً ولهذا قال: ﴿**لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا**﴾ ،ودل على أن الخبر ليس كالمعاينة كما جاء فى الحديث، لأن الخبر قد حصل ولم يحصل الفرار ولا الرعب. ثم ذكر تعالى أنه بعثهم من رقدتهم بعد نومهم بثلاثمائة سنة وتسع سنين فلما استيقظوا قال بعضهم لبعض: ﴿**كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ**﴾ [الكهف:١٩]، أى بدراهمكم هذه يعنى التى معهم إلى المدينة ﴿**فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا**﴾ أى أطيب ﴿**فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ**﴾ أى بطعام تأكلونه وهذا من زهدهم وورعهم ﴿**وَلْيَتَلَطَّفْ**﴾، أى فى دخوله إليها ﴿**وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا**﴾، أى إن عدتم فى ملتهم بعد إذ أنقذكم الله منها وهذا كله لظنهم أنهم رقدوا يوماً أو بعض يوم أو أكثر من ذلك ولم يحسبوا أنهم قد رقدوا أزيد من ثلثمائة سنة وقد تبدلت الدول أطواراً عديدة وتغيرت البلاد ومن عليها وذهب أولئك القرن الذين كانوا فيهم وجاء غيرهم، وذهبوا وجاء غيرهم ولهذا لما خرج أحدهم وجاء إلى المدينة متنكراً لئلا يعرفه أحد من قومه فيما يحسبه تنكرت له البلاد واستنكره من يراه من أهلها واستغربوا شكله وصفته ودراهمه، فيقال إنهم حملوه إلى متوليهم، وخافوا من أمره أن يكون جاسوساً أو تكون له صولة يخشون من مضرتها، فيقال: إنه هرب منهم، ويقال بل أخبرهم



خبره ومن معه وما كان من أمرهم فانطلقوا معه ليريهم مكانهم فلما قربوا من الكهف دخل إلى إخوانه فأخبرهم حقيقة أمرهم فانطلقوا معه ليريهم مكانهم فلما قربوا من الكهف دخل إلى إخوانه فأخبرهم حقيقة أمرهم ومقدار ما رقدوا فعلموا أن هذا أمر قدره الله فيقال إنهم استمروا راقدين ويقال بل ماتوا بعد ذلك.

وأما أهل البلدة فيقال: إنهم لم يهتدوا إلى موضعهم من الغار وعمى الله عليهم أمرهم، ويقال: لم يستطيعوا دخوله جبناً ، ويقال: مهابة لهم.

واختلفوا فى أمرهم فقائلون: يقولون: ﴿**ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا**﴾ أى سدوا عليهم باب الكهف لئلا يخرجوا أو لئلا يصل إليهم ما يؤذيهم وآخرون وهم الغالبون على أمرهم قالوا: ﴿**لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً**﴾، أى معبداً يكون مباركاً لمجاورته هؤلاء الصالحين. وهذا كان شائعاً فيمن كان قبلنا، فأما فى شرعنا فقد ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» يحذر ما فعلوا، وأما قوله : ﴿**كَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا**﴾ [الكهف: ٢١] فمعنى أعثرنا أطلعنا على أمرهم الناس قال كثير من المفسرين: ليعلم الناس أن المعاد حق، وأن الساعة لا ريب فيها. إذا علموا أن هؤلاء القوم رقدوا أزيد من ثلثمائة سنة قاموا كما كانوا من غير تغير منهم، فإن من أبقاهم كما هم، قادر على إعادة الأبدان وإن أكلتها الديدان وعلى إحياء الأموات وإن صارت أجسامهم وعظامهم رفاتاً وهذا مما لا يشك فيه المؤمنون ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾

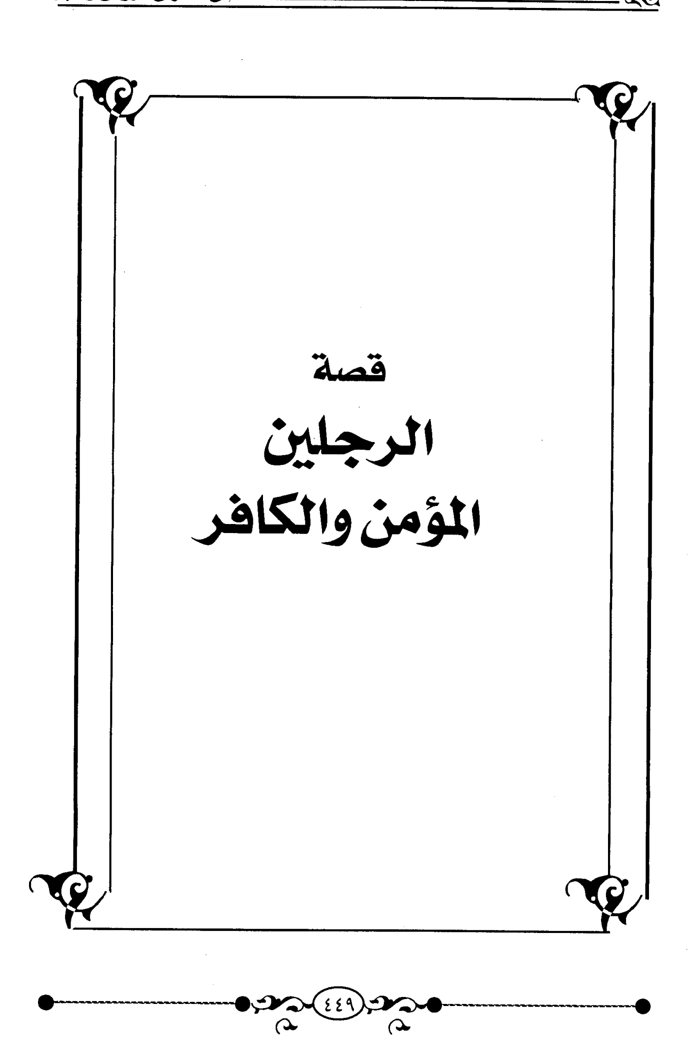


[يس: ٨٢]، هذا ويحتمل عود الضمير فى قوله: ليعلموا إلى أصحاب الكهف إذ علمهم بذلك من أنفسهم أبلغ من علم غيرهم، ويحتمل أن يعود على الجميع والله أعلم. ثم قال تعالى: ﴿**سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ**﴾، فذكر اختلاف الناس فى كميتهم فحكى ثلاثة أقوال وضعف الأولين، وقرر الثالث فدل على أنه الحق إذ لو قيل: غير ذلك لحكاه ولو لم يكن هذا الثالث هو الصحيح لوهّاه فدل على ما قلناه، ولما كان النزاع فى مثل هذا لا طائل تحته ولا جدوى عنده أرشد نبيه ﷺ إلى الأدب فى مثل هذا الحال إذا اختلف الناس فيه أن يقول: الله أعلم. ولهذا قال: ﴿**قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم**﴾ وقوله: ﴿**مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ**﴾، أى من الناس ﴿**فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا**﴾، أى سهلاً ولا تتكلف أعمال الجدال فى مثل هذا الحال ولا تستفت فى أمرهم أحداً من الرجال ولهذا أبهم

تعالى عدتهم فى أول القصة فقال: ﴿إنهم فتية آمنوا بربهم﴾ ولو كان فى تعين عدتهم كبير فائدة لذكرها عالم الغيب والشهادة وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ٢٣ ـ ٢٤] أدب عظيم أرشده الله تعالى إليه وحث خلقه عليه وهو ما إذا قال أحدهم إنى سأفعل فى المستقبل كذا، فيشرع له أن يقول: إن شاء الله ليكون ذلك تحقيقاً لعزمه؛ لأن العبد لا يعلم ما فى غد ولا يدرى أهذا الذى عزم عليه مقدر أم لا، وليس هذا الاستثناء تعليقا وإنما هو الحقيقى ولهذا قال ابن عباس: يصح إلى سنة ولكن قد يكون فى بعض المحال لهذا ولهذا كما تقدم فى قصة سليمان عليه السلام حين قال: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تلد كل واحدة منهن غلاماً يقاتل فى سبيل الله فقيل له: قال: إن شاء الله، فلم يقل، فطاف فلم تلد منهن إلاَّ امرأة واحدة نصف إنسان قال رسول الله ﷺ: « **والذى نفسى بيده لو قال: إن شاء الله لم يحنث وكان دركاً لحاجته** »[1]. وقوله: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾؛ وذلك لأن النسيان قد يكون من الشيطان، فذكر الله يطرده عن القلب فيذكر ما كان قد نسيه، وقوله: ﴿وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ أى إذا اشتبه أمر، وأشكل حال، والتبس أقوال الناس فى شىء فارغب إلى الله ييسره لك ويسهله عليك ثم قال: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ لما كان فى الأخبار بطول مدة لبثهم فائدة عظيمة ذكرها تعالى، وهذه التسع المزيدة بالقمرية وهى لتكميل ثلثمائة شمسية فإن كل مائة قمرية تنقص عن الشمسية ثلاث سنين ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾، أى إذا سئلت عن مثل هذا وليس عندك فى ذلك نقل فرد الأمر فى ذلك إلى الله عز وجل ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أى هو العالم بالغيب فلا يطلع عليه إلا من شاء من خلقه ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾، يعنى أنه يضع الأشياء فى محالها لعلمه التام بخلقه وبما يستحقونه ثم قال: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾، أى ربك المتفرد بالملك والمتصرف وحده لا شريك له.

●●●●●

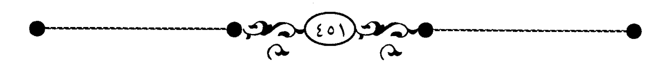
(١) سبق تخريجه..



قصة
الرجلين
المؤمن والكافر

قصة الرجلين المؤمن والكافر

قال الله تعالى فى سورة الكهف بعد قصة أهل الكهف: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (٣٧) لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: ٣٢ ـ ٤٤]، قال بعض الناس: هذا مثل مضروب ولا يلزم أن يكون واقعاً والجمهور أنه أمر قد وقع وقوله: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً﴾ يعنى لكفار قريش فى عدم اجتماعهم بالضعفاء والفقراء وازدرائهم بهم وافتخارهم عليهم، والمشهور: أن هذين كانا رجلين مصطحبين وكان أحدهما مؤمناً والآخر كافراً ويقال: إنه كان لكل منهما مال فأنفق المؤمن ماله فى طاعة الله ومرضاته ابتغاء وجهه، وأما الكافر فإنه اتخذ له بساتين وهما الجنتان المذكورتان فى الآية على الصفة والنعت المذكور، فيهما أعناب ونخيل تحف تلك الأعناب والزروع فى ذلك والأنهار سارحة ههنا وههنا للسقى والتنزه، وقد استوثقت فيهما الثمار، واضطربت فيهما الأنهار، وابتهجت الزروع والثمار وافتخر مالكهما على صاحبه المؤمن الفقير قائلا له: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أى أوسع جناناً. ومراده: أنه خير منه ومعناه: ماذا أغنى عنك إنفاقك ما كنت تملكه فى الوجه الذى صرفته فيه كان الأولى بك أن تفعل كما فعلت لتكون مثلى فافتخر على صاحبه: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾، أى وهو على غير طريقة مرضية قال: ﴿مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ وذلك لما رأى من اتساع أرضها، وكثرة مائها ، وحسن



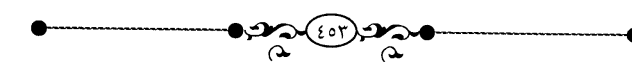
نبات أشجارها ولو قد بادت كل واحدة من هذه الأشجار لاستخلف مكانها أحسن منها وزروعها دارة لكثرة مياهها. ثم قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ فوثق بزهرة الحياة الدنيا الفانية وكذب بوجود الآخرة الباقية الدائمة. ثم قال: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ أى ولئن كان ثم آخرة ومعاد فلأجدن هناك خيراً من هذا؛ وذلك لأنه اغتر بدنياه، واعتقد أن الله لم يعطه ذلك فيها إلا لحبه له وحظوته عنده ولما اغتر هذا الجاهل بما خول به فى الدنيا فجحد الآخرة وادعى أنها إن وجدت ليجدن عند ربه خيرا مما هو فيه، وسمعه صاحبه يقول ذلك قال له: ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ ،أى يجادله ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ [الكهف:٣٧]، أى أجحدت المعاد وأنت تعلم أن الله خلقك من تراب ثم من نطفة ثم صورك أطوارا حتى صرت رجلاً سويا سميعاً بصيراً تعلم وتبطش وتفهم فكيف أنكرت المعاد والله قادر على البداءة ﴿لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ أى لكن أنا أقول بخلاف ما قلت وأعتقد خلاف معتقدك ﴿هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾، أى لا أعبد سواه. وأعتقد أنه يبعث الأجساد بعد فنائها، ويعيد الأموات، ويجمع العظام الرفات، وأعلم أن الله لا شريك له فى خلقه ولا فى ملكه ولا إله غيره، ثم أرشده إلى ما كان الأولى به أن يسلكه عند دخول جنته فقال: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف:٣٩] ثم قال المؤمن للكافر: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ ،أى فى الدار الآخرة ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ قال ابن عباس والضحاك وقتادة أى عذاباً من السماء، والظاهر أنه المطر المزعج الباهر الذى يقتلع زروعها وأشجارها ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ وهو التراب الأملس الذى لا نبات فيه ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا﴾ وهو ضد المعين السارح ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ يعنى فلا تقدر على استرجاعه قال الله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾، أى جاءه أمر أحاط بجميع حواصله وخرب جنته ودمرها ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [الكهف:٤٢]، أى خربت بالكلية فلا عودة لها وذلك ضد ما كان عليه أمّل حيث قال: ﴿مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا﴾ وندم على ما كان سلف منه من القول الذى كفر بسببه بالله العظيم فهو يقول: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ [الكهف:٤٣]



أى لم يكن أحد يتدارك ما فرط من أمره وما كان له قدرة فى نفسه على شىء من ذلك كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠] وقوله: ﴿الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ ومنهم من يبتدىء بقوله: ﴿هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾، وهو حسن أيضاً لقوله: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦]، فالحكم الذى لا يرد ولا يمانع ولا يغالب فى تلك الحال، وفى كل حال لله الحق، ومنهم من رفع الحق وجعله صفة للولاية وهما متلازمتان وقوله: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: ٤٤] أى معاملته خير لصاحبها ثواباً وهو الجزاء وخير عقبا وهو العاقبة فى الدنيا والآخرة. وهذه القصة تضمنت أنه لا ينبغى لأحد أن يركن إلى الحياة الدنيا ولا يغتر بها ولايثق بها بل يجعل طاعة الله والتوكل عليه فى كل حال نصب عينيه. وليكن بما فى يد الله أوثق منه بما فى يديه. وفيها: أن من قدم شيئاً على طاعة الله والإنفاق فى سبيله عذب به، وربما سلب منه معاملة له بنقيض قصده. وفيها: أن الواجب قبول نصيحة الأخ المشفق، وأن مخالفته وبال ودمار على رد النصيحة الصحيحة. وفيها: أن الندامة لا تنفع إذا حان ونفذ الأمر الحتم والله المستعان وعليه التكلان.

●●●●●



قصة أصحاب الجنة

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ١٧ ـ ٣٣]، وهذا مثل ضربه الله لكفار قريش فيما أنعم به عليهم من إرسال الرسول العظيم الكريم اليهم فقابلوه بالتكذيب والمخالفة كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ [ابراهيم ٢٨ ـ ٢٩]، قال ابن عباس: هم كفار قريش فضرب تعالى لهم مثلاً بأصحاب الجنة المشتملة على أنواع الزروع والثمار التى قد انتهت واستحقت أن تجد وهو الصرام[1] ولهذا قال: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا﴾ فيما بينهم﴿ لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ أى ليجدنها وهو الاستغلال ﴿مُصْبِحِينَ﴾ أى وقت الصبح حيث لا يراهم فقير ولا محتاج فيعطوه شيئاً فخلفوا على ذلك، ولم يستثنوا فى يمينهم، فعجزهم الله وسلط عليها الآفة التى أحرقتها ولم تبق شيئاً ينتفع به ولهذا قال: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾، أى كالليل الأسود المنصرم من الضياء وهذه معاملة بنقيض المقصود ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾، أى فاستيقظوا من نومهم فنادى بعضهم بعضا قائلين: ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾ أى باكروا إلى بستانكم فاصرموه قبل أن يرتفع النهار ويكثر السؤال ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾، أى يتحدثون فيما بينهم خفية قائلين: ﴿لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ أى اتفقوا على هذا واشتوروا عليه ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ أى انطلقوا مجدين فى ذلك قادرين عليه، مضمرين على هذه النية الفاسدة. وقال عكرمة والشعبى: ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ﴾، أى غضب على المساكين، وأبعد السدى فى قوله أن اسم

(١) الصرام: يقال قد صرم العذق عن النخلة، وأصرم النخل إذا حان وقت صرامه، أى قطعه وقطاف ثمره.



حرثهم حرد ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾؛ أى وصلوا إليها، ونظروا ما حل بهـا، وما قد صارت إليه من الصفة المنكرة بعد تلك النضرة، والحسن والبهـجة فانقلبت بسبب النية الفاسدة فعند ذلك ﴿قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ أى قد نهينا عـنها، وسلكنا غير طريقـها ثم قالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾، أى بل عوقبنا بسبب سوء قصـدنا وحرمنا بركة حرثنا ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ هو أعدلهم وخيرهم ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ﴾ قيل: يسثنون، وقيل: تقولون: خيراً بدل ما قلتم من الشر ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ ، فندموا حـيث لا ينفع الندم، واعـترفوا بالذنـب بعد العقوبة، وذلك حيث لا ينجع وقد قيل: إن هؤلاء كانوا أخوة وقد ورثوا هذه الجنة من أبيهم، وكان يتصدق منهـا كثيراً، فلما صار أمرها إليهم اسـتهجنوا أمر أبيهم، وأرادوا استغـلالها من غير أن يعطوا الفقـراء شيئاً، فعـاقبهم الله أشد العقـوبة؛ ولهذا أمر الله تعالى بالصدقة من الثمار، وحث على ذلك يوم الجداد كما قال تعالى: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١] ثم قيل كـانوا من أهل اليمن من قرية يقال لها ضروان [١]. وقيل من أهل الحبشة والله أعلم قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ﴾ أى هكذا نعذب من خالف أمـرنا ولم يعطف على المحاويج من خلقنا ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾، أى أعظم وأحكم من عذاب الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٣٣].

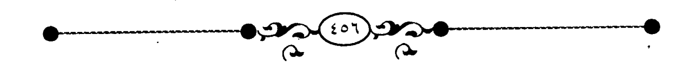
●●●●●



(١) ضروان من أرض اليمن على فرسخ من صنعاء.

قصة أصحاب أيلة الذين اعتدوا فى سبتهم

قال الله تعالى فى سورة الأعراف: ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦٣ ـ ١٦٦] وقال تعالى فى سورة البقرة: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٥ ـ ٦٦] وقال تعالى فى سورة النساء: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾ [النساء: ٤٧]. قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والسدى وغيرهم هم أهل إيلة. زاد ابن عباس بين مدين والطور. قالوا: وكانوا متمسكين بدين التوراة فى تحريم السبت فى ذلك الزمان، فكانت الحيتان قد ألفت منهم السكينة فى مثل هذا اليوم، وذلك أنه كان يحرم عليهم الاصطياد فيه وكذلك جمع الصنائع، والتجارات، والمكاسب، فكانت الحيتان فى مثل يوم السبت يكثر غشيانها لمحلتهم من البحر، فتأتى من ههنا وههنا ظاهرة آمنة مسترسلة، فلا يهيجونها ولا يذعرونها﴿وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ ﴾؛ وذلك لأنهم كانوا يصطادونها فيما عدا السبت قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾، أى نختبرهم بكثرة الحيتان فى يوم السبت ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ،أى بسبب فسقهم المتقدم فلما رأوا ذلك احتالوا على اصطيادها فى يوم السبت بأن نصبوا الحبال والشباك والشصوص وحفروا الحفر التى يجرى معها الماء إلى مصانع قد أعدوها إذا دخلها السمك لا يستطيع أن يخرج منها ففعلوا ذلك فى يوم الجمعة، فإذا جاءت الحيتان مسترسلة يوم السبت علقت بهذه المصايد، فإذا خرج سبتهم أخذوها فغضب الله عليهم ولعنهم لما احتالوا على خلاف أمره، وانتهكوا محارمه بالحيل التى هى ظاهرة للناظر، وهى فى الباطن مخالفة محضة فلما فعل ذلك طائفة منهم افترق الذين لم يفعلوا فرقتين. فرقة أنكروا عليهم صنيعهم هذا واحتيالهم على مخالفة الله وشرعه فى ذلك الزمان. وفرقة أخرى لم يفعلوا ولم ينهوا بل أنكروا على



على الذين نهوا وقالوا: ﴿لِمَ تعظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ يقولون: ما الفائدة فى نهيكم هؤلاء وقد استحقوا العقوبة لا محالة؟ فأجابتهم الطائفة المنكرة بأن قالوا: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أى فيما أمرنا به من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فنقوم به خوفًا من عذابه ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾أى لعل هؤلاء يتركون ما هم عليه من هذا الصنيع فيقيهم الله عذابه ويعفو عنهم إذا هم رجعوا واستمعوا. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أى لم يلتفتوا إلى ما نهاهم عن هذا الصنيع الشنيع الفظيع﴿ أنجينا الذين ينهون عن السوء﴾وهم الفرقة الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر ﴿أَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهم المرتكبون الفاحشة ﴿ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ وهو الشديد المؤلم الموجع ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، ثم فسر العذاب الذى أصابهم بقوله: ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عمَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[الأعراف: ١٦٦].

والمقصود هنا أن الله أخبر أنه أهلك الظالمين ونجى المؤمنين وسكت عن الساكتين.

وقد اختلف فيهم العلماء على قولين: فقيل: إنهم من الناجين. وقيل: إنهم من الهالكين، والصحيح: الأول عند المحققين وهو الذى رجع إليه ابن عباس إمام المفسرين وذلك عن مناظرة عكرمة فكساه من أجل ذلك حلة سنية تكرمة. قلت: وإنما لم يذكروا مع الناجين لأنهم وإن كرهوا ببواطنهم تلك الفاحشة، إلاَّ أنهم كان ينبغى لهم أن يحملوا ظواهرهم بالعمل المأمور به من الإنكار القولى الذى هو أوسط المراتب الثلاث: التى أعلاها: الاذكار باليد ذات البنان، وبعدها: الإنكار القولى باللسان، وثالثها: الإنكار بالجنان. فلما لم يذكروا نجوا مع الناجين إذا لم يفعلوا الفاحشة بل أنكروها[1].

تم الكتاب
والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

(١) «البداية والنهاية» (٢/ ١٣٣ ـ ١٤٥) باختصار.



الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة